

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد المعتزلي

الجزء السادس



تتمة الخطب و الأوامر

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على خير خلقه محمد و آله الطاهرين



66 - و من كلام له ع في معنى الأنصار

قَالُوا : لَمَّا انْتَهَتْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ع أَنْبَاءُ السَّقِيْفَةِ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ص قَالَ ع مَا قَالَتْ الْأَنْصَارُ قَالُوا قَالَتْ مِنَّا أَمِيرٌ وَ مِنْكُمْ أَمِيرٌ قَالَ ع فَهَلَّا اِحْتَجَّجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ص وَصَّى بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ وَ يُتَجَاوَرَ عَنْ مُسِيئِهِمْ قَالُوا وَ مَا فِي هَذَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ ع لَوْ كَانَ الْإِمَامَةُ [الْإِمَارَةُ] فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ ثُمَّ قَالَ ع فَمَاذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ قَالُوا اِحْتَجَّتْ بِأَنَّهَا شَجَرَةُ الرَّسُولِ ص فَقَالَ ع

[4]

اِحْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ وَ أَضَاعُوا الثَّمَرَ قَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا تَقْدُمُ طَرَفًا مِنْ أَخْبَارِ السَّقِيْفَةِ فَأَمَّا هَذَا الْخَبْرُ الْوَاردُ فِي الْوَصِيَّةِ بِالْأَنْصَارِ فَهُوَ خَبْرٌ صَحِيحٌ أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبَخَارِيُّ وَ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ الْقَشِيرِيُّ فِي مَسْنَدَيْهِمَا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ مَرَّ أَبُو بَكْرٍ وَ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا بِمَجْلِسٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي مَرَضِ رَسُولِ اللَّهِ ص وَ هُمْ يَبْكُونَ فَقَالَا مَا يَبْكِيكُمْ قَالُوا ذَكَرْنَا مُحَاسِنَ رَسُولِ اللَّهِ ص فَدَخَلَا عَلَى النَّبِيِّ ص وَ أَخْبَرَاهُ بِذَلِكَ فَخَرَجَ ص وَ قَدْ عَصَبَ عَلَى رَأْسِهِ حَاشِيَةً بَرَدَهُ فَصَعِدَ الْمَنْبِرَ وَ لَمْ يَصْعُدْ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَحَمَدَ اللَّهُ وَ أَتَى عَلَيْهِ

ثُمَّ قَالَ أَوْصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَ عَيْبَتِي وَ قَدْ قَضُوا الَّذِي عَلَيْهِمْ وَ بَقِيَ الَّذِي لَهُمْ فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَ تَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ . فَأَمَّا كَيْفِيَّةُ الْاِحْتِجَاجِ عَلَى الْأَنْصَارِ فَقَدْ ذَكَرَهَا عَلِيٌّ ع وَ هِيَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ ص مِمَّنْ يَجْعَلُ الْإِمَامَةَ فِيهِمْ لِأَوْصَى إِلَيْهِمْ وَ لَمْ يَوْصَ بِهِمْ . وَ إِلَى هَذَا نَظَرَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ وَ هُوَ الْمَسْمُومُ بِالْأَشْدُقِ فَإِنَّ أَبَاهُ لَمَّا مَاتَ خَلْفَهُ غُلَامًا فَدَخَلَ إِلَى مَعَاوِيَةَ فَقَالَ إِلَى مَنْ أَوْصَى بِكَ أَبُوكَ فَقَالَ إِنَّ أَبِي أَوْصَى إِلَيَّ وَ لَمْ يَوْصَ بِي فَاسْتَحْسَنَ مَعَاوِيَةَ مِنْهُ ذَلِكَ فَقَالَ إِنَّ هَذَا الْغُلَامَ لِأَشْدُقَ فَسَمِيَ الْأَشْدُقَ . فَأَمَّا قَوْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ اِحْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ وَ أَضَاعُوا الثَّمَرَ فَكَلَامٌ قَدْ تَكَرَّرَ مِنْهُ

[5]

ع أمثاله

نحو قوله إذا احتج عليهم المهاجرون بالقرب من رسول الله ص كانت الحجة لنا على المهاجرين بذلك قائمة فإن فلجت حجتهم كانت لنا دونهم و إلا فالأنصار على دعوتهم . و نحو هذا المعنى قول العباس لأبي بكر و أما قولك نحن شجرة رسول الله ص فإنكم جيرانها و نحن أغصانها

يوم السقيفة

و نحن نذكر خبر السقيفة روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب السقيفة قال أخبرني أحمد بن إسحاق قال حدثنا أحمد بن سيار قال حدثنا سعيد بن كثير بن عفير الأنصاري أن النبي ص لما قبض اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فقالوا إن رسول الله ص قد قبض فقال سعد بن عباد لابنه قيس أو لبعض بنيه إني لا أستطيع أن أسمع الناس كلامي لمرضي و لكن تلق مني قولي فأسمعهم فكان سعد يتكلم و يستمع ابنه و يرفع به صوته ليسمع قومه فكان من قوله بعد حمد الله و الثناء عليه أن قال إن لكم سابقة إلى الدين و فضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب أن رسول الله ص لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن و خلع الأوثان فما آمن به من قومه إلا قليل و الله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله

[6]

و لا يعزوا دينه و لا يدفعوا عنه عداه حتى أراد الله بكم خير الفضيلة و ساق إليكم الكرامة و خصكم بدينه و رزقكم الإيمان به و برسوله و الإعزاز لدينه و الجهاد لأعدائه فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم و أثقله على عدوه من غيركم حتى استقاموا لأمر الله طوعا و كرها و أعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا حتى أنجز الله لنبيكم الوعد و دانته لأسيافكم العرب ثم توفاه الله تعالى و هو عنكم راض و بكم قدير عين فشدوا يديكم بهذا الأمر فإنكم أحق الناس و أولاهم به . فأجابوا جميعا أن وفقت في الرأي و أصبت في القول و لن نعدو ما أمرت نوليك هذا الأمر فأنت لنا مقنع و لصالح المؤمنين رضا . ثم إنهم ترادوا الكلام بينهم فقالوا إن أبت مهاجرة قريش فقالوا نحن المهاجرون و أصحاب رسول الله ص الأولون و نحن عشيرته و أولياؤه فعلام تنازعونا هذا الأمر من بعده فقالت طانفة منهم إذا نقول منا أمير و منكم أمير لن نرضى بدون هذا منهم أبدا لنا في الإيواء و النصر ما لهم في الهجرة و لنا في كتاب الله ما لهم فليسوا يعدون شيئا إلا و نعد مثله و ليس من رأينا الاستئثار عليهم فمننا أمير و منهم أمير . فقال سعد بن عباد هذا أول الوهن . و أتى الخبر عمر فأتى منزل رسول الله ص فوجد أبا بكر في الدار و عليا في جهاز رسول الله ص و كان الذي أتاه بالخبر معن بن عدي فأخذ بيد عمر و قال قم فقال عمر إني عنك مشغول فقال إنه لا بد من قيام فقام معه فقال له إن هذا الحي من الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة معهم سعد بن عباد يدورون حوله و يقولون أنت المرجى و نجلك المرجى و ثم أناس من

[7]

أشرفهم و قد خشيت الفتنة فانظر يا عمر ما ذا ترى و اذكر لإخوتك من المهاجرين و اختاروا لأنفسكم فإني انظر إلى باب فتنة قد فتح الساعة إلا أن يغلقه الله ففرع عمر أشد الفرع حتى أتى أبا بكر فأخذ بيده فقال قم فقال أبو بكر إني عنك مشغول فقال عمر لا بد من قيام و سنرجع إن شاء الله . فقام أبو بكر مع عمر فحدثه الحديث ففرع أبو بكر أشد الفرع و خرجا مسرعين إلى سقيفة بني ساعدة و فيها رجال من أشراف الأنصار و معهم سعد بن عباد و هو مريض بين أظهرهم فأراد عمر أن يتكلم و يمهد لأبي بكر و قال خشيت أن يقصر أبو بكر عن بعض الكلام فلما نبس عمر كفه أبو بكر و قال على رسلك فتلقت الكلام ثم تكلم بعد كلامي بما بدا لك فتشهد أبو بكر ثم قال . إن الله جل ثناؤه بعث محمدا بالهدى و دين الحق فدعا إلى الإسلام فأخذ الله بقلوبنا و نواصينا إلى ما دعانا إليه و كنا معاشر المسلمين المهاجرين أول الناس إسلاما

و الناس لنا في ذلك تبع و نحن عشيرة رسول الله ص و أوسط العرب أنسابا ليس من قبائل العرب إلا و لقريش فيها ولادة و أنتم أنصار الله و أنتم نصرتم رسول الله ص ثم أنتم وزراء رسول الله ص و إخواننا في كتاب الله و شركاؤنا في الدين و فيما كنا فيه من خير فأنتم أحب الناس إلينا و أكرمهم علينا و أحق الناس بالرضا بقضاء الله و التسليم لما ساق الله إلى إخوانكم من المهاجرين و أحق الناس ألا تحسدوهم فأنتم المؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة و أحق الناس ألا يكون انتفاض هذا الدين و اختلاطه على أيديكم و أنا أدعوكم إلى أبي عبيدة و عمر فكلاهما قد رضيت لهذا الأمر و كلاهما أراه له أهلا .

[8]

فقال عمر و أبو عبيدة ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك أنت صاحب الغار ثاني اثنين و أمرك رسول الله بالصلاة فأنتم أحق الناس بهذا الأمر . فقال الأنصار و الله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم و لا أحد أحب إلينا و لا أرضى عندنا منكم و لكننا نشفق فيما بعد هذا اليوم و نحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منا و لا منكم فلو جعلتم اليوم رجلا منكم بايعنا و رضينا على أنه إذا هلك اخترنا واحدا من الأنصار فإذا هلك كان آخر من المهاجرين أبدا ما بقيت هذه الأمة كان ذلك أجدر أن نعدل في أمة محمد ص فيشفق الأنصاري أن يزيغ فيقبض عليه القرشي و يشفق القرشي أن يزيغ فيقبض عليه الأنصاري . فقام أبو بكر فقال إن رسول الله ص لما بعث عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخالفوه و شاقوه و خص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه و الإيمان به و المواساة له و الصبر معه على شدة أذى قومه و لم يستوحشوا لكثرة عدوهم فهم أول من عبد الله في الأرض و هم أول من آمن برسول الله و هم أولياؤه و عترته و أحق الناس بالأمر بعده لا ينازعهم فيه إلا ظالم و ليس أحد بعد المهاجرين فضلا و قدما في الإسلام مثلكم فنحن الأمراء و أنتم الوزراء لا نمتاز دونكم بمشورة و لا نقضي دونكم الأمور . فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال يا معشر الأنصار املكوا عليكم أيديكم إنما الناس في فينكم و ظلكم و لن يجترئ مجترئ على خلافكم و لا يصدر الناس إلا عن أمركم أنتم أهل الإيواء و النصر و إليكم كانت الهجرة و أنتم أصحاب الدار و الإيمان و الله ما عبد الله علانية إلا عندكم و في بلادكم

[9]

و لا جمعت الصلاة إلا في مساجدكم و لا عرف الإيمان إلا من أسيافكم فاملكوا عليكم أمركم فإن أبي هؤلاء فمن أمير و منهم أمير . فقال عمر هيهات لا يجتمع سيفان في غمد إن العرب لا ترضى أن تؤمركم و نبيها من غيركم و ليس تمتنع العرب أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم و أولو الأمر منهم لنا بذلك الحجة الظاهرة على من خالفنا و السلطان المبين على من نازعنا من ذا يخاصمنا في سلطان محمد و ميراثه و نحن أولياؤه و عشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة . فقام الحباب و قال يا معشر الأنصار لا تسمعوا مقالة هذا و أصحابه فيذهبوا بنصيبكم من الأمر فإن أبوا عليكم ما أعطيتوهم فاجلوهم عن بلادكم و تولوا هذا الأمر عليهم فأنتم أولى الناس بهذا الأمر إنه دان لهذا الأمر بأسيافكم من لم يكن يدين له أنا جذيلها المحكك و عذيقها المرجب إن شئتم لنعيدنها جذعة و الله لا يرد أحد علي ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف . قال فلما رأى بشير بن سعد الخزرجي ما اجتمعت عليه الأنصار من تأمير سعد بن عباد و كان حاسدا له و كان من سادة الخزرج قام فقال أيها الأنصار إنا و إن كنا ذوي سابقة فإننا لم نرد بجهادنا و إسلامنا إلا رضا ربنا و طاعة نبينا و لا ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس و لا نبتغي به عوضا

[10]

من الدنيا إن محمدا ص رجل من قريش و قومه أحق بميراث أمره و ايم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر فاتقوا الله و لا تنازعوهم و لا تخالفوهم . فقام أبو بكر و قال هذا عمر و أبو عبيدة بايعوا أيهما شئتم فقالا و الله لا نتولى هذا الأمر عليك و أنت أفضل المهاجرين و ثاني اثنين و خليفة رسول الله ص على الصلاة و الصلاة أفضل الدين ابسط يدك نبايك . فلما بسط يده و ذهب يبايعانه سبقهما بشير بن سعد فبايعه فناده الحباب بن المنذر يا بشير عكك عقاق و الله ما اضطرك إلى هذا الأمر إلا الحسد لابن عمك . و لما رأت الأوس أن رئيسا من رؤساء الخزرج قد بايع قام أسيد بن حضير و هو رئيس الأوس فبايع حسدا لسعد أيضا و منافسة له أن يلي الأمر فبايعت الأوس كلها لما بايع أسيد و حمل سعد بن عبادة و هو مريض فأدخل إلى منزله فامتنع من البيعة في ذلك اليوم و فيما بعده و أراد عمر أن يكرهه عليها فأشير عليه ألا يفعل و أنه لا يبايع حتى يقتل و أنه لا يقتل حتى يقتل أهله و لا يقتل أهله حتى يقتل الخزرج و إن حوربت الخزرج كانت الأوس معها . و فسد الأمر فتركوه فكان لا يصلي بصلاتهم و لا يجمع بجماعتهم و لا يقضي بقضائهم و لو وجد أعوانا لضاربهم فلم يزل كذلك حتى مات أبو بكر ثم لقي عمر في خلافته و هو على فرس و عمر على بعير فقال له عمر هيهات يا سعد فقال سعد هيهات يا عمر فقال أنت صاحب من أنت صاحبه قال نعم أنا ذاك ثم قال لعمر و الله ما جاورني أحد هو أبغض إلي جوارا منك قال عمر فإنه من كره جوار رجل انتقل عنه فقال سعد إنني لأرجو أن أخليها لك عاجلا إلى جوار من هو أحب إلي

[11]

جوارا منك و من أصحابك فلم يلبث سعد بعد ذلك إلا قليلا حتى خرج إلى الشام فمات بحوران و لم يبايع لأحد لا لأبي بكر و لا لعمر و لا لغيرهما . قال و كثر الناس على أبي بكر فبايعه معظم المسلمين في ذلك اليوم و اجتمعت بنو هاشم إلى بيت علي بن أبي طالب و معهم الزبير و كان يعد نفسه رجلا من بني هاشم كان علي يقول ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ بنوه فصرفوه عنا . و اجتمعت بنو أمية إلى عثمان بن عفان و اجتمعت بنو زهرة إلى سعد و عبد الرحمن فأقبل عمر إليهم و أبو عبيدة فقال ما لي أراكم ملتائين قوموا فبايعوا أبا بكر فقد بايع له الناس و بايعه الأنصار فقام عثمان و من معه و قام سعد و عبد الرحمن و من معهما فبايعوا أبا بكر . و ذهب عمر و معه عصابة إلى بيت فاطمة منهم أسيد بن حضير و سلمة بن أسلم فقال لهم انطلقوا فبايعوا فأبوا عليه و خرج إليهم الزبير بسيفه فقال عمر عليكم الكلب فوثب عليه سلمة بن أسلم فأخذ السيف من يده فضرب به الجدار ثم انطلقوا به و بعلي و معها بنو هاشم

و علي يقول أنا عبد الله و أخو رسول الله ص حتى انتهوا به إلى أبي بكر فقيل له بايع فقال أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبايعكم و أنتم أولى بالبيعة لي أخذتم هذا الأمر من الأنصار و احتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله فأعطوكم المقادة و سلموا إليكم الإمارة و أنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار فأنصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم و اعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفت الأنصار لكم و إلا فبوعوا بالظلم و أنتم تعلمون . فقال عمر إنك لست متروكا حتى تبايع فقال له علي احلب يا عمر حلبا لك شطره اشدد له اليوم أمره ليرد عليك غدا ألا و الله لا أقبل قولك و لا أبايعه فقال له أبو بكر

[12]

فإن لم تبايعني لم أكرهك فقال له أبو عبيدة يا أبا الحسن إنك حديث السنن و هؤلاء مشيخة قريش قومك ليس لك مثل تجربتهم و معرفتهم بالأمور و لا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك و أشد احتمالا له و اضطلاعا به فسلم له هذا الأمر و ارض به فأتك إن تعش و يطل عمرك فأتك لهذا الأمر خليق و به حقيق في فضلك و قرابتك و سابقتك و جهادك .

فقال علي يا معشر المهاجرين الله لا تخرجوا سلطان محمد عن داره و بيته إلى بيوتكم و دوركم و لا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس و حقه فو الله يا معشر المهاجرين لنحن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم أ ما كان منا القارئ لكتاب الله الفقيه في دين الله العالم بالسنة المضطلع بأمر الرعية و الله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا من الحق بعدا . فقال بشير بن سعد لو كان هذا الكلام سمعته منك الأنصار يا علي قبل بيعتهم لأبي بكر ما اختلف عليك اثنان و لكنهم قد بايعوا و انصرف علي إلى منزله و لم يبايع و لزم بيته حتى ماتت فاطمة فبايع . قلت هذا الحديث يدل على بطلان ما يدعى من النص على أمير المؤمنين و غيره لأنه لو كان هناك نص صريح لاحتج به و لم يجر للنص ذكر و إنما كان الاحتجاج منه و من أبي بكر و من الأنصار بالسوابق و الفضائل و القرب فلو كان هناك نص على أمير المؤمنين أو على أبي بكر لاحتج به أبو بكر أيضا على الأنصار و لاحتج به أمير المؤمنين على أبي بكر فإن هذا الخبر و غيره من الأخبار المستفيضة يدل على أنه قد كان كاشفهم و هتك القناع بينه و بينهم أ لا تراه كيف نسبهم إلى التعدي عليه و ظلمه و تمنع من طاعتهم

[13]

و أسمعهم من الكلام أشده و أغلظه فلو كان هناك نص لذكره أو ذكره بعض من كان من شيعته و حزبه لأنه لا عطر بعد عروس . و هذا أيضا يدل على أن الخبر المروي في أبي بكر في صحيح البخاري و مسلم غير صحيح

و هو ما روي من قوله لعائشة في مرضه ادعي لي أباك حتى أكتب لأبي بكر كتابا فإني أخاف أن يقول قائل أو يتمنى متمن و يأبى الله و المؤمنون إلا أبا بكر و هذا هو نص مذهب المعتزلة .

و قال أحمد بن عبد العزيز الجوهري أيضا حدثنا أحمد و قال حدثنا ابن عفير قال حدثنا أبو عوف عبد الله بن عبد الرحمن عن أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنهما أن عليا حمل فاطمة على حمار و سار بها ليلا إلى بيوت الأنصار يسألهم النصر و تسألهم فاطمة الانتصار له فكانوا يقولون يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل لو كان ابن عمك سبق إلينا أبا بكر ما عدلنا به فقال علي أ كنت أترك رسول الله ميتا في بيته لا أجهزه و أخرج إلى الناس أنازعهم في سلطانه و قالت فاطمة ما صنع أبو حسن إلا ما كان ينبغي له و صنعوا هم ما الله حسبهم عليه

و قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز و حدثنا أحمد قال حدثني سعيد بن كثير قال حدثني ابن لهيعة أن رسول الله ص لما مات و أبو ذر غائب و قدم و قد ولي أبو بكر فقال أصبتم قناعه و تركتم قرابه لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيكم لما اختلف عليكم اثنان

[14]

قال أبو بكر و أخبرنا أبو زيد عمر بن شبة قال حدثنا أبو قبيصة محمد بن حرب قال لما توفي النبي ص و جرى في السقيفة ما جرى تمثل علي

و أصبح أقوام يقولون ما اشتها

و يطغون لما غال زيدا غوانله

قصيدة أبي القاسم المغربي و تعصبه للأنصار على قريش

و حدثني أبو جعفر يحيى بن محمد بن زيد العلوي نقيب البصرة قال لما قدم أبو القاسم علي بن الحسين المغربي من مصر إلى بغداد استكتبه شرف الدولة أبو علي بن بويه و هو يومئذ سلطان الحضرة و أمير الأمراء بها و القادر خليفة ففسدت الحال بينه و بين القادر و اتفق لأبي القاسم المغربي أعداء سوء أوحشوا القادر منه و أوهموه أنه مع شرف الدولة في القبض عليه و خلعه من الخلافة فأطلق لسانه في ذكره بالقبیح و أوصل القول فيه و الشكوى منه و نسبه إلى الرفض و سب السلف و إلى كفران النعمة و أنه هرب من يد الحاكم صاحب مصر بعد إحسانه إليه . قال النقيب أبو جعفر رحمه الله تعالى فأما الرفض فنعم و أما إحسان الحاكم إليه فلا كان الحاكم قتل أباه و عمه و أخا من إخوته و أفلت منه أبو القاسم بخديعة الدين و لو ظفر به لألحقه بهم . قال أبو جعفر و كان أبو القاسم المغربي ينسب في الأزدي و يتعصب لقحطان على عدنان و للأنصار على قريش و كان غالبا في ذلك مع تشييعه و كان أديبا فاضلا شاعرا مترسلا و كثير الفنون عالما و انحدر مع شرف الدولة إلى واسط فاتفق أن حصل بيد القادر كتاب بخطه شبه مجموع قد جمعه من خطه و شعره و كلامه مسود أتخفه به بعض من كان يشنأ أبا القاسم و يريد كيد فوجد القادر في ذلك المجموع قصيدة من شعره فيها تعصب شديد للأنصار على المهاجرين حتى خرج إلى نوع من الإلحاد و الزندقة لإفراط غلوه

[15]

و فيها تصريح بالرفض مع ذلك فوجدها القادر تمرة الغراب و أبرزها إلى ديوان الخلافة فقرأ المجموع و القصيدة بمحضر من أعيان الناس من الأشراف و القضاة و المعدلين و الفقهاء و يشهد أكثرهم أنه خطه و أنهم يعرفونه كما يعرفون وجهه و أمر بمكاتبة شرف الدولة بذلك فإلى أن وصل الكتاب إلى شرف الدولة بما جرى اتصل الخبر بأبي القاسم قبل وصول الكتاب إلى شرف الدولة فهرب ليلا و معه بعض غلمانه و جارية كان يهواها و يتحفظها و مضى إلى البطيحة ثم منها إلى الموصل ثم إلى الشام و مات في طريقه فأوصى أن تحمل جثته إلى مشهد علي فحملت في تابوت و معها خفراء العرب حتى دفن بالمشهد بالقرب منه ع . و كنت برهة أسأل النقيب أبا جعفر عن القصيدة و هو يدافعني بها حتى أملاها علي بعد حين و قد أوردت هاهنا بعضها لأنني لم أستجز و لم أستحل إيرادها على وجهها فمن جملتها و هو يذكر في أولها رسول الله ص و يقول إنه لو لا الأنصار لم تستقم لدعوته دعامة و لا أرسى له قاعدة في أبيات فاحشة كرهنا ذكرها

نحن الذين بنا استجار فلم يضع

فيينا و أصبح في أعز جوار

بسيوفنا أمست سخينة بركا

في بدرها كنجائر الجزائر

و لنحن في أحد سمحنا دونه

بنفوسنا للموت خوف العار

فنجأ بمهجته فلو لا ذبنا

عنه تنشب في مخالبا ضار

و حمية السعدين بل بحماية السدين

يوم الجحفل الجرار

في الخندق المشهور إذ ألقى بها

بيد و رام دفاعها بثمار

قالا معاذ الله إن هضيمه

لم نعظها في سالف الأعصار

[16]

ما عندنا إلا السيوف و أقبلا

نحو الحتوف بها بدار بدار

و لنا بيوم حنين آثار متى

تذكر فهن كرائم الآثار

لما تصدع جمعه فغدا بنا

مستصرخا بعقيرة و جوار

عظفت عليه كماننا فتحصنت

منا جموع هوازن بفرار

و فدته من أبناء قبيلة عصابة

شروى النقيير و جنة البقار

أ فحن أولى بالخلافة بعده

أم عبد تيم حاملو الأوزار

ما الأمر إلا أمرنا و بسعدنا

زفت عروس الملك غير نوار

لكنما حسد النفوس و شحها

و تذكر الأذحال و الأوتار

أفضى إلى هرج و مرج فانبرت

عشواء خابطة بغير نهار

و تداولتها أربع لو لا أبو

حسن لقلت لو مت من إستار

من عاجز ضرع و من ذي غلظة

جاف و من ذي لوثة خوار

ثم ارتدى المحروم فضل ردانها

فغلت مراحل إحنة و نفار

فتأكلت تلك الجدى و تلمظت
تلك الظبا و رقا أجيح النار
تالله لو ألقوا إليه زمامها
لمشى بهم سجحا بغير عثار
و لو أنها حلت بساحة مجده
بادي بدا سكنت بدار قرار
هو كالنبي فضيلة لكن ذا
من حظه كاس و هذا عار
و الفضل ليس بنافع أربابه
إلا بمسعدة من الأقدار
ثم امتطها عبد شمس فاغتدت
هزوا و بدل ربحها بخسار
و تنقلت في عصابة أموية
ليسوا بأطهار و لا أبرار

[17]

ما بين مافون إلى متزندق
و مداهن و مضاعف و حمار

فهذه الأبيات هي نظيف القصيدة التقطناها و حذفنا الفاحش و في الملتقط المذكور أيضا ما لا يجوز و هو قوله نحن الذين بنا استجار و قوله ألقى بها بيد و قوله فنجا بمهجته البيت و قوله عن أبي بكر عبد تيم و قوله لو لا علي لقلت في الأربعة أنهم إستار لؤم و ذكره الثلاثة رضي الله عنهم بما ذكرهم و نسبهم إليه و قوله إن عليا كالنبي في الفضيلة و قوله إن النبوة حظ أعطيه و حرمة علي ع . فأما قوله في بني أمية ما بين مافون البيت فمأخوذ من قول عبد الملك بن مروان و قد خطب فذكر الخلفاء من بني أمية قبله فقال إني و الله لست بالخليفة المستضعف و لا بالخليفة المداهن و لا بالخليفة المافون عنى بالمستضعف عثمان و بالمداهن معاوية و بالمافون يزيد بن معاوية فزاد هذا الشاعر فيهم اثنين و هما المتزندق و هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك و الحمار و هو مروان بن محمد بن مروان

أمر المهاجرين و الأنصار بعد بيعة أبي بكر

و روى الزبير بن بكار في الموفقيات قال لما بايع بشير بن سعد أبا بكر و ازدحم الناس على أبي بكر فبايعوه مر أبو سفيان بن حرب بالببيت الذي فيه علي بن أبي طالب ع فوقف و أنشد

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم
و لا سيما تيم بن مرة أو عدي
فما الأمر إلا فيكم و إليكم
و ليس لها إلا أبو حسن علي

[18]

أبا حسن فاشدد بها كف حازم
فإنك بالأمر الذي يرتجى ملي
و أي امرئ يرمي قصيا و رأيها
منيع الحمى و الناس من غالب قصي

فقال علي لأبي سفيان إنك تريد أمرا لسنا من أصحابه و قد عهد إلي رسول الله ص عهدا فأنا عليه فتركه أبو سفيان و عدل إلى العباس بن عبد المطلب في منزله فقال يا أبا الفضل أنت أحق بميراث ابن أخيك امدد يدك لأبايعك فلا يختلف عليك الناس بعد بيعتي إياك فضحك العباس و قال يا أبا سفيان يدفعا علي و يطلبها العباس فرجع أبو سفيان خائبا . قال الزبير و ذكر محمد بن إسحاق أن الأوس تزعم أن أول من بايع أبا بكر بشير بن سعد و تزعم الخزرج أن أول من بايع أسيد بن حضير . قلت بشير بن سعد خزرجي و أسيد بن حضير أوسي و إنما تدافع الفريقان الروايتين تفاديا عن سعد بن عبادة و كراهية كل حي منهما أن يكون نقض أمره جاء من جهة صاحبه فالخزرج هم أهله و قرابته لا يقرون أن بشير بن سعد هو أول من بايع أبا بكر و أبطل أمر سعد بن عبادة و يحيلون بذلك على أسيد بن حضير لأنه من الأوس أعداء الخزرج و أما الأوس فتكره أيضا أن ينسب أسيد إلى أنه أول من نقض أمر سعد بن عبادة كي لا يرموه بالحسد للخزرج لأن سعد بن عبادة خزرجي فيحيلون بانتقاض أمره على قبيلته و هم الخزرج و يقولون إن أول من بايع أبا بكر و نقض دعوة سعد بن عبادة بشير بن سعد و كان بشير أعور . و الذي ثبت عندي أن أول من بايعه عمر ثم بشير بن سعد ثم أسيد بن حضير ثم أبو عبيدة بن الجراح ثم سالم مولى أبي حذيفة .

[19]

قال الزبير و قد كان مالا أبا بكر و عمر على نقض أمر سعد و إفساد حاله رجلان من الأنصار ممن شهد بدرا و هما عويم بن ساعدة و معن بن عدي . قلت كان هذان الرجلان ذوي حب لأبي بكر في حياة رسول الله ص و اتفق مع ذلك بغض و شحنا كانت بينهما و بين سعد بن عبادة و لها سبب مذكور في كتاب القبائل لأبي عبيدة معمر بن المثنى فليطلب من هناك . و عويم بن ساعدة هو القائل لما نصب الأنصار سعدا يا معشر الخزرج إن كان هذا الأمر فيكم دون قريش فعرفونا ذلك و

برهنوا حتى نبايعكم عليه و إن كان لهم دونكم فسلموا إليهم فو الله ما هلك رسول الله ص حتى عرفنا أن أبا بكر خليفة حين أمره أن يصلي بالناس فشتمه الأنصار و أخرجوه فانتقل مسرعا حتى التحق بأبي بكر فشحن عزمه على طلب الخلافة . ذكر هذا بعينه الزبير بن بكار في الموفقيات . و ذكر المدائني و الواقدي أن معن بن عدي اتفق هو و عويم بن ساعدة على تحريض أبي بكر و عمر على طلب الأمر و صرفه عن الأنصار قالا و كان معن بن عدي يشخصهما إشخاصا و يسوقهما سوقا عنيفا إلى السقيفة مبادرة إلى الأمر قبل فواته . قال الزبير بن بكار فلما بويع أبو بكر أقبلت الجماعة التي بايعته تزفه زفا إلى مسجد رسول الله ص فلما كان آخر النهار افترقوا إلى منازلهم فاجتمع قوم من الأنصار و قوم من المهاجرين فتعاتبوا فيما بينهم فقال عبد الرحمن بن عوف يا معشر الأنصار إنكم و إن كنتم أولي فضل و نصر و سابقة و لكن ليس فيكم مثل أبي بكر و لا عمر و لا علي و لا أبي عبيدة فقال زيد بن أرقم إنا لا ننكر فضل من ذكرت

[20]

يا عبد الرحمن و إن منا لسيد الأنصار سعد بن عباد و من أمر الله رسوله أن يقرنه السلام و أن يأخذ عنه القرآن أبي بن كعب و من يجيء يوم القيامة أمام العلماء معاذ بن جبل و من أمضى رسول الله ص شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت و إنا لنعلم أن ممن سميت من قريش من لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد علي بن أبي طالب . قال الزبير فلما كان من الغد قام أبو بكر فخطب الناس و قال أيها الناس إني وليت أمركم و لست بخيركم فإذا أحسنت فأعينوني و إن أسأت فقوموني إن لي شيطاناً يعتريني فإياكم و إياي إذا غضبت لا أوثر في أشعاركم و أبشاركم الصدق أمانة و الكذب خيانة و الضعيف منكم قوي حتى أرد إليه حقه و القوي ضعيف حتى أخذ الحق منه إنه لا يدع قوم الجهاد إلا ضربهم الله بالذل و لا تشيع في قوم الفاحشة إلا عمهم البلاء أطيعوني ما أطعت الله فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . قال ابن أبي عمير القرشي

شكرا لمن هو بالثناء حقيق

ذهب اللجاج و بويع الصديق

من بعد ما زلت بسعد نعله

و رجا رجاء دونه العيوق

حفت به الأنصار عاصب رأسه

فأتاهم الصديق و الفاروق

و أبو عبيدة و الذين إليهم

نفس المؤمل للقاء تتوق

كنا نقول لها علي و الرضا

عمر و أولاهم بذلك عتيق

فدعت قريش باسمه فأجابها

إن المنوه باسمه الموثوق

قل للآلى طلبوا الخلافة زلة

لم يخط مثل خطاهم مخلوق

إن الخلافة في قريش ما لكم

فيها و رب محمد معروق

[21]

و روى الزبير بن بكار قال روى محمد بن إسحاق أن أبا بكر لما بويع افتخرت تيم بن مرة قال و كان عامة المهاجرين و جل الأتصار لا يشكون أن عليا هو صاحب الأمر بعد رسول الله ص فقال الفضل بن العباس يا معشر قريش و خصوصا يا بني تيم إنكم إنما أخذتم الخلافة بالنبوة و نحن أهلها دونكم و لو طلبنا هذا الأمر الذي نحن أهله لكانت كراهة الناس لنا أعظم من كراهتهم لغيرنا حسدا منهم لنا و حقدا علينا و إنا لنعلم أن عند صاحبنا عهدا هو ينتهي إليه . و قال بعض ولد أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم شعرا

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف

عن هاشم ثم منها عن أبي حسن

أ ليس أول من صلى لقبلكم

و أعلم الناس بالقرآن و السنن

و أقرب الناس عهدا بالنبوي و من

جبريل عون له في الغسل و الكفن

ما فيه ما فيهم لا يمترون به

و ليس في القوم ما فيه من الحسن

ما ذا الذي ردهم عنه فعلمه

ها إن ذا غبننا من أعظم الغبن

قال الزبير فبعث إليه علي فنهاه و أمره ألا يعود

و قال سلامة الدين أحب إلينا من غيره .

[22]

قال الزبير و كان خالد بن الوليد شيعة لأبي بكر و من المنحرفين عن علي فقام خطيبا فقال أيها الناس إنا رمينا في بدء هذا الدين بأمر ثقل علينا و الله محمله و صعب علينا مرتقاه و كنا كأننا فيه على أوتار ثم و الله ما لبثنا أن خف علينا ثقله و نزل لنا صعبه و عجبنا ممن شك فيه بعد عجبنا ممن آمن به حتى أمرنا بما كنا ننهي عنه و نهينا عما كنا نأمر به و لا و الله ما سبقنا إليه بالعقول و لكنه التوفيق ألا و إن الوحي لم ينقطع حتى أحكم و لم يذهب النبي ص فنستبدل بعده نبيا و لا بعد الوحي و حيا و نحن اليوم أكثر منا أمس و نحن أمس خير منا اليوم من دخل في هذا الدين كان ثوابه على حسب عمله و من تركه رددناه إليه و إنه و الله ما صاحب الأمر يعني أبا بكر بالمسنول عنه و لا المختلف فيه و لا الخفي الشخص و لا المغموز القنائة . فعجب الناس من كلامه و مدحه حزن بن أبي وهب المخزومي و هو الذي سماه رسول الله ص سهلا و هو جد سعيد بن المسيب الفقيه و قال

و قامت رجال من قريش كثيره
فلم يك منهم في الرجال كخالد
ترقي فلم يزاق به صدر نعله
و كف فلم يعرض لتلك الأوابد
فجاء بها غراء كالبدن ضوءها
فسميتها في الحسن أم القلائد
أ خالد لا تعدم لؤي بن غالب
قيامك فيها عند قذف الجلامد
كسكك الوليد بن المغيرة مجده
و علمك الأشياخ ضرب القماحد
تقارع في الإسلام عن صلب دينه
و في الشرك عن أحساب جد و والد

[23]

و كنت لمخزوم بن يقظة جنة
يعدك فيها ماجدا و ابن ماجد
إذا ما سما في حربها ألف فارس
عدلت بألف عند تلك الشداند
و من يك في الحرب المثيرة واحدا
فما أنت في الحرب العوان بواحد
إذا ناب أمر في قريش مخلج
تشيب له رعوس العذارى النواهد
توليت منه ما يخاف و إن تغب
يقولوا جميعا حظنا غير شاهد

قال الزبير و حدثنا محمد بن موسى الأنصاري المعروف بابن مخرمة قال حدثني إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري قال لما بويع أبو بكر و استقر أمره ندم قوم كثير من الأنصار على بيعته و لام بعضهم بعضا و ذكروا علي بن أبي طالب و هتفوا باسمه و إنه في داره لم يخرج إليهم و جزع لذلك المهاجرون و كثر في ذلك الكلام . و كان أشد قريش على الأنصار نفر فيهم و هم سهيل بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي و الحارث بن هشام و عكرمة بن أبي جهل المخزوميان و هؤلاء أشرف قريش الذين حاربوا النبي ص ثم دخلوا في الإسلام و كلهم موتور قد وتره الأنصار أما سهيل بن عمرو فأسره مالك بن الدخشم يوم بدر و أما الحارث بن هشام فضربه عروة بن عمرو فجرحه يوم بدر و هو فار عن أخيه و أما عكرمة بن أبي جهل فقتل أباه ابنا عفراء و سلبه درعه يوم بدر زياد بن لبيد و في أنفسهم ذلك . فلما

اعتزلت الأنصار تجمع هؤلاء فقام سهيل بن عمرو فقال يا معشر قريش إن هؤلاء القوم قد سماهم الله الأنصار و أثنى عليهم في القرآن فلهم بذلك حظ عظيم و شأن غالب و قد دعوا إلى أنفسهم و إلى علي بن أبي طالب و علي

[24]

في بيته لو شاء لردهم فادعوهم إلى صاحبكم و إلى تجديد بيعته فإن أجابوكم و إلا قاتلوهم فو الله إنني لأرجو الله أن ينصركم عليهم كما نصرتم بهم . ثم قام الحارث بن هشام فقال إن تكن الأنصار تبوأت الدار و الإيمان من قبل و نقلوا رسول الله ص إلى دورهم من دورنا فأووا و نصرنا ثم ما رضوا حتى قاسمونا الأموال و كفونا العمل فإتهم قد لهجوا بأمر إن ثبتوا عليه فإتهم قد خرجوا مما وسموا به و ليس بيننا و بينهم معاتبة إلا السيف و إن نزعوا عنه فقد فعلوا الأولى بهم و المظنون معهم . ثم قام عكرمة بن أبي جهل فقال و الله لو لا

قول رسول الله ص الأنمة من قريش ما أنكرنا أمره الأنصار و لكانوا لها أهلا و لكنه قول لا شك فيه و لا خيار و قد عجلت الأنصار علينا و الله ما قبضنا عليهم الأمر و لا أخرجناهم من الشورى و إن الذي هم فيه من فلتات الأمور و نزغات الشيطان و ما لا يبلغه المنى و لا يحمله الأمل أعذروا إلى القوم فإن أبوا فقاتلوهم فو الله لو لم يبق من قريش كلها إلا رجل واحد لصير الله هذا الأمر فيه . قال و حضر أبو سفيان بن حرب فقال يا معشر قريش إنه ليس للأنصار أن يتفضلوا على الناس حتى يقرؤا بفضلنا عليهم فإن تفضلوا فحسبنا حيث انتهى بها و إلا فحسبهم حيث انتهى بهم و ايم الله لنن بطروا المعيشة و كفروا النعمة لنضربنهم على الإسلام كما ضربوا عليه فأما علي بن أبي طالب فأهل و الله أن يسود على قريش و تطيعه الأنصار . فلما بلغ الأنصار قول هؤلاء الرهط قام خطيبهم ثابت بن قيس بن شماس فقال يا معشر الأنصار إنما يكبر عليكم هذا القول لو قاله أهل الدين من قريش فأما إذا كان من أهل الدنيا لا سيما من أقوام كلهم موتور فلا يكبرن عليكم إنما الرأي

[25]

و القول مع الأخيار المهاجرين فإن تكلمت رجال قريش و الذين هم أهل الآخرة مثل كلام هؤلاء فعند ذلك قولوا ما أحببتهم و إلا فأمسكوا . و قال حسان بن ثابت يذكر ذلك

تنادي سهيل و ابن حرب و حارث

و عكرمة الشاني لنا ابن أبي جهل

قتلنا أباه و انتزعنا سلاحه

فأصبح بالبطحا أذل من النعل

فأما سهيل فاحتواه ابن دخشم

أسيرا ذليلا لا يمر و لا يحلي

و صخر بن حرب قد قتلنا رجاله

غداة لوا بدر فمرجله يغلي

و راکضنا تحت العجاجة حارث

على ظهر جرداء كباسقه النخل
يقبلها طورا و طورا يحثها
و يعدلها بالنفس و المال و الأهل
أولئك رهط من قريش تبايعوا
على خطة ليست من الخطط الفضل
و أعجب منهم قابلو ذاك منهم
كانا اشتملنا من قريش على نحل
و كلهم ثان عن الحق عطفه
يقول اقتلوا الأتصار يا بنس من فعل
نصرنا و آوينا النبي و لم نخف
صروف الليالي و البلاء على رجل
بذلنا لهم أنصاف مال أكفنا
كقسمة أيسار الجزور من الفضل
و من بعد ذاك المال أنصاف دورنا
و كنا أناسا لا نغير بالبخل
و نحمي ذمار الحي فهر بن مالك
و نوقد نار الحرب بالحطب الجزل
فكان جزاء الفضل منا عليهم
جهالتهم حمقا و ما ذاك بالعدل

فبلغ شعر حسان قريشا فغضبوا و أمروا ابن أبي عزة شاعرهم أن يجيبه فقال

معشر الأتصار خافوا ربكم
و استجبروا الله من شر الفتن
إنني أرهب حربا لاقحا
يشرق المرضع فيها باللبن
جرها سعد و سعد فتنة
ليت سعد بن عباد لم يكن
خلف برهوت خفيا شخصه
بين بصرى ذي رعين و جدن

ليس ما قدر سعد كاننا
ما جرى البحر و ما دام حضن
ليس بالقاطع منا شعرة
كيف يرجى خير أمر لم يحن
ليس بالمدرک منها أبدا
غير أضغاث أماني الوسن

قال الزبير لما اجتمع جمهور الناس لأبي بكر أكرمت قريش معن بن عدي و عويم بن ساعدة و كان لهما فضل قديم في الإسلام فاجتمعت الأنصار لهما في مجلس و دعوها فلما أحضرا أقبلت الأنصار عليهما فعيروهما بانطلاقهما إلى المهاجرين و أكبروا فعلهما في ذلك فتكلم معن فقال يا معشر الأنصار إن الذي أراد الله بكم خير مما أردتم بأنفسكم و قد كان منكم أمر عظيم البلاء و صغرتة العاقبة فلو كان لكم على قريش ما لقريش عليكم ثم أردتموهم لما أرادوكم به لم آمن عليهم منكم مثل من آمن عليكم منهم فإن تعرفوا الخطأ فقد خرجتم منه و إلا فأنتم فيه . قلت قوله و قد كان منكم أمر عظيم البلاء و صغرتة العاقبة يعني عاقبة الكف و الإمساك يقول قد كان منكم أمر عظيم و هو دعوى الخلافة لأنفسكم و إنما جعل البلاء معظما له لأنه لو لم يتعقبه الإمساك لأحدث فتنة عظيمة و إنما صغره سكونهم و رجوعهم إلى بيعة المهاجرين . و قوله و كان لكم على قريش إلى آخر الكلام معناه لو كان لكم الفضل على قريش كفضل قريش عليكم و ادعت قريش الخلافة لها ثم أردتم منهم الرجوع عن دعواهم و جرت بينكم و بينهم من المنازعة مثل هذه المنازعة التي جرت الآن بينكم لم آمن عليهم منكم أن تقتلوهم و تقدموا على سفك دمانهم و لم يحصل لي من سكون النفس إلى

[27]

حلمكم عنهم و صبركم عليهم مثل ما أنا آمن عليكم منهم فإنهم صبروا و حلموا و لم يقدموا على استباحة حربكم و الدخول في دمانكم . قال الزبير ثم تكلم عويم بن ساعدة فقال يا معشر الأنصار إن من نعم الله عليكم أنه تعالى لم يرد بكم ما أردتم بأنفسكم فاحمدوا الله على حسن البلاء و طول العافية و صرف هذه البلية عنكم و قد نظرت في أول فتنتكم و آخرها فوجدتها جاءت من الأماني و الحسد و احذروا النقم فوددت أن الله صير إليكم هذا الأمر بحقه فكنا نعيش فيه . فوثبت عليهما الأنصار فاغظوا لهما و فحشوا عليهما و انبرى لهما فروة بن عمرو فقال أنسيتما قولكما لقريش إنا قد خلفنا و راعنا قوما قد حلت دماؤهم بفتنتهم هذا و الله ما لا يغفر و لا ينسى قد تصرف الحية عن وجهها و سمها في نابها فقال معن في ذلك

و قالت لي الأنصار إنك لم تصب
فقلت أ ما لي في الكلام نصيب
فقالوا بلى قل ما بدا لك راشدا
فقلت و مثلي بالجواب طيب
تركتكم و الله لما رأيتمكم
تيوسا لها بالحرطين نبيب

تنادون بالأمر الذي النجم دونه
ألا كل شيء ما سواه قريب
فقلت لكم قول الشفيق عليكم
و للقلب من خوف البلاء وجيب
دعوا الركض و اثنوا من أعة بغيركم
و دبوا فسير القاصدين دبيب
و خلوا قريشا و الأمور و بايعوا
لمن بايعوه ترشدوا و تصيبوا

[28]

أراكم أخذتم حقكم بأفكم
و ما الناس إلا مخطئ و مصيب
فلما أبيتم زلت عنكم إليهم
و كنت كأتي يوم ذاك غريب
فإن كان هذا الأمر ذنبي إليكم
فلي فيكم بعد الذنوب ذنوب
فلا تبعثوا مني الكلام فإني
إذا شئت يوما شاعر و خطيب
و إني لحلو تعتريني مرارة
و ملح أجاج تارة و شروب
لكل امرئ عندي الذي هو أهله
أفانين شتى و الرجال ضروب

و قال عويم بن ساعدة في ذلك

و قالت لي الأنصار أضعاف قولهم
لمعن و ذاك القول جهل من الجهل
فقلت دعوني لا أبا لأبيكم
فإني أخوكم صاحب الخطر الفصل
أنا صاحب القول الذي تعرفونه
أقطع أنفاس الرجال على مهل
فإن تسكتوا أسكت و في الصمت راحة
و إن تنطقوا أصمت مقالتم تبلي

و ما لمت نفسي في الخلاف عليكم
و إن كنتم مستجمعين على عدلي
أريد بذاك الله لا شيء غيره
و ما عند رب الناس من درج الفضل
و ما لي رحم في قريش قريبة
و لا دارها داري و لا أصلها أصلي
و لكنهم قوم علينا أنمة
أدين لهم ما أنفذت قدمي نعلي
و كان أحق الناس أن تقتعوا به
و يحتملوا من جاء في قوله مثلي
لأنني أخف الناس فيما يسركم
و فيما يسوء لا أمر و لا أحلي

قال فروة بن عمر و كان ممن تخلف عن بيعة أبي بكر و كان ممن جاهد مع

[29]

رسول الله و قاد فرسين في سبيل الله و كان يتصدق من نخله بألف و سقى في كل عام و كان سيذا و هو من أصحاب علي و
ممن شهد معه يوم الجمل قال فذكر معنا و عويما و عاتبهما على قولهما خلفنا وراعا قوما قد حلت دماؤهم بفتنتهم

ألا قل لمعن إذا جنته
و ذاك الذي شيخه ساعده
بأن المقال الذي قلتما
خفيف علينا سوى واحده
مقالكم إن من خلفنا
مراض قلوبهم فاسده
حلال الدماء على فتنة
فيا بنسما ربت الوالده
فلم تأخذا قدر أثمانها
و لم تستفيدا بها فاندده
لقد كذب الله ما قلتما
و قد يكذب المراند الواعده

قال الزبير ثم إن الأنصار أصلحوا بين هذين الرجلين و بين أصحابهما ثم اجتمعت جماعة من قريش يوما و فيهم ناس من
الأنصار و أخلاط من المهاجرين و ذلك بعد انصراف الأنصار عن رأيها و سكون الفتنة فاتفق ذلك عند قدوم عمرو بن

العاص من سفر كان فيه فجاء إليهم فأفاضوا في ذكر يوم السقيفة و سعد و دعواه الأمر فقال عمرو بن العاص و الله لقد دفع الله عنا من الأتصار عظيمة و لما دفع الله عنهم أعظم كادوا و الله أن يحلوا حبل الإسلام كما قاتلوا عليه و يخرجوا منه من أدخلوا فيه و الله لنن كانوا سمعوا

قول رسول الله ص الأنمة من قريش ثم ادعوا لقد هلكوا و أهلكوا و إن كانوا لم يسمعوا فما هم كالمهاجرين و لا كأبي بكر و لا المدينة

[30]

كمكة و لقد قاتلونا أمس فغلبونا على البدء و لو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة فلم يجبه أحد و انصرف إلى منزله و قد ظفر فقال

ألا قل لأوس إذا جنتها
و قل كلما جنت للخزرج
تمنيتم الملك في يثرب
فأنزلت القدر لم تنضج
و أخذجتم الأمر قبل التمام
و أعجب بذا المعجل المخدج
تريدون نتج الحيال العشار
و لم تلقوه فلم ينتج
عجبت لسعد و أصحابه
و لو لم يهيجوه لم يهتج
رجا الخزرجي رجاء السراب
و قد يخلف المرء ما يرتجي
فكان كمنح على كفه
بكف يقطعها أهوج

فلما بلغ الأتصار مقاتله و شعره بعثوا إليه لسانهم و شاعرهم النعمان بن العجلان و كان رجلا أحمر قصيرا تزدرية العيون و كان سيذا فخما فأتى عمرا و هو في جماعة من قريش فقال و الله يا عمرو ما كرهتم من حربنا إلا ما كرهننا من حربكم و ما كان الله ليخرجكم من الإسلام بمن أدخلكم فيه

إن كان النبي ص قال الأنمة من قريش فقد قال لو سلك الناس شعبا و سلك الأتصار شعبا لسلكت شعبا الأتصار و الله ما أخرجناكم من الأمر إذ قلنا منا أمير و منكم أمير و أما من ذكرت فأبو بكر لعمرى خير من سعد لكن سعدا في الأتصار أطوع من أبي بكر في قريش فأما المهاجرون و الأتصار فلا فرق بينهم أبدا و لكنك يا ابن العاص و ترت بني عبد مناف بمسيرك إلى الحبشة لقتل جعفر و أصحابه و ترت بني مخزوم بإهلاك عمارة بن الوليد ثم انصرف فقال

فقل لقريش نحن أصحاب مكة
و يوم حنين و الفوارس في بدر
و أصحاب أحد و التضير و خيبر
و نحن رجعنا من قريظة بالذكر
و يوم بأرض الشام أدخل جعفر
و زيد و عبد الله في علق يجري
و في كل يوم ينكر الكلب أهله
نطاعن فيه بالمتقفة السمر
و نضرب في نقع العجاجة أروسا
ببيض كأمثال البروق إذا تسري
نصرنا و آوينا النبي و لم نخف
صروف الليالي و العظيم من الأمر
و قلنا نقوم هاجروا قبل مرحبا
و أهلا و سهلا قد أمنت من الفقر
نقاسمكم أموالنا و بيوتنا
كقسمة أيسار الجزور على الشطر
و نكفيكم الأمر الذي تكرهونه
و كنا أناسا نذهب العسر باليسر
و قلتم حرام نصب سعد و نصبكم
عتيق بن عثمان حلال أبا بكر
و أهل أبو بكر لها خير قائم
و إن عليا كان أخلق بالأمر
و كان هوانا في علي و إنه
لأهل لها يا عمرو من حيث لا تدري
فذاك بعون الله يدعو إلى الهدى
و ينهى عن الفحشاء و البغي و النكر
وصي النبي المصطفى و ابن عمه
و قاتل فرسان الضلالة و الكفر
و هذا بحمد الله يهدي من العمى
و يفتح آذاننا ثقلن من الوقر
نجي رسول الله في الغار وحده

و صاحبه الصديق في سالف الدهر

فلو لا اتقاء الله لم تذهبوا بها

و لكن هذا الخير أجمع للصبر

و لم نرض إلا بالرضا و لربما

ضربنا بأيدينا إلى أسفل القدر

فلما انتهى شعر النعمان و كلامه إلى قريش غضب كثير منها و ألقى ذلك قدوم خالد بن سعيد بن العاص من اليمن و كان رسول الله استعمله عليها و كان له و لأخيه أثر قديم

[32]

عظيم في الإسلام و هما من أول من أسلم من قريش و لهما عبادة و فضل فغضب للأنصار و شتم عمرو بن العاص و قال يا معشر قريش إن عمرا دخل في الإسلام حين لم يجد بدا من الدخول فيه فلما لم يستطع أن يكيد به بيده كاده بلسانه و إن من كيد الإسلام تفريقه و قطعه بين المهاجرين و الأنصار و الله ما حاربناهم للدين و لا للدنيا لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا و ما بذلنا دماءنا لله فيهم و قاسمونا ديارهم و أموالهم و ما فعلنا مثل ذلك بهم و آثرونا على الفقر و حرمانهم على الغنى و لقد وصى رسول الله بهم و عزاهم عن جفوة السلطان فأعوذ بالله أن أكون و إياكم الخلف المضيع و السلطان الجاني . قلت هذا خالد بن سعيد بن العاص هو الذي امتنع من بيعة أبي بكر و قال لا أبايع إلا عليا و قد ذكرنا خبره فيما تقدم . و أما قوله في الأنصار و عزاهم عن جفوة السلطان فإشارة إلى

قول النبي ص ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تقدموا علي الحوض و هذا الخبر هو الذي يكفر كثير من أصحابنا معاوية بالاستهزاء به و ذلك أن النعمان بن بشير الأنصاري جاء في جماعة من الأنصار إلى معاوية فشكوا إليه فقرهم و

قالوا لقد صدق رسول الله ص في قوله لنا ستلقون بعدي أثرة فقد لقيناها قال معاوية فما ذا قال لكم قالوا قال لنا فاصبروا حتى تردوا علي الحوض قال فافعلوا ما أمركم به عساكم تلاقونه غدا عند الحوض كما أخبركم و حرمتهم و لم يعطهم شيئا . قال الزبير و قال خالد بن سعيد بن العاص في ذلك

تفوه عمرو بالذي لا نريده

و صرح للأنصار عن شناة البغض

فإن تكن الأنصار زلت فإننا

نقيل و لا نجزيهم بالقرض

[33]

فلا تقطعن يا عمرو ما كان بيننا

و لا تحملن يا عمرو بعضا على بعض

أ تنسى لهم يا عمرو ما كان منهم

ليالي جنناهم من النفل و الفرض
و قسمتنا الأموال كاللحم بالمدى
و قسمتنا الأوطان كل به يقضي
ليالي كل الناس بالكفر جهرة
ثقال علينا مجمعون على البغض
فساواوا و آواوا و انتهينا إلى المنى
و قرراراننا من الأمن و الخفض

قال الزبير ثم إن رجالا من سفهاء قريش و مثيري الفتن منهم اجتمعوا إلى عمرو بن العاص فقالوا له إنك لسان قريش و رجلها في الجاهلية و الإسلام فلا تدع الأنصار و ما قالت و أكثروا عليه من ذلك فراح إلى المسجد و فيه ناس من قريش و غيرهم فتكلم و قال إن الأنصار ترى لنفسها ما ليس لها و ايم الله لوددت أن الله خلى عنا و عنهم و قضى فيهم و فينا بما أحب و ونحن الذين أفسدنا على أنفسنا أحرزناهم عن كل مكروه و قدمناهم إلى كل محبوب حتى أمنوا المخوف فلما جاز لهم ذلك صغروا حقنا و لم يراعوا ما أعظمنا من حقوقهم . ثم التفت فرأى الفضل بن العباس بن عبد المطلب و ندم على قوله للخولة التي بين ولد عبد المطلب و بين الأنصار و لأن الأنصار كانت تعظم عليا و تهتف باسمه حينئذ فقال الفضل يا عمرو إنه ليس لنا أن نكتم ما سمعنا منك و ليس لنا أن نجيبك و أبو الحسن شاهد بالمدينة إلا أن يأمرنا فنفعل . ثم رجع الفضل إلى علي فحدثه فغضب و شتم عمرا و قال أذى الله و رسوله ثم قام فأتى المسجد فاجتمع إليه كثير من قريش و تكلم مغضبا

فقال يا معشر قريش إن حب الأنصار إيمان و بغضهم نفاق و قد قضاوا ما عليهم

[34]

و بقي ما عليكم و اذكروا أن الله رغب لنبيكم عن مكة فنقله إلى المدينة و كره له قريشا فنقله إلى الأنصار ثم قدمنا عليهم دارهم فقاسمونا الأموال و كفونا العمل فصرنا منهم بين بذل الغني و إيثار الفقير ثم حاربنا الناس فوقونا بأنفسهم و قد أنزل الله تعالى فيهم آية من القرآن جمع لهم فيها بين خمس نعم فقال **وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .** ألا و إن عمرو بن العاص قد قام مقاما أدى فيه الميت و الحي ساء به الواتر و سر به الموتور فاستحق من المستمع الجواب و من الغائب المقت و إنه من أحب الله و رسوله أحب الأنصار فليكف عمرو عنا نفسه . قال الزبير فمشت قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص فقالوا أيها الرجل أما إذا غضب علي فاكفف . و قال خزيمة بن ثابت الأنصاري يخاطب قريشا

أيال قريش أصلحوا ذات بيننا
و بينكم قد طال حبل التماحك
فلا خير فيكم بعدنا فارفقوا بنا
و لا خير فينا بعد فهر بن مالك

كلانا على الأعداء كف طويلة
إذا كان يوم فيه جب الحواريك
فلا تذكروا ما كان منا و منكم
ففي ذكر ما قد كان مشي التساوك

قال الزبير و قال علي للفضل يا فضل انصر الأنصار بلسانك و يدك فإنهم منك و إنك منهم فقال الفضل

قلت يا عمرو مقالا فاحشا
إن تعد يا عمرو و الله فك

[35]

إنما الأنصار سيف قاطع
من تصبه ظبة السيف هلك
و سيوف قاطع مضربها
و سهام الله في يوم الحلك
نصروا الدين و آووا أهله
منزل ربح و رزق مشترك
و إذا الحرب تلظت نارها
بركوا فيها إذا الموت برك

و دخل الفضل على علي فأسمعه شعره ففرح به و قال وريت بك زنادي يا فضل أنت شاعر قريش و فتاها فأظهر شعرك و
ابعث به إلى الأنصار فلما بلغ ذلك الأنصار قالت لا أحد يجيب إلا حسان الحسام فبعثوا إلى حسان بن ثابت فعرضوا عليه
شعر الفضل فقال كيف أصنع بجوابه إن لم أتحرقوافيه فضحني فرويدا حتى أقفو أثره في القوافي فقال له خزيمة بن ثابت
اذكر عليا و آله يكفك عن كل شيء فقال

جزى الله عنا و الجزاء بكفه
أبا حسن عنا و من كأبي حسن
سبقت قريشا بالذي أنت أهله
فصدرك مشروح و قلبك ممتحن
تمنت رجال من قريش أعزة
مكائك هيهات الهزال من السمن
و أنت من الإسلام في كل موطن
بمنزلة الدلو البطين من الرسن
غضبت لنا إذ قام عمرو بخطبة

أما بها التقوى و أحيا بها الإحن
فكنت المرجى من لوي بن غالب
لما كان منهم و الذي كان لم يكن
حفظت رسول الله فينا و عهده
إليك و من أولى به منك من و من
أ لست أخاه في الهدى و وصيه
و أعلم منهم بالكتاب و بالسنة
فحكك ما دامت بنجد و شيجة
عظيم علينا ثم بعد على اليمن

قال الزبير و بعثت الأنصار بهذا الشعر إلى علي بن أبي طالب فخرج إلى المسجد

[36]

و قال لمن به من قريش و غيرهم يا معشر قريش إن الله جعل الأنصار أنصارا فأنتى عليهم في الكتاب فلا خير فيكم بعدهم
إنه لا يزال سفيه من سفهاء قريش وتره الإسلام و دفعه عن الحق و أطفأ شرفه و فضل غيره عليه يقوم مقاما فاحشا
فيذكر الأنصار فاتقوا الله و ارعوا حقهم فو الله لو زالوا لزلت معهم لأن رسول الله قال لهم أزلو معكم حيثما زلتم فقال
المسلمون جميعا رحمك الله يا أبا الحسن قلت قولاً صادقاً . قال الزبير و ترك عمرو بن العاص المدينة و خرج عنها حتى
رضي عنه علي و المهاجرون قال الزبير ثم إن الوليد بن عقبة بن أبي معيط و كان يبغض الأنصار لأنهم أسروا أباه يوم
بدر و ضربوا عنقه بين يدي رسول الله قام يشتم الأنصار و ذكرهم بالهجر فقال إن الأنصار لترى لها من الحق علينا ما لا
نراه و الله لنن كانوا آووا لقد عزوا بنا و لنن كانوا أسوا لقد منوا علينا و الله ما نستطيع مودتهم لأنه لا يزال قاتل منهم
يذكر ذلنا بمكة و عزنا بالمدينة و لا ينفكون يعيرون موتانا و يغيظون أحياءنا فإن أجبناهم قالوا غضبت قريش على
غاربها و لكن قد هون علي ذلك منهم حرصهم على الدين أمس و اعتذارهم من الذنب اليوم ثم قال

تباذخت الأنصار في الناس باسمها
و نسبتها في الأزد عمرو بن عامر
و قالوا لنا حق عظيم و منة
على كل باد من معد و حاضر
فإن يك للأنصار فضل فلم تنل
بحرمته الأنصار فضل المهاجر
و إن تكن الأنصار آوت و قاسمت
معايشها من جاء قسمة جازر
فقد أفسدت ما كان منها بمنها
و ما ذاك فعل الأكرمين الأكابر

إذا قال حسان و كعب قصيدة
بشتم قريش غنيت في المعاشر
و سار بها الركبان في كل وجهة
و أعمل فيها كل خف و حافر

[37]

فهذا لنا من كل صاحب خطبة
يقوم بها منكم و من كل شاعر
و أهل بأن يهجو بكل قصيدة
و أهل بأن يرموا بنبل فواقر

قال ففشا شعره في الناس فغضبت الأنصار و غضب لها من قريش قوم منهم ضرار بن الخطاب الفهري و زيد بن الخطاب و يزيد بن أبي سفيان فبعثوا إلى الوليد فجاء . فتكلم زيد بن الخطاب فقال يا ابن عقبة بن أبي معيط أما و الله لو كنت من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم و أموالهم يبتغون فضلا من الله و رضوانا لأحبيت الأنصار و لكنك من الجفأة في الإسلام البطاء عنه الذين دخلوا فيه بعد أن ظهر أمر الله و هم كارهون إنا نعلم أنا أتيناهم و نحن فقراء فأغنوننا ثم أصبنا الغنى فكفوا عنا و لم يرزءونا شيئا فأما ذكرهم ذلة قريش بمكة و عزها بالمدينة فكذلك كنا و كذلك قال الله تعالى **وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ** فنصرنا الله تعالى بهم و آوانا إلى مدينتهم . و أما غضبك لقريش فإننا لا ننصر كافرا و لا نواد ملحدا و لا فاسقا و لقد قلت و قالوا فقطعك الخطيب و أجمك الشاعر . و أما ذكرك الذي كان بالأمس فدع المهاجرين و الأنصار فإنك لست من أسنتهم في الرضا و لا نحن من أيديهم في الغضب . و تكلم يزيد بن أبي سفيان فقال يا ابن عقبة الأنصار أحق بالغضب لقتلى أحد فاكفف لسانك فإن من قتله الحق لا يغضب له . و تكلم ضرار بن الخطاب فقال أما و الله لو لا

أن رسول الله ص قال

[38]

الأنمة من قريش لقلنا الأنمة من الأنصار و لكن جاء أمر غلب الرأي فاقمع شرتك أيها الرجل و لا تكن امراً سوء فإن الله لم يفرق بين الأنصار و المهاجرين في الدنيا و كذلك الله لا يفرق بينهم في الآخرة . و أقبل حسان بن ثابت مغضبا من كلام الوليد بن عقبة و شعره فدخل المسجد و فيه قوم من قريش فقال يا معشر قريش إن أعظم ذنبنا إليكم قتلنا كفاركم و حمايتنا رسول الله ص و إن كنتم تنقمون منا مئة كانت بالأمس فقد كفى الله شرها فما لنا و ما لكم و الله ما يمنعا من قتالكم الجبن و لا من جوابكم العي إنا لحي فعال و مقال و لكنا قلنا إنها حرب أولها عار و آخرها ذل فأغضينا عليها عيوننا و سحبتنا ذيولنا حتى نرى و تروا فإن قلتم قلنا و إن سكتم سكتنا . فلم يجبه أحد من قريش ثم سكت كل من الفريقين عن صاحبه و رضي القوم أجمعون و قطعوا الخلاف و العصبية . انتهى ما ذكره الزبير بن بكار في الموفقيات و نعود الآن إلى ذكر ما أورده أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب السقيفة . قال أبو بكر حدثني أبو يوسف يعقوب بن شبيبة

عن بحر بن آدم عن رجاله عن سالم بن عبيد قال لما توفي رسول الله و قالت الأنصار منا أمير و منكم أمير أخذ عمر بيد أبي بكر و قال سيفان في غمد واحد إذا لا يصلحان ثم قال من له هذه الثلاث **ثانِي** **إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** من هما **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنُ** من صاحبه **إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** مع من ثم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه فبايعه الناس أحسن بيعة و أجملها .

[39]

قال أبو بكر حدثنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي عن أبي بكر بن عياش عن زيد بن عبد الله قال إن الله تعالى نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ع خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه و ابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب الأمم بعد قلبه فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون عن دينه فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن و ما رأى المسلمون سيئا فهو عند الله سيئ . قال أبو بكر بن عياش و قد رأى المسلمون أن يولوا أبا بكر بعد النبي ص فكانت ولايته حسنة . قال أبو بكر و حدثنا يعقوب بن شيبه قال لما قبض رسول الله ص و قال الأنصار منا أمير و منكم أمير قال عمر أيها الناس أيكم يطيب نفسا أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله ص في الصلاة رضيك الله لديننا أ فلا نرضاك لديننا قال أبو بكر و أخبرنا أبو زيد عمر بن شبة قال حدثني زيد بن يحيى الأنماطي قال حدثنا صخر بن جويرية عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال أخذ أبو بكر بيد عمر و يد رجل من المهاجرين يروونه أبا عبيدة حتى انطلقوا إلى الأنصار و قد اجتمعوا عند سعد في سقيفة بني ساعدة فقال عمر قلت لأبي بكر دعني أتكلم و خشيت جد أبي بكر و كان ذا جد فقال أبو بكر لا بل أنا أتكلم فما هو و الله إلا أن انتهينا إليهم فما كان في نفسي شيء أريد أن أقوله إلا أتى أبو بكر عليه فقال لهم يا معشر الأنصار ما ينكر حقكم مسلم إنا و الله ما أصبنا خيرا قط إلا شركتمونا

[40]

فيه لقد أويتم و نصرتم و آزرتم و واسيتم و لكن قد علمتم أن العرب لا تقر و لا تطيع إلا لامرئ من قريش هم رهط النبي ص أوسط العرب و شبيعة رحم و أوسط الناس دارا و أعرب الناس ألسنا و أصبح الناس أوجها و قد عرفتم بلاء ابن الخطاب في الإسلام و قدمه هلم فلنبايعه . قال عمر بل إياك نبايع قال عمر فكنت أول الناس مد يده إلى أبي بكر فبايعه إلا رجلا من الأنصار أدخل يده بين يدي و يد أبي بكر فبايعه قبلي و وطئ الناس فراش سعد فقتل سعدا فقال عمر قتل الله سعدا فوثب رجل من الأنصار فقال أنا جذيلها المحكك و عذيقها المرجب فأخذ و وطئ في بطنه و دسوا في فيه التراب . قال أبو بكر و حدثني يعقوب بن محمد بن جعفر عن محمد بن إسماعيل عن مختار اليمان عن عيسى بن زيد قال لما بويع أبو بكر جاء أبو سفيان إلى علي فقال أ غلبكم على هذا الأمر أنزل بيت من قريش و أقلها أما و الله لنن شنت لأملاتها على أبي فصيل خيلا و رجلا و لأسدنها عليه من أقطارها فقال علي يا أبا سفيان طالما كدت الإسلام و أهله فما ضرهم شيئا أمسك عليك فإنا رأينا أبا بكر لها أهلا . قال أبو بكر و حدثنا يعقوب عن رجاله قال لما بويع أبو بكر تخلف علي فلم يبايع فقتل لأبي بكر إنه كره إمارتك فبعث إليه أ كرهت إمارتي قال لا و لكن القرآن خشيت أن يزداد فيه فحلفت ألا أردتي رداء حتى أجمعه اللهم إلا إلى صلاة الجمعة .

[41]

فقال أبو بكر لقد أحسنت قال فكتبه ع كما أنزل بناسخه و منسوخه . قال أبو بكر حدثنا يعقوب عن أبي النضر عن محمد بن راشد عن مكحول أن رسول الله ص استعمل خالد بن سعيد بن العاص على عمل فقدم بعد ما قبض رسول الله ص و قد بايع الناس أبا بكر فدعاه إلى البيعة فأبى فقال عمر دعني و إياه فمنعه أبو بكر حتى مضت عليه سنة ثم مر به أبو بكر و هو جالس على باب فناداه خالد يا أبا بكر هل لك في البيعة قال نعم قال فادن فادن منه فبايعه خالد و هو قاعد على بابه .

قال أبو بكر و حدثنا أبو يوسف يعقوب بن شيبه عن خالد بن مخلد عن يحيى بن عمر قال حدثني أبو جعفر الباقر قال جاء أعرابي إلى أبي بكر على عهد رسول الله ص و قال له أوصني فقال لا تأمر على اثنين ثم إن الأعرابي شخص إلى الربذة فبلغه بعد ذلك وفاة رسول الله ص فسأل عن أمر الناس من وليه فقيل أبو بكر فقدم الأعرابي إلى المدينة فقال لأبي بكر أ لست أمرتني إلا أتأمر على اثنين قال بلى قال فما بالك فقال أبو بكر لم أجد لها أحدا غيري أحق مني قال ثم رفع أبو جعفر الباقر يديه و خفضهما فقال صدق صدق . قال أبو بكر و قد روي هذا الخبر برواية أتم من هذه الرواية حدثنا يعقوب بن شيبه قال حدثنا يحيى بن حماد قال حدثنا أبو عوانة عن سليمان الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب عن رافع بن أبي رافع الطائي قال بعث رسول الله ص جيشا فأمر عليهم عمرو بن العاص و فيهم أبو بكر و عمر و أمرهم

[42]

أن يستنفروا من مروا به فمروا علينا فاستنفرونا فنفرنا معهم في غزاة ذات السلاسل و هي التي تفخر بها أهل الشام فيقولون استعمل رسول الله ص عمرو بن العاص على جيش فيه أبو بكر و عمر قال فقلت و الله لأختارن في هذه الغزاة لنفسى رجلا من أصحاب رسول الله ص أستهديه فإني لست أستطيع إتيان المدينة فاخترت أبا بكر و لم آل و كان له كساء فدكي يخله عليه إذا ركب و يلبسه إذا نزل و هو الذي عيرته به هوازن بعد النبي ص و قالوا لا نبايع ذا الخلال قال فلما قضينا غزاتنا قلت له يا أبا بكر إني قد صحبتك و إن لي عليك حقا فعلمني شيئا أنتفع به فقال قد كنت أريد ذلك لو لم تقل لي تعبد الله لا تشرك به شيئا و تقيم الصلاة المكتوبة و تؤدي الزكاة المفروضة و تحج البيت و تصوم شهر رمضان و لا تتأمر على رجلين فقلت أما العبادات فقد عرفتها رأيت نهيك لي عن الإمارة و هل يصيب الناس الخير و الشر إلا بالإمارة فقال إنك استجهدتني فجهدت لك إن الناس دخلوا في الإسلام طوعا و كرها فأجارهم الله من الظلم فهم جيران الله و عواد الله و في ذمة الله فمن يظلم منكم إنما يحقر ربه و الله إن أحدكم لياخذ شوبهة جاره أو بعيه فيظلمه بأسا بجاره و الله من وراء جاره قال فلم يلبث إلا قليلا حتى أتتنا وفاة رسول الله ص فسألت من استخلف بعده قيل أبو بكر قلت أ صاحبى الذي كان ينهاني عن الإمارة فشددت على راحلتي فأتيت المدينة فجعلت أطلب خلوته حتى قدرت عليها فقلت أ تعرفني أنا فلان بن فلان أ تعرف وصية أوصيتني بها قال نعم إن رسول الله قبض و الناس حديثو عهد بالجاهلية فخشيت أن يفتنوا و أن أصحابي حملونيها فما زال يعتذر إلي حتى عذرت و صار من أمري بعد أن صرت عريفا .

قال أبو بكر و أخبرنا أبو زيد عمر بن شبة عن رجاله عن الشعبي قال قام الحسن بن علي ع إلى أبي بكر و هو يخطب على المنبر فقال له انزل عن منبر أبي فقال

[43]

أبو بكر صدقت و الله إنه لمنبر أبيك لا منبر أبي فبعث علي إلى أبي بكر إنه غلام حدث و إنا لم نأمره فقال أبو بكر صدقت إنا لم ننتهك . قال أبو بكر و روى أبو زيد عن حباب بن يزيد عن جرير عن المغيرة أن سلمان و الزبير و بعض الأنصار كان هواهم أن يبايعوا عليا بعد النبي ص فلما بويع أبو بكر قال سلمان للصحابة أصبتم الخير و لكن أخطأتم المعدن قال و في رواية أخرى أصبتم ذا السن منكم و لكنكم أخطأتم أهل بيت نبيكم أما لو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان و لأكلتموها رغدا . قلت هذا الخبر هو الذي رواه المتكلمون في باب الإمامة عن سلمان أنه قال كرديد و نكرديد تفسره الشيعة فتقول أراد أسلمتم و ما أسلمتم و يفسره أصحابنا فيقولون معناه أخطأتم و أصبتم . قال أبو بكر و أخبرنا أبو زيد قال حدثنا محمد بن يحيى قال حدثنا غسان بن عبد الحميد قال لما أكثر في تخلف علي عن البيعة و اشتد أبو بكر و عمر في ذلك خرجت أم مسطح بن أثاثة فوفقت عند قبر النبي ص و نادته يا رسول الله

قد كان بعدك أنباء و هينة
لو كنت شاهدا لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
فاختل قومك فاشهدهم و لا تغب

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز و سمعت أبا زيد عمر بن شبة يحدث رجلا بحديث لم أحفظ إسناده قال مر المغيرة بن شعبة بأبي بكر و عمر و هما جالسان على باب النبي حين قبض فقال ما يقعدكما قالا ننتظر هذا الرجل يخرج فنبايعه يعينان عليا فقال أ تريدون أن تنظروا حبل الحبله من أهل هذا البيت وسعوا في قريش تتسع .

[44]

قال فقاما إلى سقيفة بني ساعدة أو كلاما هذا معناه .

قال أبو بكر و أخبرنا أبو جعفر محمد بن عبد الملك الواسطي عن يزيد بن هارون عن سفيان بن حسين عن الزهري عن أنس بن مالك قال لما مرض رسول الله مرضه الذي مات فيه أتاه بلال يؤذنه بالصلاة فقال بعد مرتين يا بلال قد أبلغت فمن شاء فليصل بالناس و من شاء فليدع . قال و رفعت الستور عن رسول الله فنظرنا إليه كأنه ورقة بيضاء و عليه خميصة له فرجع إليه بلال فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس قال فما رأيناه بعد ذلك ع . و قال أبو بكر و حدثني أبو الحسن علي بن سليمان النوفلي قال سمعت أبا يقول ذكر سعد بن عبادة يوما عليا بعد يوم السقيفة فذكر أمرا من أمره نسيه أبو الحسن يوجب ولايته فقال له ابنه قيس بن سعد أنت سمعت رسول الله ص يقول هذا الكلام في علي بن أبي طالب ثم تطلب الخلافة و يقول أصحابك منا أمير و منكم أمير لا كلمتك و الله من رأسي بعد هذا كلمة أبدا .

قال أبو بكر و حدثني أبو الحسن علي بن سليمان النوفلي قال حدثني أبي قال حدثني شريك بن عبد الله عن إسماعيل بن خالد عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده قال قال علي كنت مع الأنصار لرسول الله ص على السمع و الطاعة له في المحبوب و المكروه فلما عز الإسلام و كثر أهله قال يا علي زد فيها على أن تمنعوا رسول الله و أهل بيته مما تمنعون منه أنفسكم و ذراريكم قال فحملها على ظهور القوم فوفى بها من وفى و هلك من هلك . قلت هذا يطابق

ما رواه أبو الفرج الأصفهاني في كتاب مقاتل الطالبين أن

جعفر بن محمد ع وقف مستترا في خفية يشاهد المحامل التي حمل عليها عبد الله بن الحسن و أهله في القيود و الحديد من المدينة إلى العراق فلما مروا به بكى و قال ما وقت الأنصار و لا أبناء الأنصار لرسول الله ص بايعهم على أن يمعنوا محمدا و أبناءه و أهله و ذريته مما يمعنون منه أنفسهم و أبناءهم و أهلهم و ذراريهم فلم يفوا اللهم اشد و طأتك على الأنصار

قال أبو بكر و حدثنا أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد قال حدثنا أحمد بن الحكم قال حدثنا عبد الله بن وهب عن ليث بن سعد قال تخلف علي عن بيعة أبي بكر فأخرج ملبيا يمضى به ركضا و هو يقول معاشر المسلمين علام تضرب عنق رجل من المسلمين لم يتخلف لخلاف و إنما تخلف لحاجة فما مر بمجلس من المجالس إلا يقال له انطلق فبايع

قال أبو بكر و حدثنا علي بن جرير الطائي قال حدثنا ابن فضل عن الأجلح عن حبيب بن ثعلبة بن يزيد قال سمعت عليا يقول أما و رب السماء و الأرض ثلاثا إنه لعهد النبي الأمي إلي لتغدرن بك الأمة من بعدي . قال أبو بكر و حدثنا أبو زيد عمر بن شبة بإسناد رفعه إلى ابن عباس قال إنني لأماشي عمر في سكة من سكك المدينة يده في يدي فقال يا ابن عباس ما أظن صاحبك إلا مظلوما فقلت في نفسي و الله لا يسبقني بها فقلت يا أمير المؤمنين فاردد إليه ظلامته فانتزع يده من يدي ثم مر بهم ساعة ثم وقف فلحقته فقال لي يا ابن عباس ما أظن القوم منعهم من صاحبك إلا أنهم استصغروه فقلت في نفسي هذه شر من الأولى فقلت و الله ما استصغره الله حين أمره أن يأخذ سورة براءة من أبي بكر

ذكر أمر فاطمة مع أبي بكر

فأما ما رواه البخاري و مسلم في الصحيحين من كيفية المبايعة لأبي بكر بهذا اللفظ الذي أورده عليك

و لإسناد إلى عائشة أن فاطمة و العباس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من النبي ص و هما حينئذ يطلبان أرضه من فدك و سهمه من خيبر فقال لهما أبو بكر إني سمعت رسول الله ص يقول إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا المال و إني و الله لا أدع أمرا رأيت رسول الله ص يصنعه إلا صنعته فهجرته فاطمة و لم تكلمه في ذلك حتى ماتت فدفنها علي ليلا و لم يؤذن بها أبا بكر و كان لعلي وجه من الناس في حياة فاطمة فلما توفيت فاطمة انصرفت وجوه الناس عن علي فمكثت فاطمة ستة أشهر ثم توفيت فقال رجل للزهري و هو الراوي لهذا الخبر عن عائشة فلم يبايعه على ستة أشهر قال و لا أحد من بني هاشم حتى بايعه علي فلما رأى ذلك ضرع إلى مبايعة أبي بكر فأرسل إلى أبي بكر أن انتنا و لا يأت معك أحد و كره أن يأتيه عمر لما عرف من شدته فقال عمر لا تأتهم وحدك فقال أبو بكر و الله لآتينهم وحدي و ما عسى أن يصنعوا بي فانطلق أبو بكر حتى دخل على علي و قد جمع بني هاشم عنده

فقام علي فحمد الله و أثنى عليه بما هو أهله ثم قال أما بعد فإنه لم يمنعنا أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضلك و لا منافسة لخير ساقه الله إليك و لكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا و ذكر قرابته من رسول الله ص و حقه فلم يزل علي يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر فلما صمت علي تشهد أبو بكر فحمد الله و أثنى عليه بما هو أهله ثم قال أما بعد

[47]

فو الله لقرابة رسول الله ص أحب إلي أن أصلها من قرابتي و إني و الله ما آوكم من هذه الأموال التي كانت بيني و بينكم

إلا الخير

و لكني سمعت رسول الله ص يقول لا نورث ما تركناه صدقة و إنما يأكل آل محمد في هذا المال و إني و الله لا أترك أمرا صنعه رسول الله ص إلا صنعته إن شاء الله قال علي موعدهك العشية للمبايعة فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس ثم عذر عليا ببعض ما اعتذر به ثم قام علي فعظم من حق أبي بكر و ذكر فضله و سابقته ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه فأقبل الناس إلى علي فقالوا أصبت و أحسنت و كان علي قريبا إلى الناس حين قارب الأمر بالمعروف . و روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز قال حدثني أبو زيد عمر بن شبة قال حدثني إبراهيم بن المنذر قال حدثنا ابن وهب عن ابن لهيعة عن أبي الأسود قال غضب رجال من المهاجرين فيبيعة أبي بكر بغير مشورة و غضب علي و الزبير فدخلوا بيت فاطمة معهما السلاح فجاء عمر في عصابة فيهم أسيد بن حضير و سلمة بن سلامة بن قريش و هما من بني عبد الأشهل فاقتحما الدار فصاحت فاطمة و ناشدتهم الله فأخذوا سيفيهما فضربوا بهما الحجر حتى كسروهما فأخرجهما عمر يسوقهما حتى بايعا . ثم قام أبو بكر فخطب الناس فاعتذر إليهم و قال إن بيعتي كانت فلتة وقي الله شرها و خشيت الفتنة و ايم الله ما حرصت عليها يوما قط و لا سألتها الله في سر و لا علانية قط و لقد قلدت أمرا عظيما ما لي به طاقة و لا يدان و لقد وددت أن أقوى الناس عليه مكاني .

[48]

فقبل المهاجرون و قال علي و الزبير ما غضبنا إلا في المشورة و إنا لنرى أبا بكر أحق الناس بها إنه لصاحب الغار و ثاني اثنين و إنا لنعرف له سنة و لقد أمره رسول الله ص بالصلاة و هو حي . قال أبو بكر و ذكر ابن شهاب بن ثابت أن قيس بن شماس أبا بني الحارث من الخزرج كان مع الجماعة الذين دخلوا بيت فاطمة . قال و روى سعد بن إبراهيم أن عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر ذلك اليوم و أن محمد بن مسلمة كان معهم و أنه هو الذي كسر سيف الزبير . قال أبو بكر و حدثني أبو زيد عمر بن شبة عن رجاله قال جاء عمر إلى بيت فاطمة في رجال من الأنصار و نفر قليل من المهاجرين فقال و الذي نفسي بيده لتخرجن إلى البيعة أو لأحرقن البيت عليكم فخرج إليه الزبير مصلتا بالسيف فاعتنقه زياد بن لبيد الأنصاري و رجل آخر فندر السيف من يده فضرب به عمر الحجر فكسره ثم أخرجهم بتلابيبهم يساقون سوقا عنيفا حتى بايعوا أبا بكر . قال أبو زيد و روى النضر بن شميل قال حمل سيف الزبير لما ندر من يده إلى أبي بكر و هو على المنبر يخطب فقال اضربوا به الحجر قال أبو عمرو بن حماس و لقد رأيت الحجر و فيه تلك الضربة و الناس يقولون هذا أثر ضربة سيف الزبير . قال أبو بكر و أخبرني أبو بكر الباهلي عن إسماعيل بن مجالد عن الشعبي قال قال أبو بكر يا عمر أين خالد بن الوليد قال هو هذا فقال انطلقا إليهما يعني عليا و الزبير فأتيتاني بهما فانطلقا فدخل عمر و وقف خالد على الباب من خارج فقال عمر للزبير ما هذا السيف قال أعدته لأبائع عليا قال و كان في البيت ناس كثير منهم المقداد بن الأسود و جمهور الهاشميين فاخترط عمر السيف فضرب به صخرة في البيت

[49]

فكسره ثم أخذ بيد الزبير فأقامه ثم دفعه فأخرجه و قال يا خالد دونك هذا فأمسكه خالد و كان خارج البيت مع خالد جمع كثير من الناس أرسلهم أبو بكر ردءا لهما ثم دخل عمر فقال لعلي قم فبايع فتلكأ و احتبس فأخذ بيده و قال قم فأبى أن يقوم فحمله و دفعه كما دفع الزبير ثم أمسكها خالد و ساقهما عمر و من معه سوقا عنيفا و اجتمع الناس ينظرون و امتلأت شوارع المدينة بالرجال

و رأت فاطمة ما صنع عمر فصرخت و ولولت و اجتمع معها نساء كثير من الهاشميات و غيرهن فخرجت إلى باب حجرتها و نادت يا أبا بكر ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله و الله لا أكلم عمر حتى ألقى الله . قال فلما بايع علي و الزبير و هدأت تلك الفورة مشى إليها أبو بكر بعد ذلك فشفع لعمر و طلب إليها فرضيت عنه . قال أبو بكر و حدثني المؤمل بن جعفر قال حدثني محمد بن ميمون قال حدثني داود بن المبارك قال أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ع و نحن راجعون من الحج في جماعة فسألناه عن مسائل و كنت أحد من سأله فسألته عن أبي بكر و عمر فقال أجيبك بما أجاب به جدي عبد الله بن الحسن فإنه سنل عنهما فقال كانت أمنا صديقة ابنة نبي مرسل و ماتت و هي غضبي على قوم فنحن غضاب لغضبها . قلت قد أخذ هذا المعنى بعض شعراء الطالبيين من أهل الحجاز أنشدني النقيب جلال الدين عبد الحميد بن محمد بن عبد الحميد العلوي قال أنشدني هذا الشاعر لنفسه و ذهب عني اسمه قال

يا أبا حفص الهوينى و ما كنت

مليا بذاك لو لا الحمام

[50]

أتموت البتول غضبي و نرضى

ما كذا يصنع البنون الكرام

يخاطب عمر و يقول له مهلا و رويدا يا عمر أي ارفق و اتند و لا تعنف بنا و ما كنت مليا أي و ما كنت أهلا لأن تخاطب بهذا و تستعطف و لا كنت قادرا على ولوج دار فاطمة على ذلك الوجه الذي ولجتها عليه لو لا أن أباه الذي كان بيتها يحترم و يسان لأجله مات فطمع فيها من لم يكن يطمع ثم قال أتموت أمنا و هي غضبي و نرضى نحن إذا لسنا بكرام فإن الولد الكريم يرضى لرضا أبيه و أمه و يغضب لغضبهما . و الصحيح عندي أنها ماتت و هي واجدة على أبي بكر و عمر و أنها أوصت ألا يصلب عليها و ذلك عند أصحابنا من الأمور المغفورة لهما و كان الأولى بهما إكرامها و احترام منزلها لكنهما خافا الفرقة و أشفقا من الفتنة ففعلا ما هو الأصلح بحسب ظنهما و كانا من الدين و قوة اليقين بمكان مكين لا شك في ذلك و الأمور الماضية يتعذر الوقوف على عللها و أسبابها و لا يعلم حقائقها إلا من قد شاهدها و لابسها بل لعل الحاضرين المشاهدين لها يعلمون باطن الأمر فلا يجوز العدول عن حسن الاعتقاد فيهما بما جرى و الله ولي المغفرة و العفو فإن هذا لو ثبت أنه خطأ لم يكن كبيرة بل كان من باب الصغائر التي لا تقتضي التبرؤ و لا توجب زوال التولي . قال أبو بكر و أخبرنا أبو زيد عمر بن شبة قال حدثنا محمد بن حاتم عن رجاله عن ابن عباس قال مر عمر بعلي و أنا معه بفناء داره فسلم عليه فقال له علي أين تريد قال البقيع قال أ فلا تصل صاحبك و يقوم معك قال بلى فقال لي علي قم معه فقامت فمشيت إلى جانبه فشبك أصابعه في أصابعي و مشينا قليلا حتى إذا خلفنا البقيع قال لي يا ابن عباس أما و الله إن صاحبك هذا لأولى الناس بالأمر بعد رسول الله ص إلا أنا خفناه على اثنين قال ابن عباس فجاء بكلام لم أجد بدا من

[51]

مسألته عنه فقلت ما هما يا أمير المؤمنين قال خفناه على حداثة سنه و حبه بني عبد المطلب . قال أبو بكر و حدثني أبو زيد قال حدثني محمد بن عباد قال حدثني أخي سعيد بن عباد عن الليث بن سعد عن رجاله عن أبي بكر الصديق أنه قال ليتني لم أكشف بيت فاطمة و لو أعلن علي الحرب .

قال أبو بكر و حدثنا الحسن بن الربيع عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن علي بن عبد الله بن العباس عن أبيه قال لما حضرت رسول الله ص الوفاة و في البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال رسول الله ص انتوني بدواة و صحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلون بعدي فقال عمر كلمة معناها أن الوجد قد غلب على رسول الله ص ثم قال عندنا القرآن حسبنا كتاب الله فاختلف من في البيت و اختصموا فمن قائل يقول القول ما قال رسول الله ص و من قائل يقول القول ما قال عمر فلما أكثروا اللغظ و اللغو و الاختلاف غضب رسول الله

فقال قوموا إنه لا ينبغي لنبي أن يختلف عنده هكذا فقاموا فمات رسول الله ص في ذلك اليوم

فكان ابن عباس يقول إن الرزية كل الرزية ما حال بيننا و بين كتاب رسول الله ص يعني الاختلاف و اللغظ . قلت هذا الحديث قد خرجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخاري و مسلم بن الحجاج القشيري في صحيحيهما و اتفق المحدثون كافة على روايته .

قال أبو بكر و حدثنا أبو زيد عن رجاله عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله

ص إن تولوها أبا بكر تجدوه ضعيفا في بدنه قويا في أمر الله و إن تولوها عمر تجدوه قويا في بدنه قويا في أمر الله و إن تولوها عليا و ما أراكم فاعلين تجدوه هاديا مهديا يحملكم على المحجة البيضاء و الصراط المستقيم

قال أبو بكر و حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح عن أحمد بن سيار عن سعيد بن كثير الأنصاري عن رجاله عن عبد الله بن عبد الرحمن أن رسول الله ص في مرض موته أمر أسامة بن زيد بن حارثة على جيش فيه جلة المهاجرين و الأنصار منهم أبو بكر و عمر و أبو عبيدة بن الجراح و عبد الرحمن بن عوف و طلحة و الزبير و أمره أن يغير على مؤتة حيث قتل أبوه زيد و أن يغزو وادي فلسطين فتناقل أسامة و تناقل الجيش بتناقله و جعل رسول الله ص في مرضه يثقل و يخف و يؤكد القول في تنفيذ ذلك البعث حتى قال له أسامة بأبي أنت و أمي أ تاذن لي أن أمكت أياما حتى يشفيك الله تعالى فقال اخرج و سر على بركة الله فقال يا رسول الله إن أنا خرجت و أنت على هذه الحال خرجت و في قلبي قرحة منك فقال سر على النصر و العافية فقال يا رسول الله إني أكره أن أسأل عنك الركبان فقال انفذ لما أمرتك به ثم أغمي على رسول الله ص و قام أسامة فتجهز للخروج فلما أفاق رسول الله ص سأل عن أسامة و البعث فأخبر أنهم يتجهزون فجعل يقول انفذوا بعث أسامة لعن الله من تخلف عنه و كرر ذلك فخرج أسامة و اللواء على رأسه و الصحابة بين يديه حتى إذا كان بالجرف نزل و معه أبو بكر و عمر و أكثر المهاجرين و من الأنصار أسيد بن حضير و بشير بن سعد و غيرهم من الوجوه فجاءه رسول أم أيمن يقول له ادخل فإن رسول الله يموت فقام من فوره فدخل المدينة و اللواء معه فجاء به حتى ركزه بباب رسول الله و رسول الله قد مات في تلك الساعة . قال فما كان أبو بكر و عمر يخاطبان أسامة إلى أن ماتا إلا بالأمير

67 - و من كلام له ع لما قلد محمد بن أبي بكر مصر فملكته عليه و قتل

وَ قَدْ أَرَدْتُ تَوَلِيَّةَ مِصْرَ هَاشِمِ بْنِ عُثْبَةَ وَ لَوْ وَ لَيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَا خَلَى لَهُمُ الْعُرْصَةَ وَ لَا أَنْهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ بِلَا دَمٍ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ
فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيبًا وَ كَانَ لِي رَبِيبًا



ذكر محمد بن أبي بكر و ذكر ولده

أم محمد بن أبي بكر أسماء بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم كانت تحت جعفر بن أبي طالب و هاجرت معه إلى الحبشة فولدت له هناك عبد الله بن جعفر الجواد ثم قتل عنها يوم مؤتة فخلف عليها أبو بكر الصديق فأولدها محمدا ثم مات عنها فخلف عليها علي بن أبي طالب و كان محمد ربيبه و خريجه و جاريا عنده مجرى أولاده رضع الولاء و التشيع مذ زمن الصبا فنشأ عليه فلم يكن يعرف له أبا غير علي و لا يعتقد لأحد فضيلة غيره حتى قال علي ع محمد ابني من صلب أبي بكر و كان يكنى أبا القاسم في قول ابن قتبية و قال غيره بل كان يكنى أبا عبد الرحمن .

[54]

و كان محمد من نساك قريش و كان ممن أعان على عثمان في يوم الدار و اختلف هل باشر قتل عثمان أم لا و من ولد محمد القاسم بن محمد بن أبي بكر فقيه الحجاز و فاضلها و من ولد القاسم عبد الرحمن بن القاسم بن محمد كان من فضلاء قريش و يكنى أبا محمد و من ولد القاسم أيضا أم فروة تزوجها الباقر أبو جعفر محمد بن علي فأولدها الصادق أبا عبد الله جعفر بن محمد ع و إلى أم فروة أشار الرضي أبو الحسن بقوله

يفأخرنا قوم بمن لم نلدهم
بتيم إذا عد السوابق أو عدي
و ينسون من لو قدموه لقدموا
عذار جواد في الجياد مقلد
فتى هاشم بعد النبي و باعها
لمرمي علا أو نيل مجد و سؤدد
و لو لا علي ما علوا سرواتها
و لا جعجعوا فيها بمرعى و مورد
أخذنا عليكم بالنبي و فاطم
طلاع المساعي من مقام و مقعد
و طلنا بسبطي أحمد و وصيه
رقاب الورى من متهمين و منجد
و حزنا عتيقا و هو غاية فخرم
بمولد بنت القاسم بن محمد
فجد نبي ثم جد خليفة
فأكرم بجدينا عتيق و أحمد

و ما افتخرت بعد النبي بغيره
يد صفت يوم البياع على يد

قوله

و لو لا علي ما علوا سرواتها

البيت ينظر فيه إلى قول المأمون في أبيات يمدح فيها عليا أولها

الأم على حبي الوصي أبا الحسن
و ذلك عندي من أعاجيب ذا الزمن

و البيت المنظور إليه منها قوله

[55]

و لولاه ما عدت لهاشم إمرة
و كان مدى الأيام يعصى و يمتهن

هاشم بن عتبة بن أبي وقاص و نسبه

و أما هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مالك بن أهييب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب
فعمه سعد بن أبي وقاص أحد العشرة و أبوه عتبة بن أبي وقاص الذي كسر رباعية رسول الله ص يوم أحد و كلم شفثيه و
شج وجهه فجعل يمسح الدم عن وجهه

و يقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم و هو يدعوهم إلى ربهم فأنزل الله عز و جل **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** . و قال حسان بن ثابت في ذلك اليوم

إذا الله حيا معشرا بفعالهم
و نصرهم الرحمن رب المشارق
فهدك ربي يا عتيب بن مالك
و لفاك قبل الموت إحدى الصواعق
بسطت يميننا للنبي محمد
فدميت فاه قطعت بالبوارج
فهلا ذكرت الله و المنزل الذي
تصير إليه عند إحدى الصعائق
فمن عاذري من عبد عذرة بعد ما
هوى في دجوجي شديد المضايق

[56]

و أورث عارا في الحياة لأهله
و في النار يوم البعث أم البوائق

و إنما قال عبد عذرة لأن عتبة بن أبي وقاص و إخوته و أقاربه في نسبهم كلام ذكر قوم من أهل النسب أنهم من عذرة و
أنهم أديعاء في قريش و لهم خبر معروف و قصة مذكورة في كتب النسب . و تنازع عبد الله بن مسعود و سعد بن أبي
وقاص في أيام عثمان في أمر فاختلفا فقال سعد لعبد الله اسكت يا عبد هذيل فقال له عبد الله اسكت يا عبد عذرة . و
هاشم بن عتبة هو المرقال سمي المرقال لأنه كان يرقل في الحرب إرقالا و هو من شيعة علي و سنفصل مقتله إذا انتهينا
إلى فصل من كلامه يتضمن ذكر صفين . فأما قوله لما خلى لهم العرصة فيعني عرصة مصر و قد كان محمد رحمه الله
تعالى لما ضاق عليه الأمر ترك لهم مصر و ظن أنه بالفرار ينجو بنفسه فلم ينج و أخذ و قتل . و قوله و لا أنهزم
الفرصة أي و لا جعلهم للفرصة منتهزين و الهمة للتعدي يقال أنهزت الفرصة إذا أنهزتها غيري . و نحن نذكر في هذا
الموضع ابتداء أمر الذين ولاهم علي ع مصر إلى أن ننتهي إلى كيفية ملك معاوية لها و قتل محمد بن أبي بكر و نقل ذلك
من كتاب إبراهيم بن سعد بن هلال الثقفي و هو كتاب الغارات

ولاية قيس بن سعد على مصر ثم عزله

قال إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان الثقفي قال حدثني علي بن محمد بن أبي سيف عن الكلبي أن محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس هو الذي حرص المصريين على قتل عثمان و ندبهم إليه و كان حينئذ بمصر فلما ساروا إلى عثمان و حصروه و ثب هو بمصر على عامل عثمان عليها و هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح أحد بني عامر بن لؤي فطرده عنها و صلى بالناس فخرج ابن أبي سرح من مصر و نزل على تخوم أرضها مما يلي فلسطين و انتظر ما يكون من أمر عثمان فطلع عليه راكب فقال له يا عبد الله ما وراءك ما خبر الناس بالمدينة قال قتل المسلمون عثمان فقال ابن أبي سرح إنا لله و إنا إليه راجعون ثم صنعوا ما ذا يا عبد الله قال بايعوا ابن عم رسول الله علي بن أبي طالب فقال ثانياة إنا لله و إنا إليه راجعون فقال الرجل أرى أن ولاية علي عدلت عندك قتل عثمان قال أجل فنظر إليه متأملا له فعرفه فقال أظنك عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر قال أجل قال إن كانت لك في الحياة حاجة فالنجاه النجاه فإن رأي علي فيك و في أصحابك إن ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين و هذا أمير تقدم بعدي عليكم قال و من الأمير قال قيس بن سعد بن عبادة فقال ابن أبي سرح أبعد الله ابن أبي حذيفة فإنه بغى على ابن عمه و سعى عليه و قد كان كفله و رباه و أحسن إليه و أمن جواره فجهز الرجال إليه حتى قتل و وثب على عامله . و خرج ابن أبي سرح حتى قدم على معاوية بدمشق .

قال إبراهيم و كان قيس بن سعد بن عبادة من شيعة علي و مناصبيه فلما ولي الخلافة قال له سر إلى مصر فقد وليتها و أخرج إلى ظاهر المدينة و اجمع ثقاتك و من

[58]

أحببت أن يصحبك حتى تأتي مصر و معك جند فإن ذلك أرب لعدوك و أعز لوليك فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن و اشتد على المريب و ارفق بالعامة و الخاصة فالرفق يمن . فقال قيس رحمك الله يا أمير المؤمنين قد فهمت ما ذكرت فأما الجند فإني أذعه لك فإذا احتجت إليهم كانوا قريبا منك و إن أردت بعثهم إلى وجه من وجوهك كان لك عدة و لكنني أسير إلى مصر بنفسي و أهل بيتي و أما ما أوصيتني به من الرفق و الإحسان فالله تعالى هو المستعان على ذلك قال فخرج قيس في سبعة نفر من أهله حتى دخل مصر فصعد المنبر و أمر بكتاب معه يقرأ على الناس فيه من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المسلمين سلام عليكم فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو أما بعد فإن الله بحسن صنعه و قدره و تدبيره اختار الإسلام دينا لنفسه و ملانكته و رسله و بعث به أنبياءه إلى عبادته فكان مما أكرم الله عز و جل به هذه الأمة و خصهم به من الفضل أن بعث محمدا ص إليهم فعلمهم الكتاب و الحكمة و السنة و الفرائض و أدبهم لكيما يهتدوا و جمعهم لكيلا يتفرقوا و زكاهم لكيما يتطهروا فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله إليه فعليه صلوات الله و سلامه و رحمته و رضوانه ثم إن المسلمين من بعده استخلفوا أميرين منهم صالحين فعملا بالكتاب و السنة و أحببا السيرة و لم يعدوا السنة ثم توفيا رحمهما الله فولى بعدهما و آل أحدث أحداثا فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ثم نعموا فغيروا ثم جاعوني فبايعوني و أنا أستهدي الله الهدى و أستعينه على التقوى ألا و إن لكم علينا العمل بكتاب الله و سنة رسوله و القيام بحقه و النصح لكم بالغيب و الله المستعان على ما تصفون و حسبنا الله و نعم الوكيل

و قد بعثت لكم قيس بن سعد الأنصاري أميراً فوازروه و أعينوه على الحق و قد أمرته بالإحسان إلى محسنكم و الشدة على مريبكم و الرفق بعوامكم و خواصكم و هو ممن أَرْضَى هديه و أرجو صلاحه و نصحه نسأل الله لنا و لكم عملاً زاكياً و ثواباً جزيلاً و رحمة واسعة و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته . و كتبه عبد الله بن أبي رافع في صفر سنة ست و ثلاثين . قال إبراهيم فلما فرغ من قراءة الكتاب قام قيس خطيباً فحمد الله و أثنى عليه و قال الحمد لله الذي جاء بالحق و أمات الباطل و كبت الظالمين أيها الناس إنا بايعنا خير من نعلم من بعد نبينا محمد ص فقوموا فبايعوا على كتاب الله و سنة رسوله فإن نحن لم نعمل بكتاب الله و سنة رسوله فلا بيعة لنا عليكم . فقام الناس فبايعوا و استقامت مصر و أعمالها لقيس و بعث عليها عماله إلا أن قرية منها قد أعظم أهلها قتل عثمان و بها رجل من بني كنانة يقال له يزيد بن الحارث فبعث إلى قيس إنا لا نأتيك فابعث عمالك فالأرض أرضك و لكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس . و وثب محمد بن مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصاري فنعى عثمان و دعا إلى الطلب بدمه فأرسل إليه قيس ويحك أ علي تثب و الله ما أحب أن لي ملك الشام و مصر و أني قتلتك فاحقن دمك فأرسل إليه مسلمة إنني كاف عنك ما دمت أنت والي مصر . و كان قيس بن سعد ذا رأي و حزم فبعث إلى الذين اعتزلوا أني لا أكرهكم على البيعة و لكني أدعكم و أكف عنكم فهادنهم و هادن مسلمة بن مخلد و جبي الخراج و ليس أحد ينازعه .

قال إبراهيم و خرج علي ع إلى الجمل و قيس على مصر و رجع من البصرة إلى الكوفة و هو بمكانه فكان أثقل خلق الله على معاوية لقرب مصر و أعمالها من الشام و مخافة أن يقبل علي بأهل العراق و يقبل إليه قيس بأهل مصر فيقع بينهما . فكتب معاوية إلى قيس و علي يومئذ بالكوفة قبل أن يسير إلى صفين من معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإنكم إن كنتم نعمتم على عثمان في أثره رأيتموها أو ضربة سوط ضربها أو في شتمه رجلاً أو تعبيره واحداً أو في استعماله الفتيان من أهله فإنكم قد علمتم إن كنتم تعلمون أن دمه لم يحل لكم بذلك فقد ركبتم عظيماً من الأمر و جنتم شينا إذا فتب يا قيس إلى ربك إن كنت من المجلبين على عثمان إن كانت التوبة قبل الموت تغني شينا و أما صاحبك فقد استيقنا أنه أغرى الناس بقتله و حملهم على قتله حتى قتلوه و أنه لم يسلم من دمه عظم قومك فإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل و تابعا على علي في أمرنا هذا و لك سلطان العراقيين إن أنا ظفرت ما بقيت و لمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان و سلمي عن غير هذا مما تحب فإنك لا تسألني شينا إلا أتيتته و اكتب إلى رأيك فيما كتبت إليك . فلما جاء إليه كتاب معاوية أحب أن يدافعه و لا يبدي له أمره و لا يعجل له حربه فكتب إليه أما بعد فقد وصل إلي كتابك و فهمت الذي ذكرت من أمر عثمان و ذلك أمر لم أقاربه و ذكرت أن صاحبي هو الذي أغرى الناس بعثمان و دسهم إليه حتى قتلوه و هذا أمر لم أطلع عليه و ذكرت لي أن عظم عشيرتي لم تسلم من دم عثمان فلعمري إن أولى

الناس كان في أمره عشيرتي و أما ما سألتني من مبايعتك على الطلب بدمه و ما عرضته علي فقد فهمته و هذا أمر لي نظر فيه و فكر و ليس هذا مما يعجل إلى مثله و أنا كاف عنك و ليس يأتيك من قبلي شيء تكرهه حتى ترى و نرى إن

شاء الله تعالى و السلام عليك و رحمة الله و بركاته . قال إبراهيم فلما قرأ معاوية كتابه لم يره إلا مقاربا مباحدا و لم يأمن أن يكون له في ذلك مخادعا مكايذا فكتب إليه أما بعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلما و لم أرك تتباعد فأعدك حربا أراك كحبل الجرور و ليس مثلي يصانع بالخداع و لا يخدع بالمكايد و معه عدد الرجال و أعة الخيل فإن قبلت الذي عرضت عليك فلك ما أعطيتك و إن أنت لم تفعل ملأت مصر عليك خيلا و رجلا و السلام . فلما قرأ قيس كتابه و علم أنه لا يقبل منه المدافعة و المطاولة أظهر له ما في نفسه فكتب إليه من قيس بن سعد إلى معاوية بن أبي سفيان أما بعد فالعجب من استسقاظك رأيي و الطمع في أن تسومني لا أبا لغيرك الخروج من طاعة أولى الناس بالأمر و أقولهم بالحق و أهداهم سبيلا و أقربهم من رسول الله و سيلة و تأمرني بالدخول في طاعتك و طاعة أبعد الناس من هذا الأمر و أقولهم بالزور و أضلهم سبيلا و أذاهم من رسول الله و سيلة و لديك قوم ضالون مضلون طواغيت من طواغيت إبليس و أما قولك إنك تملأ علي مصر خيلا و رجلا فلنن لم أشغلك عن ذلك حتى يكون منك إنك لذو جد و السلام . فلما أتى معاوية كتاب قيس أيس و ثقل مكانه عليه و كان أن يكون مكانه غيره أحب إليه لما يعلم من قوته و تأيبيه و نجدته و اشتداد أمره على معاوية فأظهر للناس أن

[62]

قيسا قد بايعكم فادعوا الله له و قرأ عليهم كتابه الذي لان فيه و قاربه و اختلق كتابا نسبه إلى قيس فقراه على أهل الشام . للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد . أما بعد إن قتل عثمان كان حدثا في الإسلام عظيما و قد نظرت لنفسي و ديني فلم أرى يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلما محرما برا تقيا فنستغفر الله سبحانه لذنوبنا و نسأله العصمة لدينا ألا و إنني قد ألقيت إليكم بالسلام و أجبته إلى قتال قتلة إمام الهدى المظلوم فاطلب مني ما أحببت من الأموال و الرجال أعجله إليك إن شاء الله و السلام على الأمير و رحمة الله و بركاته . قال فشاع في الشام كلها أن قيسا صالح معاوية و أتت عيون علي بن أبي طالب إليه بذلك فأعظمه و أكبره و تعجب له و دعا ابنه حسنا و حسينا و ابنه محمدا و عبد الله بن جعفر فأعلمهم بذلك و قال ما رأيكم فقال عبد الله بن جعفر يا أمير المؤمنين دع ما يريبك إلى ما لا يريبك اعزل قيسا عن مصر قال علي و الله إنني غير مصدق بهذا على قيس فقال عبد الله اعزله يا أمير المؤمنين فإن كان ما قد قيل حقا فلا يعتزل لك أن عزلته قال و إنهم لذلك إذ جاءهم كتاب من قيس بن سعد فيه أما بعد فإنني أخبر يا أمير المؤمنين أكرمك الله و أعزك إن قبلي رجلا معتزلين سألوني أن أكف عنهم و أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى و يرون و قد رأيت أن أكف عنهم و لا أعجل بحربهم و أن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله أن يقبل بقلوبهم و يفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله و السلام . فقال عبد الله بن جعفر يا أمير المؤمنين إنك إن أطعته في تركهم و اعتزالهم استشرى الأمر و تفاقمت الفتنة و قعد عن بيعتك كثير ممن تريده على الدخول فيها و لكن مره بقتالهم

فكتب إليه

[63]

أما بعد فسر إلى القوم الذين ذكرت فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون و إلا فناجزهم و السلام قال فلما أتى هذا الكتاب قيسا فقراه لم يتمالك أن كتب إلى علي أما بعد يا أمير المؤمنين تأمرني بقتال قوم كافين عنك و لم يمدوا يدا للفتنة و لا أرسدوا لها فأطعني يا أمير المؤمنين و كف عنهم فإن الرأي تركهم و السلام . فلما أتاه هذا الكتاب قال عبد الله بن جعفر يا

أمير المؤمنين ابعث محمد بن أبي بكر إلى مصر يكفك أمرها و اعزل قيسا فو الله لبلغني أن قيسا يقول إن سلطانا لا يتم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء و الله ما أحب أن لي سلطان الشام مع سلطان مصر و أنني قتلت ابن مخلد و كان عبد الله بن جعفر أخا محمد بن أبي بكر لأمه و كان يحب أن يكون له إمرة و سلطان فاستعمل علي ع محمد بن أبي بكر على مصر لمحبة له و لهوى عبد الله بن جعفر أخيه فيه و كتب معه كتابا إلى أهل مصر فسار حتى قدمها فقال له قيس ما بال أمير المؤمنين ما غيره أدخل أحد ببني و بينه قال لا و هذا السلطان سلطتك و كان بينهما نسب كان تحت قيس قريبة بنت أبي قحافة أخت أبي بكر الصديق فكان قيس زوج عمته فقال قيس لا و الله لا أقيم معك ساعة واحدة و غضب حين عزله علي عنها و خرج منها مقبلا إلى المدينة و لم يمض إلى علي بالكوفة . قال إبراهيم و كان قيس مع شجاعته و نجدته جوادا مفضالا فحدثني علي بن محمد بن أبي سيف عن هاشم عن عروة عن أبيه قال لما خرج قيس بن سعد من مصر فمر بأهل بيت من بلقين فنزل بمانهم فنحر له صاحب المنزل جزورا و أتاه بها فلما كان الغد نحر له أخرى ثم حبستهم السماء اليوم الثالث فنحر لهم ثالثة ثم إن السماء أقلعت

[64]

فلما أراد قيس أن يرتحل وضع عشرين ثوبا من ثياب مصر و أربعة آلاف درهم عند امرأة الرجل و قال لها إذا جاء صاحبك فادفعي هذه إليه ثم رحل فما أتت عليه إلا ساعة حتى لحقه الرجل صاحب المنزل على فرس و معه رمح و الثياب و الدراهم بين يديه فقال يا هؤلاء خذوا ثيابكم و دراهمكم فقال قيس انصرف أيها الرجل فإننا لم نكن لناخذها قال و الله لتأخذنها فقال قيس لله أبوك أ لم تكرمنا و تحسن ضيافتنا فكافأناك فليس بهذا بأس فقال الرجل إنا لا نأخذ لقرى الأضياف ثمنا و الله لا آخذها أبدا فقال قيس أما إذ أبي ألا يأخذها فخذوها فو الله ما فضلني رجل من العرب غيره . قال إبراهيم و قال أبو المنذر مر قيس في طريقه برجل من بلي يقال له الأسود بن فلان فأكرمه فلما أراد قيس أن يرتحل وضع عند امرأته ثيابا و دراهم فلما جاء الرجل دفعته إليه فلحقه فقال ما أنا باع ضيافتي و الله لتأخذن هذا أو لأنفذن الرمح بين جنبيك فقال قيس ويحكم خذوه . قال إبراهيم ثم أقبل قيس حتى قدم المدينة فجاءه حسان بن ثابت شامتا به و كان عثمانيا فقال له نزعك علي بن أبي طالب و قد قتلت عثمان فبقي عليك الإثم و لم يحسن لك الشكر فزجره قيس و قال يا أعمى القلب يا أعمى البصر و الله لو لا ألقى بين رهطي و رهطك حربا لضربت عنقك ثم أخرجه من عنده . قال إبراهيم ثم إن قيسا و سهل بن حنيف خرجا حتى قدما على علي الكوفة فخبره قيس الخبر و ما كان بمصر فصدقه و شهد مع علي صفين هو و سهل بن حنيف قال إبراهيم و كان قيس طوالا أطول الناس و أمدهم قامة و كان سناطا أصلع شيخا شجاعا مجربا مناصحا لعلي و لولده و لم يزل على ذلك إلى أن مات .

[65]

قال إبراهيم حدثني أبو غسان قال أخبرني علي بن أبي سيف قال كان قيس بن سعد مع أبي بكر و عمر في سفر في حياة رسول الله ص فكان ينفق عليهما و على غيرهما و يفضل فقال له أبو بكر إن هذا لا يقوم به مال أبوك فأمسك يدك فلما قدموا من سفرهم قال سعد بن عبادة لأبي بكر أردت أن تبخل ابني إنا لقوم لا نستطيع البخل . قال و كان قيس بن سعد يقول في دعائه اللهم ارزقني حمدا و مجدا و شكرا فإنه لا حمد إلا بفعال و لا مجد إلا بمال اللهم وسع علي فإن القليل لا يسعني و لا أسعه

ولاية محمد بن أبي بكر على مصر و أخبار مقتله

قال إبراهيم و كان عهد علي إلى محمد بن أبي بكر الذي قرئ بمصر هذا ما عهد عبد الله علي أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر أمره بتقوى الله في السر و العلانية و خوف الله تعالى في المغيب و المشهد و أمره باللين على المسلم و الغلظ على الفاجر و بالعدل على أهل الذمة و بالإنصاف للمظلوم و بالشدّة على الظالم و بالعفو عن الناس و بالإحسان ما استطاع و الله يجزي المحسنين و أمره أن يدعو من قبله إلى الطاعة و الجماعة فإن لهم في ذلك من العاقبة و عظم المثوبة ما لا يقدر قدره و لا يعرف كنهه و أمره أن يجبي خراج الأرض على ما كانت تجبي عليه من قبل و لا ينتقص و لا يبتدع ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه عليه من قبل و إن تكن لهم حاجة يواس بينهم في مجلسه و وجهه ليكون القريب و البعيد عنده على سواء و أمره أن يحكم بين الناس بالحق و أن يقوم بالقسط و لا يتبع الهوى و لا يخاف في الله لومة لائم فإن الله مع من اتقاه و آثر طاعته على من سواه

[66]

و كتبه عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله لغرة شهر رمضان سنة ست و ثلاثين . قال إبراهيم ثم قام محمد بن أبي بكر خطيبا فحمد الله و أثنى عليه و قال أما بعد فالحمد لله الذي هدانا و إياكم لما اختلف فيه من الحق و بصرنا و إياكم كثيرا مما عمي عند الجاهلون ألا و إن أمير المؤمنين ولائي أموركم و عهد إلي بما سمعتم و أوصاني بكثير منه مشافهة و لن ألوكم خيرا ما استطعت و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب فإن يكن ما ترون آثاري و أعمالي طاعة لله و تقوى فاحمدوا الله على ما كان من ذلك فإنه هو الهادي إليه فإن رأيتم من ذلك عملا بغير الحق فارعوه إلي و عاتبوني عليه فإنني بذلك أسعد و أنتم بذلك جديرون و ففنا الله و إياكم لصالح العمل .

قال إبراهيم و حدثني يحيى بن صالح عن مالك بن خالد الأسدي عن الحسن بن إبراهيم عن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن الحسن قال كتب علي ع إلى أهل مصر لما بعث محمد بن أبي بكر إليهم كتابا يخاطبهم به و يخاطب محمدا أيضا فيه أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله في سر أموركم و علانيته و على أي حال كنتم عليها و ليعلم المرء منكم أن الدنيا دار بلاء و فناء و الآخرة دار جزاء و بقاء فمن استطاع أن يؤثر ما يبقى على ما يفنى فليفلح فإن الآخرة تبقى و الدنيا تفنى رزقنا الله و إياكم بصرا لما بصرنا و فهما لما فهمنا حتى لا نقصر عما أمرنا و لا نتعدى إلى ما نهانا و اعلم يا محمد إنك و إن كنت محتاجا إلى نصيبك من الدنيا إلا أنك إلى نصيبك من الآخرة أحوج فإن عرض لك أمران أحدهما للآخرة و الآخر للدنيا فابدأ بأمر الآخرة و لتعظم رغبتك في الخير و لتحسن فيه نيتك فإن الله عز و جل يعطي العبد على قدر نيته و إذا أحب الخير و أهله و لم يعملهم كان إن شاء الله كمن عمله فإن رسول الله ص قال حين رجع من تبوك إن بالمدينة لأقواما ما سرتم من مسير و لا هببتم من واد إلا

[67]

كانوا معكم ما حبسهم إلا المرض يقول كانت لهم نية ثم اعلم يا محمد إنني قد وليتكم أعظم أجنادي أهل مصر و وليتكم ما وليتكم من أمر الناس فأنت محقوق أن تخاف فيه على نفسك و تحذر فيه على دينك و لو كان ساعة من نهار فإن استطعت

ألا تسخط ربك لرضا أحد من خلقه فافعل فإن في الله خلفا من غيره و ليس في شيء خلف منه فاشتد على الظالم و لن لأهل الخير و قريبهم إليك و اجعلهم بطانتك و إخوانك و السلام

قال إبراهيم حدثني يحيى بن صالح عن مالك بن خالد عن الحسن بن إبراهيم عن عبد الله بن الحسن بن الحسن قال كتب علي إلى محمد بن أبي بكر و أهل مصر أما بعد فاتني أوصيكم بتقوى الله و العمل بما أنتم عنه مسنولون فأنتم به رهن و إليه صانرون فإن الله عز و جل يقول **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** و قال **وَ يُحذِرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** و قال **فَو رَبِّكَ نَسْتَسْتَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** فاعلموا عباد الله أن الله سائلكم عن الصغير من أعمالكم و الكبير فإن يعذب فنحن الظالمون و إن يغفر و يرحم فهو أرحم الراحمين و اعلموا أن أقرب ما يكون العبد إلى الرحمة و المغفرة حينما يعمل بطاعة الله و مناصحته في التوبة فعليكم بتقوى الله عز و جل فإنها تجمع من الخير ما لا يجمع غيرها و يدرك بها من الخير ما لا يدرك غيرها خير الدنيا و خير الآخرة يقول الله سبحانه **وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ لِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَ لِنِعْمِ دَارُ الْمُتَّقِينَ** و اعلموا عباد الله أن المؤمنين المتقين قد ذهبوا بعاجل الخير و أجله شركوا أهل الدنيا في دنياهم

[68]

و لم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم يقول الله عز و جل **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت و أكلوها بأفضل ما أكلت شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا من أفضل ما يأكلون و شربوا من أفضل ما يشربون و يلبسون من أفضل ما يلبسون و يسكنون من أفضل ما يسكنون أصابوا لذة أهل الدنيا مع أهل الدنيا مع أنهم غدا من جيران الله عز و جل يتمنون عليه لا يرد لهم دعوة و لا ينقص لهم لذة أما في هذا ما يشتاق إليه من كان له عقل و اعلموا عباد الله أنكم إذا اتقيتم ربكم و حفظتم نبيكم في أهل بيته فقد عبدتموه بأفضل ما عبد و ذكركمته بأفضل ما ذكر و شكرتموه بأفضل ما شكر و أخذتم بأفضل الصبر و جاهدتم بأفضل الجهاد و إن كان غيركم أطول صلاة منكم و أكثر صياما إذا كنتم اتقى الله و أنصح لأولياء الله من آل محمد ص و أخشع و احذروا عباد الله الموت و نزوله و خذوله فإنه يدخل بأمر عظيم خير لا يكون معه شر أبدا أو شر لا يكون معه خير أبدا و ليس أحد من الناس يفارق روحه جسده حتى يعلم إلى أي المنزلتين يصير إلى الجنة أم إلى النار أ عدو هو الله أم ولي له فإن كان ولما فتحت له أبواب الجنة و شرع له طريقها و نظر إلى ما أعد الله عز و جل لأوليائه فيها فرغ من كل شغل و وضع عنه كل ثقل و إن كان عدوا فتحت له أبواب النار و سهل له طريقها و نظر إلى ما أعد الله فيها لأهلها و استقبل كل مكروه و فارق كل سرور قال الله تعالى **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا سَلَامًا مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ** و اعلموا عباد الله أن الموت ليس منه فوت فاحذروه و أعدوا له عدته فإنكم

[69]

طرداء للموت إن قمتم أخذكم و إن هربتم أدرككم و هو ألزم لكم من ظلكم معقود بنواصيكم و الدنيا تطوى من خلفكم فأكثروا ذكر الموت عند ما تنازعكم إليه أنفسكم من الشهوات فإنه كفى بالموت واعظا قال رسول الله ص أكثروا ذكر الموت فإنه هادم اللذات و اعلموا عباد الله أن ما بعد الموت أشد من الموت لمن لم يغفر الله له و يرحمه و احذروا القبر و

ضمته و ضيقه و ظلمته فإنه الذي يتكلم كل يوم أنا بيت التراب و أنا بيت الغربة و أنا بيت الدود و القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار إن المسلم إذا مات قالت له الأرض مرحبا و أهلا قد كنت ممن أحب أن تمشي على ظهري فإذا وليتك فستعلم كيف صنعني بك فيتسع له مد بصره و إذا دفن الكافر قالت له الأرض لا مرحبا و لا أهلا قد كنت ممن أبغض أن تمشي على ظهري فإذا وليتك فستعلم كيف صنعني بك فتضم عليه حتى تلتقي أضلاعه و اعلموا أن المعيشة الضنك التي قال سبحانه **فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا** هي عذاب القبر فإنه يسلط على الكافر في قبره حيات عظام تنهش لحمه حتى يبعث لو أن تينا منها نفخ الأرض ما أنبت الزرع أبدا اعلموا عباد الله أن أنفسكم و أجسادكم الرقيقة الناعمة التي يكفيها اليسير من العقاب ضعيفة عن هذا فإن استطعتم أن ترحموا أنفسكم و أجسادكم مما لا طاقة لكم به و لا صبر لكم عليه فعملوا بما أحب الله سبحانه و تتركوا ما كره فافعلوا و لا حول و لا قوة إلا بالله و اعلموا عباد الله أن ما بعد القبر أشد من القبر يوم يشيب فيه الصغير و يسكر فيه

[70]

الكبير و تذهل كل مرضعة عما أرضعت و احذروا يوما عبوسا قمطريرا كان شره مستطيرا أما إن شر ذلك اليوم و فزعه استطار حتى فزعت منه الملائكة الذين ليست لهم ذنوب و السبع الشداد و الجبال الأوتاد و الأرضون المهاد و انشقت السماء فهي يومئذ واهية و تغيرت فكانت وردة كالدهان و كانت الجبال سرابا بعد ما كانت صما صلابا يقول الله سبحانه **و نَفِخْ فِي الصُّورِ فَصَاحَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ** كيف بمن يعصيه بالسمع و البصر و اللسان و اليد و الفرج و البطن إن لم يغفر الله و يرحم و اعلموا عباد الله أن ما بعد ذلك اليوم أشد و أدهى نار قعرها بعيد و حرها شديد و عذابها جديد و مقامها حديد و شرابها صديد لا يفتر عذابها و لا يموت ساكنها دار ليست لله سبحانه فيها رحمة و لا يسمع فيها دعوة و مع هذا رحمة الله التي وسعت كل شيء لا تعجز عن العباد و جنة عرضها كعرض السماء و الأرض خير لا يكون بعده شر أبدا و شهوة لا تنفد أبدا و لذة لا تفنى أبدا و مجمع لا يتفرق أبدا قوم قد جاؤوا الرحمن و قام بين أيديهم الغلمان بصحاف من ذهب فيها الفاكهة و الريحان و إن أهل الجنة يزورون الجبار سبحانه في كل جمعة فيكون أقربهم منه على منابر من نور و الذين يلونهم على منابر من ياقوت و الذين يلونهم على منابر من مسك فبينما هم كذلك ينظرون الله جل جلاله و ينظر الله في وجوههم إذ أقبلت سحابة تغشاهم فتمطر عليهم من النعمة و اللذة و السرور و البهجة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه و مع هذا ما هو أفضل منه رضوان الله الأكبر أما إنا لو لم نخوف إلا ببعض ما خوفنا به لكننا محقوقين أن يشتد خوفنا مما لا طاقة

[71]

لنا به و لا صبر لقوتنا عليه و أن يشتد شوقنا إلى ما لا غنى لنا عنه و لا بد لنا منه فإن استطعتم عباد الله أن يشتد خوفكم من ربكم فافعلوا فإن العبد إنما تكون طاعته على قدر خوفه و إن أحسن الناس لله طاعة أشدهم له خوفا و انظر يا محمد صلاتك كيف تصليتها فإنما أنت إمام ينبغي لك أن تتمها و أن تخففها و أن تصليتها لوقتها فإنه ليس من إمام يصلى بقوم فيكون في صلاته و صلاتهم نقص إلا كان إثم ذلك عليه و لا ينقص من صلاتهم شيئا و اعلم أن كل شيء من عملك يتبع صلاتك فمن ضيع الصلاة فهو لغيرها أشد تضييعا و وضوعك من تمام الصلاة فأت به على وجهه فالوضوء نصف الإيمان أسأل الله الذي يرى و لا يرى و هو بالمنظر الأعلى أن يجعلنا و إياك من المتقين الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون فإن

استطعت يا أهل مصر أن تصدق أقوالكم أفعالكم وأن يتوافق سركم و علانيتكم و لا تخالف ألسنتكم قلوبكم فافعلوا عصمنا الله و إياكم بالهدى و سلك بنا و بكم المحجة الوسطى و إياكم و دعوة الكذاب ابن هند و تأملوا و اعلموا أنه لا سوى إمام الهدى و إمام الردى و وصي النبي و عدو النبي جعلنا الله و إياكم ممن يحب و يرضى و لقد سمعت رسول الله ص يقول إني لا أخاف على أمتي مؤمنا و لا مشركا أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه و أما المشرك فيخزيه الله بشركه و لكني أخاف عليهم كل منافق اللسان يقول ما تعرفون و يفعل ما تنكرون و اعلم يا محمد أن أفضل الفقه الورع في دين الله و العمل بطاعته فعليك بالتقوى في سر أمرك و علانيته أوصيك بسبع هن جوامع الإسلام اخش الله و لا تخش الناس في الله و خير القول ما صدقه العمل و لا تقض في أمر واحد بقضاءين مختلفين فيتناقض

[72]

أمرك و تزيغ عن الحق و أحب لعامة رعيتك ما تحبه لنفسك و اكره لهم ما تكره لنفسك و أصلح أحوال رعيتك و خض الغمرات إلى الحق و لا تخف لومة لائم و انصح لمن استشارك و اجعل نفسك أسوة لقريب المسلمين و بعيدهم جعل الله خلتنا و ودنا خلة المتقين و ود المخلصين و جمع بيننا و بينكم في دار الرضوان إخوانا على سرر متقابلين إن شاء الله . قال إبراهيم بن سعد الثقفي فحدثني عبد الله بن محمد بن عثمان عن علي بن محمد بن أبي سيف عن أصحابه أن عليا لما كتب إلى محمد بن أبي بكر هذا الكتاب كان ينظر فيه و يتأدب بأدبه فلما ظهر عليه عمرو بن العاص و قتله أخذ كتبه أجمع فبعث بها إلى معاوية فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب و يتعجب منه فقال الوليد بن عقبة و هو عند معاوية و قد رأى إعجابه به مر بهذه الأحاديث أن تحرق فقال معاوية مه لا رأي لك فقال الوليد أ فمن الرأي أن يعلم الناس أن أحاديث أبي تراب عندك تتعلم منها قال معاوية ويحك أ تأمرني أن أحرق علما مثل هذا و الله ما سمعت بعلم هو أجمع منه و لا أحكم فقال الوليد إن كنت تعجب من علمه و قضائه فعلام تقاتله فقال لو لا أن أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه ثم سكت هنيهة ثم نظر إلى جلسائه فقال إنا لا نقول إن هذه من كتب علي بن أبي طالب و لكن نقول هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد فنحن ننظر فيها و نأخذ منها . قال فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أمية حتى ولي عمر بن عبد العزيز فهو الذي أظهر أنها من أحاديث علي بن أبي طالب ع . قلت الأليق أن يكون الكتاب الذي كان معاوية ينظر فيه و يعجب منه

[73]

و يفتي به و يقضي بقضاياه و أحكامه هو عهد علي ع إلى الأشر فإنه نسيج وحده و منه تعلم الناس الآداب و القضاياء و الأحكام و السياسة و هذا العهد صار إلى معاوية لما سم الأشر و مات قبل وصوله إلى مصر فكان ينظر فيه و يعجب منه و حقيق من مثله أن يقتنى في خزائن الملوك . قال إبراهيم فلما بلغ عليا ع أن ذلك الكتاب صار إلى معاوية اشتد عليه حزنا .

و حدثني بكر بن بكار عن قيس بن الربيع عن ميسرة بن حبيب عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة قال صلى بنا علي ع فلما انصرف قال

لقد عثرت عثرة لا أعتذر
سوف أكيس بعدها و أستم
و أجمع الأمر الشتيت المنتشر

فقلنا ما بالك يا أمير المؤمنين فقال إني استعملت محمد بن أبي بكر على مصر فكتب إلى أنه لا علم لي بالسنة فكتبت إليه كتابا فيه أدب و سنة فقتل و أخذ الكتاب قال إبراهيم فحدثني عبد الله محمد عن ابن أبي سيف المدائني قال فلم يلبث محمد بن أبي بكر شهرا كاملا حتى بعث إلى أولئك المعتزلين الذين كان قيس بن سعد موادعا لهم فقال يا هؤلاء أما أن تدخلوا في طاعتنا و أما أن تخرجوا من بلادنا فبعثوا إليه أنا لا نفعل فدعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس فلا تعجل علينا فأبى عليهم فامتنعوا منه و أخذوا حذرهم ثم كانت وقعة صفين و هم لمحمد هانبون فلما أتاهم خبر معاوية و أهل الشام ثم صار الأمر إلى الحكومة و أن عليا و أهل العراق قد قفلوا عن معاوية و الشام إلى عراقهم اجترعوا على محمد بن أبي بكر و أظهروا المنابذة له فلما رأى محمد ذلك بعث إليهم ابن جمهان البلوي و معه يزيد بن الحارث الكناني فقاتلهم

[74]

فقتلوهما ثم بعث إليهم رجلا من كلب فقتلوه أيضا و خرج معاوية بن حديج من السكاسك يدعو إلى الطلب بدم عثمان فأجابته القوم و ناس كثير آخرون و فسدت مصر على محمد بن أبي بكر فبلغ عليا توثبهم عليه فقال ما أرى لمصر إلا أحد الرجلين صاحبنا الذي عزلنا بالأمس يعني قيس بن سعد بن عبادة أو مالك بن الحارث الأشتر و كان علي حين رجع عن صفين رد الأشتر إلى عمله بالجزيرة و قال لقيس بن سعد أقم أنت معي على شرطتي حتى نفرغ من أمر هذه الحكومة ثم اخرج إلى آذربيجان فكان قيس مقبما على شرطته فلما أن انقضى أمر الحكومة

كتب علي إلى الأشتر و هو يومئذ بنصيبين أما بعد فإنك ممن أستظهر به على إقامة الدين و أقمع به نخوة الأئيم و أسد به الثغر المخوف و قد كنت وليت محمد بن أبي بكر مصر فخرجت عليه خوارج و هو غلام حدث السن ليس بذئ تجربة للحروب فاقدم علي لئنظر فيما ينبغي و استخلف على عملك أهل الثقة و النصيحة من أصحابك و السلام . فأقبل الأشتر إلى علي و استخلف على عمله شبيب بن عامر الأزدي و هو جد الكرمانى الذي كان بخراسان صاحب نصر بن سيار فلما دخل الأشتر على علي حدثه حديث مصر و خبره خبر أهلها و قال له ليس لها غيرك فاخرج إليها رحمك الله فإني لا أوصيك اكتفاء برأيك و استعن بالله على ما أهمك و اخلط الشدة باللين و ارفق ما كان الرفق أبلغ و اعتزم على الشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة . فخرج الأشتر من عنده فأتى برحله و أتت معاوية عيونته فأخبروه بولاية الأشتر مصر فعظم ذلك عليه و قد كان طمع في مصر فعلم أن الأشتر إن قدم عليها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر فبعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به و قال له إن الأشتر قد ولي مصر فإن كفتيتيه لم أخذ منك خراجا ما بقيت و بقيت فاحتل في هلاكه ما قدرت عليه .

[75]

فخرج الأشتر حتى انتهى إلى القلزم حيث تركب السفن من مصر إلى الحجاز فأقام به فقال له ذلك الرجل و كان ذلك المكان مكانه أيها الأمير هذا منزل فيه طعام و علف و أنا رجل من أهل الخراج فأقم و استرح و أتاه بالطعام حتى إذ طعم سقاه شربة عسل قد جعل فيها سما فلما شربها مات .

قال إبراهيم و قد كان أمير المؤمنين كتب على يد الأشتر كتابا إلى أهل مصر روى ذلك الشعبي عن صعصعة بن صوحان من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من بمصر من المسلمين سلام الله عليكم فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو أما بعد فإني قد بعثت إليكم عبدا من عباد الله لا ينام أيام الخوف و لا ينكل عن الأعداء حذار الدوائر لا تأكل من قدم و لا واه في عزم من أشد عباد الله بأسا و أكرمهم حسبا أضرب على الفجار من حريق النار و أبعد الناس من دنس أو عار و هو مالك بن الحارث الأشتر حسام صارم لا نابي الضريبة و لا كليل الحد حلیم في السلم رزين في الحرب ذو رأي أصيل و صبر جميل فاسمعوا له و أطيعوا أمره فإن أمركم بالنفر فانفروا و إن أمركم أن تقيموا فأقيموا فإنه لا يقدم و لا يحجم إلا بأمرى و قد آثرتم به على نفسي نصيحة لكم و شدة شكيمه على عدوكم عصمكم الله بالهدى و ثبتكم بالتقوى و وفقنا و إياكم لما يحب و يرضى و السلام عليكم و رحمة الله . قال إبراهيم و روى جابر عن الشعبي قال هلك الأشتر حين أتى عقبة أفيق . قال إبراهيم و حدثنا وطبة بن العلاء بن المنهال الغنوي عن أبيه عن عاصم

[76]

بن كليب عن أبيه أن عليا لما بعث الأشتر إلى مصر واليا عليها و بلغ معاوية خبره بعث رسولا يتبع الأشتر إلى مصر و أمره باغتياله فحمل معه مزودين فيهما شراب و صحب الأشتر فاستسقى الأشتر يوما فسقاه من أحدهما ثم استسقى يوما آخر منه فسقاه من الآخر و فيه سم فشربه فمالت عنقه و طلب الرجل ففاتهم . قال إبراهيم و حدثنا محرز بن هشام عن جرير بن عبد الحميد عن مغيرة الضبي أن معاوية دس للأشتر مولى لآل عمر فلم يزل المولى يذكر للأشتر فضل علي و بني هاشم حتى اطمأن إليه و استأنس به فقدم الأشتر يوما ثقله أو تقدم ثقله فاستسقى ماء فقال له مولى آل عمر و هل لك في شربة سويق فسقاه شربة سويق فيها سم فمات . و قد كان معاوية قال لأهل الشام لما دس إليه مولى آل عمر ادعوا على الأشتر فدعوا عليه فلما بلغه موته قال أ لا ترون كيف استجيب لكم . قال إبراهيم قد روي من بعض الوجوه أن الأشتر قتل بمصر بعد قتال شديد . و الصحيح أنه سقى سما فمات قبل أن يبلغ مصر . قال إبراهيم و حدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان عن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني أن معاوية أقبل يقول لأهل الشام أيها الناس إن عليا قد وجه الأشتر إلى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه فكانوا يدعون عليه في دبر كل صلاة و أقبل الذي سقاه السم إلى معاوية فأخبره بهلاك الأشتر فقام معاوية في الناس خطيبا فقال أما بعد فإنه كان لعلي بن أبي طالب يدان يمينان فقطعت إحداهما يوم صفين و هو عمار بن ياسر و قد قطعت الأخرى اليوم و هو مالك الأشتر .

[77]

قال إبراهيم فلما بلغ عليا موت الأشتر قال إنا لله و إنا إليه راجعون و الحمد لله رب العالمين اللهم إني أحتسبه عندك فإن موته من مصائب الدهر ثم قال رحم الله مالكا فلقد وفي بعهد و قضى نحبه و لقي ربه مع أنا قد وطننا أنفسنا أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله ص فإنها من أعظم المصيبات . قال إبراهيم و حدثنا محمد بن هشام المرادي عن جرير بن عبد الحميد عن مغيرة الضبي قال لم يزل أمر علي شديدا حتى مات الأشتر و كان الأشتر بالكوفة أسود من الأحنف بالبصرة .

قال إبراهيم و حدثنا محمد بن عبد الله عن ابن أبي سيف المدائني عن جماعة من أشياخ النخع قالوا دخلنا على أمير المؤمنين حين بلغه موت الأشتر فوجدناه يتلهف و يتأسف عليه ثم قال لله در مالك و ما مالك لو كان من جبل لكان فندا و

لو كان من حجر لكان صلدا أما والله ليهدن موتك عالما و ليفرحن عالما على مثل مالك فلتبك البواكي و هل مرجو كمالك و هل موجود كمالك . قال علقمة بن قيس النخعي فما زال علي يتلهف و يتأسف حتى ظننا أنه المصاب به دوننا و عرف ذلك في وجهه أياما .

قال إبراهيم و حدثنا محمد بن عبد الله عن المدائني قال حدثنا مولى للأشتر قال لما هلك الأشتر أصيب في ثقله رسالة علي إلى أهل مصر من عبد الله أمير المؤمنين إلى النفر من المسلمين الذين غضبوا الله إذ عصي في الأرض و ضرب الجور برواقه على البر و الفاجر فلا حق يستراح إليه و لا منكر يتناهى عنه سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو

[78]

أما بعد فقد وجهت إليكم عبدا من عباد الله لا ينام في الخوف و لا ينكل من الأعداء حذار الدوائر أشد على الكافرين من حريق النار و هو مالك بن الحارث الأشتر أخو مذحج فاسمعوا له و أطيعوا فإنه سيف من سيوف الله لا نابي الضريبة و لا كليل الحد فإن أمركم أن تقيموا فأقيموا و إن أمركم أن تنفروا فأنفروا و إن أمركم أن تحجموا فأحجموا فإنه لا يقدم و لا يحجم إلا بأمري و قد آثرتكم به على نفسي لنصيحتته و شدة شكيمته على عدوه عصمكم الله بالحق و ثبتكم بالتقوى و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

قال إبراهيم و حدثنا محمد بن عبد الله عن المدائني عن رجالة أن محمد بن أبي بكر لما بلغه أن عليا قد وجه الأشتر إلى مصر شق عليه فكتب ع إليه عند مهلك الأشتر أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك و لم أفعل ذلك استبطاء لك عن الجهاد و لا استزادة لك مني في الجد و لو نزع ما حوت يداك من سلطانك لوليتك ما هو أيسر منونة عليك و أعجب ولاية إليك ألا إن الرجل الذي وليته مصر كان رجلا لنا مناصحا و هو على عدونا شديد فرحمة الله عليه فقد استكمل أيامه و لاقى حمامه و نحن عنه راضون فرضي الله عنه و ضاعف له الثواب و أحسن له المآب فاصحر لعدوك و شمر للحرب و ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعدة الحسنة و أكثر ذكر الله و الاستعانة به و الخوف منه يكفك ما همك و يعنك على ما ولاك أعاننا الله و إياك على ما لا ينال إلا برحمته و السلام . قال فكتب محمد بن أبي بكر إليه جوابه

[79]

إلى عبد الله أمير المؤمنين من محمد بن أبي بكر . سلام عليكم فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فقد انتهى إلي كتاب أمير المؤمنين و فهمته و عرفت ما فيه و ليس أحد من الناس أشد على عدو أمير المؤمنين و لا أراف و أرق لوليه مني و قد خرجت فعسكرت و أمنت الناس إلا من نصب لنا حربا و أظهر لنا خلافا و أنا أتبع أمر أمير المؤمنين و حافظ و لاجئ إليه و قائم به و الله المستعان على كل حال و السلام على أمير المؤمنين و رحمة الله و بركاته . قال إبراهيم فحدث محمد بن عبد الله بن عثمان عن ابن سيف المدائني عن أبي جهضم الأزدي أن أهل الشام لما انصرفوا عن صفين كانوا ينتظرون ما يأتي به الحكمان فلما انصرفا و تفرقا و بايع أهل الشام معاوية بالخلافة لم يزد معاوية إلا قوة و اختلف أهل العراق على علي بن أبي طالب فلم يكن هم معاوية إلا مصر و قد كان لأهلها هانبا لقربهم منه و شدتهم على من كان على رأي عثمان و قد كان علم أن بها قوما قد ساءهم قتل عثمان و خالفوا عليا مع أنه كان يرجو أن يكون له فيها معاونة إذا ظهر عليها على حرب علي لوفور خراجها فدعا معاوية من كان معه من قريش و هم عمرو بن العاص السهمي و حبيب

بن مسلمة الفهري و بسر بن أبي أرطاة العامري و الضحاك بن قيس الفهري و عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي و دعا من غير قریش نحو شرحبیل بن السمط الحميري و أبي الأعرور السلمي و حمزة بن مالك الهمداني فقال أتدرون لما ذا دعوتكم قالوا لا قال فإني دعوتكم لأمر هو لي مهم و أرجو أن يكون الله عز و جل قد أعان عليه فقال له القوم أو من قال له منهم إن الله لم يطلع على غيبه أحدا و لسنا ندري ما تريد فقال عمرو بن العاص أرى و الله أن أمر هذه البلاد المصرية لكثرة خراجها و عدد أهلها قد أهمك

[80]

فدعوتنا تسألنا عن رأينا في ذلك فإن كنت لذلك دعوتنا و له جمعتنا فاعزم و اصرم و نعم الرأي ما رأيت إن في افتتاحها عزك و عز أصحابك و ذل عدوك و كبت أهل الخلاف عليك . قال معاوية أهمك ما أهمك يا ابن العاص و ذلك أن عمرا كان بايع معاوية على قتال علي و أن مصر له طعمه ما بقي فأقبل معاوية على أصحابه و قال إن هذا يعني ابن العاص قد ظن و حقق ظنه قالوا و لكنا لا ندري و لعل أبا عبد الله قد أصاب فقال عمرو و أنا أبو عبد الله إن أفضل الظنون ما شابه اليقين . ثم إن معاوية حمد الله و أتى عليه ثم قال أما بعد فقد رأيتكم كيف صنع الله لكم في حربكم هذه على عدوكم و لقد جاءوكم و هم لا يشكون أنهم يستأصلون بيضتكم و يجوزون بلادكم ما كانوا يرون إلا أنكم في أيديهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا و كفى الله المؤمنين القتال و كفاكم منونتهم . و حاكمتموهم إلى الله فحكم لكم عليهم ثم جمع كلمتنا و أصلح ذات بيننا و جعلهم أعداء متفرقين يشهد بعضهم على بعض بالكفر و يسفك بعضهم دم بعض و الله إني لأرجو أن يتم الله لنا هذا الأمر و قد رأيت أن أحاول حرب مصر فما ذا ترون . فقال عمرو بن العاص قد أخبرتك عما سألت و أشرت عليك بما سمعت . فقال معاوية ما ترون فقالوا نرى ما رأى عمرو بن العاص فقال معاوية إن عمرا قد عزم و صرم بما قال و لم يفسر كيف ينبغي أن نصنع . قال عمرو فإني مشير عليك بما تصنع أرى أن تبعث جيشا كثيفا عليهم رجل صارم تأمنه و تثق به فيأتي مصر فيدخلها فإنه سيأتينا من كان على مثل رأينا من أهلها فنظاهاه على من كان من عدونا فإن اجتمع بها جندك و من كان بها من شيعتك على من بها من أهل حربك رجوت الله أن يعز نصرك و يظهر فلجك .

[81]

فقال معاوية هل عندك شيء غير هذا نعمله فيما بيننا و بينهم قبل هذا قال ما أعلمه . قال معاوية فإن رأيت غير هذا أرى أن نكاتب من كان بها من شيعتنا و من كان بها من عدونا فأما شيعتنا فأمرهم بالثبات على أمرهم و نمنيهم قدومنا عليهم و أما من كان بها من عدونا فندعوهم إلى صلحنا و نمنيهم شكرنا و نخوفهم حربنا فإن صلح لنا ما قبلهم من غير حرب و لا قتال فذلك ما أحببنا و إلا فحربهم من وراء ذلك . إنك يا ابن العاص لامرؤ بورك لك في العجلة و بورك لي في التؤدة . قال عمرو فاعمل بما أراك الله فو الله ما أرى أمرك و أمرهم يصير إلا إلى الحرب . قال فكتب معاوية عند ذلك إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري و إلى معاوية بن حديج الكندي و كانا قد خالفا عليا أما بعد فإن الله عز و جل قد ابتعثنا لأمر عظيم أعظم به أجركما و رفع درجتكما و مرتبتكما في المسلمين طلبتما بدم الخليفة المظلوم و غضبتما لله إذ ترك حكم الكتاب و جاهدتما أهل الظلم و العدوان فأبشرا برضوان الله و عاجلا نصرة أولياء الله و المواساة لكما في دار الدنيا و سلطاننا حتى ينتهي ذلك إلى ما يرضيكما و يؤدي به حقا فالزما أمركما و جاهدا عدوكما و ادعوا المدبرين منكما إلى هداكما فكان

الجيش قد أظل عليكما فاندفع كل ما تکرهان و دام كل ما تهويان و السلام عليكما و رحمة الله . و بعث بالكتاب مع مولى له يقال له سبيع فخرج بكتابه حتى قدم به عليهما بمصر

[82]

و محمد بن أبي بكر يومئذ أميرها قد ناصبه هؤلاء النفر الحرب و هم هانبون الإقدام عليه فدفع الكتاب إلى مسلمة بن مخلد فقرأه فقال الق به معاوية بن حديج ثم القني به حتى أجيب عني و عنه فانطلق الرسول بكتاب معاوية فأقرأه إياه ثم قال له إن مسلمة قد أمرني أن أرد الكتاب إليه لكي يجيب عنك و عنه قال قل له فليفعل فأتى مسلمة بالكتاب فكتب الجواب عنه و عن معاوية بن حديج أما بعد فإن هذا الأمر الذي قد ندبنا له أنفسنا و ابتغيا الله به على عدونا أمر نرجو به ثواب ربنا و النصر على من خالفنا و تعجيل النعمة على من سعى على إمامنا و طأطأ الركض في مهادنا و نحن بهذه الأرض قد نفينا من كان بها من أهل البغي و أنهضنا من كان بها من أهل القسط و العدل و قد ذكرت موازرتك في سلطانتك و ذات يدك و بالله إنه لا من أجل مال نهضنا و لا إياه أردنا فإن يجمع الله لنا ما نريد و نطلب أو يرينا ما تمنينا فإن الدنيا و الآخرة لله رب العالمين و قد يثوبهما الله جميعا عالما من خلقه كما قال في كتابه **فَاتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَ حُسْنَ تَوَابِ الآخِرَةِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** عجل لنا بخيلك و رجلك فإن عدونا قد كان علينا جريئا و كنا فيهم قليلا و قد أصبحوا لنا هانبين و أصبحنا لهم منابذين فإن يأتنا مدد من قبلك يفتح الله عليك و لا قوة إلا بالله و هو حسبنا و نعم الوكيل . قال فجاء هذا الكتاب معاوية و هو يومئذ بفلسطين فدعا النفر الذين سميناهم من قريش و غيرهم و أقرأهم الكتاب و قال لهم ما ذا ترون قالوا نرى أن تبعث إليهم جيشا من قبلك فأنت مفتتحها إن شاء الله بإذن الله . قال معاوية فتجهز إليها يا أبا عبد الله يعني عمرو بن العاص فبعثه في ستة آلاف

[83]

فخرج يسير و خرج معه معاوية يودعه فقال له معاوية عند وداعه إياه أوصيك بتقوى الله يا عمرو و بالرفق فإنه يمن و بالتؤدة فإن العجلة من الشيطان و بأن تقبل من أقبل و تعفو عن أدبر أنظره فإن تاب و أناب قبلت منه و إن أبى فإن السطوة بعد المعرفة أبلغ في الحجة و أحسن في العاقبة و ادع الناس إلى الصلح و الجماعة فإن أنت ظفرت فليكن أنصارك أبر الناس عندك و كل الناس فأول حسنا . قال فسار عمرو في الجيش حتى دنا من مصر فاجتمعت إليه العثمانية فأقام و كتب إلى محمد بن أبي بكر أما بعد ففتح عني بدمك يا ابن أبي بكر فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر و إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك و رفض أمرك و ندموا على اتباعك و هم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فإني لك من الناصحين و السلام . قال و بعث عمرو إلى محمد مع هذا الكتاب كتاب معاوية إليه و هو أما بعد فإن غب الظلم و البغي عظيم الوبال و إن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النعمة في الدنيا و التبعة الموبقة في الآخرة و ما نعلم أحدا كان أعظم على عثمان بغيا و لا أسوأ له عيبا و لا أشد عليه خلافا منك سعيت عليه في الساعين و ساعدت عليه مع المساعدين و سفكت دمه مع السافكين ثم تظن أني نانم عنك فتأتي بلده فتأمن فيها و جل أهلها أنصاري يرون رأيي و يرفضون قولك و يستصرخونني عليك و قد بعثت إليك قوما حناقا عليك يسفكون دمك و يتقربون إلى الله عز و جل بجهدك و قد أعطوا الله عهدا ليقتلنك و لو لم يكن منهم إليك ما قالوا لقتلك الله بأيديهم أو بأيدي غيرهم من أوليائه و أنا أحذرك و أندرك فإن الله مقيد منك و مقتص لوليه و خليفته بظلمك له و بغيك عليه

و وقيعتك فيه و عداوتك يوم الدار عليه تطعن بمشاقصك فيما بين أحشانه و أوداجه و مع هذا فإني أكره قتلك و لا أحب أن أتولى ذلك منك و لن يسلمك الله من النقمة أين كنت أبدا فتتح و انج بنفسك و السلام . قال فطوى محمد بن أبي بكر كتابيهما و بعث بهما إلى علي ع و كتب إليه أما بعد يا أمير المؤمنين فإن العاصي ابن العاص قد نزل أداني مصر و اجتمع إليه من أهل البلد من كان يرى رأيهم و هو في جيش جرار و قد رأيت ممن قبلي بعض الفشل فإن كان لك في أرض مصر حاجة فامدني بالأموال و الرجال و السلام عليك و رحمة الله و بركاته .

قال فكتب إليه علي أما بعد فقد أتاني رسولك بكتابك تذكر أن ابن العاص قد نزل في جيش جرار و أن من كان على مثل رأيه قد خرج إليه و خروج من كان يرى رأيه خير لك من إقامته عندك و ذكرت أنك قد رأيت ممن قبلك فشلا فلا تفشل و إن فشلوا حصن قريتك و اضمم إليك شيعتك و أذك الحرس في عسكريك و اندب إلى القوم كنانة بن بشر المعروف بالنصيحة و التجربة و البأس و أنا نادب إليك الناس على الصعب و الذلول فاصبر لعدوك و امض على بصيرتك و قاتلهم على نيتك و جاهدهم محتسبا لله سبحانه و إن كانت فتك أقل الفنتين فإن الله تعالى يعين القليل و يخذل الكثير و قد قرأت كتابي الفاجرين المتحابين على المعصية و المتلانمين على الضلالة و المرتشيين على الحكومة و المتكبرين على أهل الدين الذين استمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من

قبلهم بخلاقهم فلا يضرناك إرعادهما و إبراقهما و أجهما إن كنت لم تجبهما بما هما أهله فإنك تجد مقالا ما شئت و السلام قال فكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية جواب كتابه أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر من أمر عثمان أمرا لا أعتذر إليك منه و تأمرني بالتحني عنك كأنك لي ناصح و تخوفني بالحرب كأنك علي شفيق و أنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم و أن يهلككم الله في الواقعة و أن ينزل بكم الذل و أن تولوا الدبر فإن يكن لكم الأمر في الدنيا فكم و كم لعمرى من ظالم قد نصرتم و كم من مؤمن قد قتلتم و مثلتم به و إلى الله المصير و إليه ترد الأمور و هو أرحم الراحمين و الله المستعان على ما تصفون . قال و كتب محمد بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص جواب كتابه أما بعد فهتم كتابك و علمت ما ذكرت زعمت أنك تكره أن يصيبني منك ظفر فأشهد بالله إنك لمن المبطلين و زعمت أنك ناصح لي و أقسم أنك عندي ظنين و قد زعمت أن أهل البلد قد رفضوني و ندموا على اتباعي فأولئك حزبك و حزب الشيطان الرجيم و حسبنا الله رب العالمين و نعم الوكيل و توكلت على الله العزيز الرحيم رب العرش العظيم . قال إبراهيم فحدثنا محمد بن عبد الله عن المدائني قال فأقبل عمرو بن العاص يقصد قصد مصر فقام محمد بن أبي بكر في الناس فحمد الله و أثنى عليه ثم قال أما بعد يا معشر المؤمنين فإن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمات و يغشون الضلالة و يستطيون بالجبرية قد نصبوا لكم العداوة و ساروا إليكم بالجنود فمن أراد الجنة و المغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدهم في الله انتدبوا رحمكم الله مع

كنانة بن بشر ثم ندب معه نحو ألفي رجل و تخلف محمد في ألفين و استقبل عمرو بن العاص كنانة و هو على مقدمة محمد فلما دنا عمرو من كنانة سرح إليه الكتاب كتيبة بعد كتيبة فلم تأتته من كتاب الشام كتيبة إلا شد عليها بمن معه

فيضربها حتى يلحقها بعمره ففعل ذلك مرارا فلما رأى عمرو ذلك بعث إلى معاوية بن حديج الكندي فاتاه في مثل الدهم فلما رأى كنانة ذلك الجيش نزل عن فرسه و نزل معه أصحابه فضاربهم بسيفه و هو يقول **وَ مَا كَانَ لِنَفْسِي أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا** . فلم يزل يضاربهم بالسيف حتى استشهد رحمه الله . قال إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الله عن المدائني عن محمد بن يوسف أن عمرو بن العاص لما قتل كنانة أقبل نحو محمد بن أبي بكر و قد تفرق عنه أصحابه فخرج محمد متمهلا فمضى في طريقه حتى انتهى إلى خربة فأوى إليها و جاء عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط و خرج معاوية بن حديج في طلب محمد حتى انتهى إلى علوج على قارعة الطريق فسألهم هل مر بهم أحد ينكرونه قالوا لا قال أحدهم إني دخلت تلك الخربة فإذا أنا برجل جالس قال ابن حديج هو هو و رب الكعبة فانطلقوا يركضون حتى دخلوا على محمد فاستخرجوه و قد كاد يموت عطشا فأقبلوا به نحو الفسطاط . قال و وثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص و كان في جنده فقال لا و الله لا يقتل أخي صبيرا ابعت إلى معاوية بن حديج فانهه فأرسل عمرو بن العاص أن انتني بمحمد فقال معاوية أقتلتم كنانة بن بشر ابن عمي و أخلي عن محمد .

[87]

جيهات **أَكْفَارَكُمْ حَيْزٍ مِنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ** فقال محمد اسقوني قطرة من الماء فقال له معاوية بن حديج لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبدا إنكم منعم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صانما محرما فسقاه الله من الرحيق المختوم و الله لأقتلنك يا ابن أبي بكر و أنت ظمآن و يسقيك الله من الحميم و الغسلين فقال له محمد يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك اليوم إليك و لا إلى عثمان إنما ذلك إلى الله يسقي أوليائه و يظمى أعداءه و هم أنت و قرناؤك و من تولاك و توليته و الله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني ما بلغتم فقال له معاوية بن حديج أ تدري ما أصنع بك أدخلك جوف هذا الحمار الميت ثم أحرقه عليك بالنار قال إن فعلتم ذلك بي فطالما فعلتم ذلك بأوليائه الله و ايم الله إني لأرجو أن يجعل الله هذه النار التي تخوفني بها بردا و سلاما كما جعلها الله على إبراهيم خليله و أن يجعلها عليك و على أوليائك كما جعلها على نمرود و أوليائه و إني لأرجو أن يحرقك الله و إمامك معاوية و هذا و أشار إلى عمرو بن العاص بنار تلظى كلما خبت زادها الله عليكم سعيرا فقال له معاوية بن حديج إني لا أقتلك ظلما إنما أقتلك بعثمان بن عفان قال محمد و ما أنت و عثمان رجل عمل بالجور و بدل حكم الله و القرآن و قد قال الله عز و جل **وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** فنقمنا عليه أشياء عملها فأردنا أن يخلع من الخلافة علنا فلم يفعل فقتله من قتله من الناس .

[88]

فغضب معاوية بن حديج فقدمه فضرب عنقه ثم ألقاه في جوف حمار و أحرقه بالنار . فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعا شديدا و قنتت في دبر كل صلاة تدعو على معاوية بن أبي سفيان و عمرو بن العاص و معاوية بن حديج و قبضت عيال محمد أخيها و ولده إليها فكان القاسم بن محمد من عيالها . قال و كان ابن حديج ملعوننا خبيثا يسب علي بن أبي طالب ع .

قال إبراهيم و حدثني عمرو بن حماد بن طلحة القناد عن علي بن هاشم عن أبيه عن داود بن أبي عوف قال دخل معاوية بن حديج على الحسن بن علي في مسجد المدينة فقال له الحسن ويلك يا معاوية أنت الذي تسب أمير المؤمنين عليا ع أما

و الله لنن رأيته يوم القيامة و ما أظنك تراه لترينه كاشفا عن ساق يضرب وجوه أمثالك عن الحوض ضرب غرائب الإبل
قال إبراهيم و حدثني محمد بن عبد الله بن عثمان عن المدائني عن عبد الملك بن عمير عن عبد الله بن شداد قال حلفت
عائشة لا تأكل شواء أبدا بعد قتل محمد فلم تأكل شواء حتى لحقت بالله و ما عثرت قط إلا قالت تعس معاوية بن أبي سفيان
و عمرو بن العاص و معاوية بن حديج . قال إبراهيم و قد روى هاشم أن أسماء بنت عميس لما جاءها نعي محمد ابنها و
ما صنع به قامت إلى مسجدها و كظمت غيظها حتى تشخبت دما . قال إبراهيم و روى ابن عائشة التيمي عن رجاله عن
كثير النواء أن أبا بكر خرج

[89]

في حياة رسول الله ص في غزاة فرأت أسماء بنت عميس و هي تحته كأن أبا بكر مخضب بالحناء رأسه و لحيته و عليه
ثياب بيض فجاءت إلى عائشة فأخبرتها فقالت إن صدقت رؤياك فقد قتل أبو بكر إن خضابه الدم و إن ثيابه أكفانه ثم بكت
فدخل النبي ص و هي كذلك فقال ما أبكاها فقالوا يا رسول الله ما أبكاها أحد و لكن أسماء ذكرت رؤيا رأتها لأبي بكر فأخبر
النبي ص

فقال ليس كما عبرت عائشة و لكن يرجع أبو بكر صالحا فيلقى أسماء فتحمل منه بسلام فتسميه محمدا يجعله الله غيظا
على الكافرين و المنافقين . قال فكان كما أخبر ص . قال إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الله عن المدائني قال فكتب عمرو بن
العاص إلى معاوية بن أبي سفيان عند قتل محمد بن أبي بكر و كنانة بن بشر أما بعد فإننا لقينا محمد بن أبي بكر و كنانة
بن بشر في جموع من أهل مصر فدعوناهم إلى الكتاب و السنة فعصوا الحق فتهولوا في الضلال فجاهدناهم و استنصرنا
الله جل و عز عليهم فضرب الله وجوههم و أدبارهم و منحنا أكتافهم فقتل محمد بن أبي بكر و كنانة بن بشر و الحمد لله
رب العالمين .

قال إبراهيم و حدثني محمد بن عبد الله عن المدائني عن الحارث بن كعب بن عبد الله بن قعين عن حبيب بن عبد الله قال و
الله إنني لعند علي جالس إذ جاءه عبد الله بن معين و كعب بن عبد الله من قبل محمد بن أبي بكر يستصرخانه قبل الوقعة
فقام علي فنادى في الناس الصلاة جامعة فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله و أتى

[90]

عليه و ذكر رسول الله ص فصلى عليه ثم قال أما بعد فهذا صريخ محمد بن أبي بكر و إخوانكم من أهل مصر قد سار إليهم
ابن النابغة عدو الله و عدو من والاه و ولي من عادى الله فلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم و الركون إلى سبيل الطاغوت
أشد اجتماعا على باطلهم و ضلالتهم منكم على حقم فكأنكم بهم و قد بدعوكم و إخوانكم بالغزو فاعجلوا إليهم بالمواساة و
النصر عباد الله إن مصر أعظم من الشام و خير أهلا فلا تغلبوا على مصر فإن بقاء مصر في أيديكم عز لكم و كبت لعدوكم
اخرجوا إلى الجرعة قال و الجرعة بين الحيرة و الكوفة لنتوافي هناك كلنا غدا إن شاء الله . قال فلما كان الغد خرج يمشى
فنزلها بكرة فأقام بها حتى انتصف النهار فلم يوافه مائة رجل فرجع فلما كان العشي بعث إلى الأشراف فجمعهم فدخلوا
عليه القصر و هو كنيب حزين

فقال الحمد لله على ما قضى من أمر و قدر من فعل و ابتلاني بكم أيها الفرقة التي لا تطيع إذا أمرتها و لا تجيب إذا دعوتها لا أبا لغيركم ما ذا تنتظرون بنصركم و الجهاد على حاكم الموت خير من الذل في هذه الدنيا لغير الحق و الله إن جاءني الموت و ليأتيني لتجدني لصحبتكم جدا قال أ لا دين يجمعكم أ لا حمية تغضبكم أ لا تسمعون بعدوكم ينتقص بلادكم و يشن الغارة عليكم أ و ليس عجا أن معاوية يدعو الجفأة الطغام الظلما فيتبعونه على غير عطاء و لا معونة و يجيبونه في السنة المرة و المرتين و الثلاث إلى أي وجه شاء ثم أنا أدعوكم و أنتم أولو النهى و بقية الناس تختلفون و تفترقون عني و تعصوني و تخالفون علي

[91]

فقام إليه مالك بن كعب الأرحبي فقال يا أمير المؤمنين انذب الناس معي فإنه لا عطر بعد عروس و إن الأجر لا يأتي إلا بالكرة ثم التفت إلى الناس و قال اتقوا الله و أجيئوا دعوة إمامكم و انصروا دعوته و قاتلوا عدوكم إنا نسير إليهم يا أمير المؤمنين فأمر علي سعدا مولاه أن ينادي ألا سيروا مع مالك بن كعب إلى مصر و كان وجهها مكروها فلم يجتمعوا إليه شهرا فلما اجتمع له منهم ما اجتمع خرج بهم مالك بن كعب فعسكر بظاهر الكوفة و خرج معه علي فنظر فإذا جميع من خرج نحو من ألفين فقال علي سيروا و الله ما أنتم ما إخالكم تدركون القوم حتى ينقضي أمرهم . فخرج مالك بهم و سار خمس ليال و قدم الحجاج بن عزية الأنصاري على علي و قدم عليه عبد الرحمن بن المسيب الفزاري من الشام فأما الفزاري فكان عينا لعلي ع لا ينام و أما الأنصاري فكان مع محمد بن أبي بكر فحدثه الأنصاري بما عاين و شاهد و أخبره بهلاك محمد و أخبره الفزاري أنه لم يخرج من الشام حتى قدمت البشرى من قبل عمرو بن العاص يتبع بعضها بعضا بفتح مصر و قتل محمد بن أبي بكر و حتى أذن معاوية بقتله على المنبر

و قال يا أمير المؤمنين ما رأيت يوما قط سرورا مثل سرور رأيته بالشام حين أتاهم قتل محمد بن أبي بكر فقال علي أما إن حزننا على قتله على قدر سرورهم به لا بل يزيد أضعافا . قال فسرح علي عبد الرحمن بن شريح إلى مالك بن كعب فرده من الطريق

قال و حزن علي على محمد بن أبي بكر حتى رني ذلك فيه و تبين في وجهه و قام في الناس خطيبا فحمد الله و أثنى عليه ثم قال ألا و إن مصر قد افتتحها الفجرة

[92]

أولياء الجور و الظلم الذين صدوا عن سبيل الله و بغوا الإسلام عوجا ألا و إن محمد بن أبي بكر قد استشهد رحمة الله عليه و عند الله نحتسبه أما و الله لقد كان ما علمت ينتظر القضاء و يعمل للجزاء و يبغض شكل الفاجر و يحب سمت المؤمن إني و الله لا ألوم نفسي على تقصير و لا عجز و إني بمقاساة الحرب لجد بصير إني لأقدم على الحرب و أعرف وجه الحزم و أقوم بالرأي المصيب فأستصرخكم معلنا و أناديكم مستغيثا فلا تسمعون لي قولا و لا تطيعون إلى أمرا حتى تصير الأمور إلى عواقب المساءة و أنتم القوم لا يدرك بكم الثأر و لا تنقض بكم الأوتار دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع و خمسين ليلة فجرجرتم علي جرجرة الجمل الأسر و تهاقلتم إلى الأرض تهاقل من لا نية له في الجهاد و لا رأي له

في الاكتساب للأجر ثم خرج إلي منكم جنيد متذانب ضعيف كأنما يساقون إلى الموت و هم ينظرون فأف لكم ثم نزل فدخل
رحله

قال إبراهيم فحدثنا محمد بن عبد الله عن المدائني قال كتب علي إلى عبد الله بن عباس و هو على البصرة من عبد الله علي
أمير المؤمنين ع إلى عبد الله بن عباس سلام عليك و رحمة الله و بركاته أما بعد فإن مصر قد افتتحت و قد استشهد محمد
بن أبي بكر فعند الله عز و جل تحتسبه و قد كنت كتبت إلى الناس و تقدمت إليهم في بدء الأمر و أمرتهم بإغاثة

[93]

قبل الواقعة و دعوتهم سرا و جهرا و عودا و بدءا فمنهم الآتي كارها و منهم المتعل كاذبا و منهم القاعد خاذلا أسأل الله
أن يجعل لي منهم فرجا و أن يريحني منهم عاجلا فو الله لو لا طمعي عند لقاء عدوي في الشهادة و توطيني نفسي عند
ذلك لأحببت ألا أبقى مع هؤلاء يوما واحدا عزم الله لنا و لك على تقواه و هداه إنه على كل شيء قدير و السلام عليك و
رحمة الله و بركاته . قال فكتب إليه عبد الله بن عباس لعبد الله علي أمير المؤمنين من عبد الله بن عباس سلام علي أمير
المؤمنين و رحمة الله و بركاته . أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه افتتاح مصر و هلاك محمد بن أبي بكر و إنك سألت الله
ربك أن يجعل لك من رعيته التي ابتليت بها فرجا و مخرجا و أنا أسأل الله أن يعلى كلمتك و أن يغشيك بالملائكة عاجلا و
اعلم أن الله صانع لك و معز دعوتك و كابت عدوك و أخبرك يا أمير المؤمنين أن الناس ربما تباطنوا ثم نشطوا فافرق بهم
يا أمير المؤمنين و دارهم و منهم و استعن بالله عليهم كفاك الله بهم و السلام عليك و رحمة الله و بركاته . قال إبراهيم و
روي عن المدائني أن عبد الله بن عباس قدم من البصرة على علي فعزاه عن محمد بن أبي بكر .

و روى المدائني أن عليا قال رحم الله محمدا كان غلاما حدثا لقد كنت أردت أن أولي المرقال هاشم بن عتبة مصر فإنه و
الله لو وليها لما خلى لابن العاص و أعوانه العرصة و لا قتل إلا و سيفه في يده بلا دم لمحمد فلقد أجهد نفسه فقضى ما
عليه

[94]

قال المدائني و قيل لعلي ع لقد جزعت على محمد بن أبي بكر يا أمير المؤمنين فقال و ما يمنعني أنه كان لي ربيبا و كان
لبنى أخوا و كنت له والدا أعده ولدا

خطبة للإمام علي بعد مقتل محمد بن أبي بكر

وروى إبراهيم عن رجاله عن عبد الرحمن بن جندب عن أبيه قال خطب علي ع بعد فتح مصر و قتل محمد بن أبي بكر فقال أما بعد فإن الله بعث محمدا نذيرا للعالمين و أمينا على التنزيل و شهيدا على هذه الأمة و أنتم معاشر العرب يومئذ على شر دين و في شر دار منيخون على حجارة خشن و حيات صم و شوك مبنوث في البلاد تشربون الماء الخبيث و تأكلون الطعام الخبيث تسفكون دماءكم و تقتلون أولادكم و تقطعون أرحامكم و تأكلون أموالكم بينكم بالباطل سبلكم خانفة و الأصنام فيكم منصوبة و لا يؤمن أكثرهم بالله إلا و هم مشركون . فمن الله عز و جل عليكم بمحمد فبعثه إليكم رسولا من أنفسكم فعلمكم الكتاب و الحكمة و الفرائض و السنن و أمركم بصلة أرحامكم و حقن دماءكم و صلاح ذات البين و أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و أن توفوا بالعهد و لا تتقوضوا الأيمان بعد توكيدها و أن تعاطفوا و تباروا و تراحموا و نهاكم عن التناهب و التظالم و التحاسد و التبغاي و التقاذف و عن شرب الخمر و بخرس المكيال و نقص الميزان و تقدم إليكم فيما يتلى عليكم ألا تزنا و لا تربوا و لا تأكلوا أموال

[95]

اليتامى ظلما و أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و لا تعثوا في الأرض مفسدين و لا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين و كل خير يديني إلى الجنة و يباعد عن النار أمركم به و كل شر يديني إلى النار و يباعد عن الجنة نهاكم عنه فلما استكمل مدته توفاه الله إليه سعيدا حميدا فإيا لها مصيبة خصت الأقربين و عمت المسلمين ما أصيبوا قبلها بمثلها و لن يعاينوا بعدها أختها فلما مضى لسبيله ص تنازع المسلمون الأمر بعده فو الله ما كان يلقي في روعي و لا يخطر على بالي أن العرب تعدل هذا الأمر بعد محمد عن أهل بيته و لا أنهم منحوه عني من بعده فما راعني إلا انثيال الناس على أبي بكر و إجمالهم إليه ليبياعوه فأمسكت يدي و رأيت أني أحق بمقام محمد ص في الناس ممن تولى الأمر من بعده فلبثت بذلك ما شاء الله حتى رأيت راجعة من الناس رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين الله و ملة محمد ص فخشيت إن لم أنصر الإسلام و أهله أن أرى فيه ثلما و هدمًا يكون المصاب بهما علي أعظم من فوات ولاية أموركم التي إنما هي متاع أيام قلانل ثم يزول ما كان منها كما يزول السراب و كما يتقشع السحاب فمشيت عند ذلك إلى أبي بكر فبايعته و نهضت في تلك الأحداث حتى زاغ الباطل و زهق و كانت كلمة الله هي العليا و لو كره الكافرون فتولى أبو بكر تلك الأمور فيسر و سدد و قارب و اقتصد و صحبتته مناصحا و أطعته فيما أطاع الله فيه جاهدا و ما طمعت أن لو حدث به حادث و أنا حي أن يرد إلي الأمر الذي نازعته فيه طمع مستيقن و لا ينست منه يأس من لا يرجوه و لو لا خاصة ما كان بينه و بين عمر لظننت أنه لا يدفعها عني فلما احتضر بعث إلى عمر فولاه فسمعنا و أطعنا و ناصحنا

[96]

و تولى عمر الأمر فكان مرضي السيرة ميمون النقيبة حتى إذا احتضر فقلت في نفسي لن يعدلها عني ليس يدافعها عني فجعلني سادس ستة فما كانوا لولاية أحد منهم أشد كراهة لولايته عليهم كانوا يسمعون عند وفاة رسول الله ص لجاج أبي بكر و أقول يا معشر قريش إنا أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا من يقرأ القرآن و يعرف السنة و يدين بدين الحق فخشي القوم إن أنا وليت عليهم ألا يكون لهم من الأمر نصيب ما بقوا فأجمعوا إجماعا واحدا فصرفوا الولاية إلى

عثمان و أخرجوني منها رجاء أن ينالوها و يتداولوها إذ ينسوا أن ينالوا بها من قبلي ثم قالوا هلم فبايع و إلا جاهدناك فبايعت مستكرها و صبرت محتسبا فقال قائلهم يا ابن أبي طالب إنك على هذا الأمر لحريص فقلت أنتم أحرص مني و أبعد أينا أحرص أنا الذي طلبت ميراثي و حقي الذي جعلني الله و رسوله أولى به أم أنتم إذ تضربون وجهي دونه و تحولون بيني و بينه فبهتوا و الله لا يهدي القوم الظالمين اللهم إني أستعديك على قريش فإنهم قطعوا رحمي و أضاعوا إياي و صغروا عظيم منزلتي و أجمعوا على منازعتي حقا كنت أولى به منهم فسلبوني ثم قالوا ألا إن في الحق أن تأخذه و في الحق أن تمنعه فاصبر كمدا أو مت أسفا حنقا فنظرت فإذا ليس معي رافد و لا ذاب و لا ناصر و لا ساعد إلا أهل بيتي فضننت بهم عن المنية و أعضيت على القذى و تجرعت ريقى على الشجا و صبرت من كظم الغيظ علي أمر من العلقم و ألم للقلب من حز الشفار حتى إذا نقمتم على عثمان أتيتموه فقتلتموه ثم جئتموني لتبايعوني فأبيت عليكم و أمسكت يدي فناز عتموني و دافعتوني و بسطتم يدي فكففتها و مددتموها فقبضتها و ازدحمت علي حتى ظننت أن بعضكم قاتل بعضكم أو أنكم قاتلي فقتلتم بايعنا لا نجد غيرك و لا نرضى إلا بك بايعنا

[97]

لا نفترق و لا تختلف كلمتنا فبايعتكم و دعوت الناس إلى بيعتي فمن بايع طوعا قبلته و من أبى لم أكرهه و تركته فبايعني فيمن بايعني طلحة و الزبير و لو أبيا ما أكرهتهما كما لم أكره غيرهما فما لبثا إلا يسيرا حتى بلغني أنهما خرجا من مكة متوجهين إلى البصرة في جيش ما منهم رجل إلا قد أعطاني الطاعة و سمح لي بالبيعة فقدمنا على عاملي و خزان بيت مالي و على أهل مصري الذين كلهم على بيعتي و في طاعتي فشتتوا كلمتهم و أفسدوا جماعتهم ثم وثبوا على شيعتي من المسلمين فقتلوا طائفة منهم غدرا و طائفة صبرا و منهم طائفة غضبوا لله و لي فشهروا سيوفهم و ضربوا بها حتى لقوا الله عز و جل صادقين فو الله لو لم يصيبوا منهم إلا رجلا واحدا متعمدين لقتله لحل لي به قتل ذلك الجيش بأسره فدع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين أكثر من العدة التي دخلوا بها عليهم و قد أدال الله منهم فبعدا للقوم الظالمين ثم إني نظرت في أمر أهل الشام فإذا أعراب أحزاب و أهل طمع جفاة طغاة يجتمعون من كل أوب من كان ينبغي أن يودب و أن يولى عليه و يؤخذ على يده ليسوا من الأنصار و لا المهاجرين و لا التابعين بإحسان فسرت إليهم فدعوتهم إلى الطاعة و الجماعة فأبوا إلا شقاقا و فراقا و نهضوا في وجوه المسلمين ينضحونهم بالنبل و يشجرونهم بالرماح فهناك نهدت إليهم بالمسلمين فقاتلتهم فلما عضهم السلاح و وجدوا ألم الجراح رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها فأنبأكم أنهم ليسوا بأهل دين و لا قرآن و أنهم رفعوها مكيدة و خديعة و وهنا و ضعفا فامضوا على حقمكم و قتالكم فأبيتكم علي و قلتهم فإن أجابوا إلى ما في الكتاب جامعونا على ما نحن عليه من

[98]

الحق و إن أبوا كان أعظم لحجتنا عليهم فقبلت منهم و كففت عنهم إذ ونيتهم و أبيتهم فكان الصلح بينكم و بينهم على رجلين يحييان ما أحيا القرآن و يميتان ما أمات القرآن فاختلف رأيهما و تفرق حكمهما و نبذا ما في القرآن و خالفا ما في الكتاب فجنبهما الله السداد و دلاهما في الضلالة فانحرفت فرقة منا فتركناهم ما تركونا حتى إذا عثوا في الأرض يقتلون و يفسدون أتيناهم فقلنا ادفعوا إلينا قتلة إخواننا ثم كتاب الله بيننا و بينكم قالوا كلنا قتلهم و كلنا استحل دماءهم و شدت علينا خيلهم و رجالهم فصرعهم الله مصارع الظالمين فلما كان ذلك من شأنهم أمرتكم أن تمضوا من فوركم ذلك إلى عدوكم فقتلتم

كلت سيوفنا و نفدت نبالنا و نصلت أسنة رماحنا و عاد أكثرها قصدا فارجع بنا إلى مصرنا لنستعد بأحسن عدتنا فإذا رجعت زدت في مقاتلتنا عدة من هلك منا و فارقنا فإن ذلك أقوى لنا على عدونا فأقبلت بكم حتى إذا أطلتكم على الكوفة أمرتكم أن تنزلوا بالنخيلة و أن تلتزموا معسكركم و أن تضموا قواصيكم و أن توطنوا على الجهاد أنفسكم و لا تكثرُوا زيارة أبنائكم و نسانكم فإن أهل الحرب المصابروها و أهل التشمير فيها الذين لا ينقادون من سهر ليلهم و لا ظمأ نهارهم و لا خمص بطونهم و لا نصب أبدانهم فنزلت طائفة منكم معي معذرة و دخلت طائفة منكم المصر عاصية فلا من بقي منكم صبر و ثبت و لا من دخل المصر عاد و رجع فنظرت إلى معسكري و ليس فيه خمسون رجلا فلما رأيت ما أتيتم دخلت إليكم فلم أقدر على أن تخرجوا معي إلى يومنا هذا فما تنتظرون أما ترون أطرافكم قد انتقصت و إلى مصر قد فتحت و إلى شيعتي بها قد قتلت و إلى مسالحكم تعرى و إلى بلادكم تغزى و أنتم ذوو عدد كثير

[99]

و شوكة و بأس شديد فما بالكم لله أنتم من أين توتون و ما لكم توفكون و أنى تسحرون و لو أنكم عزمتم و أجمعتم لم تراموا إلا أن القوم تراجعوا و تناشبوها و تناصحوا و أنتم قد ونيتم و تغاشستم و افترقتم ما إن أنتم إن أملتكم عندي على هذا بسعداء فانتهوا بأجمعكم و أجمعوا على حقمك و تجردوا لحرب عدوكم و قد أبدت الرغبة عن الصريح و بين الصبح لذي عينين إنما تقاتلون الطلقاء و أبناء الطلقاء و أولي الجفاء و من أسلم كرها و كان لرسول الله ص أنف الإسلام كله حربا أعداء الله و السنة و القرآن و أهل البدع و الأحداث و من كان بوائقه تتقى و كان عن الإسلام منحرفا أكلة الرشاش و عبدة الدنيا لقد أنهى إلي أن ابن النابغة لم يبايع معاوية حتى أعطاه و شرط له أن يؤتية ما هي أعظم مما في يده من سلطانه ألا صفرت يد هذا البائع دينه بالدنيا و خزيت أمانة هذا المشتري نصرة فاسق غادر بأموال المسلمين و إن فيهم من قد شرب فيكم الخمر و جلد الحد يعرف بالفساد في الدين و الفعل السيئ و إن فيهم من لم يسلم حتى رضخ له رضيعه فهؤلاء قادة القوم و من تركت ذكر مساوئه من قادتهم مثل من ذكرت منهم بل هو شر و يود هؤلاء الذين ذكرت لو ولوا عليكم فأظهروا فيكم الكفر و الفساد و الفجور و التسلط بجبرية و اتبعوا الهوى و حكموا بغير الحق و لأنتم على ما كان فيكم من تواكل و تخاذل خير منهم و أهدى سبيلا فيكم العلماء و الفقهاء و النجباء و الحكماء و حملة الكتاب و المتهجدون بالأسحار و عمار المساجد بتلاوة القرآن أ فلا تسخطون و تهتمون أن ينازعكم الولاية عليكم سفهاؤكم و الأشرار الأراذل منكم

[100]

فاسمعوا قولي و أطيعوا أمري فو الله لنن أطمعوني لا تغوون و إن عصيتموني لا ترشدون خذوا للحرب أهبتها و أعدوا لها عدتها فقد شبت نارها و علا سناتها و تجرد لكم فيها الفاسقون كي يعذبوا عباد الله و يطفنوا نور الله ألا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع و المكر و الجفاء بأولى في الجد في غيرهم و ضلالتهم من أهل البر و الزهادة و الإخبات في حقهم و طاعة ربهم إني و الله لو لقيتهم فردا و هم ملأ الأرض ما باليت و لا استوحشت و إني من ضلالتهم التي هم فيها و الهدى الذي نحن عليه لعل ثقة و بينة و يقين و بصيرة و إني إلى لقاء ربي لمشتاق و لحسن ثوابه لمنتظر و لكن أسفا يعتريني و حزنا يخامرني أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها و فجارها فيتخذوا مال الله دولا و عباده خولا و الفاسقين حزبا و ايم الله لو لا ذلك لما أكثرت تأنيبكم و تحريضكم و لتركتكم إذ ونيتم و أبيتم حتى ألقاهم بنفسي متى حم لي لقاؤهم فو الله

إني لعلى الحق و إني للشهادة لمحب فانفروا خفافا و ثقالا و جاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون و لا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف و تبوعوا بالذل و يكن نصيبكم الخسران إن أذا الحرب اليفظان و من ضعف أودى و من ترك الجهاد كان كالمغبون المهين اللهم اجمعنا و إياهم على الهدى و زهدنا و إياهم في الدنيا و اجعل الآخرة خيرا لنا و لهم من الأولى

خبر مقتل محمد بن أبي حذيفة

قال إبراهيم وحدثني محمد بن عبد الله بن عثمان عن المدائني أن محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أصيب لما فتح عمرو بن العاص مصر فبعث به

[101]

إلى معاوية بن أبي سفيان و هو يومئذ بفلسطين فحبسه معاوية في سجن له فمكث فيه غير كثير ثم هرب و كان ابن خال معاوية فأرى معاوية الناس أنه كره انفلاته من السجن و كان يحب أن ينجو فقال لأهل الشام من يطلبه فقال رجل من خثعم يقال له عبيد الله بن عمرو بن ظلام و كان شجاعا و كان عثمانيا أنا أطلبه فخرج في خيل فلحقه بحوارين . و قد دخل بغار هناك فجاءت حمر فدخلته فلما رأت الرجل في الغار فزعت و نفرت فقال حمارون كانوا قريبا من الغار إن لهذه الحمر لشأنا ما نفرها من هذا الغار إلا أمر فذهبوا ينظرون فإذا هم به فخرجوا به فوافاهم عبد الله بن عمرو بن ظلام فسألهم و وصفه لهم فقالوا ها هو هذا فجاء حتى استخرجه و كره أن يصير به إلى معاوية فيخلى سبيله فضرب عنقه رحمه الله تعالى

[102]

68 - و من كلام له ع في ذم أصحابه

كَمْ أَدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارَى الْبِكَارُ الْعَمِدَةُ وَالنِّيَابُ الْمُتَدَاعِيَةُ كُلَّمَا حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهْتَكَتْ مِنْ آخَرٍ كُلَّمَا أُطِّلَ عَلَيْكُمْ مِنْسَرٌّ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَعْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ وَانْجَحَرَ انْجَحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا وَالضَّبْعُ فِي وَجَارِهَا الدَّلِيلُ وَاللَّهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ وَ مَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقٍ نَاصِلٍ إِنَّكُمْ وَاللَّهِ لَكَثِيرٌ فِي الْبَابَاتِ قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ وَ إِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ وَ يُقِيمُ أَوْدَكُمْ وَ لَكِنِّي وَاللَّهِ لَا أَرَى إِصْلَاحَكُمْ بِإِفْسَادِ [فَسَادِي] نَفْسِي أَضْرَعُ اللَّهُ خُدُودَكُمْ وَ أُنْعَسَ جُدُودَكُمْ لَا تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ الْبَاطِلِ وَ لَا تُبْطِلُونَ الْبَاطِلَ كَابْطَالِكُمُ الْحَقَّ الْبِكَارُ جَمْعُ بَكَرٍ وَ هُوَ الْفَتَى مِنَ الْإِبِلِ وَ الْعَمِدَةُ الَّتِي قَدْ انْشَدَخَتْ أَسْنَمَتِهَا مِنْ دَاخِلٍ وَ ظَاهِرُهَا صَاحِيحٌ وَ ذَلِكَ لِكَثْرَةِ رُكُوبِهَا . وَ النِّيَابُ الْمُتَدَاعِيَةُ الْأَسْمَالُ الَّتِي قَدْ أَخْلَقَتْ وَ إِنَّمَا سَمِيَتْ مُتَدَاعِيَةً لِأَنَّ بَعْضَهَا يَتَخَرَّقُ فَيُدْعُو بَعْضَهَا إِلَى مِثْلِ حَالِهِ . وَ حِيصَتْ خِيَطَتْ وَ الْحُوصُ الْخِيَاطَةُ وَ تَهْتَكُ تَخْرُقُ

[103]

وَ أُطِّلَ عَلَيْكُمْ أَيِ أَشْرَفَ وَ رَوَى أَطَّلَ بِالْظَاءِ الْمَعْجَمَةُ وَ الْمَعْنَى وَاحِدٌ . وَ مَنْسَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْجَيْشِ تَمُرُ قَدَامَ الْجَيْشِ الْكَثِيرِ وَ الْأَفْصَحُ مَنْسَرٌ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَ فَتْحِ السَّيْنِ وَ يَجُوزُ مَنْسَرٌ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَ كَسْرِ السَّيْنِ . وَ انْجَحَرَ اسْتَتَرَ فِي بَيْتِهِ أَجْحَرَتْ الضَّبُّ إِذَا أَلْجَأَتْهُ إِلَى جِحْرِهَا فَانْجَحَرَ . وَ الضَّبَّةُ أَنْثَى الضَّبَابِ وَ إِنَّمَا أَوْقَعَ التَّشْبِيهَ عَلَى الضَّبَّةِ مَبَالِغَةً فِي وَصْفِهِمُ بِالْجَبِينِ وَ الْفِرَارِ لِأَنَّ الْأَنْثَى أَجْبِنُ وَ أَذَلُّ مِنَ الذَّكَرِ وَ الْوَجَارُ بَيْتُ الضَّبْعِ . وَ السَّهْمُ الْأَفْوَقُ النَّاصِلُ الْمَكْسُورُ الْفَوْقَ الْمَنْزُوعُ النَّصْلُ وَ الْفَوْقُ مَوْضِعُ الْوَتْرِ مِنَ السَّهْمِ يُقَالُ نَصَلَ السَّهْمُ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ النَّصْلُ فَهُوَ نَاصِلٌ وَ هَذَا مِثْلُ يَضْرِبُ لِمَنْ اسْتَجَدَّ بِمَنْ لَا يَنْجِدُهُ . وَ الْبَابَاتُ جَمْعُ بَابَةٍ وَ هِيَ سَاحَةُ الدَّارِ وَ الْأُودُ الْعُوجُ أَوْدُ الشَّيْءِ بِكَسْرِ الْوَاوِ يَأُودُ أَوْدًا أَيِ أَعُوجٌ وَ تَأُودُ أَيِ تَعُوجٌ وَ أَضْرَعُ اللَّهُ خُدُودَكُمْ أَذَلُّ وَجُوهَكُمْ . ضَرَعَ الرَّجُلُ ذُلًّا وَ أَضْرَعَهُ غَيْرُهُ وَ مِنْهُ الْمَثَلُ الْحَمِيُّ أَضْرَعْتَهُ لَكَ . وَ أُنْعَسَ جُدُودَكُمْ أَيِ أَحَالَ حِظْوَكُمْ وَ سَعُودَكُمْ وَ أَهْلَكَهَا فَجَعَلَهَا إِدْبَارًا وَ نَحْسًا . وَ التَّعَسَ الْهَلَاكُ وَ أَصْلُهُ الْكَبُّ وَ هُوَ ضِدُّ الْإِنْتِعَاشِ تَعَسَ الرَّجُلُ بِفَتْحِ الْعَيْنِ يَتَعَسُ تَعَسًا يَقُولُ كَمْ أَدَارِيكُمْ كَمَا يَدَارِي رَاكِبَ الْبَعِيرِ بَعِيرَهُ الْمَنْفُضَخَ السَّنَامُ وَ كَمَا يَدَارِي لِابْسِ الثُّوبِ السَّمْلُ ثُوبُهُ الْمَتَدَاعِي الَّذِي كَلَّمَا خِيَطَ مِنْهُ جَانِبٌ تَمَزَّقَ جَانِبٌ . ثُمَّ ذَكَرَ خَبْنَهُمْ وَ ذَلَّهُمْ وَ قَلَّةَ انْتِصَارِهِمْ مِنْ يَنْتَصِرُ بِهِمْ وَ أَنَّهُمْ كَثِيرٌ فِي الصُّورَةِ قَلِيلٌ فِي الْمَعْنَى ثُمَّ قَالَ إِنِّي عَالِمٌ بِمَا يَصْلِحُكُمْ يَقُولُ إِنَّمَا يَصْلِحُكُمْ فِي السِّيَاسَةِ السَّيْفُ وَ صَدَقَ فَإِنَّ كَثِيرًا لَا يَصْلِحُ إِلَّا عَلَيْهِ كَمَا فَعَلَ الْحِجَابُ بِالْجَيْشِ الَّذِي تَقَاعَدَ بِالْمَهْلَبِ

[104]

فإنه نادى مناديه من وجدناه بعد ثالثة لم يلتحق بالمهلب فقد حل لنا دمه ثم قتل عمير بن ضابئ وغيره فخرج الناس يهرعون إلى المهلب . و أمير المؤمنين لم يكن ليستحل من دماء أصحابه ما يستحل من يريد الدنيا و سياسة الملك و انتظام الدولة

قال ع لكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي أي بإفساد ديني عند الله تعالى . فإن قلت أليست نصرة الإمام واجبة عليهم فلم لا يقتلهم إذ أخلوا بهذا الواجب قلت ليس كل إخلال بواجب يكون عقوبته القتل كمن أخل بالحج و أيضا فإنه كان يعلم أن عاقبة القتل فسادهم عليه و اضطرابهم فلو أسرع في قتلهم لشغبوا عليه شغبا يفضي إلى أن يقتلوه و يقتلوا أولاده أو

يسلموه و يسلموهم إلى معاوية و متى علم هذا أو غلب على ظنه لم يجز له أن يسوسهم بالقتل الذي يفضي إلى هذه
المفسدة فلو ساسهم بالقتل و الحال هذه لكان آثما عند الله تعالى و مواقعاً للقبیح و في ذلك إفساد دينه كما قال لا تعرفون
الحق كمعرفتكم الباطل إلى آخر الفصل فكأنه قال لا تعتقدون الصواب و الحق كما تعتقدون الخطأ و الباطل أي اعتقادكم
الحق قليل و اعتقادكم الباطل كثير فعبّر عن الاعتقاد العام بالمعرفة الخاصة و هي نوع تحت جنسه مجازاً . ثم قال و لا
تسرعون في نقض الباطل سرعتكم في نقض الحق و هدمه

طائفة من الأشعار الواردة في ذم الجبن

و اعلم أن الهجاء بالجبن و الذل الفرق كثير جدا و نظير قوله إنكم لكثير في الباحات قليل تحت الرايات قول معدان الطائي

فأما الذي يحصيههم فمكثر

و أما الذي يطريهم فمقلل

[105]

و نحو قول قراد بن حنش و هو من شعر الحماسة

و أنتم سماء يعجب الناس رزها

بأبدة تنحي شديد ونيدها

تقطع أطناب البيوت بحاصب

و أكذب شيء برقها و رعوها

فويلمها خيلا بهاء و شارة

إذا لاقت الأعداء لو لا صدودها

و من شعر الحماسة في هذا المعنى

لقد كان فيكم لو وفيتم بجاركم

لحي و رقاب عردة و مناخر

من الصهب أثناء و جذعا كأنها

عذارى عليها شارة و معاجر

و من الهجاء بالجبن و الفرار قول بعض بني طيئ يهجو حاتما و هو من شعر الحماسة أيضا

لعمرى و ما عمري على بهين

لبئس الفتى المدعو بالليل حاتم

غداة أتى كالثور أخرج فاتقى

بجبهته أقتاله و هو قائم

كأن بصحراء المريط نعامة

تبادرها جناح الظلام نعائم

أعارتك رجليها و هافي لبها

و قد جردت بيض المتون صوارم

و نظير المعنى الأول أيضا قول بعضهم من شعر الحماسة

كأثر بسعد إن سعدا كثيرة
و لا ترج من سعد وفاء و لا نصرا
يروعك من سعد بن عمرو جسومها
و تزهد فيها حين تقتلها خبرا

و منه قول عوف القوافي

و ما أمكم تحت الخوافق و الفتنا
بثكلى و لا زهراء من نسوة زهر
أ لستم أقل الناس عند لوانهم
و أكثرهم عند الذبيحة و القدر

و ممن حسن الجبن و الفرار بعض الشعراء في قوله

أضحت تشجعني هند و قد علمت
أن الشجاعة مقرون بها العطب
لا و الذي حجت الأنصار كعبته
ما يشتهي الموت عندي من له أرب
للحرب قوم أضل الله سعيهم
إذا دعتهم إلى حوماتها وثبوا
و لست منهم و لا أهوى فعالهم
لا القتل يعجبني منها و لا السلب

و من هذا قول أيمن بن خريم الأسدي

إن للفتنة ميطا بينا
و وريد الميظ منها يعتدل
فإذا كان عطاء فابتدر
و إذا كان قتال فاعتزل
إنما يسعرها جهالها
حطب النار فدعها تشتعل

و ممن عرف بالجبن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد عيره عبد الملك بن مروان فقال

إذا صوت العصفور طار فواده
و ليث حديد التاب عند الثراند

وقال آخر

يطير فواده من نبح كلب
و يكفيه من الزجر الصغير

وقال آخر

ولو أنها عصفورة لحسبتها
مسومة تدعو عبيدا و أزنا

أخبار الجبناء و ذكر نواذرهم

و من أخبار الجبناء ما رواه ابن قتيبة في كتاب عيون الأخبار قال رأى عمرو بن العاص معاوية يوما فضحك و قال مم تضحك يا أمير المؤمنين أضحك الله سنك قال أضحك من حضور ذهنك عند إبدائك سوءتك يوم ابن أبي طالب و الله لقد وجدته منانا كريما و لو شاء أن يقتلك لقتلك فقال عمرو يا أمير المؤمنين أما و الله إني لعن يمينك حين دعاك إلى البراز فأحولت عينك و انفتح سحرك و بدا منك ما أكره ذكره لك فمن نفسك فاضحك أو فدع قال ابن قتيبة و قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك و عليه درع و عمامة سوداء و قوس عربية و كنانة فبعثت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان إلى الوليد و هي تحته يومئذ من هذا الأعرابي المستلثم في الصلاح عندك على خلوة و أنت في غلالة

[108]

فأرسل إليها الوليد أنه الحجاج فأعادت عليه الرسول و الله لأن يخلو بك ملك الموت أحب إلي من أن يخلو بك الحجاج فضحك و أخبر الحجاج بقولها و هو يمازحه فقال الحجاج يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول فإنما المرأة ريحانة و ليست بقهرمانة فلا تطلعها على سرك و مكايده عدوك . فلما انصرف الحجاج و دخل الوليد على امرأته أخبرها بمقالة الحجاج فقالت يا أمير المؤمنين حاجتي إليك اليوم أن تأمره غدا أن يأتيني مستلثما ففعل ذلك و أتاه الحجاج فحجبه ثم أدخلته و لم تأذن له في القعود فلم يزل قائما ثم قالت إيه يا حجاج أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتلك ابن الزبير و ابن الأشعث أما و الله لو لا أن الله علم أنك شر خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحرام و لا يقتل ابن ذات النطاقين أول مولود في الإسلام و أما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء و بلوغ لذاته و أوطاره فإن كن ينفرجن عن مثلك فما أحقه بالقبول منك و إن كن ينفرجن عن مثله فهو غير قابل لقولك أما و الله لو نفض نساء أمير المؤمنين الطيب من غدائهن فبعنه في أعطية أهل الشام حين كنت في أضييق من القرن قد أظلتك الرماح و أثنك الكفاح و حين كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم و أبنائهم فأنجاك الله من عدو أمير المؤمنين بحبهم إياه قاتل الله القائل حين ينظر إليك و سنان غزالة بين كتفيك

أسد علي و في الحروب نعامة

ربداء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى

أم كان قلبك في جناحي طائر

ثم قالت لجواربها أخرجنه فاخرج .

[109]

و من طريف حكايات الجبناء ما ذكره ابن قتيبة أيضا في الكتاب المذكور قال كان بالبصرة شيخ من بني نهشل بن دارم يقال له عروة بن مرثد و يكنى أبا الأعز ينزل في بني أخت له من الأزدي في سكة بني مازن فخرج رجالهم إلى ضياعهم في شهر رمضان و خرج النساء يصلين في مسجدهم و لم يبق في الدار إلا إماء فدخل كلب يتعسس فرأى بيتا مفتوحا فدخله و

انصفق الباب عليه فسمع بعض الإماء الحركة فظنوا أنه لص دخل الدار فذهبت إحداهن إلى أبي الأعز فأخبرته فقال أبو الأعز إلام يبتغي اللص عندنا و أخذ عصاه و جاء حتى وقف بباب البيت و قال إيه يا فلان أما و الله إني بك لعارف فهل أنت من لصوص بني مازن شربت حامضا خبيثا حتى إذا دارت في رأسك منتك نفسك الأمانى و قلت أطرق دور بني عمرو و الرجال خلوف و النساء يصلين في مسجدهن فأسرقهم سوءة لك و الله ما يفعل هذا ولد الأحرار و ايم الله لتخرجن أو لأهتفن هتفة مشنومة يلتقي فيها الحيان عمرو و حنظلة و تجيء سعد عدد الحصى و تسيل عليك الرجال من هنا و هنا و لنن فعلت لتكونن أشأم مولود . فلما رأى أنه لا يجيبه أخذه باللين فقال اخرج بأبي أنت مستورا و الله ما أراك تعرفني و لو عرفتني لقتعت بقولي و اطمأنتت إلى ابن أختي البار الوصول أنا فديتك أبو الأعز النهشلي و أنا خال القوم و جلدة بين أعينهم لا يعصونني و لا تضار الليلة و أنت في ذمتي و عندي قوصرتان أهدهما إلى ابن أختي البار الوصول فخذ إحداهما فانبذها حلالا من الله و رسوله . و كان الكلب إذا سمع الكلام أطرق و إذا سكت أبو الأعز وثب يريد المخرج فتهاتف أبو الأعز ثم تضاحك و قال يا أمم الناس و أوضعهم أ لا أراني لك منذ الليلة

[110]

في واد و أنت لي في واد آخر أقبلت السوداء و البيضاء فتصيح و تطرق فإذا سكت عنك و ثبت تريد الخروج و الله لتخرجن أو لألجن عليك البيت . فلما طال وقوفه جاءت إحدى الإماء فقالت أعرابي مجنون و الله ما أرى في البيت شيئا فدفعت الباب فخرج الكلب شاردا و حاد عنه أبو الأعز ساقطا على ففاه شائلة رجلاه و قال تالله ما رأيت كالمليحة هذه ما أراه إلا كلبا و لو علمت بحاله لولجت عليه . و نظير هذه الحكاية حكاية أبي حية النميري و كان جبانا قيل كان لأبي حية سيف ليس بينه و بين الخشب فرق كان يسميه لعاب المنية فحكى عنه بعض جيرانه أنه قال أشرفت عليه ليلة و قد انتضاه و هو واقف بباب بيت في داره و قد سمع فيه حسا و هو يقول أيها المغتر بنا المجترئ علينا بنس و الله ما اخترت لنفسك خير قليل و سيف صقيل لعاب المنية الذي سمعت به مشهورة صولته و لا تخاف نبوته اخرج بالعفو عنك لا أدخل بالعقوبة عليك إني و الله إن أدع قيسا تملأ الفضاء عليك خيلا و رجلا سبحان الله ما أكثرها و أطيبها و الله ما أنت ببعيد من تابعها و الرسوب في تيار لجتها . و قال وهبت ريح ففتحت الباب فخرج كلب يشند فلبط بأبي حية و أربد و شغل برجليه و تبادرت إليه نساء الحي فقتلن يا أبا حية لتفرخ روعتك إنما هو كلب فجلس و هو يقول الحمد لله الذي مسخك كلبا و كفاني حربا . و خرج مغيرة بن سعيد العجلي في ثلاثين رجلا ظهر الكوفة فعضطوا و خالد بن عبد الله القسري أمير العراق يخطب على المنبر ففرق و اضطرب و تحير و جعل يقول أطمعوني ماء فهجاه ابن نوفل فقال

[111]

أ خالد لا جزاك الله خيرا
و أيري في حرامك من أمير
تروم الفخر في أعراب قسر
كأنك من سراة بني جرير
جرير من ذوي اليمن أصيل
كريم الأصل ذو خطر كبير

و أمك علجة و أبوك و غد
و ما الأذنان عدل للصدور
و كنت لدى المغيرة عبد سوء
تبول من المخافة للزبير
لأعلاج ثمانية و شيخ
كبير السن ليس بذي ضرير
صرخت من المخافة أطمعوني
شرابا ثم بلت على السرير

و قال آخر يعيره بذلك

بل المنابر من خوف و من دهش
و استطعم الماء لما جد في الهرب

و من كلام ابن المقفع في ذم الجبن الجبن مقتلة و الحرص محرمة فانظر فيما رأيت و سمعت من قتل في الحرب مقبلا
أكثر أم من قتل مدبرا و انظر من يطلب إليك بالإجمال و التكرم أحق أن تسخو نفسك له بالعطية أم من يطلب ذلك بالشه و
الحرص

69 - و قال ع في سحرة اليوم الذي ضرب فيه

مَلَكْتَنِي عَيْنِي وَ أَنَا جَالِسٌ فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ص فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوْدِ وَاللَّدَدِ فَقَالَ أَدْعُ عَلَيْهِمْ
فَقُلْتُ أَبَدَلْنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَ أَبَدَلَهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مَنِي قَالَ الرضی رحمہ اللہ یعنی بالأود الاعوجاج و باللدد الخصام و
هذا من أفصح الكلام قوله ملكتنی عینی من فصیح الكلام يريد غلبني النوم قوله فسبح لي رسول الله ص يريد مر بي كما
تسبح الطباء و الطير يمر بك و يعترض لك . و ذا هاهنا بمعنى الذي كقوله تعالى **ما ذا ترى** أي ما الذي ترى يقول قلت له
ما الذي لقيت من أمتك و ما هاهنا استفهامية كأي و يقال ذلك فيما يستعظم أمره كقوله سبحانه **ألقارعة ما ألقارعة** و شرا
هاهنا لا يدل على أن فيه شرا كقوله **قل أ ذلك خير أم جنة الخلد** لا يدل على أن في النار خيرا

[113]

خبر مقتل الإمام علي كرم الله وجهه

و يجب أن نذكر في هذا الموضع مقتله ع و أصح ما ورد في ذلك ما ذكره أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني في كتاب مقاتل الطالبين . قال أبو الفرج علي بن الحسين بعد أسانيد ذكرها مختلفة متفرقة تجتمع على معنى واحد نحن ذاكروه إن نفرا من الخوارج اجتمعوا بمكة فتذاكروا أمر المسلمين فعابوهم و عابوا أعمالهم عليهم و ذكروا أهل النهروان فترحموا عليهم و قال بعضهم لبعض لو أنا شرينا أنفسنا لله عز و جل فأتينا أمة الضلال و طلبنا غرتهم و أرحنا منهم العباد و البلاد و ثأرنا بأخواننا الشهداء بالنهروان . فتعاقدوا عند انقضاء الحج فقال عبد الرحمن بن ملجم أنا أكفيكم عليا و قال واحد أنا أكفيكم معاوية و قال الثالث أنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاقدوا و توثقوا على الوفاء و ألا ينكل أحد منهم عن صاحبه الذي يتوجه إليه و لا عن قتله و اتعدوا لشهر رمضان في الليلة التي قتل فيها ابن ملجم عليا . قال أبو الفرج قال أبو مخنف قال أبو زهير العبسي الرجلان الآخران البرك بن عبد الله التميمي و هو صاحب معاوية و عمرو بن بكر التميمي و هو صاحب عمرو بن العاص . قال فأما صاحب معاوية فإنه قصده فلما وقعت عينه عليه ضربه فوقعت ضربته على أليته و أخذ فجاء الطبيب إليه فنظر إلى الضربة فقال إن السيف مسموم فاختر إما أن أحمي لك حديدة فأجعلها في الضربة فتبرأ و إما أن أسقيك دواء فتبرأ و ينقطع نسلك فقال أما النار فلا أطيقها و أما النسل ففي يزيد و عبد الله ما تقر عيني و حسبي بهما . فسقاه الدواء فعوفي و عالج جرحه حتى التأم و لم يولد له بعد ذلك .

[114]

و قال له البرك بن عبد الله إن لك عندي بشارة قال و ما هي فأخبره خبر صاحبه و قال له إن عليا قتل في هذه الليلة فاحتبسني عندك فإن قتل فأنت ولي ما تراه في أمري و إن لم يقتل أعطيتك العهود و المواثيق أن أمضي إليه فأقتله ثم أعود إليك فأضع يدي في يدك حتى تحكم في بما ترى فحبسه عنده فلما أتى الخبر أن عليا قتل في تلك الليلة خلى سبيله . هذه رواية إسماعيل بن راشد و قال غيره من الرواة بل قتله من وقته . و أما صاحب عمرو بن العاص فإنه وافاه في تلك الليلة و قد وجد علة فأخذ دواء و استخلف رجلا يصلي بالناس يقال له خارجة بن أبي حبيبة أحد بني عامر بن لؤي فخرج للصلاة فشد عمرو بن بكر فضربه بالسيف فأثبته و أخذ الرجل فأتي به عمرو بن العاص فقتله و دخل من غد إلى خارجة و هو يوجد بنفسه فقال أما و الله يا أبا عبد الله ما أراد غيرك قال عمرو و لكن الله أراد خارجة . و أما ابن ملجم فإنه قتل عليا تلك الليلة .

قال أبو الفرج و حدثني محمد بن الحسن الأشناداني و غيره قال أخبرني علي بن المنذر الطريقي قال حدثنا ابن فضيل قال حدثنا فطر عن أبي الطفيل قال جمع علي ع الناس للبيعة فجاء عبد الرحمن بن ملجم فرده علي مرتين أو ثلاثا ثم مد يده فبايعه فقال له علي ما يحبس أشقاها فو الذي نفسي بيده لتخضبن هذه من هذه ثم أنشد

أشدد حيازيمك للموت

فإن الموت لافيك

و لا تجزع من الموت

إذا حل بواديك

[115]

وقد روي لنا من طرق غير هذه أن علياً أعطى الناس فلما بلغ ابن ملجم أعطاه و قال له

أريد حياته و يريد قتلي

عذيرك من خليلك من مراد

قال أبو الفرج و حدثني أحمد بن عيسى العجلي بإسناد ذكره في الكتاب إلى أبي زهير العباسي قال كان ابن ملجم من مراد و عداة في كندة فأقبل حتى قدم الكوفة فلقى بها أصحابه و كتمهم أمره و طوى عنهم ما تعاقده هو و أصحابه عليه بمكة من قتل أمراء المسلمين مخافة أن ينتشر و زار رجلاً من أصحابه ذات يوم من بني تميم الرباب فصادف عنده قطام بنت الأخصر من بني تميم الرباب و كان علي قتل أخاها و أباهما بالنهروان و كانت من أجمل نساء أهل زمانها فلما رآها شغف بها و اشتد إعجابها فخطبها فقالت له ما الذي تسمي لي من الصداق فقال احتكمتي ما بدا لك فقالت احتكمت عليك ثلاثة آلاف درهم و وصيفا و خادما و أن تقتل علي بن أبي طالب . فقال لها لك جميع ما سألت و أما قتل علي فأنى لي بذلك قالت تلتمس غرته فإن أنت قتلتها شفيت نفسي و هناك العيش معي و إن قتلت فما عند الله خير لك من الدنيا فقال لها أما و الله ما أقدمني هذا المصر و قد كنت هاربا منه لآمن أهله إلا ما سألتني من قتل علي . قالت له فأنا طالبة لك بعض من يساعدك على هذا و يقويك ثم بعثت إلى وردان بن مجالد أحد بني تميم الرباب فخببرته الخبر و سألته معاونة ابن ملجم فتحمل لها ذلك و خرج ابن ملجم فأتى رجلاً من أشجع يقال له شبيب بن بجرة و قال له يا شبيب هل لك في شرف الدنيا و الآخرة قال و ما ذاك قال تساعدني على قتل علي و كان شبيب على رأي الخوارج فقال له هبلك الهبول لقد جنت شيئا إذا و كيف تقدر ويحك على ذلك قال ابن ملجم نعمن له في المسجد الأعظم

[116]

فإذا خرج لصلاة الفجر فتكنا به و شفينا أنفسنا منه و أدركنا ثأرنا فلم يزل به حتى أجابه . فأقبل به حتى دخلا على قطام و هي معتكفة في المسجد الأعظم قد ضربت لها قبة فقالا لها قد أجمع رأينا على قتل هذا الرجل قالت لهما فإذا أردتما ذلك فالقياني في هذا الموضع فانصرفا من عندها فلبثا أياما ثم أتياها و معها وردان بن مجالد الذي كلفته مساعدة ابن ملجم و ذلك في ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين . قال أبو الفرج هكذا في رواية أبي مخنف و في رواية أبي عبد الرحمن السلمي أنها كانت ليلة سبع عشرة من شهر رمضان فقال لها ابن ملجم هذه الليلة هي التي وعدت فيها صاحبي و وعداني أن يقتل كل واحد منا صاحبه الذي يتوجه إليه . قلت إنما تواعدوا بمكة عبد الرحمن و البرك و عمرو على هذه الليلة لأنهم يعتقدون أن قتل ولادة الجور قربة إلى الله و أخرى القربات ما تقرب به في الأوقات الشريفة المباركة . و لما كانت ليلة الجمعة التاسعة عشرة من شهر رمضان ليلة شريفة يرجى أن تكون ليلة القدر عينوها لفعل ما يعتقدونه قربة إلى الله فليعجب المتعجب من العقائد كيف تسري في القلوب و تغلب على العقول حتى يرتكب الناس عظام الأمور و أهوال الخطوب لأجلها قال أبو الفرج فدعت لهم بحرير فعصبت به صدورهم و تقلدوا سيوفهم و مضوا فجلسوا مقابل السدة التي كان يخرج منها علي ع إلى الصلاة .

قال أبو الفرج و قد كان ابن ملجم أتى الأشعث بن قيس في هذه الليلة فخلا به في بعض نواحي المسجد و مر بهما حجر بن عدي فسمع الأشعث و هو يقول لابن ملجم النجاء النجاء بحاجتك فقد فضحك الصبح قال له حجر قتلته يا أعور و خرج مبادرا إلى علي و قد سبقه ابن ملجم فضربه فأقبل حجر و الناس يقولون قتل أمير المؤمنين . قال أبو الفرج و للأشعث بن قيس في انحرافه عن أمير المؤمنين أخبار يطول شرحها

منها حديث حديثه محمد بن الحسين الأشنانداني قال حدثني إسماعيل بن موسى قال حدثنا علي بن مسهر عن الأجلح عن موسى بن أبي النعمان قال جاء الأشعث إلى علي يستأذن عليه فرده قنبر فأدمى الأشعث أنفه فخرج علي و هو يقول ما لي و لك يا أشعث أما و الله لو بعبد ثقيف تمرست لاقتشعرت شعيراتك قيل يا أمير المؤمنين و من عبد ثقيف قال غلام لهم لا يبقي أهل بيت من العرب إلا أدخلهم ذلا قيل يا أمير المؤمنين كم يلي أو كم يمكت قال عشرين إن بلغها

قال أبو الفرج و حدثني محمد بن الحسين أيضا بإسناد ذكره أن الأشعث دخل على علي فكلمه فأغظ علي له فعرض له الأشعث أنه سيفتك به فقال له علي أ بالموت تخوفني أو تهددني فو الله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت علي . قال أبو الفرج قال أبو مخنف فحدثني أبي عن عبد الله بن محمد الأزدي قال إني لأصلي تلك الليلة في المسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر كانوا يصلون في ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره إذ نظرت إلى رجال يصلون قريبا من السدة قياما و قعودا و ركوعا و سجودا ما يسأمون إذ خرج عليهم علي بن أبي طالب الفجر فأقبل ينادي الصلاة الصلاة فرأيت بريق السيف و سمعت قائلا يقول الحكم لله يا علي لا لك

ثم رأيت بريق سيف آخر و سمعت صوت علي ع يقول لا يفوتنكم الرجل . قال أبو الفرج فأما بريق السيف الأول فإنه كان شبيب بن بجرة ضربه فأخطأه و وقعت ضربته في الطاق و أما بريق السيف الثاني فإنه ابن ملجم ضربه فأثبت الضربة في وسط رأسه و شد الناس عليهما من كل ناحية حتى أخذوهما . قال أبو مخنف فهمدان تذكر أن رجلا منهم يكنى أبا أدماء أخذ ابن ملجم . و قال غيرهم بل أخذه المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب طرح عليه قطيفة ثم صرعه و أخذ السيف من يده و جاء به . قال و أما شبيب بن بجرة فإنه خرج هاربا فأخذه رجل فصرعه و جلس على صدره و أخذ السيف من يده ليقبله فرأى الناس يقصدون نحوه فخشى أن يعجلوا عليه فوثب عن صدره و خلاه و طرح السيف عن يده و أما شبيب بن بجرة ففاتته فخرج هاربا حتى دخل منزله فدخل عليه ابن عم له فرآه يحل الحرير عن صدره فقال له ما هذا لعلك قتلت أمير المؤمنين فأراد أن يقول لا فقال نعم فمضى ابن عمه فاشتمل على سيفه ثم دخل عليه فضربه حتى قتله .

قال أبو مخنف فحدثني أبي عن عبد الله بن محمد الأزدي قال أدخل ابن ملجم على علي ع و دخلت عليه فيمن دخل فسمعت عليا يقول النفس بالنفس إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني و إن سلمت رأيت فيه رأيي فقال ابن ملجم و لقد اشتريته بألف يعني السيف و سمته بألف فإن خانني فأبعده الله قال فنادته أم كلثوم يا عدو الله قتلت أمير المؤمنين قال إنما قتلت أباك قالت يا عدو الله إني لأرجو

ألا يكون عليه بأس قال فأراك إنما تبكين عليا إذا و الله لقد ضربته ضربة لو قسمت بين أهل الأرض لأهلكتهم . قال أبو الفرج و أخرج ابن ملجم من بين يديه و هو يقول

نحن ضربنا يا بنّة الخير إذ طغى
أبا حسن مأمومة فتفطرا
و نحن حللنا ملكه من نظامه
بضربة سيف إذ علا و تجبرا
و نحن كرام في الصباح أعزة
إذا المرء بالموت ارتدى و تأزرا

قال و انصرف الناس من صلاة الصبح فأحدقوا بابن ملجم ينهشون لحمه بأسنانهم كأنهم السباع و يقولون يا عدو الله ما ذا صنعت أهلكت أمة محمد و قتلت خير الناس و إنه لصامت ما ينطق .

قال أبو الفرج و روى أبو مخنف عن أبي الطفيل أن صعصعة بن صوحان استأذن على علي ع و قد أتاه عائدا لما ضربه ابن ملجم فلم يكن عليه إذن فقال صعصعة للأذن قل له يرحمك الله يا أمير المؤمنين حيا و ميتا فلقد كان الله في صدرك عظما و لقد كنت بذات الله عليما فأبلغه الأذن مقالته فقال قل له و أنت يرحمك الله فلقد كنت خفيف المنونة كثير المعونة . قال أبو الفرج ثم جمع له أطباء الكوفة فلم يكن منهم أحد أعلم بجرحه من أثير بن عمرو بن هانئ السكوني و كان متطببا صاحب كرسي يعالج الجراحات و كان من الأربعين غلاما الذين كان خالد بن الوليد أصابهم في عين النمر فسباهم فلما نظر أثير إلى جرح أمير المؤمنين دعا برنة شاة حارة فاستخرج منها عرقا و أدخله في الجرح ثم نفخه ثم

[120]

استخرجه و إذا عليه بياض الدماغ فقال يا أمير المؤمنين اعهد عهدك فإن عدو الله قد وصلت ضربته إلى أم رأسك فدعا علي ع عند ذلك بدواة و صحيفة و كتب وصيته

هذا ما أوصى به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله أرسله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون صلوات الله و بركاته عليه إن صلاتي و نسكي و محيائي و مماتي لله رب العالمين لا شريك له و بذلك أمرت و أنا أول المسلمين أوصيك يا حسن و جميع ولدي و أهل بيتي و من بلغه كتابي هذا بتقوى الله ربنا و ربكم و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون و اعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا فإني سمعت رسول الله يقول صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة و الصيام و إن المبيرة حالقة الدين إفساد ذات البين و لا قوة إلا بالله العلي العظيم انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوها يهون الله عليكم الحساب و الله الله في الأيتام فلا تغيرن أفواههم بجفوتكم و الله الله في جيرانكم فإنها وصية رسول الله ص فما زال يوصينا بهم حتى ظننا أنه سيورثهم الله و الله الله في القرآن فلا يسبقنكم بالعمل به غيركم و الله الله في الصلاة فإنها عماد دينكم و الله الله في صيام شهر رمضان فإنه جنة من النار و الله الله في الجهاد بأموالكم و أنفسكم و الله الله في زكاة أموالكم فإنها تطفئ غضب ربكم و الله الله في أهل بيت نبيكم فلا يظلمن بين أظهركم و الله الله في أصحاب نبيكم فإن رسول الله ص أوصى بهم و الله الله في الفقراء و المساكين

فأشركوهم في معاشكم و الله الله فيما ملكت أيمانكم فإنه كانت آخر وصية رسول الله ص إذ قال أوصيكم بالضعيفين فيما ملكت أيمانكم ثم الصلاة الصلاة لا تخافوا في الله لومة لائم يكفكم من بغي عليكم و من أرادكم بسوء قولوا للناس حسنا كما أمركم الله به و لا تتركوا الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فيتولى ذلك غيركم و تدعون فلا يستجاب لكم عليكم بالتواضع و التبادل و التبار و إياكم و التقاطع و التفرق

[121]

و التدابر تعاونوا على البر و التقوى و لا تعاونوا على الإثم و العدوان و اتقوا الله إن الله شديد العقاب حفظكم الله من أهل بيت و حفظ فيكم نبيه أستودعكم الله خير مستودع و عليكم سلام الله و رحمته . قلت قوله و الله الله في الأيتام فلا تغيرن أفواهم بجفوتكم يحتمل تفسيرين أحدهما لا تجيعوهم فإن الجائع يخلف فمه و تتغير نكهته و الثاني لا تحوجوهم إلى تكرار الطلب و السؤال فإن السائل ينضب ريقه و تنشف لهواته و يتغير ريح فمه . و قوله حكاية عن رسول الله ص أوصيكم بالضعيفين فيما ملكت أيمانكم يعني به الحيوان الناطق و الحيوان الأعجم .

قال أبو الفرج و حدثني أبو جعفر محمد بن جرير الطبري بإسناد ذكره في الكتاب عن أبي عبد الرحمن السلمي قال قال لي الحسن بن علي ع خرجت و أبي يصلي في المسجد فقال لي يا بني إني بت الليلة أوقظ أهلي لأنها ليلة الجمعة صبيحة يوم بدر لتسع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان فملكنتي عينايا فسمح لي رسول الله ص فقلت يا رسول الله ما ذا لقيت من أمتك من الأود و اللدد فقال لي ادع عليهم فقلت اللهم أبدلني بهم خيرا منهم و أبدلهم بي من هو شر مني قال الحسن ع و جاء ابن أبي الساج فأذنه بالصلاة فخرج فخرجت خلفه فاعتوره الرجلان فأما أحدهما فوقت ضربته في الطاق و أما الآخر فأتبتها في رأسه . قال أبو الفرج قال حدثني أحمد بن عيسى قال حدثنا الحسين بن نصر قال

[122]

حدثنا زيد بن المعدل عن يحيى بن شعيب عن أبي مخنف عن فضيل بن خديج عن الأسود الكندي و الأجلح قالوا توفي علي ع و هو ابن أربع و ستين سنة في عام أربعين من الهجرة ليلة لإحدى و عشرين ليلة الأحد مضت من شهر رمضان و ولي غسله ابنه الحسن و عبد الله بن العباس و كفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص و صلى عليه ابنه الحسن فكبر عليه خمس تكبيرات و دفن بالرحبة مما يلي أبواب كندة عند صلاة الصبح . هذه رواية أبي مخنف .

قال أبو الفرج و حدثني أحمد بن سعيد قال حدثنا يحيى بن الحسن العلوي قال حدثنا يعقوب بن زيد عن ابن أبي عمير عن الحسن بن علي الخلال عن جده قال قلت للحسين بن علي ع أين دفنتم أمير المؤمنين ع قال خرجنا به ليلا من منزله حتى مررنا به على منزل الأشعث بن قيس ثم خرجنا به إلى الظهر بجنب الغري . قلت و هذه الرواية هي الحق و عليها العمل و قد قلنا فيما تقدم إن أبناء الناس أعراف بقبور آبائهم من غيرهم من الأجانب و هذا القبر الذي بالغري هو الذي كان بنو علي يزورونه قديما و حديثا و يقولون هذا قبر أبينا لا يشك أحد في ذلك من الشيعة و لا من غيرهم أعني بني علي من ظهر الحسن و الحسين و غيرهما من سلالته المتقدمين منهم و المتأخرين ما زاروا و لا وقفوا إلا على هذا القبر بعينه . و قد روى أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في تاريخه المعروف بالمنظم وفاة

[123]

أبي الغنم محمد بن علي بن ميمون النرسي المعروف بأبي لجوده قراءته قال توفي أبو الغنم هذا في سنة عشر و خمسمائة و كان محدثا من أهل الكوفة ثقة حافظا و كان من قوام الليل و من أهل السنة و كان يقول ما بالكوفة من هو على مذهب أهل السنة و أصحاب الحديث غيري و كان يقول مات بالكوفة ثلاثمائة صحابي ليس قبر أحد منهم معروفا إلا قبر أمير المؤمنين و هو هذا القبر الذي يزوره الناس الآن جاء جعفر بن محمد ع و أبوه محمد بن علي بن الحسين ع إليه فزاراه و لم يكن إذ ذاك قبرا معروفا ظاهرا و إنما كان به سرح عضاه حتى جاء محمد بن زيد الداعي صاحب الديلم فأظهر القبر . و سألت بعض من أتق به من عقلاء شيوخ أهل الكوفة عما ذكره الخطيب أبو بكر في تاريخه أن قوما يقولون إن هذا القبر الذي تزوره الشيعة إلى جانب الغري هو قبر المغيرة بن شعبة فقال غلطوا في ذلك قبر المغيرة و قبر زياد بالثوية من أرض الكوفة و نحن نعرفهما و نقل ذلك عن آبائنا و أجدادنا و أنشدني قول الشاعر يرثي زيادا و قد ذكره أبو تمام في الحماسة

صلى الإله على قبر و طهره
عند الثوية يسفي فوقه المور
زفت إليه قريش نعش سيدها
فالحلم و الجود فيه اليوم مقبور
أبا المغيرة و الدنيا مفجعة
و إن من غرت الدنيا لمغرور

[124]

قد كان عندك للمعروف معرفة
و كان عندك للمنكور تنكير
و كنت تغشى و تعطى المال من سعة
فالיום قبرك أضحى و هو مهجور
و الناس بعدك قد خفت حلومهم
كأنما نفخت فيه الأعاصير

و سألت قطب الدين نقيب الطالبين أبا عبد الله الحسين بن الأقساسي رحمه الله تعالى عن ذلك فقال صدق من أخبرك نحن و أهلها كافة نعرف مقابر ثقيف إلى الثوية و هي إلى اليوم معروفة و قبر المغيرة فيها إلا أنها لا تعرف و قد ابتلعها السبخ و زبد الأرض و فورانها فطمست و اختلط بعضها ببعض . ثم قال إن شئت أن تتحقق أن قبر المغيرة في مقابر ثقيف فانظر إلى كتاب الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين و المح ما قاله في ترجمة المغيرة و أنه مدفون في مقابر ثقيف و يكفيك قول أبي الفرج فإنه الناقد البصير و الطبيب الخبير فتصفحت ترجمة المغيرة في الكتاب المذكور فوجدت الأمر كما قاله النقيب . قال أبو الفرج كان مصقلة بن هبيرة الشيباني قد لاحى المغيرة في شيء كان بينهما منازعة فضرع له المغيرة و تواضع في كلامه حتى طمع فيه مصقلة فاستعلى عليه و شتمه و قال إنني لأعرف شبهي في عروة ابنك فأشهد المغيرة على قوله هذا شهودا ثم قدمه إلى شريح القاضي فأقام عليه البينة فضربه شريح الحد و آلى مصقلة ألا يقيم ببلدة فيها

المغيرة فلم يدخل الكوفة حتى مات المغيرة فدخلها فتلقاه قومه فسلموا عليه فما فرغ من السلام حتى سألهم عن مقابر
ثقيف فأرشدوه إليها فجعل قوم من مواليه

[125]

يلتقطون الحجارة فقال لهم ما هذا فقالوا نظن أنك تريد أن ترجم قبر المغيرة فقال ألقوا ما في أيديكم فانطلق حتى وقف
على قبره ثم قال و الله لقد كنت ما علمت نافعا لصديقك ضارا لعدوك و ما مثلك إلا كما قال مهلهل في كليب أخيه

إن تحت الأحجار حزما و عزما
و خصيما ألد ذا معلاق
حية في الوجار أربد لا ينفع
منه السليم نفثة راق

قال أبو الفرج فأما ابن ملجم فإن الحسن بن علي بعد دفنه أمير المؤمنين دعا به و أمر بضرب عنقه فقال له إن رأيت أن
تأخذ علي العهود أن أرجع إليك حتى أضع يدي في يدك بعد أن أمضي إلى الشام فأنظر ما صنع صاحبي بمعاوية فإن كان
قتله و إلا قتلته ثم عدت إليك حتى تحكم في حكمك فقال هيهات و الله لا تشرب الماء البارد حتى تلحق روحك بالنار ثم
ضرب عنقه و استوهبت أم الهيثم بنت الأسود النخعية جنته منه فوهبها لها فأحرقتها بالنار . و قال ابن أبي مياس
الفزاري و هو من الخوارج

فلم أر مهرا ساقه ذو سماحة
كمهر قطام من غني و معدم
ثلاثة آلاف و عبد و قينة
و ضرب علي بالحسام المصمم
فلا مهر أعلى من علي و إن غلا
و لا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

و قال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب

و هز علي بالعراقين لحية
مصيبتها جلت على كل مسلم
و قال سيأتيها من الله نازل
و يخضبها أشقى البرية بالدم
فعاجله بالسيف شلت يمينه
لشؤم قطام عند ذاك ابن ملجم

[126]

فيا ضربة من خاسر ضل سعيه
تبوأ منها مقعدا في جهنم
ففاز أمير المؤمنين بحظه
و إن طرقت إحدى الليالي بمعظم
ألا إنما الدنيا بلاء و فتنة
حلاوتها شيببت بصاب و علقم

قال أبو الفرج و أنشدني عمي الحسن بن محمد قال أنشدني محمد بن سعد لبعض بني عبد المطلب يرثي عليا و لم يذكر

اسمه

يا قبر سيدنا المجن سماحة
صلى الإله عليك يا قبر
ما ضر قبرا أنت ساكنه
ألا يحل بأرضه القطر
فليدين سماح كفك بالثرى
و ليورقن بجانبك الصخر
و الله لو بك لم أجد أحدا
إلا قتلت لفاتني الوتر

70 - و من كلام له ع في ذم أهل العراق

أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ حَمَلَتْ فَلَمَّا أَنْتَمْتِ أَمْلَصْتِ وَ مَاتَ قَيْمُهَا وَ طَالَ تَأْيِمُهَا وَ وَرِثَهَا أَبْعَدُهَا . أَمَّا وَ
اللَّهِ مَا أَتَيْتُكُمْ إِخْتِيَاراً وَ لَكِنْ جُنْتُ إِلَيْكُمْ [أَتَيْتُكُمْ] سَوْقاً وَ لَقَدْ بَلَّغَنِي أَنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَيَّ يَكْذِبُ فَاتَلَّكُمُ اللَّهُ تَعَالَى فَعَلَى مَنْ أَكْذَبَ
أَعْلَى اللَّهِ فَإِنَّا أَوْلُ مَنْ آمَنَ بِهِ أُمٌّ عَلَى نَبِيِّهِ فَإِنَّا أَوْلُ مَنْ صَدَّقَ بِهِ كَلَّاً وَ اللَّهُ لِكِنَّهَا لَهْجَةً غَبْنَمٌ عَنْهَا وَ لَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا
وَ يَلْمُهُ كَيْلًا بِغَيْرِ ثَمَنِ لَوْ كَانَ لَهُ وَعَاءٌ وَ لَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ أَمْلَصْتَ الْحَامِلَ أَلْقَتْ وَلَدَهَا سَقَاطاً وَ قِيمَهَا بَعْلُهَا وَ تَأْيِمَهَا
خَلَوْهَا عَنِ الْأَزْوَاجِ يَقُولُ لَمَّا شَارَفْتُمْ اسْتَنْصَلَ أَهْلَ الشَّامِ وَ ظَهَرَتْ أَمَارَاتُ الظَّفْرِ لَكُمْ وَ دَلَائِلُ الْفَتْحِ نَكَصْتُمْ وَ جُنَحْتُمْ إِلَى
السَّلْمِ وَ الْإِجَابَةِ إِلَى التَّحْكِيمِ عِنْدَ رَفْعِ الْمَصَاحِفِ فَكُنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ لَمَّا أَمْتِ أَشْهُرَ حَمَلِهَا أَلْقَتْ وَلَدَهَا إِلقاءً غَيْرَ طَبِيعِي
نَحْوَ أَنْ تَلْقِيهِ لِسْقِطَةً أَوْ ضَرْبَةً أَوْ عَارِضٌ يَقْتَضِي أَنْ تَلْقِيَهُ هَالِكاً . ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ لَهُمْ بِذَلِكَ حَتَّى قَالَ وَ مَاتَ بَعْلُهَا وَ طَالَ
تَأْيِمَهَا وَ وَرِثَهَا أَبْعَدُهَا أَي لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ وَ هُوَ أَقْرَبُ الْمُخْلِفينَ إِلَى الْمَيْتِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهَا بَعْلٌ فَوَرِثَهَا الْأَبَاعِدُ عَنْهَا

[128]

كالسافلين من بني عم و كالمولاة تموت من غير ولد و لا من يجري مجراه فيرثها مولاها و لا نسب بينها و بينه . ثم أقسم
أنه لم يأتهم اختياراً و لكن المقادير ساقته إليهم سوقاً يعني اضطراراً . و صدق ع لأنه لو لا يوم الجمل لم يحتج إلى
الخروج من المدينة إلى العراق و إنما استنجد بأهل الكوفة على أهل البصرة اضطراراً إليهم لأنه لم يكن جيشه الحجازي
و أفياء بأهل البصرة الذين أصفقوا على حربته و نكث بيعته و لم يكن خروجه عن المدينة و هي دار الهجرة و مفارقتة لقبير
رسول الله ص و قبر فاطمة عن إيثار و محبة و لكن الأحوال تحكم و تسوق الناس إلى ما لا يختارونه ابتداءً . و قد روي
هذا الكلام على وجه آخر ما أتيتكم اختياراً و لا جنت إليكم شوقاً بالشين المعجمة . ثم قال بلغني أنكم تقولون يكذب و كان
كثيراً ما يخبر عن الملاحم و الكائنات و يومئ إلى أمور أخبره بها رسول الله ص فيقول المنافقون من أصحابه يكذب كما
كان المنافقون الأولون في حياة رسول الله ص يقولون عنه يكذب .

و روى صاحب كتاب الغارات عن الأعمش عن رجاله قال خطب علي ع فقال و الله لو أمرتكم فجمعتم من خياركم مائة ثم
لو شئت لحدثتكم من غدوة إلى أن تغيب الشمس لا أخبرتكم إلا حقا ثم تخرجن فلتزعمن أنني أكذب الناس و أفجرهم

و قد روى صاحب هذا الكتاب و غيره من الرواة أنه قال إن أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل
أو عبد امتحن الله قبله للإيمان .

[129]

و هذا الكلام منه كلام عارف عالم بأن في الناس من لا يصدقهم فيما يقول و هذا أمر مركز في الجبلية البشرية و هو
استبعاد الأمور الغريبة و تكذيب الأخبار بها و إذا تأملت أحواله في خلافته كلها وجدتها هي مختصرة من أحوال رسول الله
ص في حياته كأنها نسخة منتسخة منها في حربته و سلمه و سيرته و أخلاقه و كثرة شكايته من المنافقين من أصحابه و
المخالفين لأمره و إذا أردت أن تعلم ذلك علماً واضحاً فاقراً سورة براءة ففيها الجم الغفير من المعنى الذي أشرنا إليه

ذكر مطاعن النظام على الإمام علي و الرد عليه

واعلم أن النظام لما تكلم في كتاب النكت و انتصر لكون الإجماع ليس بحجة اضطر إلى ذكر عيوب الصحابة فذكر لكل منهم عيبا و وجه إلى كل واحد منهم طعنا و قال في علي إنه لما حارب الخوارج يوم النهروان كان يرفع رأسه إلى السماء تارة ينظر إليها ثم يطرق إلى الأرض فينظر إليها تارة أخرى يوهم أصحابه أنه يوحى إليه ثم يقول ما كذبت و لا كذبت فلما فرغ من قتالهم و أدب عليهم و وضعت الحرب أوزارها

قال الحسن ابنه يا أمير المؤمنين أ كان رسول الله ص تقدم إليك في أمر هؤلاء بشيء فقال لا و لكن رسول الله ص أمرني بكل حق و من الحق أن أقاتل الناكثين و القاسطين و المارقين . قال النظام و قوله ما كذبت و لا كذبت و رفعه رأسه أحيانا إلى السماء و أطرقه إلى الأرض إيهام أما لنزول الوحي عليه أو لأنه قد أوصى من قبل في شأن الخوارج بأمر ثم هو يقول ما أوصى فيهم على خصوصيتهم بأمر و إنما أوصى بكل الحق و قتالهم من الحق .

[130]

و هذا عجب طريف . فنقول إن النظام أخطأ عندنا في تعريضه بهذا الرجل خطأ قبيحا و قال قولاً منكراً نستغفر الله له من عقابه و نسأله عفوه عنه و ليست الرواية التي رواها عن الحسن و سؤاله لأبيه و جوابه له بصححة و لا معروفة و المشهور المعروف المنقول نقلاً يكاد يبلغ درجة المتواتر من الأخبار ما روي عن رسول الله ص في معنى الخوارج بأعيانهم و ذكرهم بصفاتهم

و قوله ص لعلي ع إنك مقاتلهم و قاتلهم و إن المخدج ذا الثدية منهم و إنك ستقاتل بعدي الناكثين و القاسطين و المارقين فجعلهم أصنافاً ثلاثة حسب ما وقعت الحال عليه و هذا من معجزات الرسول ص و إخباره عن الغيوب المفصلة فما أعلم من أي كتاب نقل النظام هذه الرواية و لا عن أي محدث رواها و لقد كان رحمه الله تعالى بعيداً عن معرفة الأخبار و السير منصباً فكره مجهداً نفسه في الأمور النظرية الدقيقة كمسألة الجزء و مداخلة الأجسام و غيرهما و لم يكن الحديث و السير من فنونه و لا من علومه و لا ريب أنه سمعها ممن لا يوثق بقوله فنقلها كما سمعها . فأما كونه ع كان ينظر تارة إلى السماء و تارة إلى الأرض و قوله ما كذبت و لا كذبت فصحيح و موثوق بنقله لاستقامته و شهرته و كثرة رواياته و الوجه في ذلك أنه استبطأ وجود المخدج حيث طلبه في جملة القتلى فلما طال الزمان و أشفق من دخول شبهة على أصحابه لما كان قدمه إليهم من الأخبار قلق و اهتم و جعل يكرر قوله ما كذبت و لا كذبت أي ما كذبت على رسول الله ص و لا كذبتني رسول الله ص فيما أخبرني به . فأما رفعه رأسه إلى السماء تارة و أطرقه إلى الأرض أخرى فإنه حيث كان يرفع

[131]

رأسه كان يدعو و يتضرع إلى الله في تعجيل الظفر بالمخدج و حيث يطرق كان يغلبه الهم و الفكر فيطرق . ثم حين يقول ما كذبت و لا كذبت كيف ينتظر نزول الوحي فإن من نزل عليه الوحي لا يحتاج أن يسند الخبر إلى غيره و يقول ما كذبت فيما أخبرتكم به عن رسول الله ص . و مما طعن به النظام عليه

أنه ع قال إذا حدثتكم عن رسول الله ص فهو كما حدثتكم فو الله لأن أخر من السماء أحب إلي من أن أكذب على رسول الله ص و إذا سمعتموني أحدثكم فيما بيني و بينكم فإنما الحرب خدعة . قال النظام هذا يجري مجرى التدليس في الحديث و لو لم يحدثهم عن رسول الله ص بالمعاريض و على طريق الإيهام لما اعتذر من ذلك . فنقول في الجواب إن النظام قد وهم و انعكس عليه مقصد أمير المؤمنين و ذلك أنه ع لشدة ورعه أراد أن يفصل للسامعين بين ما يخبر به عن نفسه و بين ما يرويه عن رسول الله ص و ذلك لأن الضرورة ربما تدعوه إلى استعماله بالمعاريض لا سيما في الحرب المبنية على الخديعة و الرأي فقال لهم كلما أقول لكم قال لي رسول الله ص فاعلموا أنه سليم من المعاريض خال من الرمز و الكناية لأنني لا أستجيز و لا أستحل أن أعمي أو ألغز في حديث رسول الله ص . و ما حدثتكم به عن نفسي فربما أستعمل فيه المعاريض لأن الحرب خدعة .

[132]

و هذا كلام رجل قد استعمل التقوى و الورع في جميع أموره و بلغ من تعظيم أمر الرسول عليه أفضل الصلاة و السلام و إجلال قدره و احترام حديثه ألا يرويه إلا بألفاظه لا بمعانيه و لا بأمر يقتضي فيه الإلباس و تعمية و لو كان مضطرا إلى ذلك ترجيحا للجانب الذي على جانب مصلحته في خاص نفسه فأما إذا هو قال كلاما يبتدئ به من نفسه فإنه قد يستعمل فيه المعاريض إذا اقتضت الحكمة و التدبير ذلك فقد كان رسول الله ص باتفاق الرواة كافة إذا أراد أن يغزو وجهها ورى عنه بغيره و لما خرج ع من المدينة لفتح مكة قال لأصحابه كلاما يقتضي أنه يقصد بني بكر بن عبد مناة من كنانة فلم يعلموا حقيقة حاله حتى شارف مكة و قال حين هاجر و صحبه أبو بكر الصديق لأعرابي لقيهما من أين أنت و ممن أنت فلما انتسب لهما قال له الأعرابي أما أنا فقد اطلعتكما طلع أمري فممن أنت فقال من ماء لم يزد على ذلك فجعل الأعرابي يفكر و يقول من أي ماء من ماء بني فلان من ماء بني فلان فتركه و لم يفسر له و إنما أراد ع أنه مخلوق من نطفة . فأما قول النظام لو لم يحدث عن رسول الله ص بالمعاريض لما اعتذر من ذلك فليس في كلامه اعتذار و لكنه نفي أن يدخل المعاريض في روايته و أجازها فيما يبتدئ به عن نفسه و ليس يتضمن هذا اعتذارا و قوله لأن أخر من السماء يدل على أنه ما فعل ذلك و لا يفعله . ثم قال على من أكذب يقول كيف أكذب على الله و أنا أول المؤمنين به و كيف أكذب على رسول الله و أنا أول المصدقين به أخرجه مخرج الاستبعاد لدعواهم و زعمهم . فإن قلت كيف يمكن أن يكون المكلف الذي هو من أتباع الرسول كاذبا على الله إلا بواسطة إخباره عن الرسول لأنه لا صلة و لا واسطة بينه و بين الله تعالى إلا الرسول .

[133]

و إذا لم يمكن كذبه على الله إلا بكذبه على الرسول لم يبق لتقسيم الكذب و قوله أ فأنا أكذب على الله أو على رسوله معنى . قلت يمكن أن يكذب الكاذب على الله دون أن يكون كاذبا على الرسول و إن كان من أتباع الرسول نحو أن يقول كنت مع الرسول ص ليلة في مقبرة فأحيا الله تعالى فلانا الميت فقام و قال كذا أو يقول كنت معه يوم كذا فسمعت مناديا يناديه من السماء افعل كذا أو نحو ذلك من الأخبار بأمور لا تستند إلى حديث الرسول . ثم قال ع كلا و الله أي لا و الله و قيل إن كلا بمعنى حقا و إنه إثبات . قال و لكنها لهجة غبتم عنها اللهجة بفتح الجيم و هي آلة النطق يقال له هو فصيح اللهجة و صادق اللهجة و يمكن أن يعنى بها لهجة رسول الله ص فيقول شهدت و غبتم و يمكن أن يعنى بها لهجته هو فيقول إنها لهجة غبتم عن منافعها و أعدمتم أنفسكم ثمن مناصحتها . ثم قال ويلمه الضمير راجع إلى ما دل عليه معنى الكلام من

العلم لأنه لما ذكر اللهجة و شهوده إياها و غيبوبتهم عنها دل ذلك على علم له خصه به الرسول ع فقال ويلمه و هذه كلمة
تقال للتعجب و الاستعظام يقال ويلمه فارسا و تكتب موصولة كما هي بهذه الصورة و أصله ويل أمه مرادهم التعظيم و
المدح و إن كان اللفظ موضوعا لصد ذلك

كقوله ع فإظفر بذات الدين تربت يداك و كقولهم للرجل يصفونه و يقرظونه لا أبأ له . و قال الحسن البصري و هو يذكر
عليه ع و يصف كونه على الحق

[134]

في جميع أموره حتى قال فلما شارف الظفر وافق على التحكيم و ما لك في التحكيم و الحق في يدك لا أبأ لك . قال أبو
العباس المبرد هي كلمة فيها جفاء و خشونة كانت الأعراب تستعملها فيمن يستعظمون أمره قال و لما أنشد سليمان بن
عبد الملك قول بعض الأعراب

رب العباد ما لنا و ما لكا

قد كنت تسقينا فما بدا لكا

أنزل علينا الغيث لا أبأ لكا

قال أشهد أنه لا أب له و لا صاحبة و لا ولد فأخرجها أحسن مخرج . ثم قال ع كيلا بغير ثمن لو كان له و عاء انتصب كيلا
لأنه مصدر في موضع الحال و يمكن أن ينتصب على التمييز كقولهم لله دره فارسا يقول أنا أكيل لكم العلم و الحكمة كيلا و
لا أطلب لذلك ثمنا لو وجدت و عاء أي حاملا للعلم

و هذا مثل قوله ع ها إن بين جنبي علما جما لو أجد له حملة . ثم ختم الفصل بقوله تعالى **وَ لَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** و هو
أحسن ما ختم هذا الكلام به

خطبة الإمام علي بعد يوم النهروان

و روى المدائني في كتاب صفين قال خطب علي ع بعد انقضاء أمر النهروان فذكر طرفا من الملاحم قال إذا كثرت فيكم الأخلاط و استولت الأتباط دنا خراب العراق ذلك إذا بنيت مدينة ذات أثل و أنهار فإذا غلت فيها الأسعار و شيد فيها البنيان و حكم فيها الفساق و اشتد البلاء و تفاخر الغوغاء دنا خسوف البيداء و طاب الهرب و الجلاء و ستكون قبل الجلاء أمور يشيب منها الصغير و يعطب الكبير و يخرس الفصيح

[135]

و يبهت اللبيب يعاجلون بالسيف صلتا و قد كانوا قبل ذلك في غصارة من عيشهم يمرحون فيا لها مصيبة حينئذ من البلاء العقيم و البكاء الطويل و الويل و العويل و شدة الصريخ في ذلك أمر الله و هو كائن وقتنا يريج فيا بن حرة الإمام متى تنتظر أبشر بنصر قريب من رب رحيم ألا فويل للمتكبرين عند حصاد الحاصدين و قتل الفاسقين عصاه ذي العرش العظيم فبأبي و أمي من عدة قليلة أسماؤهم في الأرض مجهولة قد دنا حينئذ ظهورهم و لو شئت لأخبرتكم بما يأتي و يكون من حوادث دهركم و نوائب زمانكم و بلايا أيامكم و غمرات ساعاتكم و لكنه أفضيه إلى من أفضيه إليه مخافة عليكم و نظرا لكم علما مني بما هو كائن و ما يكون من البلاء الشامل ذلك عند تمرد الأشرار و طاعة أولي الخسار ذلك أوان الحتف و الدمار ذلك أديار أمركم و انقطاع أصلكم و تشتت ألفتكم و إنما يكون ذلك عند ظهور العصيان و انتشار الفسوق حيث يكون الضرب بالسيف أهون على المؤمنين من اكتساب درهم حلال حين لا تنال المعيشة إلا بمعصية الله في سمانه حين تسكرون من غير شراب و تحلفون من غير اضطرار و تظلمون من غير منفعة و تكذبون من غير إحراج تتفكحون بالفسوق و تبادرون بالمعصية قولكم البهتان و حديثكم الزور و أعمالكم الغرور فعند ذلك لا تأمنون البيات فيا له من بيات ما أشد ظلمته و من صائح ما أظع صوته ذلك بيات لا يمني صاحبه فعند ذلك تقتلون و بأنواع البلاء تضربون و بالسيف تحصدون و إلى النار تصيرون و يعضكم البلاء كما يعض الغارب القتب يا عجا كل العجب بين جمادى و رجب من جمع أشتات و حصد نبات و من أصوات بعدها أصوات ثم قال سبق القضاء سبق القضاء

[136]

قال رجل من أهل البصرة لرجل من أهل الكوفة إلى جانبه أشهد أنه كاذب على الله و رسوله قال الكوفي و ما يدريك قال فو الله ما نزل علي من المنبر حتى فلق الرجل فحمل إلى منزله في شق محمل فمات من ليلته

من خطب الإمام علي أيضا

و روى المدائني أيضا قال خطب علي ع فقال لو كسرت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم و بين أهل الإنجيل
بإنجيلهم و بين أهل الفرقان بفرقانهم و ما من آية في كتاب الله أنزلت في سهل أو جبل إلا و أنا عالم متى أنزلت و فيمن
أنزلت فقال رجل من القعود تحت منبره يا لله و للدعوى الكاذبة و قال آخر إلى جانبه أشهد أنك أنت الله رب العالمين قال
المدائني فانظر إلى هذا التناقض و التباين فيه

و روى المدائني أيضا قال خطب علي ع فذكر الملاحم فقال سلوني قبل أن تفقدوني أما و الله لتشغرن الفتنة الصماء
برجلها و تطأ في خطامها يا لها من فتنة شبت نارها بالحطب الجزل مقبلة من شرق الأرض رافعة ذيلها داعية ويلها
بدجلة أو حولها ذاك إذا استدار الفلك و قلت مات أو هلك بأي واد سلك فقال قوم تحت منبره لله أبوه ما أفصحه كاذبا
و روى صاحب كتاب الغارات عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث

[137]

قال سمعت عليا يقول على المنبر ما أحد جرت عليه المواسي إلا و قد أنزل الله فيه قرآنا فقام إليه رجل فقال يا أمير
المؤمنين فما أنزل الله تعالى فيك قال يريد تكذيبه فقام الناس إليه يلکزونه في صدره و جنبه فقال دعوه أقرأت سورة هود
قال نعم قال أ قرأت قوله سبحانه **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ** قال نعم قال صاحب البيئنة محمد و التالي
الشاهد أنا

[138]

71 - و من خطبة له ع علم فيها الناس الصلاة على النبي ص

اللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمُدْحَوَاتِ وَ دَاعِمِ الْمَسْمُوكَاتِ وَ جَابِلِ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَاتِهَا شَفِيعِهَا وَ سَعِيدِهَا اجْعَلْ شِرَائِفَ صَلَوَاتِكَ وَ نَوَامِي بَرَكَاتِكَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَ رَسُولِكَ الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ وَ الْفَاتِحِ لِمَا انْعَلَقَ وَ الْمُعَلِّمِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ وَ الدَّافِعِ جَيْشَاتِ الْأَبَاطِيلِ وَ الدَّامِعِ صَلَوَاتِ الْأَصَالِيلِ كَمَا حُمِلَ فَاضْطَلَعَ قَانِمًا بِأَمْرِكَ مُسْتَوْفِرًا فِي مَرْضَاتِكَ غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدْمٍ وَ لَا وَاهٍ فِي عَزْمٍ وَاعِيًا لَوْحِيكَ حَافِظًا لِعَهْدِكَ مَاضِيًا عَلَى نَفَازِ أَمْرِكَ حَتَّى أَوْرى قَبَسَ الْفَأْبِيسِ وَ أَصَاءَ الطَّرِيقِ لِلْخَابِطِ وَ هُدَيْتَ بِهِ الْقُلُوبَ بَعْدَ خَوْصَاتِ الْفِتَنِ وَ الْأَثَامِ وَ أَقَامَ بِمُوضِحَاتِ الْأَعْلَامِ وَ نِيَرَاتِ الْأَحْكَامِ فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ وَ خَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونُ وَ شَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ وَ بَعِيثُكَ بِالْحَقِّ وَ رَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ اللَّهُمَّ افْسَحْ لَهُ مَفْسَحًا فِي ظِلِّكَ وَ اجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ اللَّهُمَّ وَ اَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَنَانِينَ بِنَاءَهُ وَ أَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ وَ اَتِمِّمْ لَهُ نُورَهُ وَ اجْزِهِ مِنْ اِبْتِعَاتِكَ لَهُ مَقْبُولِ الشَّهَادَةِ مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ وَ خُطْبَةٍ فَصَلِّ اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ وَ قَرَارِ النِّعْمَةِ وَ مَنَى الشَّهَوَاتِ وَ أَهْوَاءِ اللَّذَاتِ وَ رَخَاءِ الدَّعَةِ وَ مُنْتَهَى الطَّمَأِينَةِ وَ تَحَفِ الْكِرَامَةِ

[139]

دحوت الرغيف دحوا بسطته و المدحوات هنا الأرضون . فإن قلت قد ثبت أن الأرض كرية فكيف تكون بسيطة و البسيط هو المسطح و الكري لا يكون مسطحا . قلت الأرض بجملتها شكل كرة و ذلك لا يمنع أن تكون كل قطعة منها مبسطة تصلح لأن تكون مستقرا و مجالا للبشر و غيرهم من الحيوان فإن المراد بانبساطها هاهنا ليس هو السطح الحقيقي الذي لا يوجد في الكرة بل كون كل قطعة منها سالحة لأن يتصرف عليها الحيوان لا يعني به غير ذلك . و داحي المدحوات ينتصب لأنه منادى مضاف تقديره يا باسط الأرضين المبسوطات قوله و داعم المسموكات أي حافظ السموات المرفوعات دعمت الشيء إذا حفظته من الهوى بدعامه و المسموك المرفوع قال

إن الذي سمك السماء بنى لنا

بيتا دعائمه أعز و أطول

و يجوز أن يكون عنى بكونها مسموكة كونها ثخينة و سمك الجسم هو البعد الذي يعبر عنه المتكلمون بالعمق و هو قسيم الطول و العرض و لاشيء أعظم ثخنا من الأفلاك . فإن قلت كيف قال إنه تعالى دعم السموات و هي بغير عمد . قلت إذا كان حافظا لها من الهوى بقدرته و قوته فقد صدق عليه كونه داعما لها لأن قوته الحافظة تجري مجرى الدعامة . قوله و جابل القلوب أي خالقها و الجبل الخلق و جبلة الإنسان خلقتة و فطراتها بكسر الفاء و فتح الطاء جمع فطرة و يجوز كسر الطاء كما قالوا في سدره سدرات و سدرات و الفطرة الحالة التي يفطر الله عليها الإنسان أي يخلقه عليها خاليا من الآراء

[140]

و الديانات و العقائد و الأهوية و هي ما يقتضيه محض العقل و إنما يختار الإنسان بسوء نظره ما يفضي به إلى الشقوة و هذا معنى

قول النبي ص كل مولود يولد على الفطرة فإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه قوله شقيها و سعيدها بدل من القلوب و تقدير الكلام و جابل الشقي من القلوب و السعيد على ما فطرت عليه . و النوامي الزوائد و الخاتم لما سبق أي لما سبق من الملل و الفاتح لما انغلق من أمر الجاهلية و المعن الحق بالحق أي المظهر للحق الذي هو خلاف الباطل بالحق أي بالحرب و الخصومة يقال حاق فلان فلانا فحقه أي خاصمه فخصمه و يقال ما فيه حق أي خصومة . قوله و الدافع جيشات الأباطيل جمع جيشة من جاشت القدر إذا ارتفع غليانها . و الأباطيل جمع باطل على غير قياس و المراد أنه قامع ما نجم من الباطل . و الدماغ المهلك من دمه أي شجه حتى بلغ الدماغ و مع ذلك يكون الهلاك . و الصولات جمع صولة و هي السطوة و الأضاليل جمع ضلال على غير قياس . قوله كما حمل أي لأجل أنه يحمل و العرب تستعمل هذه الكاف بمعنى التعليل قال الشاعر

فقلت له أبا الملحأ خذها

كما أوسعنا بغيا و عدوا

أي هذه الضربة لبغيك علينا و تعديك . و قوله كما حمل يعني حمل أعباء الرسالة فاضطلع أي نهض بها قويا فرس ضليع أي قوي و هي الضلاعة أي القوة . مستوفزا أي غير بطيء بل يحث نفسه و يجهدا في رضا الله سبحانه و الوفاء العجلة و المستوفز المستعجل .

[141]

غير ناكل عن قدم أي غير جبان و لا متأخر عن إقدام و المقدم المتقدم يقال مضى قدما أي تقدم و سار و لم يعرج . قوله و لا واه في عزم و هي أي ضعف و الواهي الضعيف . و اعيا لوحيد أي فاهما و عيت الحديث أي فهمته و عقلته . ماضيا على نفاذ أمرك في الكلام حذف تقديره ماضيا مصرا على نفاذ أمرك كقوله تعالى **فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ** و لم يقل مرسلا لأن الكلام يدل بعضه على بعض . و قوله حتى أورى قبس القابس يقال ورى الزند يري أي خرج ناره و أوريته أنا و القبس شعله من النار و المراد بالقبس هاهنا نور الحق و القابس الذي يطلب النار يقال قبست منه نارا و أقبسني نارا أي أعطانيها . و قال الراوندي أقبست الرجل علما و قبسته نارا أعطيته فإن كنت طلبتها له قلت أقبسته نارا . و قال الكساني أقبسته نارا و علما سواء قال و يجوز قبسته بغير همزة فيهما . قوله و أضاء الطريق للخابط أي جعل الطريق للخابط مضيئة و الخابط الذي يسير ليلا على غير جادة واضحة . و هذه الألفاظ كلها استعارات و مجازات . و خوضات الفتن جمع خوضة و هي المرة الواحدة من خضت الماء و الوحل أخوضهما و تقدير الكلام و هديت به القلوب إلى الأعلام الموضحة بعد أن خاضت في الفتن أطوارا و الأعلام جمع علم و هو ما يستدل به على الطريق كالمنارة و نحوها . و الموضحة التي توضح للناس الأمور و تكشفها و النيرات ذوات النور . قوله فهو أمينك المأمون أي أمينك على وحيك و المأمون من ألقاب رسول الله ص قال كعب بن زهير

[142]

سفاك أبو بكر بكأس روية

و انهلك المأمون منها و علكا

و خازن علمك المخزون بالجر صفة علمك و العلم الإلهي المخزون هو ما اطلع الله تعالى عليه و رسوله من الأمور الخفية التي لا تتعلق بالأحكام الشرعية كالملاحم و أحكام الآخرة و غير ذلك لأن الأمور الشرعية لا يجوز أن تكون مخزونة عن المكلفين . و قوله و شهيدك يوم الدين أي شاهدك قال سبحانه **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً** . و البعيث المبعوث فعيل بمعنى مفعول كقتيل و جريح و صريع و مفسحا مصدر أي وسع له مفسحا . و قوله في ذلك يمكن أن يكون مجازا كقولهم فلان يشملني بظله أي بإحسانه و بره و يمكن أن يكون حقيقة و يعني به الظل الممدود الذي ذكره الله تعالى فقال **وَ ظِلِّ مَمْدُودٍ وَ مَاءٍ مَسْكُوبٍ** . و قوله و أعل على بناء البانين بناءه أي اجعل منزلته في دار الثواب أعلى المنازل . و أتم له نوره من قوله تعالى **رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ** و قد روي أنه تطفأ سائر الأنوار إلا نور محمد ص ثم يعطى المخلصون من أصحابه أنوارا يسيرة يبصرون بها مواطئ الأقدام فيدعون إلى الله تعالى بزيادة تلك الأنوار و إتمامها ثم إن الله تعالى يتم نور محمد ص فيستطيل حتى يملأ الآفاق فذلك هو إتمام نوره ص . قوله من ابتعائك له أي في الآخرة . مقبول الشهادة أي مصدقا فيما يشهد به على أمته و على غيرها من الأمم .

[143]

و قوله ذا منطق عدل أي عادل و هو مصدر أقيم مقام اسم الفاعل كقولك رجل فطر و صوم أي فطر و صائم . و قوله و خطبة فصل أي يخطب خطبة فاصلة يوم القيامة كقوله تعالى **إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ** أي فاصل يفصل بين الحق و الباطل و هذا هو المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى في الكتاب فقال **عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً** و هو الذي يشار إليه في الدعوات في قولهم اللهم آت محمدا الوسيلة و الفضيلة و الدرجة الرفيعة و ابعته المقام المحمود . قوله في برد العيش تقول العرب عيش بارد و معيشة باردة أي لا حرب فيها و لا نزاع لأن البرد و السكون متلازمان كتلازم الحر و الحركة . و قرار النعمة أي مستقرها يقال هذا قرار السيل أي مستقره و من أمثالهم لكل سائلة قرار . و منى الشهوات ما تتعلق به الشهوات من الأماني و أهواء اللذات ما تهواه النفوس و تستلذه و الرخاء المصدر من قولك رجل رخی البال فهو بين الرخاء أي واسع الحال . و الدعة السكون و الطمأنينة و أصلها الواو . و منتهى الطمأنينة غايتها التي ليس بعدها غاية . و التحف جمع تحفة و هي ما يكرم به الإنسان من البر و اللطف و يجوز فتح الحاء

معنى الصلاة على النبي و الخلاف في جواز الصلاة على غيره

فإن قلت ما معنى الصلاة على الرسول ص التي قال الله تعالى فيها

[144]

إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا . قلت الصلاة من الله تعالى هي الإكرام والتبجيل ورفع المنزلة والصلاة منا على النبي ص هي الدعاء له بذلك فقله سبحانه هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ أي هو الذي يرفع منازلكم في الآخرة وقوله وَ مَلَائِكَتُهُ أي يدعون لكم بذلك . وقيل جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنهم فاعلون التعظيم للمؤمن ورفع المنزلة ونظيره قوله حيّاك الله أي أحياك الله وأبقاك وحييتك أي دعوت لك بأن يحييك لأنك لاعتمادك على إجابة دعوتك و وثوقك بذلك كأنك تحببه وتبقيه على الحقيقة وهكذا القول في قوله سبحانه إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ . وقد اختلف في الصلاة على النبي ص هل هي واجبة أم لا . فمن الناس من لم يقل بوجوبها وجعل الأمر في هذه الآية للندب ومنهم من قال إنها واجبة . و اختلفوا في حال وجوبها فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره وفي الحديث من ذكرت عنده فلم يصل علي دخل النار وأبعده الله ومنهم من قال تجب في كل مجلس مرة واحدة وإن تكرر ذكره ومنهم من أوجبها في العمر مرة واحدة وكذلك قال في إظهار الشهادتين . و اختلف أيضا في وجوبها في الصلاة المفروضة فأبو حنيفة وأصحابه لا يوجبونها فيها و روي عن إبراهيم النخعي أنهم كانوا يكتفون يعني الصحابة عنها بالتشهد وهو السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته وأوجبها الشافعي وأصحابه و اختلف أصحابه في وجوب الصلاة على آل محمد ص فالأكثر على أنها واجبة وأنها شرط في صحة الصلاة .

[145]

فإن قلت فما تقول في الصلاة على الصحابة والصالحين من المسلمين . قلت القياس جواز الصلاة على كل مؤمن لقوله تعالى هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلَائِكَتُهُ وقوله وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وقوله أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ ولكن العلماء قالوا إذا ذكر أحد من المسلمين تبعاً للنبي ع فلا كلام في جواز ذلك وأما إذا أوردوا أو ذكر أحد منهم فأكثر الناس كرهوا الصلاة عليه لأن ذلك شعار رسول الله فلا يشركه فيه غيره . وأما أصحابنا من البغداديين فلمهم اصطلاح آخر وهو أنهم يكرهون إذا ذكروا عليا ع أن يقولوا صلى الله عليه ولا يكرهون أن يقولوا صلوات الله عليه وجعلوا اللفظة الأولى مختصة بالرسول ص وجعلوا اللفظة الثانية مشتركة فيها بينهما ع ولم يطلقوا لفظ الصلاة على أحد من المسلمين إلا على علي وحده

[146]

72 - و من كلام له ع قاله لمروان بن الحكم بالبصرة

قَالُوا : أَخَذَ مَرْوَانَ بِنُ الْحَكَمِ أَسِيرًا يَوْمَ الْجَمَلِ فَاسْتَشْفَعَ الْحَسَنَ وَ الْحُسَيْنَ ع إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ع فَكَلَّمَاهُ فِيهِ فَخَلَّى سَبِيلَهُ فَقَالَ لَهُ يَا بَيَاعُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ ع أ وَ لَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عَثْمَانَ لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ إِنَّهَا كَفَتْ يَهُودِيَّةً لَوْ بَايَعَنِي بِيَدِهِ لَعَدَرَ بِسَبْتِهِ أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلْعَقَةَ الْكَلْبِ أَنْفَهُ وَ هُوَ أَبُو الْأَكْبَشِ الْأَرْبَعَةَ وَ سَتَلَقَى الْأُمَّةَ مِنْهُ وَ مِنْ وُلْدِهِ يَوْمًا [مَوْتًا] أَحْمَرَ

قد روي هذا الخبر من طرق كثيرة و رويت فيه زيادة لم يذكرها صاحب نهج البلاغة

و هي قوله ع في مروان يحمل راية ضلالة بعد ما يشيب صدغاه و إن له إمرة إلى آخر الكلام . و قوله فاستشفع الحسن و الحسين إلى أمير المؤمنين ع هو الوجه يقال استشفعت فلانا إلى فلان أي سألته أن يشفع لي إليه و تشفعت إلى فلان في فلان فشفعني فيه تشفيعا و قول الناس استشفعت بفلان إلى فلان بالباء ليس بذلك الجيد . و قول أمير المؤمنين ع أ و لم يبایعني بعد قتل عثمان أي و قد غدر و هكذا لو يبایعني الآن .

[147]

و معنى قوله إنها كف يهودية أي غادرة و اليهود تنسب إلى الغدر و الخبث و قال تعالى **لَتَجِدَنَّ أُمَّتًا أَنْتَ الْأَنْبَاءِ عِدَاةً لِلَّذِينَ آمَنُوا** **الْيَهُودَ** . و السببة الاست بفتح السين سبه يسبه أي طعنه في الموضوع و معنى الكلام محمول على وجهين . أحدهما أن يكون ذكر السببة إهانة له و غلظة عليه و العرب تسلك مثل ذلك في خطبها و كلامها قال المتوكل لأبي العيناء إلى متى تمدح الناس و تذمهم فقال ما أحسنوا و أساءوا ثم قال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى رضي عن واحد فمدحه و سخط على آخر فهجاه و هجا أمه قال **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** و قال **عُتْبٌ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٌ** و الزنيم ولد الزنا . الوجه الثاني أن يريد بالكلام حقيقة لا مجازا و ذلك لأن الغادر من العرب كان إذا عزم على الغدر بعد عهد قد عاهده أو عقد قد عقده حقيق استهزاء بما كان قد أظهره من اليمين و العهد و سخرية و تهكما . و الإمرة الولاية بكسر الهمزة و قوله كلعقة الكلب أنفه يريد قصر المدة و كذلك كانت مدة خلافة مروان فإنه ولي تسعة أشهر . و الأكبش الأربعة بنو عبد الملك الوليد و سليمان و يزيد و هشام و لم يل الخلافة من بني أمية و لا من غيرهم أربعة إخوة إلا هؤلاء . و كل الناس فسروا الأكبش الأربعة بمن ذكرناه و عندي أنه يجوز أن يعني به

[148]

بني مروان لصلبه و هم عبد الملك و عبد العزيز و بشر و محمد و كانوا كباشا أبطالا أنجادا أما عبد الملك فولى الخلافة و أما بشر فولى العراق و أما محمد فولى الجزيرة و أما عبد العزيز فولى مصر و لكل منهم آثار مشهورة و هذا التفسير أولى لأن الوليد و إخوته أبناء ابنه و هؤلاء بنوه لصلبه . و يقال لليوم الشديد يوم أحمر و للسنة ذات الجذب سنة حمراء . و كل ما أخبر به أمير المؤمنين ع في هذا الكلام وقع كما أخبر به و كذلك قوله يحمل راية ضلالة بعد ما يشيب صدغاه فإنه ولي الخلافة و هو ابن خمسة و ستين في أعدل الروايات

مروان بن الحكم و نسبه و أخباره

و نحن ذاكرون في هذا الموضع نسبه و جملا من أمره و ولايته للخلافة و وفاته على سبيل الاختصار . هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف و أمه أمنة بنت علقمة بن صفوان بن أمية الكناني يكنى أبا عبد الملك ولد على عهد رسول الله ص منذ سنة اثنتين من الهجرة و قيل عام الخندق و قيل يوم أحد و قيل غير ذلك و قال قوم بل ولد بمكة و قيل ولد بالطائف ذكر ذلك كله أبو عمر بن عبد البر في كتاب الإستيعاب . قال أبو عمر و ممن قال بولادته يوم أحد مالك بن أنس و على قوله يكون

[149]

رسول الله ص قد توفي و عمره ثمان سنين أو نحوها . و قيل إنه لما نفي مع أبيه إلى الطائف كان طفلا لا يعقل و إنه لم ير رسول الله ص و كان الحكم أبوه قد طرده رسول الله عن المدينة و سيره إلى الطائف فلم يزل بها حتى ولي عثمان فرده إلى المدينة فقدمها هو و ولده في خلافة عثمان و توفي فاستكتبه عثمان و ضمه إليه فاستولى عليه إلى أن قتل . و الحكم بن أبي العاص هو عم عثمان بن عفان كان من مسلمة الفتح و من المؤلفة قلوبهم و توفي الحكم في خلافة عثمان قبل قتله بشهور . و اختلف في السبب الموجب لنفي رسول الله ص فقيل إنه كان يتحيل و يستخفي و يتسمع ما يسره رسول الله ص إلى أكابر الصحابة في مشركي قريش و سائر الكفار و المنافقين و يفشي ذلك عنه حتى ظهر ذلك عنه . و قيل كان يتجسس على رسول الله ص و هو عند نسائه و يسترق السمع و يصغي إلى ما يجري هناك مما لا يجوز الاطلاع عليه ثم يحدث به المنافقين على طريق الاستهزاء . و قيل كان يحكيه في بعض مشيته و بعض حركاته فقد قيل إن النبي ص كان إذا مشى يتكفأ و كان الحكم بن أبي العاص يحكيه و كان شاننا له مبغضا حاسدا فالتفت رسول الله ص يوما فرآه يمشي خلفه يحكيه في مشيته

[150]

فقال له كذلك فلتكن يا حكم فكان الحكم مختلجا يرتعش من يومئذ فذكر ذلك عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فقال لعبد الرحمن بن الحكم بهجوه

إن اللعين أبوك فارم عظامه

إن ترم ترم مخلجا مجنونا

يمشي خميص البطن من عمل التقى

و يظل من عمل الخبيث بطينا

قال صاحب الإستيعاب أما قول عبد الرحمن بن حسان إن اللعين أبوك فإنه روي عن عائشة من طرق ذكرها ابن أبي خيثمة و غيره أنها قالت لمروان إذ قال في أخيها عبد الرحمن إنه أنزل فيه **وَ الَّذِي قَالَ لَوَالِدِيهِ أَفٍّ لَكُمْ أ تَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ حَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَ هُمَا يَسْتَعِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله ص لعن أباك و أنت في صلبه .

و روى صاحب كتاب الإستيعاب بإسناد ذكره عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ص قال يدخل عليكم رجل لعين قال عبد الله و كنت قد رأيت أبي يلبس ثيابه ليقبل إلى رسول الله ص فلم أزل مشفقاً أن يكون أول من يدخل فدخل الحكم بن أبي العاص

قال صاحب الإستيعاب و نظر علي ع يوماً إلى مروان فقال له ويل لك و ويل لأمة محمد منك و من بنيك إذا شاب صدغاك و كان مروان يدعى

[151]

خيطة باطل قيل لأنه كان طويلاً مضطرباً . و ضرب يوم الدار على قفاه فخر لفيه فلما بويغ له بالخلافة قال فيه أخوه عبد الرحمن بن الحكم و كان ماجناً شاعراً محسناً و كان لا يرى رأي مروان

فو الله ما أدري و إني لسانل
حليلة مضرب القفا كيف تصنع
لحا الله قوما أمروا خيط باطل
على الناس يعطي ما يشاء و يمنع

و قيل إنما قال له أخوه عبد الرحمن ذلك حين و لاه معاوية إمرة المدينة و كان كثيراً ما يهجوهم و من شعره فيه

وهبت نصيبي منك يا مرو كله
لعمرو و مروان الطويل و خالد
و رب ابن أم زائد غير ناقص
و أنت ابن أم ناقص غير زائد

و قال مالك بن الريب يهجو مروان بن الحكم

لعمرك ما مروان يقضي أمورنا
و لكن ما يقضي لنا بنت جعفر
فيا ليتها كانت علينا أميره
و ليتك يا مروان أمسيت ذاحر

و من شعر أخيه عبد الرحمن فيه

ألا من يبلغن مروان عني
رسولاً و الرسول من البيان
بأنك لن ترى طرداً لحر
كالصاق به بعض الهوان

و هل حدثت قبلي عن كريم
معين في الحوادث أو معان
يقيم بدار مضیعة إذا لم
يكن حيران أو خفق الجنان

[152]

فلا تقذف بي الرجوين إني
أقل القوم من يغني مكاني
سأكفيك الذي استكفيت مني
بأمر لا تخالجه اليدان
فلو أنا بمنزلة جرينا
جريت و أنت مضطرب العنان
و لو لا أن أم أبيك أمي
و أن من قد هجاك فقد هجاني
لقد جاهرت بالبغضاء إني
إلى أمر الجهارة و العلان

و لما صار أمر الخلافة إلى معاوية ولى مروان المدينة ثم جمع له إلى المدينة مكة و الطائف ثم عزله و ولى سعيد بن
العاص فلما مات يزيد بن معاوية و ولي ابنه أبو ليلى معاوية بن يزيد في سنة أربع و ستين عاش في الخلافة أربعين يوما
و مات فقالت له أمه أم خالد بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس اجعل الخلافة من بعدك لأخيك فأبى و قال لا
يكون لي مرها و لكم حلوها فوثب مروان عليها و أنشد

إني أرى فتنة تغلي مراجلها
و الملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

و ذكر أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني في كتاب الأغاني أن معاوية لما عزل مروان بن الحكم عن إمرة المدينة و
الحجاز و ولى مكانه سعيد بن العاص وجه مروان أخاه عبد الرحمن بن الحكم أمامه إلى معاوية و قال له ألقه قبلي فعاتبه
لي و استصلحه . قال أبو الفرج و قد روي أن عبد الرحمن كان بدمشق يومئذ فلما بلغه خبر عزل مروان و قدومه إلى
الشام خرج و تلقاه و قال له أقم حتى أدخل إلى أخيك فإن كان عزلك عن موجدة دخلت إليه منفردا و إن كان عن غير
موجدة دخلت إليه مع الناس

[153]

فأقام مروان و مضى عبد الرحمن فلما قدم على معاوية دخل إليه و هو يعيشي الناس فأنشده

أتتك العيس تنفخ في براها
تكشف عن مناكبها القطوع
بأبيض من أمية مضرحي
كأن جبينه سيف صنيع

فقال له معاوية أ زانرا جنت أم مفاخرا مكابرا فقال أي ذلك شئت فقال ما أشاء من ذلك شيئا و أراد معاوية أن يقطعه عن
كلامه الذي عن له فقال له على أي ظهر جنتنا فقال على فرس قال ما صفته قال أجش هزيم يعرض بقول النجاشي في
معاوية يوم صفين

و نجا ابن حرب سابح ذو علالة
أجش هزيم و الرماح دوان
إذا قلت أطراف الرماح تناله
مرته له الساقان و القدمان

فغضب معاوية و قال إلا أنه لا يركبه صاحبه في الظلم إلى الريب و لا هو ممن يتسور على جاراته و لا يتوثب بعد هجعة
الناس على كنانته و كان عبد الرحمن يتهم بذلك في امرأة أخيه فخلج عبد الرحمن و قال يا أمير المؤمنين ما حملك على
عزل ابن عمك الخيانة أوجبت ذلك أم لرأي رأيت و تدبير استصلحته قال بل لتدبير استصلحته قال فلا بأس بذلك فخرج من
عنده فلقي أخاه مروان فأخبره بما دار بينه و بين معاوية فاستشاط غيظا و قال لعبد الرحمن قبحك الله ما أضعفك عرضت
للرجل بما أغضبه حتى إذا انتصر

[154]

منك أحجمت عنه ثم لبس حلتته و ركب فرسه و تقلد سيفه و دخل على معاوية فقال له حين رآه و تبين الغضب في وجهه
مرحبا بأبي عبد الملك لقد زرتنا عند اشتياق منا إليك فقال لا ها الله ما زرتك لذلك و لا قدمت عليك فألفيتك إلا عاقا قاطعا و
الله ما أنصفتنا و لا جزيتنا جزاءنا لقد كانت السابقة من بني عبد شمس لآل أبي العاص و الصهر عن رسول الله ص لهم و
الخلافة منهم فوصلوكم يا بني حرب و شرفوكم و ولوكم فما عزلوكم و لا آثروا عليكم حتى إذا وليتم و أفضى الأمر إليكم
أبيتم إلا أثره و سوء صنيعه و قبح قطيعة فرويدا رويدا فقد بلغ بنو الحكم و بنو بنيه نيفا و عشرين و إنما هي أيام قلانل
حتى يكملوا أربعين ثم يعلم امرؤ ما يكون منهم حينئذ ثم هم للجزاء بالحسنى و السوء بالمرصاد . قال أبو الفرج هذا رمز
إلى

قول رسول الله ص إذا بلغ بنو أبي العاص أربعين رجلا اتخذوا مال الله دولا و عباد الله خولا فكان بنو أبي العاص يذكرون
أنهم سيلون أمر الأمة إذا بلغوا هذه العدة . قال أبو الفرج فقال له معاوية مهلا أبا عبد الملك إنني لم أعزلك عن خيانة و
إنما عزلتك لثلاثة لو لم يكن منهن إلا واحدة لأوجبت عزلك إحداهن أني أمرتك على عبد الله بن عامر و بينكما ما بينكما
فلن تستطيع أن تشتفي منه و الثانية كراهيتك لإمرة زياد و الثالثة أن ابنتي رملة استعدتكم على زوجها عمرو بن عثمان
فلم تعدها فقال مروان أما ابن عامر فإني لا أنتصر منه في سلطاني و لكن إذا تساوت الأقدام علم أين موقعه و أما كراهتي

لإمرة زياد فإن سائر بني أمية كرهوه و جعل الله لنا في ذلك الكره خيرا كثيرا و أما استعداد رملة على عمرو فو الله إنه ليأتي علي سنة أو أكثر

[155]

و عندي بنت عثمان فما أكشف لها ثوبا يعرض بأن رملة إنما تستعدي علي عمرو بن عثمان طلب النكاح فغضب معاوية فقال يا ابن الوزغ لست هناك فقال مروان هو ما قلت لك و إنني الآن لأبو عشرة و أخو عشرة و عم عشرة و قد كاد ولد أبي أن يكملوا العدة يعني أربعين و لو قد بلغوها لعلمت أين تقع مني فاتخزل معاوية و قال

فإن أك في شراركم قليلا

فإني في خياركم كثير

بغات الطير أكثرها فراخا

و أم الصقر مقلات نزور

ثم استخذي معاوية في يد مروان و خضع و قال لك العتبي و أنا رادك إلى عملك فوثب مروان و قال كلا و عيشك لا رأيتني عاندا و خرج . فقال الأحنف لمعاوية ما رأيت قط لك سقطة مثلها ما هذا الخضوع لمروان و أي شيء يكون منه و من بني أبيه إذا بلغوا أربعين و ما الذي تخشاه منهم فقال ادن مني أخبرك ذلك فدنا الأحنف منه فقال له إن الحكم بن أبي العاص كان أحد من قدم مع أختي أم حبيبة لما زفت إلى رسول الله ص و هو يتولى نقلها إليه فجعل رسول الله ص يحد النظر إليه فلما خرج من عنده قيل يا رسول الله لقد أهدت النظر إلى الحكم فقال ابن المخزومية ذاك رجل إذا بلغ بنو أبيه ثلاثين أو أربعين ملكوا الأمر من بعدي فو الله لقد تلقاها مروان من عين صافية فقال الأحنف رويدا يا أمير المؤمنين لا يسمع هذا منك أحد فإنك تضع من قدرك و قدر ولدك بعدك و إن يقض الله أمرا يكن فقال

[156]

معاوية اکتتمها يا أبا بحر علي إذا فقد لعمرک صدقت و نصحت . و ذکر شيخنا أبو عثمان الجاحظ في کتاب مفاخرة هاشم و عبد شمس أن مروان كان يضعف و أنه كان ينشد يوم مرج راهط و الرعوس تنذر عن كواهلها

و ما ضرهم غير حين النفوس

أي غلامي قريش غلب

قال و هذا حمق شديد و ضعف عظيم قال و إنما ساد مروان و ذكر بابنه عبد الملك كما ساد بنوه و لم يكن في نفسه هناك . فأما خلافة مروان فذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ أن عبد الله بن الزبير لما أخرج بني أمية عن الحجاز إلى الشام في خلافة يزيد بن معاوية خرجوا و فيهم مروان و ابنه عبد الملك و لم تطل مدة يزيد فتوفي و مات ابنه بعده بأيام يسيرة و كان من رأي مروان أن يدخل إلى ابن الزبير بمكة فيبايعه بالخلافة فقدم عبيد الله بن زياد و قد أخرجه أهل البصرة عنها بعد وفاة يزيد فاجتمع هو و بنو أمية و أخبروه بما قد أجمع عليه مروان فجاء إليه و قال استجبت لك يا أبا عبد الملك فما يريد أنت كبير قريش و سيدها تصنع ما تصنع و تشخص إلى أبي خبيب فتبايعه بالخلافة فقال مروان ما فات

شيء بعد فقام مروان و اجتمع إليه بنو أمية و مواليهم و عبید الله بن زياد و كثير من أهل اليمن و كثير من كلب فقدم دمشق و عليها الضحاك بن قيس الفهري قد بايعه الناس على أن يصلي بهم و يقيم لهم أمرهم حتى يجتمع

[157]

الناس على إمام و كان هوى الضحاك مع ابن الزبير إلا أنه لم يبايع له بعد و كان زفر بن الحارث الكلابي يقتسرين يخطب لابن الزبير و النعمان بن بشير الأنصاري بحمص يخطب لابن الزبير و كان حسان بن مالك بن بحدل الكلابي بفلسطين يهوى هوى بني أمية ثم من بينهم بني حرب لأنه كان عاملاً لمعاوية ثم لي زيد بن معاوية من بعده و كان حسان بن مالك مطاعاً في قومه عظيماً عندهم فخرج عن فلسطين يريد الأردن و استخلف على فلسطين روح بن زنباع الجذامي فوثب عليه بعد شخوص حسان بن مالك و نائل بن قيس الجذامي أيضاً فأخرجه عن فلسطين و خطب لابن الزبير و كان له فيه هوى فاستوثقت الشام كلها لابن الزبير ما عدا الأردن فإن حسان بن مالك الكلابي كان يهوى هوى بني أمية و يدعو إليهم فقام في أهل الأردن فخطبهم و قال لهم ما شهدتكم على ابن الزبير و قتلى المدينة بالحرّة قالوا نشهد أن ابن الزبير كان منافقاً و أن قتلى أهل المدينة بالحرّة في النار قال فما شهدتكم على يزيد بن معاوية و قتلكم بالحرّة قالوا نشهد أن يزيد بن معاوية كان مؤمناً و كان قتلانا بالحرّة في الجنة قال و أنا أشهد أنه إن كان دين يزيد بن معاوية و هو حي حقاً إنه اليوم لعلى حق هو و شيعته و إن كان ابن الزبير يومئذ هو و شيعته على باطل إنه اليوم و شيعته على باطل قالوا صدقت نحن نبايعك على أن نقاتل معك من خلفك من الناس و أطاع ابن الزبير على أن تجنّبنا ولاية هذين الغلامين ابني يزيد بن معاوية و هما خالد و عبد الله فإنهما حديثاً أسنانهما و نحن نكره أن يأتينا الناس بشيخ و نأتيهم بصبي . قال و قد كان الضحاك بن قيس يوالي ابن الزبير باطناً و يهوى هواه و يمنع إظهار ذلك بدمشق و البيعة له أن بني أمية و كلبا كانوا بحضرته و كلب أخوال يزيد

[158]

بن معاوية و بنيه و يطلبون الإمرة لهم فكان الضحاك يعمل في ذلك سرا و بلغ حسان بن مالك بن بحدل ما أجمع عليه الضحاك فكتب إليه كتاباً يعظم فيه حق بني أمية و يذكر الطاعة و الجماعة و حسن بلاء بني أمية عنده و صنيعهم إليه و يدعوهم إلى بيعتهم و طاعتهم و يذكر ابن الزبير و يقع فيه و يشتمه و يذكر أن منافق قد خلع خليفتين و أمره أن يقرأ كتابه على الناس ثم دعا رجلاً من كلب يقال له ناغضة فسرح بالكتاب معه إلى الضحاك بن قيس و كتب حسان نسخة ذلك الكتاب و دفعه إلى ناغضة و قال له إن قرأ الضحاك كتابي على الناس و إلا فقم أنت و اقرأ هذا الكتاب عليهم و كتب حسان إلى بني أمية يأمرهم أن يحضروا ذلك فقدم ناغضة بالكتاب على الضحاك فدفعه إليه و دفع كتاب بني أمية إليهم سرا . فلما كان يوم الجمعة و صعد الضحاك على المنبر و قدم إليه ناغضة فقال أصلح الله الأمير ادع بكتاب حسان فأقرأه على الناس فقال له الضحاك اجلس فجلس ثم قام ثانية فتكلم مثل ذلك فقال له اجلس فجلس ثم قام ثالثة و كان كالثانية و الأولى فلما رآه ناغضة لا يقرأ الكتاب أخرج الكتاب الذي معه فقرأه على الناس فقام الوليد بن عتبة بن أبي سفيان فصدق حسان و كذب ابن الزبير و شتمه و قام يزيد بن أبي النميس الغساني فصدق مقالة حسان و كتبه و شتم ابن الزبير و قام سفيان بن أبرد الكلابي فصدق مقالة حسان و شتم ابن الزبير و قام عمر بن يزيد الحكمي فشتم حسان و أثنى على ابن الزبير فاضطرب الناس و نزل الضحاك بن قيس فأمر بالوليد بن عتبة و سفيان بن الأبرد و يزيد بن أبي النميس الذين كانوا صدقوا حسان و

شتموا ابن الزبير فحبسوا و جال الناس بعضهم في بعض و وثبت كلب على عمر بن يزيد الحكمي فضربوه و خرقوا ثيابه و قد كان قام خالد بن يزيد بن معاوية فصعد مرقاتين من المنبر و هو يومئذ غلام . و الضحاك بن قيس فوق المنبر فتكلم بكلام أوجز فيه لم يسمع بمثله ثم نزل .

[159]

فلما دخل الضحاك بن قيس داره جاءت كلب إلى السجن فأخرجوا سفيان بن أبرد الكلبى و جاءت غسان فأخرجوا يزيد بن أبي النمى و قال الوليد بن عتبة لو كنت من كلب أو غسان لأخرجت فجاء ابنا يزيد بن معاوية خالد و عبد الله و معهما أخوالهما من كلب فأخرجوه من السجن . ثم إن الضحاك بن قيس خرج إلى مسجد دمشق فجلس فيه و ذكر يزيد بن معاوية فوقع فيه فقام إليه سنان من كلب و معه عصا فضربه بها و الناس جلوس حلقا متقلدي السيوف فقام بعضهم إلى بعض في المسجد فاقتتلوا فكانت قيس عيلان قاطبة تدعو إلى ابن الزبير و معهما الضحاك و كلب تدعو إلى بني أمية ثم إلى خالد بن يزيد فيتعصبون له فدخل الضحاك دار الإمارة و أصبح الناس فلم يخرج الضحاك إلى صلاة الفجر . فلما ارتفع النهار بعث إلى بني أمية فدخلوا عليه فاعتذر إليهم و ذكر حسن بلانهم عنده و أنه ليس يهوى شيئا يكرهونه ثم قال تكتبون إلى حسان و نكتب و يسير حسان من الأردن حتى ينزل الجابية و نسير نحن و أنتم حتى نوافيه بها فيجتمع رأي الناس على رجل منكم فرضيت بذلك بنو أمية و كتبوا إلى حسان و هو بالأردن و كتب إليه الضحاك يأمره بالموافاة في الجابية و أخذ الناس في الجهاز للرحيل . و خرج الضحاك بن قيس من دمشق و خرج الناس و خرجت بنو أمية و توجهت الرايات يريدون الجابية فجاء ثور بن معن يزيد بن الأحنس السلمي إلى الضحاك فقال دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك ثم أنت الآن تسير إلى هذا الأعرابي من كلب لتستخلف ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية فقال الضحاك فما الرأي قال الرأي أن

[160]

نظهر ما كنا نسر و ندعو إلى طاعة ابن الزبير و نقاتل عليها فمال الضحاك بمن معه من الناس و انخزل من بني أمية و من معهم من قبائل اليمن فنزل مرج راهط . قال أبو جعفر و اختلف في أي وقت كانت الواقعة بمرج راهط فقال الواقدي كانت في سنة خمس و ستين و قال غيره في سنة أربع و ستين . قال أبو جعفر و سارت بنو أمية و لفيفها حتى وافوا حسان بالجابية فصلى بهم أربعين يوما و الناس يتشاورون و كتب الضحاك بن قيس من مرج راهط إلى النعمان بن بشير الأنصاري و هو على حمص يستجده و إلى زفر بن الحارث و هو في قنسرين و إلى نائل بن قيس و هو على فلسطين ليستمدهم و كلهم على طاعة ابن الزبير فأمدوه فاجتمعت الأجناد إليه بمرج راهط و أما الذين بالجابية فكانت أهواؤهم مختلفة فأما مالك بن هبيرة السكوني فكان يهوى هوى يزيد بن معاوية و يحب أن تكون الخلافة في ولده و أما حصين بن نمير السكوني فكان يهوى هوى بني أمية و يحب أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم فقال مالك بن هبيرة للحصين بن نمير هلم فلنباع لهذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه و هو ابن أختنا فقد عرفت منزلتنا التي كانت من أبيه إنك إن تباعه يحملك غدا على رقاب العرب يعني خالد بن يزيد فقال الحصين لا لعمر الله لا يأتينا العرب بشيخ و نأتيها بصبي فقال مالك أظن هواك في مروان و الله إن استخلفت مروان ليحسدنك على سوطك و شراك نعلك و ظل شجرة تستظل بها إن مروان أبو عشرة و أخو عشرة و عم عشرة فإن بايعتموه كنتم عبدا لهم و لكن عليكم بآبنا أختكم خالد بن يزيد فقال الحصين إنى رأيت في

المنام قنديلا معلقا من السماء و إنه جاء كل من يمد عنقه إلى الخلافة ليتناوله فلم يصل إليه و جاء مروان فتناوله و الله
لنستخلفنه .

[161]

فلما اجتمع رأيهم على بيعته و استمالوا حسان بن بحدل إليها قام روح بن زنباع الجذامي فحمد الله و أثنى عليه فقال أيها
الناس إنكم تذكرون لهذا الأمر عبد الله بن عمر بن الخطاب و تذكرون صحبته لرسول الله ص و قدمه في الإسلام و هو كما
تذكرون لكنه رجل ضعيف و ليس صاحب أمة محمد بالضعيف و أما عبد الله بن الزبير و ما يذكر الناس من أمره و أن أباه
حواري رسول الله ص و أمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين فهو لعمرى كما تذكرون و لكنه منافق قد خلع خليفتين يزيد
و أباه معاوية و سفك الدماء و شق عصا المسلمين و ليس صاحب أمة محمد ص بالمنافق و أما مروان بن الحكم فو الله
ما كان في الإسلام صدع قط إلا كان مروان ممن يشعب ذلك الصدع و هو الذي قاتل عن عثمان بن عفان يوم الدار و الذي
قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل و إنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير و يستشبهوا الصغير يعني بالكبير مروان و بالصغير
خالد بن يزيد . فاجتمع رأي الناس على البيعة لمروان ثم لخالد بن يزيد من بعده ثم لعمر بن سعيد بن العاص بعدهما على
أن تكون في أيام خلافة مروان إمرة دمشق لعمر بن سعيد و إمرة حمص لخالد بن يزيد فلما استقر الأمر على ذلك دعا
حسان بن بحدل خالد بن يزيد فقال يا ابن أختي إن الناس قد أبوك لحدائثة سنك و إني و الله ما أريد هذا الأمر إلا لك و لأهل
بيتك و ما أبايع مروان إلا نظرا لكم فقال خالد بل عجزت عنا فقال لا و الله لم أعجز عنك و لكن الرأي لك ما رأيت . ثم إن
حسان دعا مروان بن الحكم فقال له يا مروان إن الناس كلهم لا يرضون

[162]

بك فما ترى فقال مروان إن يرد الله أن يعطينيها لم يمنعهما أحد من خلقه و إن يرد أن يمنعيها لا يعطينيها أحد من خلقه
فقال حسان صدقت . ثم صعد حسان المنبر فقال أيها الناس إني مستخلف في غد أحدكم إن شاء الله فاجتمع الناس بكرة
الغد ينتظرون فصعد حسان المنبر و بايع لمروان و بايع الناس و سار من الجابية حتى نزل بمرج راهط حيث الضحاك بن
قيس نازل فجعل مروان على ميمنته عمرو بن سعيد بن العاص و على ميسرته عبيد الله بن زياد و جعل الضحاك على
ميمنته زياد بن عمرو بن معاوية العتكي و على ميسرته ثور بن معن السلمي و كان يزيد بن أبي النمى الغساني بدمشق
لم يشهد الجابية و كان مريضا فلما حصل الضحاك بمرج راهط ثار بأهل دمشق في عبيده و أهله فغلب عليها و أخرج
عامل الضحاك منها و غلب على الخزائن و بيت المال و بايع لمروان و أمده من دمشق بالرجال و المال و السلاح فكان
ذلك أول فتح فتح لمروان . ثم وقعت الحرب بين مروان و الضحاك فاقتتلوا بمرج راهط عشرين ليلة فهزم أصحاب
الضحاك و قتلوا و قتل أشرف الناس من أهل الشام و قتلت قيس مقتلة لم تقتل مثلها في موطن قط و قتل ثور بن معن
السلمي الذي رد الضحاك عن رأيه . قال أبو جعفر و روي أن بشير بن مروان كان صاحب الراية ذلك اليوم و أنه كان
ينشد

إن على الرئيس حقا حقا

أن يخضب الصعدة أو يندقا

و صرع ذلك اليوم عبد العزيز بن مروان ثم استنفذ . قال و مر مروان برجل من محارب و هو في نفر يسير من أصحاب مروان فقال له

[163]

لو انضمت إلى أصحابك رحمك الله فإني أراك في قلة فقال إن معنا يا أمير المؤمنين من الملائكة مددا أضعاف من تأمرنا بالانضمام إليهم قال فضحك مروان و سر بذلك و قال للناس ممن كان حوله أ لا تستمعون قال أبو جعفر و كان قاتل الضحاك رجلا من كلب يقال له زحنة بن عبد الله فلما قتله و أحضر الرأس إلى مروان ظهرت عليه كآبة و قال الآن حين كبرت سني و دق عظمي و صرت في مثل ظمء الحمار أقبلت أضرب الكتابب بعضها ببعض . قال أبو جعفر و روي أن مروان أنشد لما بويع و دعا إلى نفسه

لما رأيت الأمر أمرا نهبا
سيرت غسان لهم و كلبا
و السكسكيين رجالا غلبا
و طينا تأباه إلا ضربا
و القين تمشي في الحديد نكبا
و من تنوخ مشمخرا صعبا
لا يملكون الملك إلا غصبا
و إن دنت قيس فقل لا قربا

قال أبو جعفر و خرج الناس منهزمين بعد قتل الضحاك فأنتهى أهل حمص إلى حمص و عليها النعمان بن بشير فلما عرف الخبر خرج هاربا و معه ثقله و ولده و تحير ليلته كلها و أصبح و هو بباب مدينة حمص فرآه أهل حمص فقتلوه و خرج زفر بن الحارث الكلابي من قنسرين هاربا فلحق بقرقيسياء و عليها عياض بن أسلم الجرشي فلم يمكنه من دخولها فحلف له زفر بالطلاق و العتاق أنه إذا دخل حمامها خرج منها و قال له إن لي حاجة إلى دخول الحمام فلما دخلها لم يدخل حمامها و أقام بها و أخرج عياضا

[164]

منها و تحصن فيها و ثابت إليه قيس عيلان و خرج ناتل بن قيس الجذامي من فلسطين هاربا فالتحق بابن الزبير بمكة و أطبق أهل الشام على مروان و استوثقوا له و استعمل عليهم عماله ففي ذلك يقول زفر بن الحارث

أريني سلاحي لا أبا لك إنني
أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنه
مريق دمي أو قاطع من لساني
و في العيس منجاة و في الأرض مهرب

إذا نحن رفعنا لهن المبانيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى
و تبقى حزازات النفوس كما هيا
أ تذهب كلب لم تنلها رماحنا
و تترك قتلى راهط هي ما هيا
لعمري لقد أبقت وقيعة راهط
لحسان صدعا بينا متنايا
أ بعد ابن عمرو و ابن معن تتايعا
و مقتل همام أمني الأمانيا
و لم تر مني نبوة قبل هذه
فراري و تركي صاحبي ورائيا
أ يذهب يوم واحد إن أساته
بصالح أيامي و حسن بلانيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا
و تتأر من نسوان كلب نسانيا

و قال زفر بن الحارث أيضا و هو من شعر الحماسة

أ في الله أما بحدل و ابن بحدل
فيحيا و أما ابن الزبير فيقتل
كذبتهم و بيت الله لا تقتلونه
و لما يكن يوم أعر محجل

[165]

و لما يكن للمشرقية فوقكم
شعاع كقرن الشمس حين ترجل

و أما وفاة مروان و السبب فيها أنه كان قد استقر الأمر بعده لخالد بن يزيد بن معاوية على ما قدمنا ذكره فلما استوثق له الأمر أحب أن يبايع لعبد الملك و عبد العزيز ابنيه فاستشار في ذلك فأشير عليه أن يتزوج أم خالد بن يزيد و هي ابنة أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة ليصغر شأنه فلا يرشح للخلافة فتزوجها ثم قال لخالد يوما في كلام دار بينهما و المجلس خاص بأهله اسكت يا ابن الرطبة فقال خالد أنت لعمري مؤتمن و خبير . ثم قام باكيا من مجلسه و كان غلاما حينئذ فدخل على أمه فأخبرها فقالت له لا يعرفن ذلك فيك و اسكت فأنا أكفيك أمره فلما دخل عليها مروان قال لها ما قال لك خالد قالت و ما عساه يقول قال أ لم يشكني إليك قالت إن خالدا أشد إعظاما لك من أن يشتكيك فصدقها ثم مكثت أياما فنام عندها و قد واعدت جواربها و قمن إليه فجعلن الوسائد و البراذع عليه و جلسن عليه حتى خنقه و ذلك بدمشق في شهر رمضان . و

هو ابن ثلاث و ستين سنة في قول الواقدي . و أما هشام بن محمد الكلبي فقال ابن إحدى و ثمانين سنة و قال كان ابن إحدى و ثمانين عاش في الخلافة تسعة أشهر و قيل عشرة أشهر و كان في أيام كتابته لعثمان بن عفان أكثر حكما و أشد تطفئا و تسلطا منه في أيام خلافته و كان ذلك من أعظم الأسباب الداعية إلى خلع عثمان و قتله . و قد قال قوم إن الضحاك بن قيس لما نزل مرج راهط لم يدع إلى ابن الزبير و إنما دعا إلى نفسه و بويع بالخلافة و كان قرشيا و الأكثر الأشهر أنه كان يدعو إلى ابن الزبير

73 - و من كلام له ع لما عزموا على بيعة عثمان

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي وَ وَاللَّهِ لَأَسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً ائْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَ فَضْلِهِ وَ زُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرَفِهِ وَ زَبْرَجِهِ نَافَسْتُمْ فِي الشَّيْءِ مَنَافَسَةً وَ نَفَاساً إِذَا رَغِبْتُمْ فِيهِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَارَاةِ فِي الْكِرَامِ وَ تَنَافَسُوا فِيهِ أَي رَغَبُوا . وَ الزُّخْرُفُ الذَّهَبُ ثُمَّ شَبَّهَ بِهِ كُلَّ مَمُوهٍ مَزُورٍ قَالَ تَعَالَى **حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا** وَ الْمَزْخْرُفُ الْمَزِينُ . وَ الزَّبْرَجُ الزَّيْنَةُ مِنْ وَشْيٍ أَوْ جَوْهَرٍ وَ نَحْوِ ذَلِكَ وَ يُقَالُ الزَّبْرَجُ الذَّهَبُ أَيْضاً . يَقُولُ لِأَهْلِ الشُّوْرَى إِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ مِنْ غَيْرِي وَ تَعْدِلُونَ عَنِّي ثُمَّ أَقْسَمَ لَيْسَلْمَنَ وَ لَيْتَرَكَنَ الْمَخَالَفَةَ لَهُمْ إِذَا كَانَ فِي تَسْلِيمِهِ وَ نَزُولِهِ عَنِ حَقِّهِ سَلَامَةً أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَ لَمْ يَكُنْ الْجَوْرُ وَ الْحَيْفُ إِلَّا عَلَيْهِ خَاصَّةً وَ هَذَا كَلَامٌ مِثْلُهُ عَ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَوْ غَلَبَ عَلَيْهِ ظَنُّهُ أَنَّهُ أَنْ نَازَعَ وَ حَارَبَ دَخَلَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَ هُنَّ وَ ثَلَمَ لَمْ يَخْتَرْ لَهُ الْمَنَازَعَةَ وَ إِنْ كَانَ

[167]

يطلب بالمنازعة ما هو حق و إن علم أو غلب على ظنه بالإسماك عن طلب حقه إنما يدخل الثلم و الوهن عليه خاصة و يسلم الإسلام من الفتنة و جب عليه أن يغضى و يصبر على ما أتوا إليه من أخذ حقه و كف يده حراسة للإسلام من الفتنة . فإن قلت فهلا سلم إلى معاوية و إلى أصحاب الجمل و أغضى على اغتصاب حقه حفظاً للإسلام من الفتنة . قلت إن الجور الداخل عليه من أصحاب الجمل و من معاوية و أهل الشام لم يكن مقصوراً عليه خاصة بل كان يعم الإسلام و المسلمين جميعاً لأنهم لم يكونوا عنده ممن يصلح لرئاسة الأمة و تحمل أعباء الخلافة فلم يكن الشرط الذي اشترطه متحققاً و هو قوله و لم يكن فيه جور إلا علي خاصة . و هذا الكلام يدل على أنه ع لم يكن يذهب إلى أن خلافة عثمان كانت تتضمن جوراً على المسلمين و الإسلام و إنما كانت تتضمن جوراً عليه خاصة و أنها وقعت على جهة مخالفة الأولى لا على جهة الفساد الكلي و البطلان الأصلي و هذا محض مذهب أصحابنا

كلام لعلي قبل المبايعة لعثمان

و نحن نذكر في هذا الموضوع ما استفاض في الروايات من مناقشته أصحاب الشورى و تعديده فضائله و خصائصه التي بان بها منهم و من غيرهم قد روى الناس ذلك فأكثرُوا و الذي صح عندنا أنه لم يكن الأمر كما روي من تلك التعديلات الطويلة

و لكنه قال لهم بعد أن بايع عبد الرحمن و الحاضرون عثمان و تلكا هو ع عن البيعة إن لنا حقا إن نعطه نأخذه و إن نمعه نركب أعجاز الإبل و إن طال السرى في كلام قد ذكره أهل السيرة و قد أوردنا بعضه فيما تقدم

ثم قال لهم أنشدكم الله أ فيكم أحد آخى رسول الله ص بينه و بين نفسه حيث آخى بين بعض المسلمين و بعض غيري

[168]

فقالوا لا فقال أ فيكم أحد قال له رسول الله ص من كنت مولاه فهذا مولاه غيري فقالوا لا فقال أ فيكم أحد قال له رسول الله ص أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي غيري قالوا لا قال أ فيكم من أوتمن على سورة براءة و قال له رسول الله ص إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني غيري قالوا لا قال أ لا تعلمون أن أصحاب رسول الله ص فروا عنه في ماقط الحرب في غير موطن و ما فررت قط قالوا بلى قال أ لا تعلمون أني أول الناس إسلاما قالوا بلى قال فأينا أقرب إلى رسول الله ص نسبا قالوا أنت فقطع عليه عبد الرحمن بن عوف كلامه و قال يا علي قد أبى الناس إلا على عثمان فلا تجعلن على نفسك سبيلا ثم قال يا أبا طلحة ما الذي أمرك به عمر قال أن أقتل من شق عصا الجماعة فقال عبد الرحمن لعلي بايع أذن و إلا كنت متبعا غير سبيل المؤمنين و أنفدنا فيك ما أمرنا به فقال لقد علمتم أني أحق بها من غيري و الله لأسلمن الفصل إلى آخره ثم مد يده فبايع

[169]

74 - و من كلام له ع لما بلغه اتهام بني أمية له بالمشاركة في دم عثمان

أَوْ لَمْ يَنْهَ بَنِي أُمَيَّةَ عِلْمَهَا بِئِي عَنْ قَرْفِي أَوْ مَا وَزَعَ الْجُهَالُ سَابِقْتِي عَنْ تُهْمَتِي وَ لَمَّا وَعَظَهُمُ اللَّهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ وَ خَصِيمُ الْمُرْتَابِينَ وَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَرَّضُ الْأَمْثَالُ وَ بِمَا فِي الصُّدُورِ تَجَارَى الْعِبَادُ الْقَرْفُ الْعَيْبُ قَرْفَتُهُ بِكَذَا أَي عَيْبَتُهُ وَ وَزَعُ كَفٍ وَ رَدَعُ وَ مِنْهُ قَوْلُهُ لَا بَدَ لِلنَّاسِ مِنْ وَزَعَةٍ جَمَعَ وَازَعُ أَي مِنْ رُؤْسَاءٍ وَ أَمْرَاءٍ وَ التُّهْمَةُ بِفَتْحِ الْهَاءِ هِيَ اللَّغَةُ الْفَصِيحَةُ وَ أَصْلُ التَّاءِ فِيهِ وَاو . وَ الْحَجِيجُ كَالْخَصِيمِ ذُو الْحِجَاجِ وَ الْخُصُومَةُ يَقُولُ ع أَمَا كَانَ فِي عِلْمِ بَنِي أُمَيَّةَ بِحَالِي مَا يَنْهَاهَا عَنْ قَرْفِي بَدَمِ عُثْمَانَ وَ حَالِهِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا وَ ذَكَرَ أَنَّ عِلْمَهُمْ بِهَا يَقْتَضِي أَلَّا يَقْرَفُوهُ بِذَلِكَ هِيَ مَنْزِلَتُهُ فِي الدِّينِ الَّتِي لَا مَنْزِلَةَ أَعْلَى مِنْهَا وَ مَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ الصَّادِقُ مِنْ طَهَارَتِهِ وَ طَهَارَةِ بَنِيهِ وَ زَوْجَتِهِ فِي قَوْلِهِ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**

و قول النبي ص أنت مني بمنزلة هارون من موسى و ذلك يقتضي عصمته عن الدم الحرام

[170]

كما أن هارون معصوم عن مثل ذلك و ترادف الأقوال و الأفعال من رسول الله ص في أمره التي يضطر معها الحاضرون لها و المشاهدون إياها إلى أن مثله لا يجوز أن يسعى في إراقة دم أمير مسلم لم يحدث حدثا يستوجب به إحلال دمه . و هذا الكلام صحيح معقول و ذاك أنا نرى من يظهر ناموس الدين و يواظب على نوافل العبادات و نشاهد من ورعه و تقواه ما يتقرر معه في نفوسنا استشعاره الدين و اعتقاده إياه فيصرفنا ذلك عن قرفه بالعيوب الفاحشة و نستبعد مع ذلك طعن من يطعن فيه و ننكره و ناباه و نكذبه فكيف ساغ لأعداء أمير المؤمنين ع مع علمهم بمنزلته العالية في الدين التي لم يصل إليها أحد من المسلمين أن يطلقوا ألسنتهم فيه و ينسبوه إلى قتل عثمان أو الممالة عليه لا سيما و قد اتصل بهم و ثبت عندهم أنه كان من أنصاره لا من المجلبين عليه و أنه كان أحسن الجماعة فيه قولا و فعلا . ثم قال أ لم تزع الجهال و تردعهم سابقتي عن تهمتي و هذا الكلام تأكيد للقول الأول . ثم قال إن الذي وعظهم الله تعالى به في القرآن من تحريم الغيبة و القذف و تشبيه ذلك بأكل لحم الميت أبلغ من وعظي لهم لأنه لا عظة أبلغ من عظة القرآن . ثم قال أنا حجيج المارقين و خصيم المرتابين يعني يوم القيامة

روي عنه ع أنه قال أنا أول من يجتو للحكومة بين يدي الله تعالى

و قد روي عن النبي ص مثل ذلك مرفوعا في قوله تعالى **هَذَانِ خَصْمَانِ إِخْتَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ** و أنه ص سئل عنها فقال علي و حمزة و عبيدة و عتبة و شيببة و الوليد و كانت حادثتهم أول حادثة وقعت فيها مبارزة أهل الإيمان لأهل الشرك و كان المقتول الأول بالمبارزة الوليد بن عتبة قتله علي ع ضربه على رأسه فبدرت عيناه على وجنته

[171]

فقال النبي ص فيه و في أصحابه ما قال و كان علي ع يكثر من قوله أنا حجيج المارقين و يشير إلى هذا المعنى . ثم أشار إلى ذلك بقوله على كتاب الله تعرض الأمثال يريد قوله تعالى **هَذَانِ خَصْمَانِ إِخْتَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ** . ثم قال و بما في الصدور

تجازى العباد إن كنت قتلت عثمان أو مالأت عليه فإن الله تعالى سيجازيني بذلك و إلا فسوف يجازي بالعقوبة و العذاب من اتهمني به و نسبه إلي . و هذا الكلام يدل على ما يقوله أصحابنا من تبرؤ أمير المؤمنين ع من دم عثمان و فيه رد و إبطال لما يزعمه الإمامية من كونه رضي به و أباحه و ليس يقول أصحابنا أنه ع لم يكن ساخطا أفعال عثمان و لكنهم يقولون إنه و إن سخطها و كرهها و أنكرها لم يكن مبيحا لدمه و لا ممالنا على قتله و لا يلزم من إنكار أفعال الإنسان إحلال دمه فقد لا يبلغ الفعل في القبح إلى أن يستحل به الدم كما في كثير من المناهي

75 - و من خطبة له ع

رَحِمَ اللهُ إِمْرَأً [عَبْدًا] سَمِعَ حُكْمًا فَوَعَى وَ دُعِيَ إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا وَ أَخَذَ بِحُجْرَةٍ هَادٍ فَتَجَا رَاقِبَ رَبِّهِ وَ خَافَ ذَنْبَهُ قَدَّمَ خَالِصًا وَ عَمِلَ صَالِحًا [نَاصِحًا] اِكْتَسَبَ مَذْخُورًا وَ اجْتَنَبَ مَخْذُورًا رَمَى غَرَضًا وَ أَحْرَزَ عِوَضًا كَابِرَ هَوَاهُ وَ كَذَّبَ مَنَاهُ جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ وَ التَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغَرَاءَ لَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ اِغْتَنَمَ الْمَهْلَ وَ بَادَرَ الْأَجَلَ وَ تَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ الْحَكْمِ هَاهُنَا الْحِكْمَةَ قَالَ سُبْحَانَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَ وَعَى حِفْظَ وَعَيْتِ الْحَدِيثِ أَعْيَاهُ وَ عِيَا وَ أَدْنَ وَ اعْيَاهُ أَي حَافِظَةً وَ دَنَا قَرِبَ وَ الْحِجْرَةَ مَعْقَدَ الْإِزَارِ وَ أَخَذَ فُلَانٌ بِحِجْرَةِ فُلَانٍ إِذَا اعْتَصَمَ بِهِ وَ لَجَأَ إِلَيْهِ . ثُمَّ حَذَفَ عِ الْوَاوَ فِي اللَّفْظَاتِ الْآخِرِ فَلَمْ يَقُلْ وَ رَاقِبَ رَبِّهِ وَ لَا وَ قَدَّمَ خَالِصًا وَ كَذَلِكَ إِلَى آخِرِ اللَّفْظَاتِ وَ هَذَا نَوْعٌ مِنَ الْفَصَاحَةِ كَثِيرٌ فِي اسْتِعْمَالِهِمْ . وَ اِكْتَسَبَ بِمَعْنَى كَسَبَ يَقَالُ كَسَبْتَ الشَّيْءَ وَ اِكْتَسَبْتَهُ بِمَعْنَى . وَ الْغَرَضُ مَا يَرْمَى بِالسَّهْمِ يَقُولُ رَحِمَ اللهُ إِمْرَأً رَمَى غَرَضًا أَي قَصَدَ الْحَقَّ كَمَنْ يَرْمِي غَرَضًا يَقْصِدُهُ لَا مَنْ يَرْمِي فِي عَمِيَاءٍ لَا يَقْصِدُ شَيْئًا بِعَيْنِهِ .

[173]

وَ الْعِوَضُ الْمَحْرُزُ هَاهُنَا هُوَ الثَّوَابُ . وَ قَوْلُهُ كَابِرَ هَوَاهُ أَي غَالِبُهُ وَ رُوِيَ كَاثِرٌ بِالنِّسَاءِ الْمَنْقُوطَةُ بِالثَّلَاثِ أَي غَالِبُ هَوَاهُ بِكَثْرَةِ عَقْلِهِ يَقَالُ كَاثِرُنَا هُمْ فَكَثْرُنَا هُمْ أَي غَلِبْنَا هُمْ بِالكَثْرَةِ . وَ قَوْلُهُ وَ كَذَّبَ مَنَاهُ أَي أَمْنِيَّتَهُ وَ الطَّرِيقَةُ الْغَرَاءُ الْبَيْضَاءُ وَ الْمَهْلُ النَّظَرُ وَ التَّوَدُّةُ

[174]

76 - و من كلام له ع

إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيَفُوقُونِي تَرَاثَ مُحَمَّدٍ ص تَفْوِيْقًا وَ اللَّهِ لئن بَقِيْتُ لَهُمْ لَأَنْفُضَنَّهْمُ نَفْضَ اللَّحَامِ الْوُدَامِ التَّرْبَةَ قَالَ الرضِي رحمه الله و يروى التراب الودمة و هو على القلب . و قوله ع ليفوقونني أي يعطونني من المال قليلا كفواق الناقة و هو الحلبة الواحدة من لبنها . و الودام التربة جمع ودمة و هي الحزة من الكرش أو الكبد تقع في التراب فتنفض اعلم أن أصل هذا الخبر قد رواه أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني في كتاب الأغاني بإسناد رفعه إلى الحارث بن حبيش قال بعثني سعيد بن العاص و هو يومئذ أمير الكوفة من قبل عثمان بهدايا إلى المدينة و بعث معي هدية إلى علي ع و كتب إليه أني لم أبعث إلى أحد أكثر مما بعثت به إليك إلا إلى أمير المؤمنين فلما أتيت عليا ع و قرأ كتابه

قال لشد ما يحظر علي بنو أمية تراث محمد ص أما و الله لئن وليتها لأنفضنها نفض القصاب التراب الودمة .

[175]

قال أبو الفرج و هذا خطأ إنما هو الودام التربة . قال و قد حدثني بذلك أحمد بن عبد العزيز الجوهري عن أبي زيد عمر بن شبة بإسناد ذكره في الكتاب أن سعيد بن العاص حيث كان أمير الكوفة بعث مع ابن أبي عائشة مولاه إلى علي بن أبي طالب ع بصلة

فقال علي ع و الله لا يزال غلام من غلمان بني أمية يبعث إلينا مما أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة و الله لئن بقيت لأنفضنها نفض القصاب الودام التربة

[176]

77 - و من كلمات كان يدعو بها

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيُّتُ مِنْ نَفْسِي وَ لَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الْأَلْحَاطِ وَ سَقَطَاتِ الْأَلْفَاطِ وَ سَهَوَاتِ الْجَنَانِ وَ هَفَوَاتِ اللَّسَانِ وَأَيُّتِ أَيُّ وَعَدْتِ وَ الْوَأْيِ الْوَعْدِ وَ رَمَزَاتِ الْأَلْحَاطِ الْإِشَارَةَ بِهَا وَ الْأَلْحَاطِ جَمْعَ لِحْظٍ بِفَتْحِ اللَّامِ وَ هُوَ مُؤَخَّرُ الْعَيْنِ وَ سَقَطَاتِ الْأَلْفَاطِ لُغْوَهَا وَ سَهَوَاتِ الْجَنَانِ غَفَلَاتِهِ وَ الْجَنَانِ الْقَلْبِ وَ هَفَوَاتِ اللَّسَانِ زَلَاتِهِ . وَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يُقَالُ مَا فَائِدَةُ الدُّعَاءِ عِنْدَكُمْ وَ الْقَدِيمِ تَعَالَى إِنَّمَا يَغْفِرُ الصَّغَائِرَ لِأَنَّهَا تَقَعُ مَكْفِرَةً فَلَا حَاجَةَ إِلَى الدُّعَاءِ بِغَفْرَانِهَا وَ لَا يُوَثِّرُ الدُّعَاءُ أَيْضًا فِي أَعْمَالِ الْبَارِي سُبْحَانَهُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَفْعَلُ بِحَسَبِ الْمَصَالِحِ وَ يَرْزُقُ الْمَالَ وَ الْوَالِدَ وَ غَيْرَ ذَلِكَ وَ يَصْرِفُ الْمَرَضَ وَ الْجَدْبَ وَ غَيْرَهُمَا بِحَسَبِ مَا يَعْلَمُهُ مِنَ الْمَصْلُحَةِ فَلَا تَأْتِيرُ لِلدُّعَاءِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ . وَ الْجَوَابُ أَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَحْسُنَ الدُّعَاءُ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّ الْقَدِيمَ يَفْعَلُهُ لَا مُحَالَةً وَ يَكُونُ وَجْهَ حَسَنِهِ صَدُورَهُ عَنِ الْمَكْلَفِ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْتِقَاعِ إِلَى الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ .

[177]

وَ يَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ فِي الدُّعَاءِ نَفْسُهُ مَصْلُحَةً وَ لُطْفٌ لِلْمَكْلَفِ لِقَدْ حَسُنَ مِنْهُ الْإِسْتِغْفَارُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الصَّلَاةُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمَلَائِكَةِ . وَ أَيْضًا فَلَيْسَ كُلُّ أَعْمَالِ الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَاجِبَةً عَلَيْهِ بَلْ مَعْظَمُهَا مَا يَصْدُرُ عَلَى وَجْهِ الْإِحْسَانِ وَ التَّفَضُّلِ فَيَجُوزُ أَنْ يَفْعَلُهُ وَ يَجُوزُ أَلَّا يَفْعَلُهُ . فَإِنْ قُلْتَ فَهَلْ يَسْمَى فِعْلُ الْوَاجِبِ الَّذِي لَا يَدُ لِلْقَدِيمِ تَعَالَى مِنْ فِعْلِهِ إِجَابَةً لِدَعَاءِ الْمَكْلَفِ . قُلْتَ لَا وَ إِنَّمَا يَسْمَى إِجَابَةً إِذَا فَعَلَ سُبْحَانَهُ مَا يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلُهُ وَ يَجُوزُ أَلَّا يَفْعَلُهُ كَالْتَفَضُّلِ وَ أَيْضًا فَإِنَّ اللَّطْفَ وَ الْمَصْلُحَةَ قَدْ يَكُونُ لُطْفًا وَ مَصْلُحَةً فِي كُلِّ حَالٍ وَ قَدْ يَكُونُ لُطْفًا عِنْدَ الدُّعَاءِ وَ لَوْ لَا الدُّعَاءُ لَمْ يَكُنْ لُطْفًا وَ لَيْسَ بِمَمْتَنِعٍ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي أَنْ يَسْمَى إِجَابَةً لِلدُّعَاءِ لِأَنَّ الدُّعَاءَ عَلَى كُلِّ حَالٍ تَأْتِيرًا فِي فِعْلِهِ . فَإِنْ قِيلَ أَيْ جُوزُ أَنْ يَدْعُو النَّبِيُّ صَ دَعَاءً فَلَا يَسْتَجَابُ لَهُ . قِيلَ إِنَّ مِنْ شَرْطِ حَسَنِ الدُّعَاءِ أَنْ يَعْلَمَ الدَّاعِي حَسَنَ مَا يَطْلِبُهُ بِالدُّعَاءِ وَ إِنَّمَا يَعْلَمُ حَسَنَهُ بِأَلَّا يَكُونُ فِيهِ وَجْهٌ قَبِيحٌ ظَاهِرٌ وَ مَا غَابَ عَنْهُ مِنْ وَجْهِ الْقَبِيحِ نَحْوُ كَوْنِهِ مَفْسُودَةً يَجِبُ أَنْ يَشْتَرِطَهُ فِي دَعَائِهِ وَ يَطْلُبُ مَا يَطْلِبُهُ بِشَرْطِ أَلَّا يَكُونَ مَفْسُودَةً وَ إِنْ لَمْ يَظْهَرْ هَذَا الشَّرْطُ فِي دَعَائِهِ وَجِبَ أَنْ يَضْمُرَهُ فِي نَفْسِهِ فَمَتَى سَأَلَ النَّبِيُّ رَبَّهُ تَعَالَى أَمْرًا فَلَمْ يَفْعَلْهُ لَمْ يَجْزَ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ مَا أُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ لِأَنَّهُ يَكُونُ قَدْ سَأَلَ بِشَرْطِ أَلَّا يَكُونَ مَفْسُودَةً فَإِذَا لَمْ يَقَعْ مَا يَطْلِبُهُ فَلَأَنَّ الْمَطْلُوبَ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْمَفْسُودَةِ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ النَّبِيُّ صَ فَلَا يُقَالَ إِنَّهُ مَا أُجِيبَ دَعَاؤُهُ لِأَنَّ دَعَاؤَهُ كَانَ مُشْرُوطًا وَ إِنَّمَا يَصْدُقُ قَوْلُنَا مَا أُجِيبَ دَعَاؤُهُ عَلَى مَنْ طَلَبَ أَمْرًا طَلَبًا مُطْلَقًا غَيْرَ مُشْرُوطٍ فَلَمْ يَقَعْ وَ النَّبِيُّ صَ لَا يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ

[178]

من أدعية الصحيفة

و من دعاء أمير المؤمنين ع و كان يدعو به زين العابدين علي بن الحسين ع و هو من أدعية الصحيفة يا من يرحم من لا يرحمه العباد و يا من يقبل من لا تقبله البلاد و يا من لا يحتقر أهل الحاجة إليه يا من لا يجبه بالرد أهل الإلحاح إليه يا من لا يخفى عليه صغير ما يتحف به و لا يضيع يسير ما يعمل له يا من يشكر على القليل و يجازي بالجليل يا من يدنو إلى من دنا منه يا من يدعو إلى نفسه من أدبر عنه يا من لا يغير النعمة و لا يبادر بالنعمة يا من يثمر الحسنة حتى ينميتها و يتجاوز عن السيئة حتى يعفيها انصرفت

[179]

دون مدى كرمك الحاجات و امتلأت ببعض جودك أوعية الطلبات و تفسخت دون بلوغ نعتك الصفات فلك العلو الأعلى فوق كل عال و الجلال الأجدد فوق كل جلال كل جليل عندك حقير و كل شريف في جنب شرفك صغير خاب الوافدون على غيرك و خسر المتعرضون إلا لك و ضاع الملمون إلا بك و أجدب المنتجعون إلا من انتجع فضلك لأنك ذو غاية قريبة من الراغبين و ذو مجد مباح للسانين لا يخيب لديك الآملون و لا يخفق من عطائك المتعرضون و لا يشقى بنقمتك المستغفرون رزقك مبسوط لمن عصاك و حلمك معرض لمن نواك و عادتك الإحسان إلى المسيئين و سنتك الإبقاء على المعتدين حتى لقد غرتهم أناتك عن النزوع و صدهم إمهالك عن الرجوع و إنما تأنيت بهم ليفيئوا إلى أمرك و أمهلتهم ثقة بدوام ملكك فمن كان من أهل السعادة ختمت له بها و من كان من أهل الشقاوة خذلتها لها . كلهم صائر إلى رحمتك و أمورهم آتة إلى أمرك لم يهن على طول مدتهم سلطانك و لم تدحض لترك معاجلتهم حججك قائمة و سلطانك ثابت فالويل الدائم لمن جنح عنك و الخيبة الخاذلة لمن خاب أملة منك و الشقاء الأشقى لمن اغتر بك ما أكثر تقلبه في عذابك و ما أعظم تردده في عقابك و ما أبعد غايته من الفرج و ما أثبطه من سهولة المخرج عدلا من قضائك لا تجور فيه و إنصافا من حكمك لا تحيف عليه قد ظاهرت الحجج و أزلت الأعدار و تقدمت بالوعيد و تلطفت في الترغيب و ضربت الأمثال و أطلت الإمهال و أخرت و أنت تستطيع المعالجة و تأنيت و أنت مليء بالمبادرة لم تك أناتك عجزا و لا حلمك وهنا و لا إمساك لعة و لا انتظارك لمدارة بل لتكون حججك الأبلغ و كرمك الأكمل و إحسانك الأوفى و نعمتك الأتم

[180]

كل ذلك كان و لم يزل و هو كائن لا يزول نعمتك أجل من أن توصف بكلها و مجدك أرفع من أن يحد بكنهه و إحسانك أكبر من أن يشكر على أقله فقد أقصرت ساكتا عن تحميدك و تهيبت ممسكا عن تمجيدك لا رغبة يا إلهي عنك بل عجزا و لا زهدا فيما عندك بل تقصيرا و ها أنا ذا يا إلهي أومل بالوفادة و أسألك حسن الرفادة فاسمع ندائي و استجب دعائي و لا تختم عملي بخيبتني و لا تجبهني بالرد في مسألتي و أكرم من عندك منصرفي إنك غير ضائق عما تريد و لا عاجز عما تشاء و أنت على كل شيء قدير

و من أدعيته ع و هو من أدعية الصحيفة أيضا اللهم يا من برحمته يستغيث المذنبون و يا من إلى إحسانه يفرع المضطرون و يا من لخيفته ينتحب الخاطئون يا أنس كل مستوحش غريب يا فرج كل مكروب حريب يا عون كل مخذول

فريد يا عانذ كل محتاج طريد أنت الذي وسعت كل شيء رحمة و علما و أنت الذي جعلت لكل مخلوق في نعمتك سهما و أنت الذي عفوه أعلى من عقابه و أنت الذي رحمته أمام غضبه و أنت الذي إعطاؤه أكبر من منعه و أنت الذي وسع الخلاق كلهم بعفوه و أنت الذي لا يرغب في غنى من أعطاه و أنت الذي لا يفرط في عقاب من عصاه . و أنا يا سيدي عبدك الذي أمرته بالدعاء فقال لبيك و سعديك و أنا يا سيدي عبدك الذي أوقرت الخطايا ظهره و أنا الذي أفنت الذنوب عمره و أنا الذي بجهله عصاك و لم يكن أهلا منه لذلك فهل أنت يا مولاي راحم من دعاك فاجتهد في الدعاء أم أنت غافر لمن بكى لك فأسرع في البكاء أم أنت متجاوز عن عفر لك وجهه متذلا أم أنت مغن من شكا إليك فقره متوكلا

[181]

اللهم فلا تخيب من لا يجد معطيا غيرك و لا تخذل من لا يستغني عنك بأحد دونك اللهم لا تعرض عني و قد أقبلت عليك و لا تحرمني و قد رغبت إليك و لا تجبهني بالرد و قد انتصبت بين يديك أنت الذي وصفت نفسك بالرحمة و أنت الذي سميت نفسك بالعفو فارحمني و اعف عني فقد ترى يا سيدي فيض دموعي من خيفتك و وجيب قلبي من خشيتك و انتفاض جوارحي من هيبتك كل ذلك حياء منك بسوء عملي و خجلا منك لكثرة ذنوبي قد كل لساني عن مناجاتك و خمد صوتي عن الدعاء إليك يا إلهي فكم من عيب سترته علي فلم تفضحني و كم من ذنب غطيت عليه فلم تشهر بي و كم من عانبة ألممت بها فلم تهتك عني سترها و لم تقلدني مكروها شئها و لم تبد علي محرقات سواتها فمن يلتمس معايبي من جيرتي و حسدة نعمتك عندي ثم لم ينهني ذلك حتى صرت إلى أسوأ ما عهدت مني فمن أجهل مني يا سيدي برشدك و من أغفل مني عن حظه منك و من أبعد مني من استصلاح نفسه حين أنفقت ما أجريت علي من رزقك فيما نهيتني عنه من معصيتك و من أبعد غورا في الباطل و أشد إقداما على السوء مني حين أقف بين دعوتك و دعوة الشيطان فأتبع دعوته على غير عى عن المعرفة به و لا نسيان من حفطي له و أنا حينئذ موقن أن منتهى دعوتك الجنة و منتهى دعوته النار سبحانك فما أعجب ما أشهد به على نفسي و أعدده من مكنون أمري و أعجب من ذلك أناتك عني و إبطاؤك عن معاجلتني و ليس ذلك من كرمي عليك بل تأتي منك بي و فضلا منك علي لأن أرتدع عن خطي و لأن عفوك أحب إليك من عقوبتي بل أنا يا إلهي أكثر ذنوبا و أقبح آثارا و أشنع أفعالا و أشد في الباطل تهورا و أضعف عند طاعتك تيقظا و أغفل لو عيدك انتباها من أن أحصي لك عيوب و أقدر على تعديد

[182]

ذنوبي و إنما أوبخ بهذا نفسي طمعا في رأفتك التي بها إصلاح أمر المذنبين و رجاء لعصمتك التي بها فكاك رقاب الخاطئين اللهم و هذه رقبتني قد أرققتها الذنوب فأعتقها بعفوك و قد أثقلتها الخطايا فخفف عنها بمنك اللهم إني لو بكيت حتى تسقط أشفار عيني و انتحبت حتى ينقطع صوتي و قمت لك حتى تنتشر قدمي و ركعت لك حتى ينجذع صليبي و سجدت لك حتى تتفقا حدقتاي و أكلت التراب طول عمري و شربت ماء الرماد آخر دهري و ذكرتك في خلال ذلك حتى يكل لساني ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياء منك لما استوجبت بذلك محو سينة واحدة من سيناتني فإن كنت تغفر لي حين أستوجب مغفرتك و تعفو عني حين أستحق عفوك فإن ذلك غير واجب لي بالاستحقاق و لا أنا أهل له على الاستيجاب إذ كان جزائي منك من أول ما عصيتك النار فإن تعذبني فإنك غير ظالم إلهي فإن تغمدتني بسترک فلم تفضحني و أمهلنتني بكرمك فلم تعاجلني و حلمت عني بتفضلك فلم تغير نعمك علي و لم تكدر معروفك عندي فارحم طول تضرعي و شدة

مسكنتي و سوء موقفي اللهم صل على محمد و آل محمد و أنقذني من المعاصي و استعملني بالطاعة و ارزقني حسن
الإجابة و طهرني بالتوبة و أيدني بالعصمة و استصلحني بالعافية و ارزقني حلوة المغفرة و اجعلني طليق عفوك و اكتب
لي أماتا من سخطك و بشرني بذلك في العاجل دون الآجل بشرى أعرفها و عرفني له علامة أتبينها أن ذلك لا يضيق عليك
في وجدك و لا يتكأءدك في قدرتك و أنت على كل شيء قدير

و من أدعيته ع و هو من أدعية الصحيفة

[183]

اللهم يا ذا الملك المتأبد بالخلود و السلطان الممتنع بغير جنود و المعز الباقي على مر الدهور عز سلطانك عزا لا حد له و
لا منتهى لآخره و استعلى ملكك علوا سقطت الأشياء دون بلوغ أمده و لا يبلغ أدنى ما استأثرت به من ذلك نعوت أقصى
نعت الناعين ضلت فيك الصفات و تفسخت دونك النعوت و حارت في كبريانك لطائف الأوهام كذلك أنت الله في أوليتك و
على ذلك أنت دائم لا تزول و كذلك أنت الله في آخريتك و كذلك أنت ثابت لا تحول و أنا العبد الضعيف عملا الجسيم أملا
خرجت من يدي أسباب الوصلات إلى رحمتك و تقطعت عني عصم الآمال إلا ما أنا معتصم به من عفوك قل عندي ما أعتد
به من طاعتك و كثر عندي ما أبوء به من معصيتك و لن يفوتك عفو عن عبدك و إن أساء فاعف عني اللهم قد أشرف
على كل خطايا الأعمال علمك و انكشف كل مستور عند خبرك فلا ينطوي عنك دقائق الأمور و لا يعزب عنك خفايا السرائر
و قد هربت إليك من صغانر ذنوب موبقة و كبائر أعمال مردية فلا شفيع يشفع لي إليك و لا خفير يؤمنني منك و لا حصن
يحجبني عنك و لا ملاذ ألجأ إليه غيرك هذا مقام العانذ بك و محل المعترف لك فلا يضيقني عنك فضلك و لا يقصرن دوني
عفوك و لا أكون أخيب عبادك التائبين و لا أقنط وفودك الآملين و اغفر لي إنك خير الغافرين اللهم إنك أمرتني فغفلت و
نهيتني فركبت و هذا مقام من استحيا لنفسه منك و سخط عليها و رضي عنك و تلقاك بنفس خاشعة و عين خاضعة و
ظهر مثقل من الخطايا واقفا بين الرغبة إليك و الرهبة منك و أنت أولى من رجاه و أحق من خشيه و اتقاه

[184]

فأعطني يا رب ما رجوت و أمني ما حذرت و عد علي بفضلك و رحمتك إنك أكرم المسنولين اللهم و إذ سترتني بعفوك و
تغمدتني بفضلك في دار الفناء فأجرني من فضيحات دار البقاء عند مواقف الأشهاد من الملائكة المقربين و الرسل
المكرمين و الشهداء الصالحين من جار كنت أكاتمه سيناتي و من ذي رحم كنت أحتشم منه لسريراتي لم أثق بهم في
الستر علي و وثقت بك في المغفرة لي و أنت أولى من وثق به و أعطى من رغب إليه و أرفأ من استرحم فارحمني اللهم
إني أعوذ بك من نار تغلظت بها على من عصاك و أوعدت بها من ضارك و ناواك و صدف عن رضاك و من نار نورها
ظلمة و هينها صعب و قريبها بعيد و من نار يأكل بعضها بعضا و يصول بعضها على بعض و من نار تذر العظام رميما و
تسقي أهلها حميما و من نار لا تبقى على من تضرع و لا ترحم من استعطفها و لا تقدر على التخفيف عن خشع لها و
استبتل إليها تلقى سكانها بأحر ما لديها من أليم النكال و شديد الوبال اللهم بك أعوذ من عقاربها الفاغرة أفواهاها و حياتها
الناهشة بأنيابها و شرابها الذي يقطع الأمعاء و يذيب الأحشاء و أستهديك لما باعد عنها و أنقذ منها فأجرني بفضل
رحمتك و أقلني عثرتي بحسن إقالتك و لا تخذلني يا خير المجيرين اللهم صل على محمد و آل محمد إذا ذكر الأبرار و صل
على محمد و آل محمد ما اختلف الليل و النهار صلاة لا ينقطع مددها و لا يحصى عددها صلاة تشحن الهواء و تملأ

الأرض و السماء صل اللهم عليه و عليهم حتى ترضى و صل عليه و عليهم بعد الرضا صلاة لا حد لها و لا منتهى يا أرحم
الراحمين

[185]

و من دعائه ع و هو من أدعية الصحيفة اللهم إني أعوذ بك من هيجان الحرص و سورة الغضب و غلبة الحسد و ضعف
الصبر و قلة القناعة و شكاسة الخلق و إبحاح الشهوة و ملكة الحمية و متابعة الهوى و مخالفة الهدى و سنة الغفلة و
تعاطي الكلفة و إثارة الباطل على الحق و الإصرار على المآثم و الاستكثار من المعصية و الإقلال من الطاعة و مباحات
المكثرين و الإضرار على المقلين و سوء الولاية على من تحت أيدينا و ترك الشكر لمن اصطنع العارفة عندنا و أن نعصد
ظالما أو نخذل ملهوفاً أو نروم ما ليس لنا بحق أو نقول بغير علم و نعوذ بك أن ننطوي على غش لأحد و أن نعجب
بأموالنا و أعمالنا و أن نمد في آمالنا و نعوذ بك من سوء السريرة و احتقار الصغيرة و أن يستحوذ علينا الشيطان أو
يشدد لنا الزمان أو يتهمنا السلطان و نعوذ بك من حب الإسراف و فقدان الكفاف و من شماتة الأعداء و الفقر إلى
الأصدقاء و من عيشة في شدة أو موت على غير عدة و نعوذ اللهم بك من الحسرة العظمى و المصيبة الكبرى و من سوء
المآب و حرمان الثواب و حلول العقاب اللهم أعذنا من كل ذلك برحمتك و منك و جودك إنك على كل شيء قدير

و من دعائه ع و تحميده و ذكره النبي ص و هو من أدعية الصحيفة أيضا الحمد لله بكل ما حمده أدنى ملائكته إليه و أكرم
خلقه عليه و أرضى حامديه لديه حمدا يفضل سائر الحمد كفضل ربنا جل جلاله على جميع خلقه ثم له الحمد مكان كل نعمة
له علينا و على جميع عباده الماضين و الباقين عدد ما أحاط به علمه و من جميع الأشياء أضعافا مضاعفة أبدا سرمداً إلى
يوم القيامة و إلى ما لا نهاية له

[186]

من بعد القيامة حمدا لا غاية لحدده و لا حساب لعدده و لا مبلغ لأعداده و لا انقطاع لآماده حمدا يكون وصلة إلى طاعته و
سببا إلى رضوانه و ذريعة إلى مغفرته و طريقا إلى جنته و خفيرا من نعمته و أمنا من غضبه و ظهيرا على طاعته و
حاجزا عن معصيته و عوناً على تأدية حقه و وظائفه حمدا نسعد به في السعداء من أوليائه و ننتظم به في نظام الشهداء
بسيوف أعدائه و الحمد لله الذي من علينا بنبيه محمد ص دون الأمم الماضية و القرون السالفة لقدرته التي لا تعجز عن
شيء و إن عظم و لا يفوتها شيء و إن لطف اللهم فصل على محمد أمينك على وحيك و نجيك من خلقك و صفيك من
عبادك إمام الرحمة و قائد الخير و مفتاح البركة كما نصب لأمرك نفسه و عرض فيك للمكروه بدنه و كاشف في الدعاء
إليك حاسته و حارب في رضاك أسرته و قطع في نصرة دينك رحمه و أقصى الأذنين على عنودهم عنك و قرب الأقصيين
على استجابتهم لك و والى فيك الأبعدين و عاند فيك الأقربين و أدأب نفسه في تبليغ رسالتك و أتعبها في الدعاء إلى ملتك
و شغلها بالنصح لأهل دعوتك و هاجر إلى بلاد الغربة و محل النأي عن موطن رحله و موضع رحله و مسقط رأسه و
مأنس نفسه إرادة منه لإعزاز دينك و استنصارا على أهل الكفر بك حتى استتب له ما حاول في أعدائك و استتم له ما دبر
في أوليائك فنهد إلى المشركين بك مستفتحا بعونك و متقويا على ضعفه بنصرتك فغزاهم في عقر ديارهم و هجم عليهم في
بحبوحة قرارهم حتى ظهر أمرك و علت كلمتك و قد كره المشركون اللهم فارفعه بما كدح فيك إلى الدرجة العليا من جنتك
حتى لا يساوى في منزلة و لا يكافأ في مرتبة و لا يوازيه لديك ملك مقرب و لا نبي مرسل و عرفه في أمته من

حسن الشفاعة أجل ما وعدته يا نافذ العدة يا وافي القول يا مبدل السيئات بأضعافها من الحسنات إنك ذو الفضل العظيم

من الأدعية المأثورة عن عيسى ع

و من الأدعية المروية عن عيسى ابن مريم ع اللهم أنت إله من في السماء و إله من في الأرض لا إله فيهما غيرك و أنت
حكيم من في السماء و حكيم من في الأرض لا حكيم فيهما غيرك و أنت ملك من في السماء و ملك من في الأرض لا ملك
فيهما غيرك قدرتك في السماء كقدرتك في الأرض و سلطانك في السماء كسلطانك في الأرض أسألك باسمك الكريم و
وجهك المنير و ملكك القديم أن تفعل بي كذا و كذا



من الأدعية الماثورة عن بعض الصالحين

و كان بعض الصالحين يدعو فيقول اللهم لا تدخلنا النار بعد أن أسكنت قلوبنا توحيدك و إني لأرجو ألا تفعل و إن فعلت لتجمعن بيننا و بين قوم عادينا هم فيك و من دعاء بعضهم اللهم إنك لم تشرك في خلقنا غيرك فلا تشرك في الإحسان إلينا غيرك اللهم لا رب لنا غيرك فلا تجعل حاجتنا عند غيرك اللهم إنا لا نعبد غيرك فلا تسلط علينا غيرك قام أعرابي على قبر رسول الله ص فقال

[188]

بأبي أنت و أمي يا رسول الله قلت فقبلنا و تلوت فوعينا ثم ظلمنا أنفسنا و قرأنا فيما أتيتنا به عن ربنا **وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَعْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً** اللهم إنا قد جننا رسولك و نحن نستغفرك و نسأل رسولك أن يستغفر لنا خطايانا فاغفر لنا و تب علينا . فيقال إن إنسانا حضر ذلك الدعاء فرأى تلك الليلة رسول الله ص في منامه يقول له أبلغ الأعرابي أن الله قد غفر له . و من أدعية بعض الصالحين اللهم إني لم آتك بعمل صالح قدمته و لا شفاعاة مخلوق رجوته أتيتك مقرا بالظلم و الإساءة على نفسي أتيتك بلا حجة أتيتك أرجو عظيم عفوك الذي عدت به على الخاطئين ثم لم يمنعك عكوفهم على عظيم الجرم أن جدت لهم بالمغفرة فيا صاحب العفو العظيم اغفر الذنب العظيم برحمتك يا أرحم الراحمين

و روي أن عليا ع اعتمر فرأى رجلا متعلقا بأستار الكعبة و هو يقول يا من لا يشغله سمع عن سمع يا من لا تقلقه المسائل و لا يبرمه إلحاح الملحني أذقني برد عفوك و حلاوة مغفرتك و عذوبة عافيتك و الفوز بالجنة و النجاة من النار فقال علي ع و الذي نفسي بيده إن قالها و عليه مثل السموات و الأرض من الذنوب قولا مخلصا ليغفرن له . و دعا أعرابي عند الملتزم فقال اللهم إن لك علي حقوقا فتصدق بها علي و إن للناس قبلي تبعات فتحملها عني و قد أوجبت لكل ضيف قرى و أنا ضيفك الليلة فاجعل قراري الجنة .

[189]

و دعا بعض الأعراب أيضا و قد خرج حاجا فقال اللهم إليك خرجت و ما عندك طلبت فلا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي اللهم إن كنت لم ترحم تعبي و نصبي فإنها لمصيبة أصبت بها فلا تحرمني أجر المصاب على المصيبة . و دعا بعضهم فقال اللهم إنك سترت علينا في الدنيا ذنوبا كثيرة و نحن إلى سترها في الآخرة أحوج فاغفر لنا . و من دعاء بعضهم اللهم اجعل الموت خير غائب ننتظره و اجعل القبر خير بيت نمره و اجعل ما بعده خيرا لنا منه اللهم إليك عجت الأصوات بصنوف اللغات تسألك الحاجات و حاجتي إليك أن تذكرني عند طول البلى إذا نسيتني أهل الدنيا . و قال بعضهم كنت أدعو الله بعد وفاة مالك بن دينار أن أراه في منامي فرأيتُه بعد سنة فقلت يا أبا يحيى علمني كيف أدعو فقال قل اللهم يسر الجواز و سهل المجاز . و قال الشعبي حسدت عبد الملك بن مروان على دعاء كان يدعو به على المنبر يقول اللهم إن ذنوبي كثيرة جلت أن توصف و هي صغيرة في جنب عفوك فاعف عني . و من دعاء بعض الزهاد اللهم إني أعوذ بك من أهل يلهيني و من هوى يرديني و من عمل يخزيني و من صاحب يغويني و من جار يؤذيني و من غنى يطغيني و من

فقر ينسيني اللهم اجعلنا نستحييك و نتقيك و نخافك و نخشاك و نرجوك و نطيعك في السر و العلانية اللهم استرنا بالمعافاة و الغنى أستعين الله على أموري و أستغفر الله لذنوبي و أعوذ بك من شر نفسي .

و يروى أن رجلا أعمى جاء إلى رسول الله ص فشكا إليه ذهاب بصره فقال ص له قل يا سبوح يا قدوس يا نور الأنوار يا نور السموات و الأرض يا أول الأولين و يا آخر الآخرين و يا أرحم الراحمين أسألك

[190]

أن تغفر لي الذنوب التي تغير النعم و الذنوب التي تنزل النقم و الذنوب التي تهتك العصم و الذنوب التي توجب البلاء و الذنوب التي تقطع الرجاء و الذنوب التي تحبس الدعاء و الذنوب التي تكشف الغطاء و الذنوب التي تعجل الفناء و الذنوب التي تظلم الهواء و أسألك باسمك العظيم و وجهك الكريم أن ترد علي بصري فدعا بذلك فرد عليه بصره و من الآثار المنقولة أن الله تعالى غضب على أمة فأنزل عليهم العذاب و كان فيهم ثلاثة صالحون فخرجوا و ابتهلوا إلى الله سبحانه فقام أحدهم فقال اللهم إنك أمرتنا أن نعتق أرقاعنا و نحن أرقاؤك فاعتقنا ثم جلس و قام الثاني فقال اللهم إنك أمرتنا أن نعتق عن ظلمنا و قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا ثم جلس و قام الثالث فقال اللهم أنا على ثقة أنك لم تخلق خلقا أوسع من مغفرتك فاجعل لنا في سعتها نصيبا فرفع عنهم العذاب .

قيل لسفيان بن عيينة ما حديث رويته عن رسول الله ص أفضل دعاء أعطيته أنا و النبيون قبلي أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك و له الحمد يحيي و يميت و هو حي لا يموت بيده الخير و هو على كل شيء قدير كأنهم لم يروه دعاء فقال ما تتكرون من هذا

ثم روي لهم قول رسول الله ص من تشاغل بالثناء على الله أعطاه الله فوق رغبة السائلين ثم قال هذا أمية بن أبي الصلت يقول لابن جدعان

أ أنكر حاجتي أم قد كفاني
حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أتني عليك المرء يوما
كفاه من تعرضه الثناء

و قال هذا مخلوق يقول لمخلوق فما ظنكم برب العالمين .

[191]

و من دعائه ص اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك و من الذل إلا لك
و من دعائه ع اللهم ارزقني عينين هطالتين تسقيان القلوب مذروف الدموع قبل أن يكون الدمع دما و قرع الضرس ندما
و من دعائه ع اللهم طهر لساني من الكذب و قلبي من النفاق و عملي من الرياء و بصري من الخيانة فإنك تعلم خاتنة الأعين و ما تخفي الصدور

و مما رواه أنس بن مالك لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد

و من رواية جابر بن عبد الله لقد بارك الله للرجل في الحاجة بكثرة الدعاء فيها أعطيها أو منعها

أبو هريرة يرفعه اللهم أصلح لي في ديني الذي هو عصمة أمري و أصلح لي دنياي التي فيها معاشي و أصلح لي آخرتي التي إليها معادي و اجعل الحياة زيادة لي في كل خير و الموت راحة لي من كل شر . قيل لأعرابي أ تحسن أن تدعو ربك فقال نعم ثم دعا فقال اللهم إنك مننت علينا بالإسلام من غير أن نسألك فلا تحرمنا الجنة و نحن نسألك سمعت أعرابية تقول في دعائها يا عريض الجفنة يا أبا المكارم يا أبيض الوجه فزجرها رجل فقالت دعوني أصف ربي بما يستحقه .

و كان موسى بن جعفر ع يقول في سجوده آخر الليل إلهي عظم الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك . ذكر عند بعض الصالحين رجل قد أصابه بلاء عظيم و هو يدعو فتبطنى عنه الإجابة فقال بلغني أن الله تعالى يقول كيف أرحم المبتلى من شيء أرحمه به

[192]

قال طاوس إنني لفي الحجر ليلة إذ دخل علي بن الحسين ع فقلت رجل صالح من أهل بيت صالح لأسمعن دعاءه فسمعته يقول في أثناء دعائه عبدك بفنائك سانلك بفنائك مسكينك بفنائك فما دعوت بهن في كرب إلا و فرج عني عمر بن ذر اللهم إن كنا عصيانك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك و هو الإشرار و إن كنا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا منها بأحبها إليك و هو شهادة أن لا إله إلا أنت و أن رسلك جاءت بالحق من عندك . أعرابي اللهم إنا نبات نعمتك فلا تجعلنا حصائد نعمتك . بعضهم اللهم إن كنت قد بلغت أحدا من عبادك الصالحين درجة ببلاء فبلغنيها بالعافية . حج أعرابي فكان لا يستغفر إذا صلى كما يستغفر الناس فقيل له فقال كما أن تركي الاستغفار مع ما أعلم من عفو الله و رحمته ضعف فكذلك استغفاري مع ما أعلم من إصراري لؤم . لما صاف قتيبة بن مسلم الترك و هاله أمرهم سأل عن محمد بن واسع فقيل هو في أقصى الميمنة جانحا على سية قوسه مبصبصا بإصبعه نحو السماء فقال قتيبة لتلك الإصبع القارورة أحب إلي من مائة ألف سيف شهير و رمح طرير . سمع مطرف بن الشخير صيحة الناس بالدعاء فقال لقد هممت أن أحلف أن الله غفر لهم ثم ذكرت أنني فيهم فكففت . كان المأمون إذا رفعت المائدة من بين يديه يقول الحمد لله الذي جعل أرزاقنا أكثر من أقواتنا . الحسن البصري من دخل المقبرة فقال اللهم رب الأرواح العالية و الأجساد البالية

[193]

و العظام النخرة التي خرجت من الدنيا و هي مؤمنة بك أدخل عليهم روحا منك و سلاما مني كتب الله له بعدد من ولد منذ زمن آدم إلى أن تقوم الساعة حسنات .

علي ع الدعاء سلاح المؤمن و عماد الدين و نور السموات و الأرض . قيل إن فيما أنزله الله تعالى من الكتب القديمة أن الله يبئلي العبد و هو يحبه ليسمع دعاءه و تضرعه . أبو هريرة اطلبوا الخير دهركم كله و تعرضوا لنفحات من رحمة الله تعالى فإن الله تعالى نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده و اسألوا الله أن يستر عوراتكم و يؤمن روعاتكم .

صلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك فلما سلم الإمام سلم و قام عجلا ف جذب عبد الله بثوبه و قال أ ما لك إلى ربك حاجة . قيل لعمر بن عبد العزيز جزاك الله عن الإسلام خيرا فقال لا بل جزى الله الإسلام عني خيرا .

علي ع الداعي بغير عمل كالرامي بغير وتر . كان الزهري إذا فرغ من الحديث تلاه فدعا اللهم إني أسألك خيرا ما أحاط به علمك في الدنيا و الآخرة و أعوذ بك من شر ما أحاط به علمك في الدنيا و الآخرة . كان زبيد النامي يستتبع الصبيان إلى المسجد و في كفه الجوز و يقول من يتبعني منكم فأعطيه خمس جوزات فإذا دخلوا المسجد قال ارفعوا أيديكم و قولوا اللهم اغفر لزبيد فإذا دعوا قال اللهم استجب لهم فإنهم لم يذنبوا .

علي ع جعل في يديك مفاتيح خزانته بما أذن لك فيه من مسألته فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته و استمطرت شأبيب رحمته فلا يقتطك إبطاء

[194]

إجابته فإن العطية على قدر النية و ربما أخرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل و أجزل لعطاء الآمل و ربما سألت الشيء فلا تؤتاه و أوتيت خيرا منه أو صرفت عنك بما هو لك خير و اعلم أنه رب أمر قد طلبت فيه هلاك دينك لو أوتيته

و من الدعاء المرفوع اللهم من أراد بنا سوءا فأحط به ذلك السوء كإحاطة القلاندي بترائب الولاندي و أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على قمم أصحاب الفيل

سمع عمر رجلا يقول في دعائه اللهم اجعلني من الأقلين فقال ما أردت بهذا قال قول الله عز و جل **و ما آمنَ معهُ إلا قَلِيلٌ و** قوله تعالى **و قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** فقال عليكم من الدعاء بما عرف . قال سعيد بن المسيب مر بي صلة بن أشيم فقلت له ادع لي فقال ربك الله فيما يبقى و زهدك فيما يفنى و وهب لك اليقين الذي لا تسكن النفوس إلا إليه و لا تعول إلا عليه . كان علي بن عيسى بن ماهان صاحب خراسان و في أيامه عصام بن يوسف الزاهد فلقيه في الطريق و سلم عليه علي فأعرض عنه و لم يرد عليه فوقف علي و رفع يديه و أسبل عينيه و قال اللهم إن هذا الرجل يتقرب إليك ببغضي و أنا أتقرب إليك بحبه فإن كنت غفرت له ببغضي فاغفر لي بحبه يا كريم ثم سار . قال الأصمعي سمعت أعرابيا يدعو و يقول اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله و إن كان في الأرض فأخرجه و إن كان بعيدا فقربه و إن كان قريبا فيسره و إن كان قليلا فكثره و إن كان كثيرا فبارك لي فيه .

[195]

من دعاء عمرو بن عبيد اللهم أغني بالافتقار إليك و لا تفقرني بالاستغناء عنك اللهم أعني على الدنيا بالقناعة و على الدين بالعصمة .

شكا رجل إلى الحسن رحمه الله تعالى رجلا يظلمه فقال له إذا صليت الركعتين بعد المغرب فاسجد و قل يا شديد القوى يا شديد المحال يا عزيز أذلت لعزك جميع من خلقت فصل على محمد و آل محمد و اكفني منونة فلان بما شئت فدعا بها فلم يرعه إلا الواعية بالليل فسأل فقيل مات فلان فجأة

قال موسى ع يا رب إنك لتعطيني أكثر من أمني قال لأنك تكثر من قول ما شاء الله لا قوة إلا بالله . كان بعض الصالحين يقول قبل الصلاة يا محسن قد جاءك المسيء و قد أمرت المحسن أن يتجاوز عن المسيء فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك اللهم ارزقني عمل الخائفين و خوف العاملين حتى أنعم بترك التمتع طمعا فيما وعدت و خوفا مما أوعدت .

و من الأدعية الجامعة اللهم أغنني بالعلم و زيني بالحلم و جملني بالعافية و كرمني بالتقوى . أحمد بن يوسف كاتب المأمون إذا دخل عليه حياة بتحية أبرويز الملك عشت الدهر و نلت المنى و جنبت طاعة النساء .

و من الدعاء المروي عن رسول الله ص اللهم اغفر لي ذنوبي و خطاياي كلها اللهم أنعشني و أجزني و انصرني و اهدني لصالح الأعمال و الأخلاق

[196]

إنه لا يهدي لصالحها و لا يصرف عن سيئها إلا أنت اللهم إني أسألك الثبات في الأمر و العزيمة على الرشد و أسألك شكر نعمتك و حسن عبادتك و أسألك قلبا سليما و لسانا صادقا و أسألك من خير ما تعلم و أعوذ بك من شر ما تعلم و أستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب

آداب الدعاء

قالوا و من آداب الدعاء أن ترصد له الأوقات الشريفة كما بين الأذان و الإقامة و كوقت السجود و وقت السحر و يستحب أن يدعو مستقبل القبلة رافعا يديه

لما روى سلمان عن النبي ص أن ربكم كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا و يستحب أن يمسخ بهما وجهه بعد الدعاء فإن ذلك قد روي عن رسول الله ص . و يكره أن يرفع بصره إلى السماء

لقوله ع لئن تهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم و قد رخص في ذلك للصديقين و الأئمة العادلين و يستحب أن يخفض صوته لقوله تعالى **أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَ خُفْيَةً**

و قد روي أن عمر سمع رجلا يجهر بالدعاء فقال لكن زكريا نادى ربه نداء خفيا . و يكره أن يتكلف الكلام المسجوع و يستحب الإتيان بالمطبوع منه

لقوله ص إياكم و السجع في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة و ما قرب إليها من قول أو عمل و أعوذ بك من النار و ما قرب إليها من قول أو عمل .

[197]

و قيل في الوصية الصالحة ادع ربك بلسان الذلة و الاحتقار لا بلسان الفصاحة و التشدق . و قال سفيان بن عيينة لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلمه من نفسه فإن الله تعالى أجاب دعاء شر خلقه إبليس حيث قال **أَنْظِرْنِي** .

النبي ص إذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات و من أبطأ عنه شيء من ذلك فليقل الحمد لله على كل حال . و من الآداب أن يفتتح بالذكر و الإيتماء بالمسألة

كان رسول الله ص قبل أن يدعو يقول سبحان ربي العلي الوهاب

أبو سليمان الداراني من أراد أن يسأل الله تعالى حاجته فليبدأ بالصلاة على رسول الله ص ثم يسأل حاجته ثم يختم بالصلاة على رسول الله ص فإن الله تعالى يقبل الصلاتين و هو أكرم من أن يدع ما بينهما

و من دعاء علي ع اللهم صن وجهي باليسار و لا تبذل جاهي بالإقتار فأسترزق طالبي رزقك و أستعطف شرار خلقك و أبتلي بحمد من أعطاني و أفتتن بدم من منعني و أنت من وراء ذلك كله ولي الإعطاء و المنع إنك على كل شيء قدير

و من دعاء الحسن رحمه الله تعالى اللهم إني أعوذ بك من قلب يعرف و لسان يصف و أعمال تخالف

و من دعاء أهل البيت ع و فيه راحة من كلام أمير المؤمنين ع الذي نحن في شرحه اللهم إني أستغفرك لما تبت منه إليك ثم عدت فيه و أستغفرك

لما وعدتك من نفسي ثم أخلفتك و أستغفرك للنعم التي أنعمت بها علي فتقويت علي معصيتك و أستغفرك من كل ذنب
تمكنت منه بعافيتك و نالته يدي بفضل نعمتك و انبسطت إليه بسعة رزقك و احتجبت فيه عن الناس بسترک و اتكلت فيه
على أكرم عفوك اللهم إني أعوذ بك أن أقول حقا ليس فيه رضاك ألتمس به أحدا سواك و أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء
يشينني عندك و أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك و أن يكون أحد من خلقك أسعد بما علمتني مني و أعوذ بك أن
أستعين بمعصية لك على ضر يصيبني . كان أبو مسلم الخولاني إذا أهمله أمر قال يا مالك يوم الدين إياك نعبد و إياك
نستعين .

و من دعاء علي ع اللهم إن تهت عن مسألتي و أعميت عن طلبتي فدلني على مصالحتي و خذ بقلبي إلى مرادني اللهم
احملني على عفوك و لا تحملني على عدلك

78 - و من كلام له ع قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج

و قد قال له إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت ألا تطفر بمرادك من طريق علم النجوم فقال ع : أ تَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ وَ تَخَوَّفَ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضَّرُّ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ وَ اسْتَعْنَى عَنِ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ وَ دَفَعَ الْمَكْرُوهَ وَ تَبَتَّعِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُوَلِّيكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ لِأَنَّكَ بِرِزْقِكَ أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ وَ أَمِنَ الضَّرُّ ثُمَّ أَقْبَلَ عَ عَلَيَّ النَّاسُ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَ تَعَلَّمَ النُّجُومَ إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ فَبَاتَهَا تَدْعُو إِلَى الْكَهَانَةِ الْمُنْجِمِ كَالكَاهِنِ وَ الْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ وَ السَّاحِرُ كَالكَافِرِ وَ الْكَافِرُ فِي النَّارِ سِيرُوا عَلَيَّ اسْمُ اللَّهِ حَاقَ بِهِ الضَّرُّ أَيَّ أَحَاطَ بِهِ قَالَ تَعَالَى وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ . و يوليك الحمد مضارع أولاك و أولاك معدي بالهمزة من ولي يقال ولي

[200]

الشيء ولاية و أوليته ذلك أي جعلته واليا له و متسلطا عليه و الكاهن واحد الكهان و هم الذين كانوا يخبرون عن الشياطين بكثير من الغائبات

القول في أحكام النجوم

واعلم أن الناس قد اختلفوا في أحكام النجوم فأنكرها جمهور المسلمين و المحققون من الحكماء و نحن نتكلم هاهنا في ذلك و نبحت فيه بحثين بحثا كلاميا و بحثا حكما . أما البحث الكلامي هو أن يقال أما أن يذهب المنجمون إلى أن النجوم مؤثرة أو أمارات . و الوجه الأول ينقسم قسمين أحدهما أن يقال إنها تفعل بالاختيار و الثاني أن تفعل بالإيجاب . و القول بأنها تفعل بالاختيار باطل لأن المختار لا بد أن يكون قادرا حيا و الإجماع من المسلمين حاصل على أن الكواكب ليست حية و لا قدرة و الإجماع حجة و قد بين المتكلمون أيضا أن من شرط الحياة الرطوبة و أن تكون الحرارة على قدر مخصوص متى أفرط امتنع حلول الحياة في ذلك الجسم فإن النار على صرافتها يستحيل أن تكون حية و أن تحلها الحياة لعدم الرطوبة و إفراط الحرارة فيها و اليبس و الشمس أشد حرارة من النار لأنها على بعدها تؤثره النار على قربها و ذلك دليل على أن حرارتها أضعاف حرارة النار و بينوا أيضا أنها لو كانت حية قادرة لم يجز أن تفعل في غيرها ابتداء لأن القادر بقدرته لا يصح منه الاختراع و إنما يفعل في غيره على سبيل التوليد و لا بد من وصلة بين الفاعل و المفعول فيه و الكواكب غير مماسة لنا فلا وصلة بينها و بيننا فيستحيل أن تكون فاعلة فينا .

[201]

فإن ادعى مدع أن الوصلة هي الهواء فعن ذلك أجوبة أحدها أن الهواء لا يجوز أن يكون وصلة و آلة في الحركات الشديدة و حمل الأثقال لا سيما إذا لم يتموج . و الثاني أنه كان يجب أن نحس بذلك و نعلم أن الهواء يحركنا و يصرفنا كما نعلم في الجسم إذا حركنا و صرفنا بآلة موضع تحريكه لنا بتلك الآلة . و الثالث أن في الأفعال الحادثة فينا ما لا يجوز أن يفعل بآلة و لا يتولد عن سبب كالإرادات و الاعتقادات و نحوها . و قد دلل أصحابنا أيضا على إبطال كون الكواكب فاعلة للأفعال فينا بأن ذلك يقتضي سقوط الأمر و النهي و المدح و الذم و يلزمهم ما يلزم المجبرة و هذا الوجه يبطل كون الكواكب فاعلة فينا بالإيجاب كما يبطل كونها فاعلة بالاختيار . و أما القول بأنها أمارات على ما يحدث و يتجدد فيمكن أن ينصر بأن يقال لم لا يجوز أن يكون الله تعالى أجرى العادة بأن يفعل أفعالا مخصوصة عند طلوع كوكب أو غروبه أو اتصاله بكوكب آخر . و الكلام على ذلك بأن يقال هذا غير ممتنع لو ثبت سمع مقطوع به يقتضي ذلك فإن هذا مما لا يعلم بالعقل . فإن قالوا نعلم بالتجربة . قيل لهم التجربة إنما تكون حجة إذا استمرت و اطردت و أنتم خطوطكم فيما تحكمون به أكثر من صوابكم فهلا نسبتهم الصواب الذي يقع منكم إلى الاتفاق و التخمين فقد رأينا من أصحاب الزرق و التخمين من يصيب أكثر مما يصيب المنجم و هو من غير أصل صحيح و لا قاعدة معتمدة و متى قلتم إنما أخطأ المنجم لغلطه في تسيير الكواكب

[202]

قيل لكم و لم لا يكون سبب الإصابة اتفاقا و إنما يصح لكم هذا التأويل و التخريج لو كان على صحة أحكام النجوم دليل قاطع هو غير إصابة المنجم . فأما إذا كان دليل صحة الأحكام الإصابة فهلا كان دليل فسادها الخطأ فما أحدهما إلا في مقابلة صاحبه . و مما قيل على أصحاب الأحكام إن قيل لهم في شيء بعينه خذوا الطالع و احكموا أو يؤخذ أم يترك فإن حكموا بأحدهما خولفوا و فعل خلاف ما أخبروا به و هذه المسألة قد أعرض عليهم جوابها . و قال بعض المتكلمين لبعض

المنجمين أخبرني لو فرضنا جادة مسلوكة و طريقا يمشي فيها الناس نهارا و ليلا و في تلك المحجة آبار متقاربة و بين بعضها و بعض طريق يحتاج سالكه إلى تأمل و توقف حتى يتخلص من السقوط في بعض تلك الآبار هل يجوز أن تكون سلامة من يمشي بهذا الطريق من العميان كسلامة من يمشي فيه من البصراء و المفروض أن الطريق لا يخلو طرفة عين من مشاة فيها عميان و مبصرون و هل يجوز أن يكون عطب البصراء مقاربا لعطب العميان . فقال المنجم هذا مما لا يجوز بل الواجب أن تكون سلامة البصراء أكثر من سلامة العميان . فقال المتكلم فقد بطل قولكم لأن مسألتنا نظير هذه الصورة فإن مثال البصراء هم الذين يعرفون أحكام النجوم و يميزون مساعدتها من مناحسها و يتوقون بهذه المعرفة مضار الوقت و الحركات و يتخطونها و يعتمدون منافعها و يقصدونها و مثال العميان كل من لا يحسن علم النجوم و لا يقولون به من أهل العلم و العامة و هم أضعاف أضعاف عدد المنجمين .

[203]

و مثال الطريق الذي فيه الآبار الزمان الذي مضى و مر على الخلق أجمعين و مثال آباره مصانبه و محنه . و قد كان يجب لو صح علم أحكام النجوم أن سلامة المنجمين أكثر و مصانبههم أقل لأنهم يتوقون المحن و يتخطونها لعلمهم بها قبل كونها و أن تكون محن المعرضين عن علم أحكام النجوم على كثرتهم أوفر و أظهر حتى تكون سلامة كل واحد منهم هي الطريقة الغربية و المعلوم خلاف ذلك فإن السلامة و المحن في الجميع متقاربة متناسبة غير متفاوتة . و أما البحث الحكمي في هذا الموضوع فهو أن الحادث في عالم العناصر عند حلول الكوكب المخصوص في البرج المخصوص إما أن يكون المقتضي له مجرد ذلك الكوكب أو مجرد ذلك البرج أو حلول ذلك الكوكب في ذلك البرج فالأولان باطلان و إلا لوجب أن يحدث ذلك الأمر قبل أن يحدث و الثالث باطل أيضا لأنه إما أن يكون ذلك البرج مساويا لغيره من البروج في الماهية أو مخالفا و الأول يقتضي حدوث ذلك الحادث حال ما كان ذلك الكوكب حالا في غيره من البروج لأن حكم الشيء حكم مثله و الثاني يقتضي كون كرة البروج متخالفة الأجزاء في أنفسها و يلزم في ذلك كونها مركبة و قد قامت الدلالة على أنه لا شيء من الأفلاك بمركب . و قد اعترض على هذا الدليل بوجهين أحدهما أنه لم لا يجوز أن تختلف أفعال الكواكب المتحيرة عند حلولها في البروج لا لاختلاف البروج في نفسها بل لاختلاف ما في تلك البروج من الكواكب الثابتة المختلفة الطباع . الوجه الثاني لم لا يجوز أن يقال الفلك التاسع مكوكب بكواكب صغار لا تراها

[204]

لغاية بعدها عنا فإذا تحركت في كرات تدويرها سامنت مواضع مخصوصة من كرة الكواكب الثابتة و هي فلك البروج فاختلفت آثار الكواكب المتحيرة عند حلولها في البروج باعتبار اختلاف تلك الكواكب الصغيرة و لم لا يجوز إثبات كرة بين الكرة الثامنة و بين الفلك الأطلس المدبر لجميع الأفلاك من المشرق إلى المغرب و تكون تلك الكرة المتوسطة بينهما بطينة الحركة بحيث لا تفي أعمارنا بالوقوف على حركتها و هي مكوكبة بتلك الكواكب الصغار المختلفة الطباع . و أجب عن الأول بأنه لو كان الأمر كما ذكر لوجب أن تختلف بيوت الكواكب و أشرافها و حدودها عند حركة الثوابت بحركة فلكها حتى أنها تتقدم على مواضعها في كل مائة سنة على رأي المتقدمين أو في كل ست و ستين سنة على رأي المتأخرين درجة واحدة لكن ليس الأمر كذلك فإن شرف القمر كما أنه في زماننا في درجة الثالثة من الثور فكذلك كان عند الذين كانوا قبلنا بألف سنة و بألفي سنة . و أما الوجه الثاني فلا جواب عنه . و اعلم أن الفلاسفة قد عولت في إبطال القول بأحكام

النجوم على وجه واحد و هو أن مبنى هذا العلم على التجربة و لم توجد التجربة فيما يدعيه أرباب علم النجوم فإن هاهنا أمورا لا تتكرر إلا في الأعمار المتطاولة مثل الأدوار و الألوف التي زعم أبو معشر أنها هي الأصل في هذا العلم و مثل مماسة جرم زحل للكرة المكوكة و مثل انطباق معدل النهار على دائرة فلك البروج فإنهم يزعمون أن ذلك يقتضي حدوث طوفان الماء و إحاطته بالأرض من جميع الجوانب مع أن هذه الأمور لا توجد إلا في ألوف الألوف من السنين فكيف تصح أمثال هذه الأمور بالتجربة . و أيضا فإننا إذا رأينا حادثا حدث عند حلول كوكب مخصوص في برج مخصوص

[205]

فكيف نعلم استناد حدوثه إلى ذلك الحلول فإن في الفلك كواكب لا تحصى فما الذي خصص حدوث ذلك الحدوث بحلول ذلك الكوكب في ذلك البرج لا غيره و بتقدير أن يكون لحولته تأثير في ذلك فلا يمكن الجزم قبل حلوله بأنه إذا حل في البرج المذكور لا بد أن يحدث ذلك الحادث لجواز أن يوجد ما يبطل تأثيره نحو أن يحل كوكب آخر في برج آخر فيدفع تأثيره و يبطل عمله أو لعل المادة الأرضية لا تكون مستعدة لقبول تلك الصورة و حدوث الحادث كما يتوقف على حصول الفاعل يتوقف على حصول القابل و إذا وقع الشك في هذه الأمور بطل القول بالجزم بعلم أحكام النجوم و هذه الحجة جيدة إن كان المنجمون يطلبون القطع في علمهم . فيما أن كانوا يطلبون الظن فإن هذه الحجة لا تفسد قولهم . فأما أبو البركات بن ملكا البغدادي صاحب كتاب المعبر فإنه أبطل أحكام النجوم من وجه و أثبتته من وجه . قال أما من يريد تطبيق علم أحكام النجوم على قاعدة العلم الطبيعي فإنه لا سبيل له إلى ذلك فإننا لا نتعلق من أقوالهم إلا بأحكام يحكمون بها من غير دليل نحو القول بحر الكواكب و بردها أو رطوبتها و يبوستها و اعتدالها كقولهم إن زحل بارد يابس و المشتري معتدل و الاعتدال خير و الإفراط شر و ينتجون من ذلك أن الخير يوجب سعادة و الشر يوجب منحسة و ما جانس ذلك مما لم يقل به علماء الطبيعيين و لم تنتجهم مقدماتهم في أنظارهم و إنما الذي أنتجته هو أن الأجرام السماوية فعالة فيما تحويه و تشتمل عليه و تتحرك حوله فعلا على الإطلاق غير محدود بوقت و لا مقدر بتقدير و القائلون بالأحكام ادعوا حصول علمهم بذلك من توقيف و تجربة لا يطابق نظر الطبيعي . و إذا قلت بقول الطبيعي بحسب أنظاره أن المشتري سعد و المريخ نحس أو أن زحل

[206]

بارد يابس و المريخ حار يابس و الحار و البارد من الملموسات و ما دل على هذا المس و ما استدل عليه بلمس كتأثيره فيما يلمسه فإن ذلك لم يظهر للحس في غير الشمس حيث تسخن الأرض بشعاعها و لو كان في السماويات شيء من طبائع الأضداد لكان الأولى أن تكون كلها حارة لأن كواكبها كلها منيرة . و متى يقول الطبيعي بتقطيع الفلك و تقسيمه إلى أجزاء كما قسمه المنجمون قسمة وهمية إلى بروج و درج و دقائق و ذلك جائز للمتوهم كجواز غيره و ليس بواجب في الوجود و لا حاصل فنقلوا ذلك التوهم الجائز إلى الوجود الواجب في أحكامهم و كان الأصل فيه على زعمهم حركة الشمس و الأيام و الشهور فحصلوا منها قسمة وهمية و جعلوها كالحاصلة الوجودية المثمرة بحدود و خطوط كان الشمس بحركتها من وقت إلى مثله خطت في السماء خطوطا و أقامت فيها جدرا أو حدودا أو غيرت في أجزائها طباعا تغييرا يبقى فيبقى به القسمة إلى تلك الدرج و الدقائق مع جواز الشمس عنها و ليس في جوهر الفلك اختلاف يتميز به موضع عن موضع سوى الكواكب و الكواكب تتحرك عن أمكنتها فبقيت الأمكنة على التشابه فيما ذا تتميز بروجه و درجه و يبقى

اختلافها بعد حركة المتحرك في سمتها و كيف يقيس الطبيعي على هذه الأصول و ينتج منها نتائج و يحكم بحسبها أحكاما و كيف له أن يقول بالحدود و يجعل خمس درجات من برج الكوكب و ستا لآخر و أربعا لآخر و يختلف فيها البابليون و المصريون و جعلوا أرباب البيوت كأنها ملاك و البيوت كأنها أملاك تثبت لأربابها بصكوك و أحكام الأسد للشمس و السرطان للقمر و إذا نظر الناظر وجد الأسد أسدا من جهة كواكب شكلوها بشكل الأسد ثم انقلبت عن مواضعها و بقي الموضع أسدا و جعلوا الأسد للشمس و قد ذهب منه الكواكب التي كان بها أسدا كان ذلك الملك بيت للشمس مع انتقال الساكن و كذلك السرطان للقمر .

[207]

و من الدقائق في العلم النجمي الدرجات المدارية و الغربية و المظلمة و النيرة و الزائدة في السعادة و درجات الآثار من جهة أنها أجزاء الفلك إن قطعوها و ما انقطعت و مع انتقال ما ينتقل من الكواكب إليها و عنها ثم أنتجوا من ذلك نتائج أنظارهم من أعداد الدرج و أقسام الفلك فقالوا إن الكوكب ينظر إلى الكواكب من ستين درجة نظر تسديس لأنه سدس من الفلك و لا ينظر إليه من خمسين و لا من سبعين و قد كان قبل الستين بعشر درج و هو أقرب من ستين و بعدها بعشر درج و هو أبعد من ستين لا ينظر . فليت شعري ما هذا النظر أ ترى الكواكب تظهر للكوكب ثم تحتجب عنه ثم شعاعه يختلط بشعاعه عند حد لا يختلط به قبله و لا بعده . و كذلك التربيع من الربع الذي هو تسعون درجة و التثليث من الثلث الذي هو مائة و عشرون درجة فلم لا يكون التخمس و التسبيع و التعشير على هذا القياس ثم يقولون الحمل حار يابس ناري و الثور بارد يابس أرضي و الجوزاء حار رطب هوائي و السرطان بارد رطب مائي ما قال الطبيعي هذا قط و لا يقول به . و إذا احتجوا و قاسوا كانت مبادئ قياساتهم الحمل برج ينقلب لأن الشمس إذا نزلت فيه ينقلب الزمان من الشتاء إلى الربيع و الثور برج ثابت لأن الشمس إذا نزلت فيه ثبت الربيع على ربيعته . و الحق أنه لا ينقلب الحمل و لا يثبت الثور بل هما على حالهما في كل وقت ثم كيف يبقى دهره منقلبا مع خروج الشمس منه و حلولها فيه أ تراها تخلف فيه أثرا أو تحيل منه طبعا و تبقى تلك الاستحالة إلى أن تعود فتجددها و لم لا يقول قائل إن السرطان حار يابس لأن الشمس إذا نزلت فيه يشتد حر الزمان و ما يجانس هذا مما لا يلزم لا هو و لا ضده فليس في الفلك اختلاف يعرفه الطبيعي إلا بما فيه من الكواكب و هو في نفسه

[208]

واحد متشابه الجوهر و الطبع و لكنها أقوال قال بها قائل فقبلها قائل و نقلها ناقل فحسن فيها ظن السامع و اغتر بها من لا خبرة له و لا قدرة له على النظر . ثم حكم بها الحاكمون بجيد و رديء و سلب و إيجاب و بت و تجوز فصادف بعضه موافقة الوجود فصدق فيعتبر به المعتبرون و لم يلتفتوا إلى ما كذب منه فيكذبوه بل عذروا و قالوا إنما هو منجم و ليس بنبي حتى يصدق في كل ما يقول و اعتدروا له بأن العلم أوسع من أن يحيط به أحد و لو أحاط به أحد لصدق في كل شيء و لعمر الله إنه لو أحاط به علما صادقا لصدق و الشأن في أن يحيط به على الحقيقة لا أن يفرض فرضا و يتوهم وهما فينقله إلى الوجود و ينسب إليه و يقيس عليه . قال و الذي يصح من هذا العلم و يلتفت إليه العقلاء هي أشياء غير هذه الخرافات التي لا أصل لها فما حصل توقيف أو تجربة حقيقة كالقرانات و المقابلة فإنها أيضا من جملة الاتصالات كالمقارنة من جهة أن تلك غاية القرب و هذه غاية البعد و نحو ممر كوكب من المتحيرة تحت كوكب من الثابتة و نحوه ما

يعرض للمتحيرة من رجوع و استقامة و ارتفاع في شمال و انخفاض في جنوب و أمثال ذلك . فهذا كلام ابن ملكا كما تراه يبطل هذا الفن من وجه و يقول به من وجه . و قد وقفت لأبي جعفر محمد بن الحسين الصنعاني المعروف بالخازن صاحب كتاب زيح الصفائح على كلام في هذا الباب مختصر له سماه كتاب العالمين أنا ذاكره في هذا الموضوع على وجهه لأنه كلام لا بأس به قال إن بعض المصدقين بأحكام النجوم و كل المكذبين بها قد زاغوا عن طريق الحق و الصواب فيها فإن الكثير من المصدقين بها قد أدخلوا فيها ما ليس منها و ادعوا ما لم يمكن إدراكه بها حتى كثر فيها خطوهم و ظهر كذبهم و صار ذلك سببا لتكذيب أكثر الناس بهذا العلم .

[209]

فأما المكذبون به فقد بلغوا من إنكار صحيحه و رد ظاهره إلى أن قالوا إنه لا يصح منه شيء أصلا و نسبوا أهله إلى الرزق و الاحتيال و الخداع و التمويه فلذلك رأينا أن نبتدئ بتبيين صحة هذه الصناعة ليظهر فساد قول المكذبين لها بأسرها ثم نبين ما يمكن إدراكه بها ليبطل دعوى المدعين فيها ما يمتنع وجوده بها . أما الوجوه التي بها تصح صناعة الأحكام فهي كثيرة منها ما يظهر لجميع الناس من قبل الشمس فإن حدوث الصيف و الشتاء و ما يعرض فيهما من الحر و البرد و الأمطار و الرياح و نبات الأرض و خروج وقت الأشجار و حملها الثمار و حركة الحيوان إلى النسل و التوالد و غير ذلك مما يشاكله من الأحوال إنما يكون أكثر ذلك بحسب دنو الشمس من سمت الرءوس في ناحية الشمال و تباعدها منه إلى ناحية الجنوب و بفضل قوة الشمس على قوة القمر و قوى سائر الكواكب ظهر ما قلنا لجميع الناس . و قد ظهر لهم أيضا من قبل الشمس في تغيير الهواء كل يوم عند طلوعها و عند توسطها السماء و عند غروبها ما لا خفاء به من الآثار . و من هذه الوجوه ما يظهر للفلاحين و الملاحين بأدنى تفقد للأشياء التي تحدث فإنهم يعلمون أشياء كثيرة من الآثار التي يؤثرها القمر و أنوار الكواكب الثابتة كالمند و الجزر و حركات الرياح و الأمطار و أوقاتها عند الحدوث و ما يوافق من أوقات الزراعات و ما لا يوافق و أوقات اللقاح و النتائج . و قد يظهر من آثار القمر في الحيوان الذي يتوالد في الماء و الرطوبات ما هو مشهور لا ينكر . و منها جهات أخرى يعرفها المنجمون فقط على حسب فضل علمهم و دقة نظرهم في هذا

[210]

العلم و إذ قد وصفنا على سبيل الإجمال ما يوجب حقيقة هذا العلم فإننا نصف ما يمكن إدراكه به أو لا يمكن فنقول لما كانت تغيرات الهواء إنما تحدث بحسب أحوال الشمس و القمر و الكواكب المتحيرة و الثابتة صارت معرفة هذه التغيرات قد تدرك من النجوم مع سائر ما يتبعها من الرياح و السحاب و الأمطار و الثلج و البرد و الرعد و البرق لأن الأشياء التي تلي الأرض و تصل إليها هذه الآثار من الهواء المحيط بها كانت الأعراض العامية التي تعرض في هذه الأشياء تابعة لتلك الآثار مثل كثرة مياه الأنهار و قلتها و كثرة الثمار و قلتها و كثرة خصب الحيوان و قلتها و الجدوبة و القحط و الوباء و الأمراض التي تحدث في الأجناس و الأنواع أو في جنس دون جنس أو في نوع دون نوع و سائر ما يشاكل ذلك من الأحداث . و لما كانت أخلاق النفس تابعة لمزاج البدن و كانت الأحداث التي ذكرناها مغيرة لمزاج البدن صارت أيضا مغيرة للأخلاق و لأن المزاج الأول الأصلي هو الغالب على الإنسان في الأمر الأكثر و كان المزاج الأصلي هو الذي طبع عليه الإنسان في وقت كونه في الرحم و في وقت مولده و خروجه إلى جو العالم صار وقت الكون و وقت المولد أدل

الأشياء على مزاج الإنسان و على أحواله التابعة للمزاج مثل خلقة البدن و خلق النفس و المرض و الصحة و سائر ما يتبع ذلك فهذه الأشياء و ما يشبهها من الأمور التي لا تشارك شيئا من الأفعال الإرادية فيه مما يمكن معرفته بالنجوم و أما الأشياء التي تشارك الأمور الإرادية بعض المشاركة فقد يمكن أن يصدق فيها هذا العلم على الأمر الأكثر و إذا لم يستعمل فيه الإرادة جرى على ما تقود إليه الطبيعة . على أنه قد يعرض الخطاء و الغلط لأصحاب هذه الصناعة من أسباب كثيرة بعضها يختص بهذه الصناعة دون غيرها و بعضها يعمها و غيرها من الصنائع .

[211]

فأما ما يعم فهو من قصور طبيعة الناس في معرفة الصنائع أيا كانت عن بلوغ الغاية فيها حتى لا يبقى وراءها غاية أخرى فكثرة الخطأ و قلته على حسب تقصير واحد واحد من الناس . و أما ما يخص هذه الصناعة فهو كثير ما يحتاج صاحبها إلى معرفته مما لا يمكنه أن يعلم كثيرا منه إلا بالحدس و التخمين فضلا عن لطف الاستنباط و حسن القياس و مما يحتاج إلى معرفة علم أحوال الفلك و مما يحدث في كل واحد من تلك الأحوال فإن كل واحد منها له فعل خاص ثم يؤلف تلك الأحوال بعضها مع بعض على كثرة فنونها و اختلافاتها ليحصل من جميع ذلك قوة واحدة و فعل واحد يكون عنه الحادث في هذا العالم و ذلك أمر عسير فمتى أغفل من ذلك شيء كان الخطأ الواقع بحسب الشيء الذي سها عنه و ترك استعماله . ثم من بعد تحصيل ما وصفناه ينبغي أن يعلم الحال التي عليها يوافي في تلك القوة الواحدة الأشياء التي تعرض فيها تلك الأحداث كأنه مثلا إذا دل ما في الفلك على حدوث حر و كانت الأشياء التي يعرض فيها ما يعرض قد مر بها قبل ذلك حر فحميت و سخنت أثر ذلك فيها أثرا قويا فإن كان قد مر بها برد قبل ذلك أثر ذلك فيها أثرا ضعيفا و هذا شيء يحتاج إليه في جميع الأحداث التي تعمل في غيرها مما يناسب هذه المعرفة . و أما الأحداث التي تخص ناحية ناحية أو قوما قوما أو جنسا جنسا أو مولودا واحدا من الناس فيحتاج مع معرفتها إلى أن يعلم أيضا أحوال البلاد و العادات و الأغذية و الأوباء و سائر ما يشبه ذلك مما له فيه أثر و شركة مثل ما يفعل الطبيب في المعالجة و في تقدمه المعرفة ثم من بعد تحصيل هذه الأشياء كلها ينبغي أن ينظر في الأمر الذي قد استدل على حدوثه هل هو مما يمكن أن يرد أو يتلافى بما يبطله أو بغيره من جهة

[212]

الطب و الحيل أم لا كأنه مثلا استدل على أنه يصيب هذا الإنسان حرارة يحم منها فينبغي أن يحكم بأنه يحم أن لم يتلاف تلك الحرارة بالتبريد فإنه إذا فعل ذلك أنزل الأمور منازلها و أجراها مجاريها . ثم إن كان الحادث قويا لا يمكن دفعه ببعض ما ذكرنا فليس يلزم الحاجة إلى ما قلنا فإن الأمر يحدث لا محالة و ما قوي و شمل الناس فإنه لا يمكن دفعه و لا فسخه و إن أمكن فإنما يمكن في بعض الناس دون بعض . و أما أكثرهم فإنه يجري أمره على ما قد شمل و عم فقد يعم الناس حر الصيف و إن كان بعضهم يحتال في صرفه بالأشياء التي تبرد و تنفى الحر . فهذه جملة ما ينبغي أن يعلم و يعمل عليه أمور هذه الصناعة . قلت هذا اعتراف بأن جميع الأحداث المتعلقة باختيار الإنسان و غيره من الحيوان لا مدخل لعلم أحكام النجوم فيه فعلى هذا لا يصح قول من يقول منهم لزيد مثلا إنك تتزوج أو تشتري فرسا أو تقتل عدوا أو تسافر إلى بلد و نحو ذلك و هو أكثر ما يقولونه و يحكمون به . و أما الأمور الكلية الحادثة لا بإرادة الحيوان و اختياره فقد يكون لكلامهم فيه وجه من الطريق التي ذكرها و هي تعلق كثير من الأحداث بحركة الشمس و القمر إلا أن المعلوم ضرورة من دين

رسول الله ص إبطال حكم النجوم و تحريم الاعتقاد بها و النهي و الزجر عن تصديق المنجمين و هذا معنى قول أمير المؤمنين في هذا الفصل فمن صدقك بهذا فقد كذب القرآن و استغنى عن الاستعانة بالله ثم أردف

[213]

ذلك و أكده بقوله كان يجب أن يحمد المنجم دون الباري تعالى لأن المنجم هو الذي هدى الإنسان إلى الساعة التي ينجح فيها و صده عن الساعة إلى يخفق و يكدي فيها فهو المحسن إليه إذا و المحسن يستحق الحمد و الشكر و ليس للبارئ سبحانه إلى الإنسان في هذا الإحسان المخصوص فوجب ألا يستحق الحمد على ظفر الإنسان بطلبه لكن القول بذلك و التزامه كفر محض

[214]

79 - و من كلام له ع بعد فراغه من حرب الجمل في ذم النساء

مَعَاشِرَ النَّاسِ إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الإِيمَانِ نَوَاقِصُ الحُظُوظِ نَوَاقِصُ العُقُولِ فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيْمَانِهِنَّ فَمَعْدُودُهُنَّ عَنِ الصَّلَاةِ وَ الصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ وَ أَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ مِنْهُنَّ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ وَ أَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ الرِّجَالِ فَاتَّقُوا شِرَارَ النِّسَاءِ وَ كُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَدَرٍ وَ لَا تُطِيعُوهُنَّ فِي المَعْرُوفِ حَتَّى لَا يَطْمَعَنَّ فِي المُنْكَرِ جَعَلَ عِ نَقْصَانِ الصَّلَاةِ نُقْصَانًا فِي الإِيمَانِ وَ هَذَا هُوَ قَوْلُ أَصْحَابِنَا إِنْ الأَعْمَالُ مِنَ الإِيمَانِ وَ إِنْ المَقْرَبَاتُ بِالتَّوْحِيدِ وَ النُّبُوَّةِ وَ هُوَ تَارِكٌ لِلْعَمَلِ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ . وَ قَوْلُهُ ع وَ لَا تُطِيعُوهُنَّ فِي المَعْرُوفِ لَيْسَ بِنَهْيٍ عَنِ فِعْلِ المَعْرُوفِ وَ إِنَّمَا هُوَ نَهْيٌ عَنِ طَاعَتِهِنَّ أَيْ لَا تَفْعَلُوهُ لِأَجْلِ أَمْرِهِنَّ لَكُمْ بِهِ بَلْ افْعَلُوهُ لِأَنَّهُ مَعْرُوفٌ وَ الكَلَامُ يَنْحُو نَحْوَ المِثْلِ المَشْهُورِ لَا تَعْطِ العَبْدَ كِرَاعًا فَيَأْخُذْ ذِرَاعًا . وَ هَذَا الفَصْلُ كُلُّهُ رَمَزَ إِلَى عَائِشَةَ وَ لَا يَخْتَلِفُ أَصْحَابِنَا فِي أَنَّهَا أَخْطَأَتْ فِيمَا فَعَلَتْ ثُمَّ تَابَتْ وَ مَاتَتْ تَائِبَةً وَ إِنَّمَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ .

[215]

قال كل من صنف في السير و الأخبار أن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان حتى إنها أخرجت ثوبا من ثياب رسول الله ص فنصبته في منزلها و كانت تقول للداخلين إليها هذا ثوب رسول الله ص لم يبيل و عثمان قد أبلى سنته . قالوا أول من سمى عثمان نعتلا عائشة و النعتل الكثير شعر اللحية و الجسد و كانت تقول اقتلوا نعتلا قتل الله نعتلا . و روى المدائني في كتاب الجمل قال لما قتل عثمان كانت عائشة بمكة و بلغ قتله إليها و هي بشراف فلم تشك في أن طلحة هو صاحب الأمر و قالت بعدا لنعتل و سحقا إيه ذا الإصبع إيه أبا شبل إيه يا ابن عم لكأني أنظر إلى إصبعه و هو يبباع له حثوا الإبل و دعدعوها . قال و قد كان طلحة حين قتل عثمان أخذ مفاتيح بيت المال و أخذ نجائب كانت لعثمان في داره ثم فسد أمره فدفعها إلى علي بن أبي طالب ع

أخبار عائشة في خروجها من مكة إلى البصرة بعد مقتل عثمان

و قال أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي في كتابه أن عائشة لما بلغها قتل عثمان و هي بمكة أقبلت مسرعة و هي تقول إيه ذا الإصبع لله أبوك أما إنهم وجدوا طلحة لها كفوا فلما انتهت إلى شراف استقبلها عبيد بن أبي سلمة الليثي فقالت له ما عندك قال قتل عثمان قالت ثم ما ذا قال ثم حارت بهم الأمور إلى خير محار بايعوا عليا فقالت لوددت أن السماء انطبقت على الأرض إن تم هذا ويحك انظر ما تقول قال هو ما قلت لك يا أم المؤمنين فولولت فقال لها ما شأنك يا أم المؤمنين

[216]

و الله ما أعرف بين لابتيها أحدا أولى بها منه و لا أحق و لا أرى له نظيرا في جميع حالاته فلما ذا تكرهين ولايته قال فما ردت عليه جوابا . قال و قد روي من طرق مختلفة أن عائشة لما بلغها قتل عثمان و هي بمكة قالت أبعده الله ذلك بما قدمت يداه و ما الله بظلام للعبيد . قال و قد روى قيس بن أبي حازم أنه حج في العام الذي قتل فيه عثمان و كان مع عائشة لما بلغها قتله فتحمل إلى المدينة قال فسمعها تقول في بعض الطريق إيه ذا الإصبع و إذا ذكرت عثمان قالت أبعده الله حتى أتاه خبر بيعة علي فقالت لوددت أن هذه وقعت على هذه ثم أمرت برد ركائبها إلى مكة فردت معها و رأيتها في سيرها إلى مكة تخاطب نفسها كأنها تخاطب أحدا قتلوا ابن عفان مظلوما فقلت لها يا أم المؤمنين أ لم أسمعك أنفا تقولين أبعده الله و قد رأيتك قبل أشد الناس عليه و أقبحهم فيه قولا فقالت لقد كان ذلك و لكني نظرت في أمره فرأيتهم استتابوه حتى إذا تركوه كالفضة البيضاء أتوه صائما محرما في شهر حرام فقتلوه . قال و روي من طرق أخرى أنها قالت لما بلغها قتله أبعده الله قتله ذنبه و أقاده الله بعمله يا معشر قريش لا يسومنكم قتل عثمان كما سام أحمر ثمود قومه أن أحق الناس بهذا الأمر ذو الإصبع فلما جاءت الأخبار ببيعة علي ع قالت تعسوا تعسوا لا يردون الأمر في تيم أبدا . كتب طلحة و الزبير إلى عائشة و هي بمكة كتابا أن خذلي الناس عن بيعة علي و أظهري الطلب بدم عثمان و حملا الكتاب مع ابن أختها عبد الله بن الزبير فلما قرأت الكتاب كاشفت و أظهرت الطلب بدم عثمان و كانت أم سلمة رضي الله عنها بمكة في ذلك العام فلما رأت صنع عائشة قابلتها بنقيض ذلك و أظهرت موالاته علي ع و نصرته على مقتضى العداوة المركوزة في طباع الصرتين .

[217]

قال أبو مخنف جاءت عائشة إلى أم سلمة تخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان فقالت لها يا بنت أبي أمية أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله ص و أنت كبيرة أمهات المؤمنين و كان رسول الله ص يقسم لنا من بيتك و كان جبريل أكثر ما يكون في منزلك فقالت أم سلمة لأمر ما قلت هذه المقالة فقالت عائشة إن عبد الله أخبرني أن القوم استتابوا عثمان فلما تاب قتلوه صائما في شهر حرام و قد عزمت على الخروج إلى البصرة و معي الزبير و طلحة فاخرجي معنا لعل الله أن يصلح هذا الأمر على أيدينا بنا فقالت أم سلمة إنك كنت بالأمس تحرضين على عثمان و تقولين فيه أخبث القول و ما كان اسمه عندك إلا نعثلا و إنك لتعرفين منزلة علي بن أبي طالب عند رسول الله ص فأذكرك قالت نعم

قالت أ تذكرين يوم أقبل ع و نحن معه حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال خلا بعلي يناجيه فأطال فأردت أن تهجمي عليهما
فنهيتك فعصيتني فهجمت عليهما فما لبثت أن رجعت باكية فقلت ما شأنك فقلت إني هجمت عليهما و هما يتناجيان فقلت
لعلي ليس لي من رسول الله إلا يوم من تسعة أيام أ فما تدعني يا ابن أبي طالب و يومي فأقبل رسول الله ص علي و هو
غضبان محمر الوجه فقال ارجعي و راءك و الله لا يبغضه أحد من أهل بيتي و لا من غيرهم من الناس إلا و هو خارج من
الإيمان فرجعت نادمة ساقطة قالت عائشة نعم أذكر ذلك قالت و أذكرك أيضا كنت أنا و أنت مع رسول الله ص و أنت
تغسلين رأسه و أنا أحيس له حيسا و كان الحيس يعجبه فرفع رأسه و قال يا ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأذنب
تنبحها كلاب الحوآب فتكون ناكبة

[218]

عن الصراط فرفعت يدي من الحيس فقلت أعوذ بالله و برسوله من ذلك ثم ضرب علي ظهره و قال إياك أن تكونيها ثم قال
يا بنت أبي أمية إياك أن تكونيها يا حميراء أما أنا فقد أنذرتك قالت عائشة نعم أذكر هذا قالت و أذكرك أيضا كنت أنا و أنت
مع رسول الله ص في سفر له و كان علي يتعاهد نعلي رسول الله ص فيخصفها و يتعاهد أثوابه فيغسلها فنقبت له نعل
فأخذها يومئذ يخصفها و قعد في ظل سمرة و جاء أبوك و معه عمر فاستأذنا عليه فقمنا إلى الحجاب و دخلا يحادثانه فيما
أراد ثم قال يا رسول الله إنا لا ندري قدر ما تصحبنا فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ليكون لنا بعدك مفزعا فقال لهما أما
إني قد أرى مكانه و لو فعلت لتفرقتم عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران فسكتا ثم خرجا فلما خرجنا إلى
رسول الله ص قلت له و كنت أجزأ عليه منا من كنت يا رسول الله مستخلفا عليهم فقال خاصف النعل فنظرنا فلم نر أحدا إلا
عليا فقلت يا رسول الله ما أرى إلا عليا فقال هو ذاك فقالت عائشة نعم أذكر ذلك فقالت فأي خروج تخرجين بعد هذا فقالت
إنما أخرج للإصلاح بين الناس و أرجو فيه الأجر إن شاء الله فقالت أنت و رأيك فانصرفت عائشة عنها و كتبت أم سلمة
بما قالت و قيل لها إلى علي ع . فإن قلت فهذا نص صريح في إمامة علي ع فما تصنع أنت و أصحابك المعتزلة به قلت كلا
إنه ليس بنص كما ظننت لأنه ص لم يقل قد استخلفته و إنما قال لو قد استخلفت أحدا لاستخلفته و ذلك لا يقتضي حصول
الاستخلاف

[219]

و يجوز أن تكون مصلحة المكلفين متعلقة بالنص عليه لو كان النبي ص مأمورا بأن ينص على إمام بعينه من بعده و أن
يكون من مصلحتهم أن يختاروا لأنفسهم من شاءوا إذا تركهم النبي ص و آراءهم و لم يعين أحدا . و روى هشام بن محمد
الكلبي في كتاب الجمل أن أم سلمة كتبت إلى علي ع من مكة أما بعد فإن طلحة و الزبير و أشياعهم أشياع الضلالة
يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة و معهم عبد الله بن عامر بن كريز و يذكرون أن عثمان قتل مظلوما و أنهم
يطلبون بدمه و الله كافيهم بحوله و قوته و لو لا ما نهانا الله عنه من الخروج و أمرنا به من لزوم البيت لم أدع الخروج
إليك و النصر لك و لكني باعثة نحوك ابني عدل نفسي عمر بن أبي سلمة فاستوص به يا أمير المؤمنين خيرا . قال فلما
قدم عمر على علي ع أكرمه و لم يزل مقيما معه حتى شهد مشاهدته كلها و وجهه أميرا على البحرين و قال لابن عم له
بلغني أن عمر يقول الشعر فابعث إلي من شعره فابعث إليه بأبيات له أولها

جزتك أمير المؤمنين قرابة

رفعت بها ذكري جزاء موفرا

فجذب علي ع من شعره و استحسنة . و من الكلام المشهور الذي قيل إن أم سلمة رحمها الله كتبت به إلى عائشة إنك جنة بين رسول الله ص و بين أمته و إن الحجاب دونك لمضروب على حرمة و قد جمع القرآن ذلك فلا تندحيه و سكن عقيرك فلا تصحريها لو أذكرتك قوله من رسول الله ص تعرفينها لنهشت بها نهش الرقشاء المطرقة ما كنت

[220]

قائلة لرسول الله ص لو لقيك ناصة قلوب قعودك من منهل إلى منهل قد تركت عهيداه و هتكت ستره إن عمود الدين لا يقوم بالنساء و صدعه لا يرأب بهن حماديات النساء خفض الأصوات و خفر الأعراض اجعلي قاعدة البيت قبرك حتى تلقينه و أنت على ذلك . فقالت عائشة ما أعرفني بنصحك و أقبلني لوعظك و ليس الأمر حيث تذهبين ما أنا بعمية عن رأيك فإن أقم ففي غير حرج و إن أخرج ففي إصلاح بين فنتين من المسلمين . و قد ذكر هذا الحديث أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتابه المصنف في غريب الحديث في باب أم سلمة على ما أورده عليك قال لما أرادت عائشة الخروج إلى البصرة أتتها أم سلمة فقالت لها إنك سدة بين محمد رسول الله ص و بين أمته و حجابك مضروب على حرمة قد جمع القرآن ذلك فلا تندحيه و سكن عقيرك فلا تصحريها الله من وراء هذه الأمة لو أراد رسول الله ص أن يعهد إليك عهدا علت بل قد نهاك عن الفرطة في البلاد إن عمود الإسلام لا يثأب بالنساء إن مال و لا يرأب بهن إن صدع حماديات النساء غض الأطراف و خفر الأعراض و قصر الوهازة ما كنت قائلة لو أن رسول الله ص عارضك بعد الفلوات ناصة قلوبا من منهل إلى آخر إن بعين الله مهواك و على رسوله تردين و قد وجهت سدافته و يروى سجافته و تركت عهيداه لو سرت مسيرك هذا ثم قيل لي ادخلي الفردوس لاستحييت أن ألقى محمدا ص هاتكة حجابا و قد ضربه علي اجعلي حصنك بيتك و وقاعة الستر قبرك حتى تلقينه و أنت على تلك أطوع ما تكونين لله

[221]

بالرقبة و أنصر ما تكون للدين ما حلت عنه لو ذكرتك قولا تعرفينه لنهشت به نهش الرقشاء المطرقة . فقالت عائشة ما أقبلني لوعظك و ليس الأمر كما تظنين و لنعم المسير مسير فزعت فيه إلى فنتان متناجرتان أو قالت متناجرتان إن أقعد ففي غير حرج و إن أخرج فإلى ما لا بد لي من الازدياد منه . تفسير غريب هذا الخبر السدة الباب و منه حديث رسول الله ص أنه ذكر أول من يرد عليه الحوض فقال الشعث رعو سا الدنس ثيابا الذين لا تفتح لهم السدد و لا ينعكون المتنعمات و أرادت أم سلمة أنك باب بين النبي ص و بين الناس فمتى أصيب ذلك الباب بشيء فقد دخل على رسول الله ص في حرمة و حوزته و استبيح ما حماه تقول فلا تكوني أنت سبب ذلك بالخروج الذي لا يجب عليك فتحوجي الناس إلى أن يفعلوا ذلك و هذا مثل قول نعمان بن مقرن للمسلمين في غزاة نهاوند ألا و إنكم باب بين المسلمين و المشركين إن كسر ذلك الباب دخل عليهم منه . و قولها قد جمع القرآن ذلك فلا تندحيه أي لا تفتحيه و لا توسعيه بالحركة و الخروج يقال ندحت الشيء إذا وسعته و منه يقال فلان في مندوحة عن كذا أي في سعة تريد قول الله تعالى **وَ قَرْنَ فِي بَيْوتِكُنَّ** و من روى تبدحيه بالباء فإنه من البداح و هو المتسع من الأرض و هو معنى الأول . و سكن عقيرك من عقر

الدار و هو أصلها أهل الحجاز يضمنون العين و أهل نجد يفتحونها و عقير اسم مبني من ذلك على صيغة التصغير و مثله مما جاء مصغرا الثريا و الحميا و هو سورة الشراب قال ابن قتيبة و لم أسمع بعقيرا إلا في هذا الحديث .

[222]

قولها فلا تصحريها أي لا تبرزيها و تجعليها بالصحراء يقال أصحر كما يقال أنجد و أسهل و أحن . و قولها الله من وراء هذه الأمة أي محيط بهم و حافظ لهم و عالم بأحوالهم كقوله تعالى **وَ اللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ** قولها لو أراد رسول الله ص الجواب محذوف أي لفعل و لعهد و هذا كقوله تعالى **وَ لَوْ أَنْ قُرْآنًا سُنِّيتَ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ** أي لكان هذا القرآن . قولها علت علت أي جرت في هذا الخروج و عدلت عن الجواب و العول الميل و الجور قال تعالى **ذَلِكَ أَدْنَى الْأَلَى تَعُولُوا** و من الناس من يرويه علت علت بكسر العين أي ذهبت في البلاد و أبعدت السير يقال عال فلان في البلاد أي ذهب و أبعد و منه قيل للذنب عيال . قولها عن الفرطة في البلاد أي عن السفر و الشخوص من الفرط و هو السبق و التقدم و رجل فارط أتى الماء أي سابق . قولها لا يثأب بالنساء أي لا يرد بهن إن مال إلى استوانه من قولك ثأب فلان إلى كذا أي عاد إليه . قولها و لا يرأب بهن إن صدع أي لا يسد بهن و لا يجمع و الصدع الشق و يروى إن صدع بفتح الصاد و الدال أجروه مجرى قولهم جبرت العظم فجبر . قولها حماديات النساء يقال حماداك أن تفعل كذا مثل قصارك أن تفعل كذا أي جهدك و غايتك .

[223]

و غص الأطراف جمعها و خفر الأعراض الخفر الحياء و الأعراض جمع عرض و هو الجسد يقال فلان طيب العرض أي طيب ريح البدن و من رواه الأعراض بكسر الهمزة جعله مصدرا من أعرض عن كذا . قولها و قصر الوهازة قال ابن قتيبة سألت عن هذا فقال لي من سألته سألت عنه أعرابيا فصيحا فقال الوهازة الخطوة يقال للرجل إنه لمتوهز و متوهر إذا وطئ و طنا ثقيلًا . قولها ناصة قلوفا أي رافعة لها في السير و النص الرفع و منه يقال حديث منصوص أي مرفوع و القلوص من النوق الشابة و هي بمنزلة الفتاة من النساء . و المنهل الماء ترده الإبل . قولها إن بعين الله مهواك أي إن الله يرى سيرك و حركتك و الهوى الانحدار في السير من النجد إلى الغور . قولها و على رسوله تردين أي تقدمين في القيامة . قولها و قد وجهت سدافته السدافة الحجاب و الستر هي من أسدفت الليل إذا ستر بظلمته كأنه أرخى ستورا من الظلام و يروى بفتح السين و كذلك القول في سجافته إنه يروى بكسر السين و فتحها و السدافة و السجافة بمعنى . و وجهت أي نظمتها بالخرز و الوجيئة خرزة معروفة و عادة العرب أن تنظم على المحمل خرزات إذا كان للنساء . قولها و تركت عهيداه لفظة مصغرة مأخوذة من العهد مشابهة لما سلف من قولها عقيراك و حماديات النساء . قولها و قاعة الستر أي موقعه على الأرض إذا أرسلته و هي الموقعة أيضا و موقعة الطائر .

[224]

قولها حتى تلقينه و أنت على تلك أي على تلك الحال فحذف . قولها أطوع ما تكونين لله إذا لزمته أطوع مبتدأ و إذا لزمته خبر المبتدأ و الضمير في لزمته راجع إلى العهد و الأمر الذي أمرت به . قولها لنهشت به نهش الرقشاء المطرقة أي

لعضك و نهشك ما أذكره لك و أذكرك به كما تنهشك أفعى رقصاء و الرقش في ظهرها هو النقط و الجرادة أيضا رقصاء قال
النايعة

فبت كأني ساوررتني ضئيلة
من الرقش في أنيابها السم نافع

و الأفعى يوصف بالإطراق و كذلك الأسد و النمر و الرجل الشجاع و كان معاوية يقول في علي ع الشجاع المطرق و قال
الشاعر و ذكر أفعى

أصم أعمى ما يجيب الرقى
من طول إطراق و إسبات

قولها فنتان متناجرتان أي تسرع كل واحدة منهما إلى نفوس الأخرى و من رواه متناحرتان أراد الحرب و طعن النحور
بالأسنة و رشقها بالسهم . و فزعت إلى فلان في كذا أي لذت به و التجأت إليه . و قولها إن أقعد ففي غير حرج أي في
غير إثم و قولها فإن أخرج فإلى ما لا بد لي من الازدياد منه كلام من يعتقد الفضيلة في الخروج أو يعرف موقع الخطأ و
يصر عليه . لما عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بغيرا أيدا يحمل هودجها فجاءهم يعلى بن أمية ببعيره
المسمى عسكرا و كان عظيم الخلق شديدا فلما رأته أعجبها و أنشأ الجمال يحدثها بقوته و شدته و يقول في أثناء كلامه
عسكرا فلما سمعت هذه اللفظة استرجعت و قالت ردوه لا حاجة لي فيه و ذكرت حيث سنلت أن رسول الله

[225]

ص ذكر لها هذا الاسم و نهاها عن ركوبه و أمرت أن يطلب لها غيره فلم يوجد لها ما يشبهه فغير لها بجلال غير جلاله و
قيل لها قد أصبنا لك أعظم منه خلقا و أشد قوة و أتيت به فرضيت . قال أبو مخنف و أرسلت إلى حفصة تسألها الخروج و
المسير معها فبلغ ذلك عبد الله بن عمر فأتى أخته فعزم عليها فأقامت و حطت الرحال بعد ما همت . كتب الأشر من
المدينة إلى عائشة و هي بمكة أما بعد فإنك طعينة رسول الله ص و قد أمرك أن تقري في بيتك فإن فعلت فهو خير لك فإن
أبيت إلا أن تأخذي منسأتك و تلقي جلبابك و تبدي للناس شعيراتك قاتلتك حتى أرك إلى بيتك و الموضع الذي يرضاه لك
ربك . فكتبت إليه في الجواب أما بعد فإنك أول العرب شب الفتنة و دعا إلى الفرقة و خالف الأئمة و سعى في قتل الخليفة
و قد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم و قد جاءني كتابك و فهمت ما فيه و
سيكفينيك الله و كل من أصبح مماثلا لك في ضلالك و غيك إن شاء الله . و قال أبو مخنف لما انتهت عائشة في مسيرها
إلى الحوآب و هو ماء لبني عامر بن صعصعة نبحتها الكلاب حتى نفرت صعاب إبلها فقال قائل من أصحابها أ لا ترون ما
أكثر كلاب الحوآب و ما أشد نباها فأمسكت زمام بعيرها و قالت و إنها لكلاب الحوآب ردوني ردوني فإني سمعت رسول
الله ص يقول و ذكرت الخبر فقال لها قائل مهلا يرحمك الله فقد جزنا ماء الحوآب فقالت فهل من شاهد فلفقوا لها خمسين
أعرابيا جعلوا لهم جعلاً فلفقوا لها أن هذا ليس بماء الحوآب فسارت لوجهها . لما انتهت عائشة و طلحة و الزبير إلى
حفر أبي موسى قريبا من البصرة أرسل

[226]

عثمان بن حنيف و هو يومئذ عامل علي ع على البصرة إلى القوم أبا الأسود الدولي يعلم له علمهم فجاء حتى دخل على عائشة فسألها عن مسيرها فقالت أطلب بدم عثمان قال إنه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد قالت صدقت و لكنهم مع علي بن أبي طالب بالمدينة و جنت أستنهض أهل البصرة لقتاله أ غضب لكم من سوط عثمان و لا غضب لعثمان من سيوفكم فقال لها ما أنت من السوط و السيف إنما أنت حبيس رسول الله ص أمرك أن تقر في بيتك و تتلي كتاب ربك و ليس على النساء قتال و لا لهن الطلب بالدماء و إن عليا لأولى بعثمان منك و أمس رحما فإنهما ابنا عبد مناف فقالت لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمت له أفتظن يا أبا الأسود أن أحدا يقدم على قتالي قال أما و الله لتقاتلن قتالا أهونه الشديد . ثم قام فأتى الزبير فقال يا أبا عبد الله عهد الناس بك و أنت يوم بويج أبو بكر آخذ بقائم سيفك تقول لا أحد أولى بهذا الأمر من ابن أبي طالب و أين هذا المقام من ذلك فذكر له دم عثمان قال أنت و صاحبك وليتماه فيما بلغنا قال فانطلق إلى طلحة فاسمع ما يقول فذهب إلى طلحة فوجده سادرا في غيه مصرا على الحرب و الفتنة فرجع إلى عثمان بن حنيف فقال إنها الحرب فتأهب لها . لما نزل علي ع بالبصرة كتبت عائشة إلى زيد بن صوحان العبدي من عائشة بنت أبي بكر الصديق زوج النبي ص إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان أما بعد فأقم في بيتك و خذل الناس عن علي و ليبلغني عنك ما أحب فإنك أوثق أهلي عندي و السلام . فكتب إليها من زيد بن صوحان إلى عائشة بنت أبي بكر أما بعد فإن الله أمرك بأمر و أمرنا بأمر أمرك أن تقر في بيتك و أمرنا أن نجاهد و قد أتاني كتابك

[227]

فأمرتني أن أصنع خلاف ما أمرني الله فأكون قد صنعت ما أمرك الله به و صنعت ما أمرني الله به فأمرك عندي غير مطاع و كتابك غير مجاب و السلام . روى هذين الكتابين شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر عن شيخنا أبي سعيد الحسن البصري . و ركبت عائشة يوم الحرب الجمل المسمى عسكرا في هودج قد ألبس الرفرف ثم ألبس جلود النمر ثم ألبس فوق ذلك دروع الحديد . الشعبي عن مسلم بن أبي بكر عن أبيه أبي بكر قال لما قدم طلحة و الزبير البصرة تقلدت سيفي و أنا أريد نصرهما فدخلت على عائشة و إذا هي تأمر و تنهى و إذا الأمر أمرها فذكرت حديثا كنت سمعته عن رسول الله ص لن يفلح قوم تدبر أمرهم امرأة فانصرفت و اعتزلتهم .

و قد روي هذا الخبر على صورة أخرى أن قوما يخرجون بعدي في فنة رأسها امرأة لا يفلحون أبدا . كان الجمل لواء عسكر البصرة لم يكن لواء غيره . خطبت عائشة و الناس قد أخذوا مصافهم للحرب فقالت أما بعد فإننا كنا نقمنا على عثمان ضرب السوط و إمرة الفتیان و مرتع السحابة المحمية ألا و إنكم استعنتبتموه فأعتبكم فلما مصتموه كما يماص الثوب الرحيض عدوتم عليه فارتكبت منه دما حراما و ايم الله إن كان لأحصنكم فرجا و أتقاكم الله .

[228]

خطب علي ع لما توافق الجمعان فقال لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤكم فإنكم بحمد الله على حجة و كفكم عنهم حتى يبدؤكم حجة أخرى و إذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح و إذا هزمتهم فلا تتبعوا مدبرا و لا تكشفوا عورة و لا تمثلوا بقتيل و إذا وصلتكم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا و لا تدخلوا دارا و لا تأخذوا من أموالهم شيئا و لا تهيجوا امرأة بأذى و إن شتمن أعراضكم و سببن أمراءكم و صلحاءكم فإنهن ضعاف القوى و الأنفس و العقول لقد كنا نؤمر بالكف عنهن و إنهن

لمشركات و إن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة و الجريدة فيعير بها و عقبه من بعده . قتل بنو ضبة حول الجمل فلم يبق فيهم إلا من لا نفع عنده و أخذت الأزد بخطامه فقالت عائشة من أنتم قالوا الأزد قالت صبرا فإنما يصبر الأحرار ما زلت أرى النصر مع بني ضبة فلما فقدتهم أنكرته فحرضت الأزد بذلك فقاتلوا قتالا شديدا و رمى الجمل بالنبل حتى صارت القبة عليه كهينة القنفذ .

قال علي ع لما فني الناس على خطام الجمل و قطعت الأيدي و سالت النفوس ادعوا لي الأشر و عمارا فجاء فقال اذهب فاعقرا هذا الجمل فإن الحرب لا يبوخ ضرامها ما دام حيا إنهم قد اتخذوه قبلة فذهبوا و معها فتیان من مراد يعرف أحدهما بعمر بن عبد الله فما زالوا يضربان الناس حتى خلصا إليه فضربه المرادي على عرقوبيه فأقعى و له رغاء ثم وقع لجنبه و فر الناس من حوله فنادى علي ع اقطعوا

[229]

أنساع اليهودج ثم قال لمحمد بن أبي بكر اكفني أحتك فحملها محمد حتى أنزلها دار عبد الله بن خلف الخزاعي . بعث علي عبد الله بن عباس إلى عائشة يأمرها بالرحيل إلى المدينة قال فأتيتها فدخلت عليها فلم يوضع لي شيء أجلس عليه فتناولت وسادة كانت في رحلها فقعدت عليها فقالت يا ابن عباس أخطأت السنة قعدت على و سادتنا في بيتنا بغير إذننا فقلت ليس هذا بيتك الذي أمرك الله أن تقري فيه و لو كان بيتك ما قعدت على و سادتك إلا بإذنك ثم قلت إن أمير المؤمنين أرسلني إليك يأمرك بالرحيل إلى المدينة فقالت و أين أمير المؤمنين ذاك عمر فقلت عمر و علي قالت أبيت قلت أما و الله ما كان أبوك إلا قصير المدة عظيم المشقة قليل المنفعة ظاهر الشوم بين النكد و ما عسى أن يكون أبوك و الله ما كان أمرك إلا كحلب شاة حتى صرت لا تأمرين و لا تنهين و لا تأخذين و لا تعطين و ما كنت إلا كما قال أخو بني أسد

ما زال إهداء الصغانر بيننا

نث الحديث و كثرة الألقاب

حتى نزلت كأن صوتك بينهم

في كل نائبة طنين ذباب

قال فبكت حتى سمع نحيبها من وراء الحجاب ثم قالت إني معجزة الرحيل إلى بلادي إن شاء الله تعالى و الله ما من بلد أبغض إلي من بلد أنتم فيه قلت و لم ذاك فو الله لقد جعلناك للمؤمنين أما و جعلنا أباك صديقا قالت يا ابن عباس أتمن علي برسول الله قلت ما لي لا أمن عليك بمن لو كان منك لمننت به علي . ثم أتيت عليا فأخبرته بقولها و قولي فسر بذلك و قال لي نرية بعضها من بعض و الله سميع عليم و في رواية أنا كنت أعلم بك حيث بعثتك

[230]

80 - و من كلام له ع

أَيُّهَا النَّاسُ الزَّهَادَةُ قِصْرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ [عِن] النَّعْمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلَا يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ وَلَا تَنْسُوا عِنْدَ النَّعْمِ شُكْرَكُمْ فَقَدْ أَعَذَرَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ وَكُتِبَ بَارِزَةً الْعُذْرُ وَأَصْحَابَةُ فَسَّرَ لَفْظَ الزَّهَادَةِ وَهِيَ الزَّهْدُ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ وَهِيَ قِصْرُ الْأَمَلِ وَشُكْرُ النَّعْمَةِ وَالْوَرَعُ عَنِ الْمَحَارِمِ فَقَالَ لَا يُسَمَّى الزَّاهِدَ زَاهِدًا حَتَّى يَسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ ثُمَّ قَالَ فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ أَيُّ بَعْدَ فَأَمْرَانِ مِنَ الثَّلَاثَةِ لَا يَدُ مِنْهُمَا وَهُمَا الْوَرَعُ وَشُكْرُ النَّعْمِ جَعَلَهُمَا أَكْدَ وَأَهَمَّ مِنْ قِصْرِ الْأَمَلِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الزَّهْدَ فِي الْعَرَفِ الْمَشْهُورِ هُوَ الْإِعْرَاضُ عَنِ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَطِيبَاتِهَا لَكِنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ طَرِيقًا مَوْطِنَةً إِلَى ذَلِكَ أُطْلِقَ لَفْظُ الزَّهْدِ عَلَيْهَا عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ . وَقَوْلُهُ فَقَدْ أَعَذَرَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ أَيُّ بَالِغٌ يُقَالُ أَعَذَرَ فُلَانٌ فِي الْأَمْرِ أَيُّ بَالِغٌ فِيهِ وَيُقَالُ ضَرَبَ فُلَانٌ فَاَعَذَرَ أَيُّ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ وَأَصْلُ اللَّفْظَةِ مِنَ الْعُذْرِ يَرِيدُ أَنَّهُ

[231]

قد أوضح لكم بالحجج النيرة المشرقة ما يجب اجتنابه و ما يجب فعله فإن خالفتم استوجبتم العقوبة فكان له في تعذيبكم العذر

الآثار و الأخبار الواردة في الزهد

و الآثار الواردة في الزهد كثيرة

قال رسول الله ص أفلح الزاهد في الدنيا حظي بعز العاجلة و بثواب الآخرة

و قال ص من أصبحت الدنيا همه و سدمه نزع الله الغنى من قلبه و صير الفقر بين عينيه و لم يأت من الدنيا إلا ما كتب له
و من أصبحت الآخرة همه و سدمه نزع الله الفقر عن قلبه و صير الغنى بين عينيه و أتته الدنيا و هي راغمة

و قال ع للضحك بن سفيان ما طعامك قال اللحم و اللبن قال ثم يصير إلى ما ذا قال إلى ما علمت قال فإن الله ضرب ما
يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا . و كان الفضيل بن عياض يقول لأصحابه إذا فرغ من حديثه انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيجيء
بهم إلى المزبلة فيقول انظروا إلى عنبهم و سمنهم و دجاجهم و بطهم صار إلى ما ترون .

و من الكلام المنسوب إلى المسيح ع الدنيا قنطرة فاعبروها و لا تعمروها

سئل رسول الله ص عن قوله سبحانه **فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ**

[232]

يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فقال إذا دخل النور القلب انفسح فذلك شرح الصدر فقل أ فذلك علامة يعرف بها قال نعم الإنابة إلى
دار الخلود و التجافي عن دار الغرور و الاستعداد للموت قبل نزوله

قالوا أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء اتخذ الدنيا ظنرا و اتخذ الآخرة أما . الشعبي ما أعلم لنا و للدنيا مثلا إلا قول كثير

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة

لدينا و لا مقلية إن تقلت

بعض الصالحين المستغني عن الدنيا بالدنيا كالمطفئ النار بالتبن . و في بعض الكتب القديمة الإلهية قال الله للدنيا من
خدمني فأخدميه و من خدمك فاستخدميه . دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم و عليه مدرعة من صوف فقال ما هذه
فسكت فأعاد عليه السؤال فقال أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي أو فقرا فأشكو ربي . قيل في صفة الدنيا و الآخرة هما
كضرتين إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى . قيل لمحمد بن واسع إنك لترضى بالدون قال إنما رضي بالدون من رضي
بالدنيا . خطب أعرابي كان عاملا لجعفر بن سليمان على ضرية يوم جمعة خطبة لم يسمع أوجز منها و لا أفصح فقال إن
الدنيا دار بلاغ و إن الآخرة دار قرار فخذوا من ممركم لمستقركم و لا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم و
أخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ففيها جنتم و لغيرها خلقتم إن المرء إذا هلك قال الناس ما ترك و قالت
الملائكة ما قدم فله آثاركم قدموا بعضا يكن لكم

[233]

و لا تؤخروا كلا فيكون عليكم أقول قولي هذا و أستغفر الله و المدعو له الخليفة ثم الأمير جعفر و نزل . أبو حازم الأعرج الدنيا كلها غموم فما كان فيها سرورا فهو ربح . محمد بن الحنفية من عزت عليه نفسه هانت عليه الدنيا .

قيل لعلي بن الحسين ع من أعظم الناس خطرا قال من لم ير الدنيا لنفسه خطرا

قال المسيح ع لأصحابه حب الدنيا رأس كل خطيئة و اقتناء المال فيها داء عظيم قالوا له كيف ذلك قال لا يسلم صاحبه من البغي و الكبر قيل فإن سلم منهما قال يشغله إصلاحه عن ذكر الله أشرف أبو الدرداء على أهل دمشق فقال يا أهل دمشق تبنون ما لا تسكنون و تجمعون ما لا تأكلون و تأملون ما لا تدركون أين من كان قبلكم بنوا شديدا و أملوا بعيدا و جمعوا كثيرا فأصبحت مساكنهم قبورا و جمعهم بورا و أملهم غرورا . قال المأمون لو سنلت الدنيا عن نفسها لم تسطع أن تصف نفسها بأحسن من قول الشاعر

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

له عن عدو في ثياب صديق

و قال رجل يا رسول الله كيف لي أن أعلم أمري قال إذا أردت شيئا من أمور الدنيا فعسر عليك فاعلم أنك بخير و إذا أردت شيئا من أمر الدنيا فيسر لك فاعلم أنه شر لك قال رجل ليونس بن عبيد إن فلانا يعمل بعمل الحسن البصري فقال و الله ما أعرف أحدا يقول بقوله فكيف يعمل بعمله قيل فصفه لنا قال كان إذا أقبل

[234]

فكأنه أقبل من دفن حبيب و إذا جلس فكأنه أسير أجلس لضرب عنقه و إذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له . و قال بعض الصالحين لرجل يا فلان هل أنت على حال أنت فيها مستعد للموت قال لا قال فهل أنت عالم بأنك تنتقل إلى حال ترضى به قال لا قال أ فتعلم بعد الموت دارا فيها مستعيب قال لا قال أ فتأمن الموت أن يأتيك صباحا أو مساء قال لا قال أ فيرضى بهذه الحال عاقل و قال أبو الدرداء أضحكنتي ثلاث و أبكتني ثلاث أضحكني مؤمل الدنيا و الموت يطلبه و غافل و ليس بمغفول عنه و ضاحك ملء فيه لا يدري أ راض عنه الله أم ساخط و أبكاني فراق محمد و حزبه و أبكاني هول الموت و أبكاني هول الموقف يوم تبدو السرائر حين لا أدري أ يؤخذ بي إلى جنة أم إلى نار . و كان عبد الله بن صغير يقول أ تضحك و لعل أكفانك قد خرجت من عند القصار و كان يقال من أتى الذئب ضاحكا دخل النار باكيا . و كان مالك بن دينار يقول وددت أن رزقي في حصة أمصها حتى أبول فلقد اختلفت إلى الخلاء حتى استحيت من ربي .

و قال رسول الله ص لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما ليس به بأس حذرا عما به البأس

و قال المسيح ع بحق أقول لكم إن من طلب الفردوس فخبز الشعير و النوم على المزابل مع الكلاب له كثير . و أوصى ابن محرز رجلا فقال إن استطعت أن تعرف و لا تعرف و تسأل و لا تسأل و تمشي و لا يمشى إليك فافعل .

[235]

و قال علي ع طوبى لمن عرف الناس و لم يعرفوه تعجلت له منيته و قل ترائته و فقد باكياته . و كان يقال في الجوع ثلاث خصال حياة للقلب و مذلة للنفس و يورث العقل الدقيق من المعاني . و قال رجل لإبراهيم بن أدهم أريد أن تقبل مني درهم قال إن كنت غنيا قبلتها منك و إن كنت فقيرا لم أقبلها قال فإني غني قال كم تملك قال ألفي درهم قال أ فيسرك أن تكون أربعة آلاف قال نعم قال لست بغني و دراهمك لا أقبلها . و كان أبو حازم الأعرج إذا نظر إلى الفاكهة في السوق قال موعذك الجنة إن شاء الله تعالى . و مر أبو حازم بالقصابين فقال له رجل منهم يا أبا حازم هذا سمين فاشتر منه قال ليس عندي درهم قال أنا أنظرك قال فافكر ساعة ثم قال أنا أنظر نفسي . نزل الحجاج في يوم حار على بعض المياه و دعا بالغداء و قال لحاجبه انظر من يتغذى معي و اجهد ألا يكون من أهل الدنيا فرأى الحاجب أعرابيا نانما عليه شملة من شعر فضربه برجله و قال أجب الأمير فأتاه فدعاه الحجاج إلى الأكل فقال دعاني من هو خير من الأمير فأجبتة قال من هو قال الله دعاني إلى الصوم فصمت قال أ في هذا اليوم الحار قال نار جهنم أشد حرا قال أظروا و تصوم غدا قال إن ضمنت لي البقاء إلى غد قال ليس ذلك إلي قال فكيف أذع عاجلا لأجل لا تقدر عليه قال إنه طعام طيب قال إنك لم تطيبه و لا الخبز و لكن العافية طيبته لك . و قال شبيب كنا سنة في طريق مكة فجاء أعرابي في يوم صائف شديد الحر

[236]

و معه جارية سوداء و صحيفة فقال أ فيكم كاتب قلنا نعم و حضر غداونا فقلنا له لو دخلت فأصبت من طعامنا قال إني صانم قلنا الحر و شدته و جفاء البادية فقال إن الدنيا كانت و لم أكن فيها و ستكون و لا أكون فيها و ما أحب أن أعين أمامي ثم نبذ إلينا الصحيفة فقال للكاتب اكتب و لا تزد على ما أملكه عليك هذا ما أعتق عبد الله بن عقيل الكلبى أعتق جارية له سوداء اسمها لؤلؤة ابتغاء وجه الله و جواز العقبة و إنه لا سبيل له عليها إلا سبيل الولاء و المنة لله علينا و عليها واحدة . قال الأصمعي فحدث بذلك الرشيد فأمر أن يعتق عنه ألف نسمة و يكتب لهم هذا الكتاب . و قال خالد بن صفوان بت ليلتي هذه أتمنى فكبست البحر الأخضر بالذهب الأحمر فإذا الذي يلقاني من ذلك رغيغان و كوزان و طمران . و رأى رجل رجلا من ولد معاوية يعمل على بغير له فقال هذا بعد ما كنتم فيه من الدنيا قال رحمك الله يا ابن أخي ما فقدنا إلا الفضول . و قال الحسن يا ابن آدم إنما أنت أيام مجموعة كلما ذهب يوم ذهب بعضك . قال يونس الكاتب لو قيل بيت دريد في زاهد كان به جديرا

قليل التشكي للمصيبات ذاك

من اليوم أعقاب الأحاديث في غد

و قال الحسن ما أظال عبد الأمل إلا أساء العمل . و قال رجل للفضيل بن عياض ما أعجب الأشياء قال قلب عرف الله ثم عصاه . قال وكيع ما أحسنت قط إلى أحد و لا أسأت إليه قيل كيف قال لأن الله تعالى قال **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ** **أَسَأْتُمْ فَلَهَا**

[237]

و قال الحسن لرجل إن استطعت ألا تسيء إلى أحد ممن تحبه فافعل قال الرجل يا أبا سعيد أ و يسيء المرء إلى من يحبه قال نعم نفسك أحب النفوس إليك فإذا عصيت الله فقد أسأت إليها . و كان مالك بن دينار إذا منع نفسه شيئا من الشهوات

قال اصبري فو الله ما منعك إلا لكرامتك علي .

قام رسول الله ص الليل حتى تورمت قدماه فقيل له يا رسول الله أ تفعل هذا و قد غفر الله ما تقدم من ذنبك و ما تأخر قال أ فلا أكون عبدا شكورا . و قال عبد الله بن مسعود لا يكونن أحدكم جيفة ليله قطرب نهاره . و كان يقال من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار . و كان مالك بن دينار يقول في قصصه ما أشد فطام الكبر و ينشد

أ تروض عرسك بعد ما هرمت
و من العناء رياضة الهرم

و قال آخر

إن كنت تؤمن بالقيامة
و اجتراءت على الخطيئة
فلقد هلكت و إن
جحدت فذاك أعظم للبلية

81 - و من كلام له ع في صفة الدنيا

مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوْلَاهَا عَنَاءٌ وَ آخِرُهَا فَنَاءٌ فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ وَ فِي حَرَامِهَا عِقَابٌ مَنِ اسْتَعْنَى فِيهَا فُتِنَ وَ مَنِ انْفَقَرَ فِيهَا حَزِنَ وَ مَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ وَ مَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ وَ مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَرَتْهُ وَ مَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ قَالَ الرضی رحمہ اللہ أقول و إذا تأمل المتأمل قوله ع و من أبصر بها بصرتہ وجد تحته من المعنى العجيب و الغرض البعيد ما لا يبلغ غايته و لا يدرك غوره لا سيما إذا قرن إليه قوله و من أبصر إليها أعمته فإنه يجد الفرق بين أبصر بها و أبصر إليها واضحا نيرا و عجيبا باهرا العناء التعب و ساعاها جاراها سعيها و واتته طاوعته . و نظر الرضی إلى قوله أولها عناء و آخرها فناء فقال

و أولنا العناء إذا طلنا

إلى الدنيا و آخرنا الذهاب

[239]

و نظر إلى قوله ع في حلالها حساب و في حرامها عقاب بعض الشعراء فقال

الدهر يومان فيوم مضى

عنك بما فيه و يوم جديد

حلال يوميك حساب و في

حرام يوميك عذاب شديد

تجمع ما يأكله وارث

و أنت في القبر وحيد فريد

إني لغيري واعظ تارك

نفسي و قولي من فعالي بعيد

حلاوة الدنيا و لذاتها

تكلف العاقل ما لا يريد

و من المعنى أيضا قول بعضهم

حلالها حسرة تفضي إلى ندم

و في المحارم منها الغنم منزور

و نظر الحسن البصري إلى قوله ع من استغنى فيها فتن و من افتقر فيها حزن فقال و قد جاءه إنسان يبشره بمولود له ذكر ليهنك الفارس يا أبا سعيد فقال بل الراجل ثم قال لا مرحبا بمن إن كان غنيا فتنني و إن كان فقيرا أحزنني و إن عاش كدني و إن مات هدني ثم لا أرضى بسعيي له سعيها و لا بكدحي له كدحها حتى أهتم بما يصيبه بعد موتي و أنا في حال لا

ينالني بمساءته حزن و لا بسروره جذل . و نظر ابن المعتز إلى قوله ع من ساعاها فاتته و من قعد عنها واتته فقال الدنيا
كذلك كلما طلبته زاد منك بعدا . و نظرت إلى قوله ع و من أبصر بها بصرتة و من أبصر إليها أعمته فقلت

دنياك مثل الشمس تدني إليك

الضوء لكن دعوة المهلك

إن أنت أبصرت إلى نورها

تعش و إن تبصر به تدرك

[240]

فإن قلت المسموع أبصرت زيدا و لم يسمع أبصرت إلى زيد قلت يجوز أن يكون قوله ع و من أبصر إليها أي و من أبصر
متوجها إليها كقوله **فِي تَسْنَعِ آيَاتِ إِلَى فِرْعَوْنَ** و لم يقل مرسلا و يجوز أن يكون أقام ذلك مقام قوله نظر إليها لما كان مثله
كما قالوا في دخلت البيت و دخلت إلى البيت أجروه مجرى ولجت إلى البيت لما كان نظيره

[241]

82 - و من خطبة له ع و تسمى بالغراء

و هي من الخطب العجيبة : أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ وَ دَنَا بِطَوْلِهِ مَاتِحَ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَ فَضْلٍ وَ كَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَ أَزَلِّ أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ وَ سَوَابِغِ نِعَمِهِ وَ أُوْمِنُ بِهِ أَوْلَا بَادِيًا وَ أَسْتَهْدِيهِ قَرِيبًا هَادِيًا وَ أَسْتَعِينُهُ قَاهِرًا قَادِرًا وَ أَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِيًا نَاصِرًا وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ أَرْسَلَهُ لِإِنْفَادِ أَمْرِهِ وَ إِنْهَاءِ عُدْرِهِ وَ تَقْدِيمِ نُذْرِهِ الْحَوْلِ الْقُوَّةِ وَ الطُّولِ الْإِفْضَالِ وَ الْمَاتِحِ الْمَعْطِيِّ وَ الْأَزَلِّ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ الضَّيْقِ وَ الْحَبْسِ وَ الْعَوَاطِفِ جَمْعَ عَاطِفَةٍ وَ هِيَ مَا يُعْطِفُكَ عَلَى الْغَيْرِ وَ يَدْنِيهِ مِنْ مَعْرُوفِكَ وَ السَّوَابِغِ النَّوَامِ الْكُوَامِلِ سَبْعَ الظِّلِّ إِذَا عَمَّ وَ شَمَلَّ . وَ أَوْلَا هَاهُنَا مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ كَأَنَّهُ قَالَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ الْأَوَّلُ نَقِيضُ الْآخِرِ أَصْلُهُ أَوْعَلَ عَلَى أَفْعَلَ مَهْمُوزِ الْوَسْطِ قَلْبَتِ الْهَمْزَةِ وَ أَوَا وَ أَدْعَمَ يَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُمْ هَذَا أَوَّلُ مَنْكَ وَ الْإِتْيَانُ بِحَرْفِ الْجَرِّ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَفْعَلَ كَقَوْلِهِمْ هَذَا أَفْضَلُ مَنْكَ وَ جَمَعَهُ عَلَى أَوَائِلٍ وَ أَوَالٍ أَيْضًا عَلَى الْقَلْبِ وَ قَالَ قَوْمٌ أَصْلُهُ وَوَلَّ عَلَى فَوَعَلَ قَلْبَتِ الْوَاوِ الْأَوَّلَى هَمْزَةٌ وَ إِنَّمَا لَمْ يَجْمَعْ عَلَى وَوَالٍ لِاسْتِقَالِهِمْ اجْتِمَاعِ الْوَاوِيِّينَ وَ بَيْنَهُمَا أَلْفُ الْجَمْعِ .

[242]

وَ إِذَا جَعَلْتَ الْأَوَّلَ صِفَةً لَمْ تَصْرَفْهُ تَقُولُ لِقَيْتِهِ عَامَا أَوَّلٌ لِاجْتِمَاعِ وَزَنِ الْفِعْلِ وَ تَقُولُ مَا رَأَيْتَهُ مَذْ عَامٌ أَوَّلٌ كِلَاهِمَا بِغَيْرِ تَنْوِينٍ فَمَنْ رَفَعَ جَعَلَهُ صِفَةً لِعَامٍ كَأَنَّهُ قَالَ أَوَّلٌ مِنْ عَامِنَا وَ مِنْ نَصَبٍ جَعَلَهُ كَالظَّرْفِ كَأَنَّهُ قَالَ مَذْ عَامٌ قَبْلَ عَامِنَا فَإِنْ قَلْتَ اِبْدَأْ بِهَذَا أَوَّلٌ ضَمَّمْتَهُ عَلَى الْغَايَةِ . وَ الْإِنْهَاءُ الْإِبْلَاجُ أَنْهَيْتَ إِلَيْهِ الْخَبَرَ فَانْتَهَى أَي بَلَغَ وَ الْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْذَرَ إِلَى خَلْقِهِ وَ أَنْذَرَهُمْ فَاِذْأَرَهُ إِلَيْهِمْ أَنَّ عَرَفَهُمْ بِالْحَجَجِ الْعَقْلِيَّةِ وَ السَّمْعِيَّةِ أَنَّهُمْ إِنْ عَصَوْهُ اسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ فَأَوْضَحَ عَذْرَهُ لَهُمْ فِي عَقُوبَتِهِ إِيَاهُمْ عَلَى عَصِيَانِهِ وَ إِنْذَارِهِ لَهُمْ تَخْوِيفَهُ إِيَاهُمْ مِنْ عِقَابِهِ وَ قَدْ نَظَرَ الْبَحْثَرِيُّ إِلَى مَعْنَى قَوْلِهِ عَ عَلَا بِحَوْلِهِ وَ دَنَا بِطَوْلِهِ فَقَالَ

دنوت تواضعا و علوت قدرا

فشأنك انخفاض و ارتفاع

كذاك الشمس تبعد أن تسامى

و يدنو النور منها و الشعاع

وَ فِي هَذَا الْفَصْلِ ضُرُوبٌ مِنَ الْبَدِيعِ فَمِنْهَا أَنَّ دَنَا فِي مَقَابَلَةِ عَلَا لَفْظًا وَ مَعْنَى وَ كَذَلِكَ حَوْلَهُ وَ طَوْلُهُ . فَإِنْ قَلْتَ لَا رَيْبَ فِي تَقَابُلِ دَنَا وَ عَلَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى وَ اللَّفْظُ وَ أَمَا حَوْلَهُ وَ طَوْلُهُ فَإِنَّهُمَا يَتَنَاسَبَانِ لَفْظًا وَ لَيْسَا مُتَقَابِلَيْنِ مَعْنَى لِأَنَّهُمَا لَيْسَا ضِدَيْنِ كَمَا فِي الْعُلُوِّ وَ الدُّنُوِّ . قَلْتَ بَلْ فِيهِمَا مَعْنَى التَّضَادِّ لِأَنَّ الْحَوْلَ هُوَ الْقُوَّةُ وَ هِيَ مَشْعُرَةٌ بِالسُّطُوَّةِ وَ الْقَهْرِ وَ مِنْهُ مَنْشَأُ الْإِنْتِقَامِ وَ الطُّولِ الْإِفْضَالِ وَ التَّكْرَمِ وَ هُوَ نَقِيضُ الْإِنْتِقَامِ وَ الْبِطْشِ . فَإِنْ قَلْتَ أَنْتَ وَ أَصْحَابُكَ لَا تَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ بِقُدْرَةٍ وَ هُوَ عِنْدَكُمْ قَادِرٌ

[243]

لذاته فكيف تتأولون قوله ع الذي علا بحوله أليس في هذا إثبات قدرة له زائدة على ذاته و هذا يخالف مذهبكم . قلت إن أصحابنا لا يمتنعون من إطلاق قولهم إن الله قوة و قدرة و حولا و حاش لله أن يذهب ذاهب منهم إلى منع ذلك و لكنهم يطلقونه و يعنون به حقيقته العرفية و هي كون الله تعالى قويا قادرا كما نقول نحن و المخالف إن لله وجودا و بقاء و قدما

و لا نعني بذلك أن وجوده أو بقاءه أو قدمه معان زائدة على نفسه لكننا نعني كلنا بإطلاق هذه الألفاظ عليه كونه موجودا أو باقيا أو قديما و هذا هو العرف المستعمل في قول الناس لا قوة لي على ذلك و لا قدرة لي على فلان لا يعنون نفي المعنى بل يعنون كون الإنسان قادرا قويا على ذلك . و منها أن مانحا في وزن كاشف و غنيمة بإزاء عظيمة في اللفظ و ضدها في المعنى و كذلك فضل و أزل . و منها أن عواطف بإزاء سوابغ و نعمه بإزاء كرمه . و منها و هو أطف ما يستعمله أرباب هذا الصناعة أنه جعل قريبا هاديا مع قوله أستهديه لأن الدليل القريب منك أجدر بأن يهديك من البعيد النازح و لم يجعله مع قوله و أستعينه و جعل مع الاستعانة قاهرا قادرا لأن القادر القاهر يليق أن يستعان و يستنجد به و لم يجعله قادرا قاهرا مع التوكل عليه و جعل مع التوكل كافيا ناصرا لأن الكافي الناصر أهل لأن يتوكل عليه . و هذه اللطائف و الدقائق من معجزاته ع التي فات بها البلغاء و أخرس الفصحاء

[244]

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي ضَرَبَ لَكُمْ الْأَمْثَالَ وَ وَقَّتْ لَكُمْ الْأَجَالَ وَ أَلْبَسَكُمْ الرِّيَاشَ وَ أَرْفَعَ لَكُمْ الْمَعَاشَ وَ أَحَاطَ | أَحَاطَكُمْ | بِكُمْ الْإِحْصَاءَ وَ أَرَصَدَ لَكُمْ الْجَزَاءَ وَ أَثْرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِغِ وَ الرَّفْدَ الرَّوَافِعِ وَ أَنْدَرَكُم بِالْحُجَجِ الْبُيُوتِغِ فَأَحْصَاكُمْ عَدَدًا وَ وَظَّفَ لَكُمْ مُدَدًا فِي قَرَارِ خَيْرَةٍ وَ دَارِ عِبْرَةٍ أَنْتُمْ مُخْتَبِرُونَ فِيهَا وَ مُحَاسِبُونَ عَلَيْهَا وَقْت وَ أَقْت بِمَعْنَى أَي جَعَلَ الْأَجَالَ لَوَقْتٍ مَقْدَرٍ . وَ الرِّيَاشُ وَ الرِّيشُ وَاحِدٌ وَ هُوَ اللَّبَاسُ قَالَ تَعَالَى **يُؤَارِي سَوَآتِكُمْ وَ رِيَشًا** . وَ قَرِيٌّ وَ رِيَاشًا وَ يُقَالُ الرِّيَاشُ الْخِصْبُ وَ الْغِنَى وَ مِنْهُ ارْتِاشُ فُلَانٍ حَسُنْتَ حَالَهُ وَ يَكُونُ لَفْظُ أَلْبَسَكُمْ مَجَازًا إِنْ فَسَّرَ بِذَلِكَ . وَ أَرْفَعُ لَكُمْ الْمَعَاشَ أَي جَعَلَهُ رَفِيعًا أَي وَاسِعًا مَخْصَبًا يُقَالُ رَفَعَ بِالضَّمِّ عَيْشَهُ رِفَاعَةً اتَّسَعَ فَهُوَ رَافِعٌ وَ رَفِيعٌ وَ تَرَفَعَ الرَّجُلُ وَ هُوَ فِي رِفَاعِيَّةٍ مِنَ الْعَيْشِ مَخْفَفًا مِثْلَ رِفَاهِيَّةٍ وَ ثَمَانِيَّةٍ . وَ قَوْلُهُ وَ أَحَاطَ بِكُمْ الْإِحْصَاءَ يُمْكِنُ أَنْ يَنْصَبَ الْإِحْصَاءَ عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ فِيهِ اللَّامُ وَ الْعَامِلُ فِيهِ غَيْرُ لَفْظِهِ كَقَوْلِهِ يَعْجِبُهُ السَّخُونُ ثُمَّ قَالَ حَبَا وَ لَيْسَ

[245]

دخول اللام بمانع من ذلك تقول ضربته الضربة كما تقول ضربته ضربا و يجوز أن ينصب بأنه مفعول به و يكون ذلك على وجهين . أحدهما أن يكون من حاط ثلاثيا تقول حاط فلان كرمه أي جعل عليه حانطا فكأنه جعل الإحصاء و العد كالحانط المدار عليهم لأنهم لا يبعدون منه و لا يخرجون عنه . و الثاني أن يكون من حاط الحمار عانتة يحوطها بالواو أي جمعها فأدخل الهمزة كأنه جعل الإحصاء يحوطهم و يجمعهم تقول ضربت زيدا و أضربته أي جعلته ذا ضرب فلذلك كأنه جعل ع الإحصاء ذا تحويط عليهم بالاعتبار الأول أو جعله ذا جمع لهم بالاعتبار الثاني . و يمكن فيه وجه آخر و هو أن يكون الإحصاء مفعولا له و يكون في الكلام محذوف تقديره و أحاط بكم حفظته و ملانكته للإحصاء و دخول اللام في المفعول له كثير كقوله

و الهول من تهول الهبور

قوله و أَرَصِدُ يَعْنِي أَعِدُ وَ فِي الْحَدِيثِ إِلَّا أَنْ أَرَصِدَهُ لَدَيْنَ عَلِيٍّ . وَ أَثْرَكُمْ مِنَ الْإِيثَارِ وَ أَصْلُهُ أَنْ تَقْدِمَ غَيْرَكَ عَلَى نَفْسِكَ فِي مَنَفَعَةٍ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَى الْإِحْتِصَاصِ بِهَا وَ هُوَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَجَازٌ مُسْتَحْسَنٌ . وَ الرَّفْدُ جَمْعُ رَفْدَةٍ مِثْلُ كَسْرَةٍ وَ كَسْرٌ وَ فِدْرَةٌ

و فرد و الرفدة و الرغد واحد و هي العظية و الصلة و رفدت فلانا رفدا بالفتح و المضارع أرفده بكسر الفاء و يجوز أرفدته بالهمزة . و الروافع الواسعة و الحجج البوالغ الظاهرة المبينة قال سبحانه **فَبِاللَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ** .

[246]

و وظف لكم مددا أي قدر و منه وظيفة الطعام . و قرار خبرة بكسر الخاء أي دار بلاء و اختبار تقول خبرت زيدا أخبره خبرة بالضم فيهما و خبرة بالكسر إذا بلوته و اختبرته و منه قولهم صغر الخبر الخبر . و دار عبرة أي دار اعتبار و اتعاط و الضمير في فيها و عليها ليس واحدا فإنه في فيها يرجع إلى الدار و في عليها يرجع إلى النعم و الرغد و يجوز أن يكون الضمير في عليها عائدا إلى الدار على حذف المضاف أي على سكانها : **فَإِنَّ الدُّنْيَا رِيقٌ مَشْرَبُهَا رِدْعٌ مَشْرَعُهَا يُونِقُ مَنْظَرُهَا وَ يُوبِقُ مَخْبَرُهَا غُرُورٌ حَائِلٌ وَ ضَوْءٌ آفِلٌ وَ ظِلٌّ زَائِلٌ وَ سِنَادٌ مَائِلٌ حَتَّى إِذَا أَنَسَ نَافِرُهَا وَ إِطْمَأَنَّ نَاكِزُهَا قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا وَ قَمَصَتْ بِأَحْبِلِهَا [أَجْلِبُهَا] وَ أَفْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا وَ أَعْلَقَتْ أَلْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمُنْيَةِ قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ الْمَضْجَعِ وَ وَحْشَةَ الْمَرْجِعِ وَ مُعَابِنَةَ الْمَحَلِّ وَ ثَوَابَ الْعَمَلِ . وَ كَذَلِكَ الْخَلْفُ بِعَقَبِ السَّلْفِ لَا تَقْلَعُ الْمُنْيَةُ إِخْتِرَاماً وَ لَا يَرْعَوِي الْبَافُونَ إِجْتِرَاماً يَحْتَدُونَ مَثَلاً وَ يَمْضُونَ أَرْسَالاً إِلَى غَايَةِ الْإِنْتِهَاءِ وَ صَيُورُ الْفَنَاءِ يُقَالُ عَيْشَ رَنْقٍ بِكَسْرِ النُّونِ أَيْ كَدَرَ وَ مَاءَ رَنْقٍ بِالتَّسْكِينِ أَيْ كَدَرَ وَ الرَنْقُ بِفَتْحِ النُّونِ مَصْدَرُ قَوْلِكَ رَنْقُ الْمَاءِ بِالكَسْرِ وَ رَنْقَتُهُ أَنَا تَرْنِيقًا أَيْ كَدَرْتُهُ وَ الرَّوَايَةُ**

[247]

المشهوره في هذا الفصل رنق مشربها بالكسر أقامه مقام قولهم عيش رنق و من رواه رنق مشربها بالسكون و هم الأقلون أجرى اللفظ على حقيقته . و يقال مشرع ردغ ذو طين و وحل روي الردغة بالتحريك و يجوز تسكين الدال و الجمع رداغ و ردغ . و يونق منظرها يعجب الناظر أنقني الشيء أعجبنى و يوبق مخبرها يهلك و بيق الرجل يبق و بوقا هلك و الموبق مفعل منه كالموعد مفعل من وعد يعد و منه قوله سبحانه **وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا** و قد جاء وبق يبق بالكسر فيهما و هو نادر كورث يرث و جاء أيضا وبق يوبق وبقا . و الغرور بضم الغين ما يغتر به من متاع الدنيا و الغرور بالفتح الشيطان و الحائل الزائل و الأفل الغائب أفل غاب يأفل و يأفل أفولا . و السناد دعامة يسند بها السقف و ناكرها فاعل من نكرت كذا أي أنكرته . و قمصت بأرجلها قمص الفرس و غيره يقمص و يقمص قمصا و قمصا أي استن و هو أن يرفع يديه و يطرحهما معا و يعجن برجليه و في المثل المضروب لمن ذل بعد عزة ما لعير من قماص . و جمع فقال بأرجلها و إنما للدابة رجلان إما لأن المثنى قد يطلق عليه صيغة الجمع كما في قولهم امرأة ذات أوراك و مآكم و هما وركان و إما لأنه أجرى اليدين و الرجلين مجرى واحد فساها كلها أرجلا و من رواه بالحاء فهو جمع رحل الناقة . و أقصدت قتلت مكانها من غير تأخير .

[248]

و الأوهاق جمع وهق بالتحريك و هو الحبل و قد يسكن مثل نهر و نهر و أعلقت المرء الأوهاق جعلت الأوهاق عالقة به و الضنك الضيق . و المضجع المصدر أو المكان و الفعل ضجع الرجل جنبه بالأرض بالفتح يضجع ضجوعا و ضجعا فهو ضاجع و مثله أضجع . و المرجع مصدر رجع و منه قوله تعالى **ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ** و هو شاذ لأن المصادر من فعل يفعل بكسر العين إنما يكون بالفتح . قوله و معاينة المحل أي الموضع الذي يحل به المكلف بعد الموت و لا بد لكل مكلف أن

يعلم عقيب الموت مصيره أما إلى جنة و أما إلى نار . و قوله ثواب العمل يريد جزاء العمل و مراده الجزاء الأعم الشامل للسعادة و الشقاوة لا الجزاء الأخص الذي هو جزاء الطاعة و سمي الأعم ثوابا على أصل الحقيقة اللغوية لأن الثواب في اللغة الجزاء يقال قد أثاب فلان الشاعر لقصيدة كذا أي جزاه . و قوله و كذلك الخلف بعقب السلف المتأخرون و السلف المتقدمون و عقب هاهنا بالتسكين و هو بمعنى بعد جنت بعقب فلان أي بعده و أصله جري الفرس بعد جريه يقال لهذا الفرس عقب حسن و قال ابن السكيت يقال جنت في عقب شهر كذا بالضم إذا جنت بعد ما يمضي كله و جنت في عقب بكسر القاف إذا جنت و قد بقيت منه بقية و قد روي يعقب السلف أي يتبع . و قوله لا تطلع المنية أي لا تكف و الاخترام إذهب الأنفس و استئصالها .

[249]

و ارعوى كف عن الأمر و أمسك و أصل فعله الماضي رعى يرعو أي كف عن الأمر و فلان حسن الرعوة و الرعوة و الرعوة و الرعوى و الارعواء و الاجترام افتعال من الجرم و هو الذنب و مثله الجريمة يقال جرم و أجرم بمعنى . قوله يحتنون مثالا أي يقتدون و أصله من حذوت النعل بالنعل حذوا إذا قدرت كل واحدة على صاحبها . قوله و يمضون أرسالا بفتح الهمزة جمع رسل بفتح السين و هو القطيع من الإبل أو الغنم يقال جاءت الخيل أرسالا أي قطيعا قطيعا . و صيور الأمر آخره و ما ينول إليه : حَتَّى إِذَا تَصَرَّمَتِ الْأُمُورُ وَ تَقَضَّتِ الدُّهُورُ وَ أَرَفَ النَّشُورُ أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَانِحِ الْقُبُورِ وَ أَوْكَارِ الطُّيُورِ وَ أَوْجَرَةَ السَّبَاعِ وَ مَطَارِحِ الْمَهَالِكِ سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَادِهِ رَعِيلاً صُمُوتاً قِيَاماً صُفُوفاً يَنْفِذُهُمُ النَّبْصُ وَ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ عَلَيْهِمْ لِبُوسِ الْإِسْتِكَانَةِ وَ ضَرَعِ الْإِسْتِكَانَةِ وَ الدَّلَّةِ قَدْ ضَلَّتِ الْحَيْلُ وَ انْقَطَعَ الْأَمَلُ وَ هَوَتْ الْأَفئِدَةُ كَاظِمَةً وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ مُهَيِّمَةً وَ الْجَمَّ الْعَرَقُ وَ عَظُمَ الشَّقْفُ وَ أُنْعِدَتِ الْأَسْمَاعُ لِزُبْرَةِ الدَّاعِي إِلَى فَصْلِ الْخُطَابِ وَ مُقَايَصَةِ الْأَجْزَاءِ وَ نِكَالِ الْعِقَابِ وَ نَوَالِ النَّوَابِ

[250]

تصرمت الأمور تقطعت و مثله تقضت الدهور و أرف قرب و دنا يأرف أرفا و منه قوله تعالى **أَرَفَتِ الْأَرْفَةُ** أي القيامة الفاعل أرف . و الضرانح جمع ضريح و هو الشق في وسط القبر و اللحد ما كان في جانب القبر و ضرحت ضرحا إذا حفرت الضريح . و الأوكار جمع وكر يفتح الواو و هو عش الطائر و جمع الكثرة و كور وكر الطائر يكر و كرا أي دخل و كره و الوكن بالفتح مثل الوكر أي العش . و أوجرة السباع جمع وجر بكسر الواو و يجوز فتحها و هو بيت السبع و الضبع و نحوهما . مهطعين مسرعين و الرعيل القطعة من الخيل . قوله ع ينفذهم البصر و يسمعهم الداعي أي هم مع كثرتهم لا يخفى منهم أحد عن إدراك البارئ سبحانه و هم مع هذه الكثرة أيضا لا يبقى منهم أحد إلا إذا دعا داعي الموت سمع دعاه و نداه . و اللبوس بفتح اللام ما يلبس قال

البس لكل حالة لبوسها

إما نعيمها و إما بوسها

و منه قوله تعالى **وَ عَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ** يعني الدروع . و الاستكانة الخضوع و الضرع الخشوع و الضعف ضرع الرجل يضرع و أضرعه غيره . و كاظمته ساكته كظم يكظم كظوما أي سكت و قوم كظم أي ساكتون .

و مهينة ذات هيمنة و هي الصوت الخفي و أجم العرق صار لجاما

و في الحديث إن العرق ليجري منهم حتى إن منهم من يبلغ ركبتيه و منهم من يبلغ صدره و منهم من يبلغ عنقه و منهم من يلجمه و هم أعظمهم مشقة . و قال لي قائل ما أرى

لقوله ع المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة كثير فائدة لأن طول العنق جدا ليس مما يرغب في مثله فذكرت له الخبر الوارد في العرق و قلت إذا كان الإنسان شديد طول العنق كان عن إجم العرق أبعد فظهرت فائدة الخبر . و يروى و أنجم العرق أي كثر و دام . و الشفق و الشفقة بمعنى و هو الاسم من الإشفاق و هو الخوف و الحذر قال الشاعر

تهوى حياتي و أهوى موتها شفقا

و الموت أكرم نزال على الحرم

و أرعدت الأسماع عرتها الرعدة و زبرة الداعي صدته و لا يقال الصوت زبرة إلا إذا خالطه زجر و انتهار زبرته أزبره بالضم . و قوله إلى فصل الخطاب إلى هاهنا يتعلق بالداعي و فصل الخطاب بت الحكومة التي بين الله و بين عباده في الموقف رزقنا الله المسامحة فيها بمنه و إنما خص الأسماع بالرعدة لأنها تحدث من صوت الملك الذي يدعو الناس إلى محاسبته . و المقايضة المعاوضة قايضت زيدا بالمتاع و هما قيطان كما قالوا ببيعان . فإن قلت كيف يصح ما ذكره المسلمون من حشر الأجساد و كيف يمكن ما أشار إليه ع من جمع الأجزاء البدنية من أوكار الطيور و أوجرة السباع و معلوم أنه قد يأكل الإنسان سبع و يأكل ذلك السبع إنسان آخر و يأكل هذا الإنسان طائر ثم يأكل الطائر إنسان آخر و المأكول يصير أجزاء من أجزاء بدن الآكل فإذا حشرت

الحيوانات كلها على ما تزعم المعتزلة فتلك الأجزاء المفروضة إما أن تحشر أجزاء من بنية الإنسان أو بنية السبع أو منهما معا فإن كان الأول و يجب إلا يحشر السبع و إن كان الثاني و يجب ألا يحشر الإنسان و الثالث محال عقلا لأن الجزء الواحد لا يكون في موضعين . قلت إن في بدن كل إنسان و كل حيوان أجزاء أصلية و أجزاء زائدة فالأجزاء الزائدة يمكن أن تصير أجزاء بدن حيوان إذا اغتذى بها و الأجزاء الأصلية لا يمكن ذلك فيها بل يحرسها الله تعالى من الاستحالة و التغيير و إذا كان كذلك أمكن الحشر بأن تعاد الأجزاء الأصلية إلى موضعها الأول و لا فساد في استحالة الأجزاء الزائدة لأنه لا يجب حشرها لأنها ليست أصل بنية المكلف فاندفع الأشكال و أما من يقول بالنفس الناطقة من أهل الملة فلا يلزمه الجواب عن السؤال لأنه يقول إن الأنفس إذا أرف يوم القيامة خلقت لها أبدان غير الأبدان الأولى لأن المكلف المطيع و العاصي المستحق للثواب و العقاب عندهم هو النفس و أما البدن فآلة لها نستعمله استعمال الكاتب للقلم و النجار للنفاس : عِبَادَ مَخْلُوقُونَ إِفْتِدَاراً وَ مَرْبُوبُونَ إِفْتِسَاراً وَ مَقْبُوضُونَ إِحْتِسَاراً وَ مُضْمَنُونَ مُضْمَنُونَ أَجْدَاتاً وَ كَانُونَ رُقَاتاً وَ مَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً وَ مَدِينُونَ جَزَاءً وَ مُمَيَّرُونَ حِسَاباً قَدْ أَمْهَلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ وَ هُدُوا سَبِيلَ الْمُنْهَجِ وَ عَمَرُوا مَهْلَ الْمُسْتَعْتَبِ وَ كُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدْفُ الرِّيبِ وَ خُلُوا لِمِضْمَارِ الْجِيَادِ [الْخِيَارِ] وَ رَوِيَّةِ الْإِزْتِيَادِ وَ أَنَاةِ الْمُفْتَبِسِ [الْمُفْتَبِينَ] الْمُرْتَادِ [الْمُتَّقِينَ] فِي مَدَّةِ الْأَجَلِ وَ مُضْطَرَبِ الْمَهْلِ

مربوبون مملوكون و الاقتسار الغلبة و القهر . و الاحتضار حضور الملائكة عند الميت و هو حينئذ محتضر و كانت العرب تقول لبن محتضر أي فاسد ذو آفة يعنون أن الجن حضرته يقال اللبن محتضر فغط إناءك . و الأحداث جمع حدث و هو القبر و اجتدث الرجل اتخذ جدثا و يقال جدف بالفاء . و الرفات الحطام تقول منه رفت الشيء فهو مرفوت . و مدينون أي مجزيون و الدين الجزاء و منه **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** . و مميزون حسابا من قوله تعالى **وَ اِمْتَاَزُوا اَلْيَوْمَ اَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ** و من قوله تعالى **وَ كُنْتُمْ اَزْوَاجًا ثَلَاثَةً** كما أن قوله و مبعوثون أفرادا مأخوذ من قوله تعالى **وَ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى** و أصل التمييز على الفصل و التبيين . قوله قد أمهلوا في طلب المخرج أي انظروا ليفينوا إلى الطاعة و يخلصوا التوبة لأن إخلاص التوبة هو المخرج الذي من سلكه خرج من ربة المعصية و مثله قوله و هدوا سبيل المنهج و المنهج الطريق الواضح . و المستعتب المسترضى استعبت زيدا إذا استرضيته عني فأنا مستعتب له و هو مستعتب و أعتبني أي أرضاني و إنما ضرب المثل بمهل المستعتب لأن من يطلب رضاه في مجرى العادة لا يرهق بالتماس الرضا منه و إنما يمهل ليرضى بقلبه لا بلسانه . و السدف جمع سدفة هي القطعة من الليل المظلم هذا في لغة أهل نجد و أما غيرهم

فيجعل السدفة الضوء و هذا اللفظ من الأضداد و كذلك السدف بفتح السين و الدال . و قد قيل السدفة اختلاط الضوء و الظلمة كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسفار و السدف الصبح و إقباله و أسدف الليل أظلم و أسدف الصبح أضاء يقال أسدف الباب أي افتحه حتى يضيء البيت و في لغة هوازن أسدفا أي أسرجوا من السراج و الريب الشبهة جمع ريبة . و المضمار الموضع الذي تضم فيه الخيل و المضمار أيضا المدة التي تضم فيها . و التضمير أن تغلف الفرس حتى يسمن ثم ترده إلى قوته الأولى و ذلك في أربعين يوما و قد يطلق التضمير على نقيض ذلك و هو التجويع حتى يهزل و يخف لحمه ضم الفرس بالفتح يضم بالضم ضمورا و جاء ضم الفرس بالضم و أضمرته أنا و ضمرته فاضطر هو و لؤلؤ مضطر في وسطه بعض الانضمام رجل لطيف الجسم ضمير البطن و ناقة ضامر و ضامرة أيضا يقول مكنهم الحكيم سبحانه و خلاهم و أعمالهم كما تمكن الخيل التي تستبق في المضمار ليعلم أيها أسبق . و الروية الفكرة و الارتياح الطلب ارتاد فلان الكلاً يرتاده ارتيادا طلبه و مثله راد الكلاً يروده رودا و ريادا

و في الحديث إذا بال أحدكم فليرتد لبوله أي فليطلب مكانا لنا أو منحدرًا و الرائد الذي يرسله القوم في طلب الكلاً و في المثل الرائد لا يكذب أهله و الأناة التؤدة و الانتظار مثل القناة . و تأنى في الأمر ترفق و استأنى فلان بفلان أي انتظر به و جاء الأناة بالفتح و المد على فعال قال الحطيئة

و أكريت العشاء إلى سهيل

أو الشعرى فطال بي الأناة

و المقتبس متعلم العلم هاهنا و لا بد له من أناة و مهل ليبلغ حاجته فضرب مثلا و جاء

في بعض الروايات و مقبوضون اختصارا بالخاء المعجمة و هو موت الشاب غضا أخضر أي مات شابا و كان فتيان
يقولون لشيخ أجزت يا أبا فلان فيقول أي بني و تختضرون أجز الحشيش أن أن يجز و منه قيل للشيخ كاد يموت قد أجز
و الرواية الأولى أحسن لأنها أعم . و في رواية لمضمار الخيار أي للمضمار الذي يستبق فيه الأبرار الأتقياء إلى رضوان
الله سبحانه : فَيَا لَهَا أُمَّثَالًا صَانِبَةً وَ مَوَاعِظَ شَافِيَةً لَوْ صَادَقَتْ قُلُوبًا زَاكِيَةً وَ أَسْمَاعًا وَاعِيَةً وَ آرَاءَ عَازِمَةً وَ أَلْبَابًا حَازِمَةً
فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةً مَنْ سَمِعَ فَخْشَعٌ وَ افْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ وَ وَجَلَ فَعَمِلَ وَ حَادَرَ فَبَادَرَ وَ أَيَقَنَ فَأَحْسَنَ وَ عُبِّرَ فَاعْتَبَرَ وَ حَذَرَ فَحَذَرَ وَ
زُجِرَ فَازْدَجَرَ وَ أَجَابَ فَاتَّابَ وَ رَاجَعَ [رَجَعَ] فَتَابَ وَ افْتَدَى فَاحْتَدَى وَ أَرَى فَرَأَى فَاسْرَعَ طَالِبًا وَ نَجَا هَارِبًا فَأَفَادَ ذَخِيرَةً وَ
أَطَابَ سَرِيرَةً وَ عَمَرَ مَعَادًا وَ اسْتَنْظَهَرَ زَادًا لِيَوْمِ رَحِيلِهِ وَ وَجِهَ سَبِيلِهِ وَ حَالَ حَاجَتِهِ وَ مَوْطِنَ فِائْتِهِ وَ قَدَّمَ أَمَامَهُ لِإِدَارِ مَقَامِهِ
فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ جِهَةً مَا خَلَقَكُمْ لَهُ وَ إِحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَ اسْتَحْفُوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّجَرُّ لِيَصِدُقَ
مِيعَادِهِ وَ أَلْحَذِرِ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ صَانِبَةَ غَيْرِ عَادِلَةٍ عَنِ الصَّوَابِ صَابِ السَّهْمِ يَصُوبُ صُوبَةً أَيْ قِصْدٍ وَ لَمْ يَجِرْ

[256]

و صاب السهم القرطاس يصيبه صبيا لغة في أصابه و في المثل مع الخواطي سهم صائب . و شافية تبرئ من مرض
الجهل و الهوى و القلوب الزاكية الطاهرة و الأسماع الواعية الحافظة و الآراء العازمة ذات العزم و الألباب العقول و
الحازمة ذات الحزم و الحزم ضبط الرجل أمره . و خشع الرجل أي خضع و اقترف اكتسب و مثله قرف يقرف بالكسر يقال
هو يقرف لعياله أي يكسب . و وجل الرجل خاف وجلا بفتح الجيم و مستقبله يوجل و يأجل و يبجل و يبجل بكسر الياء
المضارعة . و بادر سارع و عبر أي أري العبر مرارا كثيرة لأن التشديد هاهنا دليل التكثر . فاعتبر أي فاتعظ و الزجر
النهي و المنع زجر أي منع و ازدجر مطاوع ازدجر اللفظ فيهما واحد تقول ازدجرت زيدا عن كذا فازدجر هو و هذا غريب
و إنما جاء مطاوع ازدجر في زجر لأنهما كالشيء الواحد و في بعض الروايات ازدجر فازدجر فلا يحتاج مع هذه الرواية
إلى تأويل . و أناب الرجل إلى الله أي أقبل و تاب و اقتدى يزيد فعل مثل فعله و احتدى مثله . قوله ع فأفاد ذخيرة أي
فاستفاد و هو من الأضداد أفدت المال زيدا أعطيته إياه و أفدت أنا مالا أي استفدته و اكتسبته . قوله ع فاتقوا الله عباد الله
جهة ما خلقكم له نصب جهة بفعل مقدر تقديره و اقصدا جهة ما خلقكم له يعني العبادة لأنه تعالى قال **وَ مَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَ**
الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ فحذف الفعل و استغنى عنه بقوله **فَاتَّقُوا اللَّهَ** لأن التقوى

[257]

ملازمة لقصد المكلف العبادة فدللت عليه و استغنى بها عن إظهاره . و الكنه الغاية و النهاية تقول أعرفه كنه المعرفة أي
نهايتها . ثم قال ع و استحقوا منه ما أعد لكم أي اجعلوا أنفسكم مستحقين لثوابه الذي أعده لكم إن أطعتم . و الباء في
بالتنجز متعلق باستحقوا و يقال فلان يتنجز الحاجة أي يستنجحها و يطلب تعجلها و الناجز العاجل يقال ناجزا بناجز كقولك
يدا بيد أي تعجلا بتعجيل و التنجز من المكلفين بصدق ميعاد القديم سبحانه و هو مواظبتهم على فعل الواجب و تجنب
القبیح و و الحذر مجرور بالعطف على التنجز لا على الصدق لأنه لا معنى له : **وَ مِنْهَا جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعًا لِيَتَعِيَ مَا عَنَاهَا وَ**
أَبْصَارًا لِيَتَجَلَّوْا عَنْ عَشَاهَا وَ أَشْلَاءَ جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا مُلَانِمَةً لِأَحْشَانِهَا فِي تَرْكِيْبِ صُورِهَا وَ مَدِدَ عُمْرَهَا بِأَبْدَانٍ قَانِمَةً
بِأَرْفَاقِهَا وَ قُلُوبٍ رَانِدَةً [بَانِدَةً] لِأَرْزَاقِهَا فِي مُجَلَّاتِ نِعْمِهِ وَ مُوجِبَاتِ مَنِّهِ وَ حَوَاجِرِ [جَوَانِزِ] عَافِيَتِهِ وَ قَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَارًا

سَتَرَهَا عَنْكُمْ وَ خَلَّفَ لَكُمْ عِبْرًا مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلْقِهِمْ وَ مُسْتَفْسِحِ خَنَاقِهِمْ أَرْهَقْتَهُمُ الْمَنَايَا دُونَ الْأَمَالِ
وَ شَدَّبْتَهُمْ عَنْهَا تَخَرُّمَ الْأَجَالِ لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلَامَةِ الْأَبْدَانِ وَ لَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أَنْفِ الْأَوَانِ

[258]

قوله لتعي ما عناها أي لتحفظ و تفهم ما أهمها

و منه الأثر المرفوع من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . و لتجلو أي لتكشف . و عن هاهنا زائدة و يجوز أن تكون
بمعنى بعد كما قال

لقتت حرب وائل عن حيال

أي بعد حيال فيكون قد حذف المفعول و حذفه جائز لأنه فضله و يكون التقدير لتجلو الأذى بعد عشاها و العشى مقصور
مصدر عشي بكسر الشين يعشى فهو عش إذا أبصر نهارا و لم يبصر ليلا . و الأشلاء جمع شلو و هو العضو . فإن قلت
فأي معنى في قوله أعضاء تجمع أعضاءها و كيف يجمع الشيء نفسه قلت أراد ع بالأشلاء هاهنا الأعضاء
الظاهرة و بالأعضاء الجوارح الباطنة و لا ريب أن الأعضاء الظاهرة تجمع الأعضاء الباطنة و تضمها و الملازمة
الموافقة و الأجزاء الجوانب و الجهات و وجه الموافقة و الملازمة أن كون اليد في الجانب أولى من كونها في الرأس أو
في أسفل القدم لأنها إذا كانت في الجانب كان البطش و تناول ما يراد و دفع ما يؤذى أسهل و كذلك القول في جعل العين
في الموضع الذي جعلت به لأنها كديديبان السفينة البحرية و لو جعلت في أم الرأس لم ينتفع بها هذا الحد من الانتفاع الآن
و إذا تأملت سائر أدوات الجسد و أعضائه وجدتها كذلك .

[259]

ثم قال في تركيب صورها كأنه قال مركبة أو مصورة فأتى بلفظه في كما تقول ركب بسلاحه و في سلاحه أي متسلحا . و
قوله بأرفاقها أي بمنافعها جمع رفق بكسر الراء مثل حمل و أحمال و أرفقت فلانا أي نفعته و المرفق من الأمر ما ارتفعت
به و انتفعت و يروى بأرفاقها و الرمق بقية الروح . و راندة طالبة و مجلات النعم تجلل الناس أي تعممهم من قولهم
سحاب مجلل أي يطبق الأرض و هذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف كقولك أنا في سابع ظلك و عميم فضلك كأنه
قال في نعمه المجللة و كذلك القول في موجبات مننه أي في مننه التي توجب الشكر . و في هاهنا متعلقة بمحذوف و
الموضع نصب على الحال . ثم قال و حواجز عافيته الحواجز الموانع أي في عافية تحجز و تمنع عنكم المضار . و يروى
و حواجز بليته و قد فسر قوله حواجز عافيته على أن يراد به ما يحجز العافية و يمنعها عن الزوال و العدم . قوله ع من
مستمع خلاقهم الخلاق النصيب قال تعالى **وَ مَا لَهُ فِي الْأَخْرَةِ مِنْ خَلْقٍ** و قال تعالى **فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا إِسْتَمْتَعَ الَّذِينَ**
مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ و تقدير الكلام خلف لكم عبرا من القرون السالفة منها تمتعهم بنصيبيهم من الدنيا ثم فناوهم و منها
فسحة خناقهم و طول إمهالهم ثم كانت عاقبتهم الهلكة . و أرهقتهم المنايا أدركتهم مسرعة .

[260]

و المرهق الذي أدرك ليقتل و شذبهم عنها قطعهم و فرقههم من تشذيب الشجرة و هو تقشيرها . و تخرمت زيدا المنية استأصلته و اقتطعته . ثم قال لم يمهدوا في سلامة الأبدان أي لم يمهدوا لأنفسهم من تمهيد الأمور و هو تسويتها و إصلاحها . و أنف الأوان أوله يقال روضة أنف لم ترع قبل و كأس أنف لم يشرب بها قبل : **فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّيْبَابِ إِلَّا حَوَائِيَ الْهَرَمِ وَ أَهْلُ غَضَارَةِ الصِّحَّةِ إِلَّا نَوَازِلَ السَّقَمِ وَ أَهْلُ مُدَّةِ الْبَقَاءِ إِلَّا أَوْنَةَ [أُوْبَةَ] الْفَنَاءِ مَعَ قُرْبِ الزَّيَالِ [الزَّوَالِ] وَ أَرْوَفِ الْإِنْتِقَالِ وَ عِلْزِ الْقَلْقِ وَ أَلَمِ الْمَضَضِ وَ غُصَصِ الْجَرَضِ وَ تَلَفَّتِ الْإِسْتِغَاثَةَ بِنُصْرَةِ الْحَفْدَةِ وَ الْأَقْرِبَاءِ وَ الْأَعَزَّةِ وَ الْفُرْنَاءِ فَهَلْ دَفَعَتِ الْأَقْرَابُ أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ وَ قَدْ غُوِدِرَ فِي مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ رَهِينًا وَ فِي ضَيْقِ الْمَضْجَعِ وَحِيدًا قَدْ هَتَكَتِ الْهُوَامُ جِلْدَتَهُ وَ أَبْلَتِ النَّوَاهِكُ جِدَّتَهُ وَ عَفَتِ الْعَوَاصِفُ آثَارَهُ وَ مَحَا الْحَدَثَانَ مَعَالِمَهُ وَ صَارَتِ الْأَجْسَادُ شَحْبَةً بَعْدَ بَضْيَتِهَا وَ الْعِظَامُ نَجْرَةً بَعْدَ فُوتِهَا وَ الْأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا مُوقِنَةً بِغَيْبِ أَنْبَائِهَا لَا تُسْتَزَادُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا وَ لَا تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئِ زَلَّلِهَا**

[261]

البضاضة مصدر من بضضت يا رجل بضضت بالفتح و الكسر بضاضة و بضوضه و رجل بض أي ممتلئ البدن رقيق الجلد و امرأة بضه . و حواني الهرم جمع حانية و هي العلة التي تحني شطاط الجسد و تميله عن الاستقامة . و الهرم الكبر و الغضارة طيب العيش و منه المثل أباد الله غضراءهم أي خيرهم و خصبهم . و آونة الفناء جمع أوان و هو الحين كزمان و أزمنة و فلان يصنع ذلك الأمر آونة كقولك تارات أي يصنعه مرارا و يدعه مرارا . و الزيال مصدر زايله مزايلة و زيالا أي فارقه . و الأزوف مصدر أرف أي دنا . و العلز قلق و خفة و هلع يصيب الإنسان و قد علز بالكسر و بات علزا أي وجعا قلقا و المضض الوجع أمضني الجرح و مضني لغتان و قد مضضت يا رجل بالكسر . و الغصص جمع غصة و هي الشجا و الغصص بالفتح مصدر قولك غصصت يا رجل تغصص بالطعام فأنت غاص و غصان و أغصصته أنا . و الجريض الرقيق يغصص به جرض بريقه بالفتح يجرض بالكسر مثل كسر يكسر و هو أن يبلى بريقه على هم و حزن بالجهد و الجريض الغصة و في المثل حال

[262]

الجريض دون القريض و فلان يجرض بنفسه إذا كان يموت و أجرضه الله بريقه أغصه . و الحفدة الأعوان و الخدم و قيل ولد الولد واحدهم حافد و الباء في بنصرة الحفدة متعلق بالاستعانة يقول إن الميت عند نزول الأمر به يتلفت مستغيثا بنصرة أهله و ولده أي يستنصر يستصرخ بهم . و النواحب جمع ناحية و هي الرفاعة صوتها بالبكاء و يروى النوادب . و الهوام جمع هامة و هي ما يخاف ضرره من الأحناش كالعقارب و العناكب و نحوها و النواهك جمع ناهكة و هي ما ينهك البدن أي يبليه . و عفت درست و يروى بالتشديد و شحبة هالكة و الشحب الهلاك شحب الرجل بالكسر يشحب و جاء شحب بالفتح يشحب بالضم أي هلك و شحبة الله يشحبه يتعدى و لا يتعدى . و نخرة بالية و الأعباء الأثقال واحدها عبء . و قال موقنة بغيب أنبائها لأن الميت يعلم بعد موته ما يصير إليه حاله من جنة أو نار . ثم قال إنها لا تكلف بعد ذلك زيادة في العمل الصالح و لا يطلب منها التوبة من العمل القبيح لأن التكليف قد بطل : **أَوْ لَسْتُمْ أَنْبَاءَ الْقَوْمِ وَ الْأَبَاءِ وَ إِخْوَانَهُمْ وَ الْأَقْرِبَاءَ تَحْتَدُونَ أَمَلْتَهُمْ وَ تَرَكَبُونَ قِدَّتَهُمْ وَ تَطْنُونَ جَادَتَهُمْ فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا لِأَهِيَّةٍ عَنْ رُشْدِهَا**

[263]

سَالِكَةٌ فِي غَيْرِ مِضْمَارِهَا كَأَنَّ الْمَعْنَى سِوَاهَا وَ كَأَنَّ الرَّشْدَ فِي إِحْزَارِ دُنْيَاهَا الْقِدَّةُ بِالذَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَ بِكسْرِ الْقَافِ الطَّرِيقَةُ وَ يُقَالُ لِكُلِّ فِرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ هَوَى عَلَى حِدَّةٍ قِدَّةٌ وَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى **كُنَّا طَرَائِقَ قِدَادًا** وَ مِنْ رِوَاةٍ وَ يَرْكَبُونَ قِدْتَهُمْ بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ وَ ضَمَّ الْقَافِ أَرَادَ الْوَاحِدَةَ مِنْ قِدْدِ السَّهْمِ وَ هِيَ رِيْشَةُ يُقَالُ حَذُو الْقِدَّةِ بِالْقِدَّةِ وَ يَكُونُ مَعْنَى وَ تَرْكَبُونَ قِدْتَهُمْ تَقْتَفُونَ آثَارَهُمْ وَ تَشَابَهُونَ بِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ . ثُمَّ قَالَ وَ تَطْنُونَ جَادَتَهُمْ وَ هَذِهِ لَفْظَةٌ فَصِيحَةٌ جَدًّا . ثُمَّ ذَكَرَ قِسَاوَةَ الْقُلُوبِ وَ ضَلَالَهَا عَنْ رَشْدِهَا وَ قَالَ كَأَنَّ الْمَعْنَى سِوَاهَا

هَذَا مِثْلُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كَتَبَ وَ كَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجِبَ : وَ اعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ [الصِّرَاطِ] وَ مَزَالِي دَحْضِهِ وَ أَهْوِيلِ رَلِّهِ وَ تَارَاتِ أَهْوَالِهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ تَقِيَّةً ذِي لُبِّ شَعَلٍ التَّفَكَّرُ قَلْبُهُ وَ أَنْصَبَ الْخَوْفَ بَدَنُهُ وَ أَسْهَرَ التَّهَجُّدَ غِرَارَ نَوْمِهِ وَ أَظْمَأَ الرَّجَاءَ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ وَ ظَلَّفَ الزُّهْدَ شَهْوَاتِهِ

[264]

وَ أَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ وَ قَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ [أَبَانَهُ] وَ تَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ وَ سَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ وَ لَمْ تَفْتَلِهِ قَاتِلَاتُ الْغُرُورِ وَ لَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتِ الْأُمُورِ ظَافِرًا بِفَرْحَةِ الْبُشْرَى وَ رَاحَةَ النَّعْمَى فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ وَ آمَنَ يَوْمِهِ قَدْ عَبَّرَ مَعْبَرِ الْعَاجِلَةِ حَمِيدًا وَ قَدَّمَ زَادَ [ذَاتَ] الْأَجَلَةِ سَعِيدًا وَ بَادَرَ عَنْ وَجَلٍ وَ أَكْمَشَ فِي مَهَلٍ وَ رَغِبَ فِي طَلَبٍ وَ ذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ وَ رَاقَبَ فِي يَوْمِهِ عُدَّهُ وَ رَبَّمَا نَظَرَ قُدَمَا أَمَامَهُ فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَابًا وَ نَوَالًا وَ كَفَى بِالنَّارِ عِقَابًا وَ وَبَالًا وَ كَفَى بِاللَّهِ مُنْتَقِمًا وَ نَصِيرًا وَ كَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيْبًا وَ خَصِيمًا وَ قَالَ أَصْحَابُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى الصِّرَاطُ الْوَارِدُ ذَكَرَهُ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ هُوَ الطَّرِيقُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ وَ لِأَهْلِ النَّارِ إِلَى النَّارِ بَعْدَ الْمَحَاسِبَةِ قَالُوا لِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَمْرُهُمْ عَلَى بَابِ النَّارِ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عَدَلَ بِهِ إِلَيْهَا وَ قَذَفَ فِيهَا وَ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَرَّ بِالنَّارِ مَرُورًا نَجَا مِنْهَا إِلَى الْجَنَّةِ وَ هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى **وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَأَ وَارِدَهَا** لِأَنَّ وَرُودَهَا هُوَ الْقُرْبُ مِنْهَا وَ الدُّنُو إِلَيْهَا وَ قَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى سُورِ مَضْرُوبِ بَيْنَ مَكَانِ النَّارِ وَ بَيْنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي يَجْتَازُونَ مِنْهُ إِلَى الْجَنَّةِ فِي قَوْلِهِ **فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بَسُورًا لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ** .

[265]

قَالُوا وَ لَا يَصِحُّ مَا رَوَى فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ الصِّرَاطَ أَدْقُ مِنَ الشَّعْرِ وَ أَحَدُ مِنَ السِّيفِ وَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَقْطَعُهُ كَمُرُورِ الْبَرَقِ الْخَاطِفِ وَ الْكَافِرَ يَمْشِي عَلَيْهِ حَبْوًا وَ أَنَّهُ يَنْتَفِضُ بِالذِّينِ عَلَيْهِ حَتَّى تَتْرَازِلَ مَفَاصِلُهُمْ قَالُوا لِأَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ لَا يَكُونُ طَرِيقًا لِلْمَاشِيِ وَ لَا يَتِمَّكَنُ مِنَ الْمَشْيِ عَلَيْهِ وَ لَوْ أَمَكْنَ لَمْ يَصِحَّ التَّكْلِيفُ فِي الْآخِرَةِ لِيُؤْمَرَ الْعَقْلَاءُ بِالْمُرُورِ عَلَيْهِ عَلَى وَجْهِ التَّعْبُدِ . ثُمَّ سَأَلَ أَصْحَابُنَا أَنْفُسَهُمْ فَقَالُوا أَيُّ فَائِدَةٍ فِي عَمَلِ هَذَا السُّورِ وَ أَيُّ فَائِدَةٍ فِي كَوْنِ الطَّرِيقِ الَّذِي هُوَ الصِّرَاطُ مُنْتَهِيًا إِلَى بَابِ النَّارِ مُنْفَرَجًا مِنْهَا إِلَى الْجَنَّةِ أَلَسْتُمْ تَعْلَلُونَ أَعْمَالَ الْبَارِئِ تَعَالَى بِالْمَصَالِحِ وَ الْآخِرَةِ لَيْسَتْ دَارُ تَكْلِيفٍ لِيَفْعَلَ فِيهَا هَذِهِ الْأَعْمَالَ لِلْمَصَالِحِ . وَ أَجَابُوا بِأَنَّ شُعُورَ الْمُكْلِفِينَ فِي الدُّنْيَا بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ مَصَالِحٌ لَهُمْ وَ أَطَافَ فِي الْوَاجِبَاتِ الْعَقْلِيَّةِ فَإِذَا أَعْلَمَ الْمُكْلِفُونَ بِهَا وَجِبَ إِيقَاعُهَا عَلَى حَسَبِ مَا وَعَدُوا وَ أَخْبَرُوا بِهِ لِأَنَّ اللَّهَ صَادِقٌ لَا خَلْفَ فِي إِخْبَارِهِ . وَ عِنْدِي أَنَّهُ لَا يَمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ الصِّرَاطُ عَلَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ وَ لَا مَانِعٌ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ لَا يَكُونُ طَرِيقًا لِلْمَاشِيِ وَ لَا يَتِمَّكَنُ مِنَ الْمَشْيِ عَلَيْهِ مُسْلِمٌ وَ لَكِنْ لَمْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي جَعْلِهِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ وَ الْإِخْبَارُ عَنْ كَيْفِيَّتِهِ هَذِهِ مُصْلِحَةٌ لِلْمُكْلِفِينَ فِي الدُّنْيَا وَ لَيْسَ عَدَمُ تَمَكُّنِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْمَشْيِ عَلَيْهِ بِمَانِعٍ مِنْ إِيقَاعِهِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذَا وَ أَمثالُهُ هُوَ التَّخْوِيفُ وَ الزَّجْرُ . وَ أَمَا

قولهم الآخرة ليست دار تكليف فلقاتل أن يقول لهم لم قلت إنه تكليف و لم لا يجوز أن يكون المكلفون مضطرين إلى سلوكه اضطرارا فالمؤمن يخلق الله فيه الثبات و السكينة و الحركة السريعة فينجو و يسلم و الكافر يخلق فيه ضد ذلك فيهوي و يعطب و لا مانع من ذلك .

[266]

يقال مكان دحض و دحض بالتحريك أي زلق و أدحضته أنا أزلقته فدحض هو . و الأهاويل الأمور المفزعة و تارات أهواله كقوله دفعات أهواله و إنما جعل أهواله تارات لأن الأمور الهائلة إذا استمرت لم تكن في الإزعاج و الترويع كما تكون إذا طرأت تارة و سكنت تارة . و انصب الخوف بدنه أتعب و انصب التعب و التهجد هنا صلاة الليل و أصله السهر و قد جاء التهجد بمعنى النوم أيضا و هو من الأضداد . الفرار قلة النوم و أصله قلة لبن الناقة و يقال غارت الناقة تغار غرارا قل لبنها . فإن قلت كيف توصف قلة النوم بالسهر و إنما يوصف بالسهر الإنسان نفسه قلت هذا من مجازات كلامهم كقولهم ليل ساهر و ليل نائم . و الهواجر جمع هاجرة و هي نصف النهار عند اشتداد الحر يقال قد هجر النهار و أتينا أهلنا مهجرين أي سائرين في الهاجرة . و ظلف منع و ظلفت نفس فلان بالكسر عن كذا أي كفت . و أوجف أسرع كأنه جعل الذكر لشدة تحريكه اللسان موجفا به كما توجف الناقة براكبها و الوجيف ضرب من السير . ثم قال و قدم الخوف لأمانه اللام هاهنا لام التعليل أي قدم خوفه ليأمن و المخالجات الأمور المختلجة أي الجاذبة خلجه و اختلجه أي جذبته . و أقصد المسالك أقومها و طريق قاصد أي مستقيم . و قتله عن كذا أي رده و صرفه و هو قلب لفت . و يروى قد عبر معبر العاجلة حميدا و قدم زاد الأجلة سعيدا .

[267]

و أكمش أسرع و مثله انكمش و رجل كمش أي سريع و قد كمش بالضم كماشة فهو كمش و كمش و كمشته تكميشا أعجلته . قوله و رغب في طلب و ذهب عن هرب أي و رغب فيما يطلب مثله و فر عما يهرب من مثله فأقام المصدر مقام ذي المصدر . و نظر قدما أمامه أي و نظر ما بين يديه مقدما لم ينثن و لم يعرج و الدال مضمومة هاهنا . قال الشاعر يذم امرأة

تمضي إذا زجرت عن سؤاة قدما

كأنها هدم في الجفر منقاض

و من رواه بالتسكين جاز أن يعنى به هذا و يكون قد خفف كما قالوا حلم و حلم . و جاز أن يجعله مصدرا من قدم الرجل بالفتح يقدم قدما أي تقدم قال الله تعالى **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** أي يتقدمهم إلى ورودها كأنه قال و نظر بين يديه متقدما لغيره و سابقا إياه إلى ذلك و الباء في بالجنة و بالنار و بالله و بالكتاب زائدة و التقدير كفى الله و كفى الكتاب

[268]

أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي أُعْذِرَ بِمَا أُنذَرَ وَ إِحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ وَ حَذَرَكُمْ عُدْوًا نَفَذَ فِي الصُّدُورِ حَفِيًّا وَ نَفَثَ فِي الْأَذَانِ نَجِيًّا فَأُضِلَّ وَ أُرْدَى وَ وَعَدَ فَمَنَّى وَ زَيْنَ سَيِّئَاتٍ [النَّبِيَّاتِ] الْجَرَائِمِ وَ هَوْنَ مُوبِقَاتِ الْعُظَائِمِ حَتَّى إِذَا اسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ وَ اسْتَعْلَقَ رَهِينَتَهُ

أَنْكَرَ مَا زَيْنَ وَ اسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ وَ حَذَّرَ مَا أَمَّنَ أعذر بما أنذر ما هاهنا مصدرية أي أعذر بإنذاره و يجوز أن تكون بمعنى الذي . و العدو المذكور الشيطان . و قوله نفذ في الصدور و نفث في الأذان كلام صحيح بديع و في قوله نفذ في الصدور مناسبة

لقوله ص الشيطان يجري من بني آدم مجرى الدم و النجي الذي يساره و الجمع الأنجية قال

إني إذا ما القوم كانوا أنجيه

و قد يكون النجي جماعة مثل الصديق قال الله تعالى **خَلَصُوا نَجِيًّا** أي متنجين . القرينة هاهنا الإنسان الذي قارنه الشيطان و لفظه لفظ التانيث و هو مذكر أراد القرين قال تعالى **فَبِنَسِ الْفَرِيقِ** و يجوز أن يكون أراد بالقرينة النفس و يكون

[269]

الضمير عائدا إلى غير مذكور لفظا لما دل المعنى عليه لأن قوله فاضل و أردى و وعد فمى معناه أضل الإنسان و أردى و وعده فمى فالمفعول محذوف لفظا و إليه رجع الضمير على هذا الوجه و يقال غلق الرهن إذا لم يفتكه الراهن في الوقت المشروط فاستحقه المرتهن . و هذا الكلام مأخوذ من قوله تعالى **وَ قَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي** الآية : **وَ مِنْهَا فِي صِفَةِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ وَ شَغَفِ الْأَسْتَارِ نُطْفَةً دِهَاقًا [دِفَاقًا دِهَاقًا] وَ عَلَقَةً مَحَاقًا وَ جَنِينًا وَ رَاضِعًا وَ وِلِيدًا وَ يَافِعًا ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْبًا حَافِظًا وَ لِسَانًا لَافِظًا وَ بَصْرًا لَاحِظًا لِيَفْهَمَ مُعْتَبِرًا وَ يُقَصِّرَ مُزْدَجِرًا حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتَدَالُهُ وَ اسْتَوَى مِثْلُهُ نَفَرَ مُسْتَكْبِرًا وَ حَبَطَ سَادِرًا مَاتِحًا فِي غَرْبِ هَوَاهُ كَادِحًا سَعِيًّا لِدُنْيَاهُ فِي لَدَاتِ طَرْبِهِ وَ بَدَوَاتِ أَرْبِهِ ثُمَّ لَا يَحْتَسِبُ رِزِيَّةً وَ لَا يَخْشَعُ تَقِيَّةً فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيرًا وَ عَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيرًا [أَسِيرًا] ثُمَّ يُفِدُ عَوْضًا [عَرَضًا] وَ لَمْ يَفِضْ مُفْتَرَضًا دِهْمَتَهُ فَجَعَلَتِ الْأَمْنِيَّةَ فِي غُبْرِ [غُبْرَةٍ] جِمَاحِهِ وَ سَنَنِ مِرَاحِهِ فَظَلَّ سَادِرًا وَ بَاتَ سَاهِرًا فِي عَمَرَاتِ الْأَلَامِ وَ طَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَ الْأَسْقَامِ بَيْنَ أَخِ شَقِيقِي وَ وَالِدِ شَفِيقِي**

[270]

وَ دَاعِيَّةِ بِالْوَيْلِ جَزَعًا وَ لَادِمَةِ لِلصَّدْرِ قَلَقًا وَ الْمَرْءِ فِي سَكْرَةٍ مُلْهَتَةٍ وَ عَمْرَةٍ كَارِثَةٍ وَ أَنَّةٍ مُوجِعَةٍ وَ جَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ وَ سَوْفَةٍ مُتَعَبَةٍ ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِسًا [مُبْلِسًا] وَ جَذِبَ مُنْقَادًا سَلِسًا ثُمَّ أَلْفِي عَلَى الْأَعْوَادِ رَجِيعَ وَصَبٍ وَ نَضُو سَقَمٍ تَحْمِلُهُ حَفْدَةٌ أُلُودَانٍ وَ حَشْدَةٌ الْإِخْوَانِ إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ وَ مُنْقَطِعِ زُورَتِهِ وَ مُفْرَدِ وَحْشَتِهِ حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُسْتَشِيعُ وَ رَجَعَ الْمُنْتَفِجُ [مُفِجٍ] أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيًّا لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ وَ عَثْرَةِ الْإِمْتِحَانِ وَ أَعْظَمَ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً نَزُولِ الْحَمِيمِ وَ تَصْلِيَةِ الْجَجِيمِ وَ فُورَاتِ السَّعِيرِ وَ سُورَاتِ الرَّفِيرِ [السَّعِيرِ] لَا فِتْرَةَ مُرِيحَةٍ وَ لَا دَعَا مُرِيحَةٍ وَ لَا قُوَّةَ حَاجِرَةٍ وَ لَا مَوْتَةَ نَاجِرَةٍ وَ لَا سِنَّةَ مُسْلِيَّةَ بَيْنِ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ وَ عَدَابِ السَّاعَاتِ إِنَّا بِاللَّهِ عَانِدُونَ أَمْ هُنَا إِمَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ عَلَى حَقِيقَتِهَا كَأَنَّهُ قَالَ أَعْظَمَ وَ أذْكَرْكُمْ بِحَالِ الشَّيْطَانِ وَ إِغْوَانِهِ أَمْ بِحَالِ الْإِنْسَانِ مِنْذُ ابْتِدَائِهِ وَ جُودِهِ إِلَى حِينِ مَمَاتِهِ وَ إِمَا أَنْ تَكُونَ مُنْقَطِعَةً بِمَعْنَى بَلْ كَأَنَّهُ قَالَ عَادِلًا وَ تَارِكًا لِمَا وَعَظَهُمْ بِهِ بَلْ أَتَلُو عَلَيْكُمْ نَبَأَ هَذَا الْإِنْسَانِ الَّذِي حَالُهُ كَذَا . الشغف بالغين المعجمة جمع شغاف بفتح الشين و أصله غلاف القلب يقال شغفه الحب أي بلغ شغافه و قرئ **قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا** . و الدهاق المملوءة و يروى دفاقا من دفقت

الماء أي صببته . قال و علقه محاقا المحاق ثلاث ليال من آخر الشهر و سميت محاقا لأن القمر يمتحق فيهن أي يخفى و تبطل صورته و إنما جعل العلقه محاقا ها هنا لأنها لم تحصل لها الصورة الإنسانية بعد فكانت محووة محووة محووة .

[271]

و اليافع الغلام المرتفع أيفع و هو يافع و هذا من النوادر و غلام يفع و يفعة و غلمان أيفاع و يفعة أيضا . قوله و خبط سادرا خبط البعير إذا ضرب بيديه إلى الأرض و مشى لا يتوقى شيئا . و السادر المتحير و السادر أيضا الذي لا يهتم و لا يبالي ما صنع و الموضوع يحتمل كلا التفسيرين . و الماتح الذي يستقي الماء من البئر و هو على رأسها و الماتح الذي نزل البئر إذا قل ماؤها فيملاً الدلاء و سنل بعض أنمة اللغة عن الفرق بين الماتح و الماتح فقال اعتبر نقطتي الإعجام فالأعلى للأعلى و الأدنى للأدنى و الغرب الدلو العظيمة و الكدح شدة السعي و الحركة قال تعالى **يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا** . قوله و بدوات أي ما يخطر له من آرائه التي تختلف فيها دواعيه فتقدم و تحجم و مات غريرا أي شابا و يمكن أن يراد به أنه غير مجرب للأمور . و الهفوة الزلة هفا يهفو لم يفد عوضا أي لم يكتسب . و غير جماحة بقاياها قال أبو كبير الهذلي

و مبراً من كل غير حيضة

و فساد مرضعة و داء مغيل

و الجماح الشرة و ارتكاب الهوى و سنن مراحه السنن الطريقة و المراح شدة الفرج و النشاط . قوله فظل سادرا السادر ها هنا غير السادر الأول لأنه ها هنا المغمى عليه كأنه

[272]

سكران و أصله من سدر البعير من شدة الحر و كثرة الطلاء بالقطران فيكون كالناعم لا يحس و مراده ع ها هنا أنه بدأ به المرض و لادمة للصدر ضاربة له و التدام النساء ضربهن الصدور عند النياحة سكرة ملهثة تجعل الإنسان لاهتا لشدها لهث يلهث لهثانا و لهاتا و يروى ملهية بالياء أي تلهي الإنسان و تشغله . و الكارثة فاعلة من كثره الغم يكرثه بالضم أي اشتد عليه و بلغ منه غاية المشقة . الجذبة جذب الملك الروح من الجسد أو جذب الإنسان إذا احتضر ليسجى . و السوقة من سياق الروح عند الموت و المبلس الذي بينس من رحمة الله و منه سمي إبليس و الإبلاس أيضا الانكسار و الحزن و السلس السهل المقادة و الأعواد خشب الجنازة و رجيع و صب الرجيع المعنى الكال و الوصب الوجع و صب الرجل يوصب فهو واصب و أوصبه الله فهو موصب و الموصب بالتشديد الكثير الأوجاع و النضو الهزيل و حشدة الإخوان جمع حاشد و هو المتأهب المستعد و دار غربته قبره و كذلك منقطع زورته لأن الزيارة تنقطع عنده . و مفرد وحشته نحو ذلك لانفراده بعمله و استيحاش الناس منه حتى إذا انصرف المشيع و هو الخارج مع جنازته أقعد في حفرته هذا تصریح بعذاب القبر و سنذكر ما يصلح ذكره في هذا الموضوع . و النجي المناجي و نزول الحميم و تصلية الجحيم من الألفاظ الشريفة القرآنية . ثم نفى ع أن يكون في العذاب فتور يجد الإنسان معه راحة أو سكون يزيح عنه الألم أي يزيله أو أن الإنسان يجد في نفسه قوة تحجز بينه و بين الألم أي تمنع و يموت موتا ناجزا معجلا فيستريح أو ينام فيسلو وقت نومه عما أصابه من الألم في اليقظة كما في دار الدنيا .

ثم قال بين أطوار الموتات و هذا في ظاهره متناقض لأنه نفى الموت مطلقا ثم قال بين أطوار الموتات و الجواب أنه أراد بالموتات الألام العظيمة فسامها موتات لأن العرب تسمى المشقة العظيمة موتا كما قال

إنما الميت ميت الأحياء

و يقولون الفقر الموت الأحمر و استعمالهم مثل ذلك كثير جدا . ثم قال إنا بالله عانذون عدت بفلان و استعدت به أي التجأت إليه

فصل في ذكر القبر و سؤال منكر و نكير

و اعلم أن لقاضي القضاة في كتاب طبقات المعتزلة في باب القبر و سؤال منكر و نكير كلاما أنا أورد هاهنا بعضه قال رحمه الله تعالى إن عذاب القبر إنما أنكره ضرار بن عمرو و لما كان ضرار من أصحاب واصل بن عطاء ظن كثير من الناس أن ذلك مما أنكرته المعتزلة و ليس الأمر كذلك بل المعتزلة رجلا أحدهما يجوز عذاب القبر و لا يقطع به و هم الأقلون و الآخر يقطع على ذلك و هم أكثر أصحابنا لظهور الأخبار الواردة فيه و إنما تنكر المعتزلة قول طائفة من الجهلة إنهم يعذبون و هم موتى لأن العقل يمنع من ذلك و إذا كان الإنسان مع قرب العهد بموته و لما يدفن يعلمون أنه لا يسمع و لا يبصر و لا يدرك و لا يألم و لا يلتذ فكيف يجوز عليه ذلك و هو ميت في قبره و ما روي من أن الموتى يسمعون لا يصح إلا أن يراد به أن الله تعالى أحياهم و قوى حاسة سمعهم فسمعوا و هم أحياء .

[274]

قال رحمه الله تعالى و أنكر أيضا مشايخنا أن يكون عذاب القبر دائما في كل حال لأن الأخبار إنما وردت بذلك في الجملة فالذي يقال به هو قدر ما تقتضيه الأخبار دون ما زاد عليه مما لا دليل عليه و لذلك لسنا نوقت في التعذيب وقتا و إن كان الأقرب في الأخبار أنها الأوقات المقارنة للدفن و إن كان لا نعيها بأعيانها . هكذا قال قاضي القضاة و الذي أعرفه أنا من مذهب كثير من شيوخنا قبل قاضي القضاة أن الأغلب أن يكون عذاب القبر بين النفختين . ثم إن قاضي القضاة سأل نفسه فقال إذا كانت الآخرة هي وقت المجازاة فكيف يعذب في القبر في أيام الدنيا . و أجاب بأن القليل من العقاب المستحق قد يجوز أن يجعله الله في الدنيا لبعض المصالح كما فعل في تعجيل إقامة الحدود على من يستحقها فلا يمنع منه تعالى أن يفعل ذلك بالإنسان إذا كان من أهل النار . ثم سأل نفسه فقال إذا كان بالموت قد زال عنه التكليف فكيف يقولون يكون ذلك من مصلحه . و أجاب بأننا لم نقل إن ذلك من مصلحه و هو ميت و إنما نقول إنه مصلحة أن نعلم في الدنيا ذلك من حال الموتى لأنه إذا تصور أنه مات عوجل بضرب من العقاب في القبر كان أقرب إلى أن ينصرف عن كثير من المعاصي و قد يجوز أن يكون ذلك لطفًا للملائكة الذين يتولون هذا التعذيب . فأما القول في منكر و نكير فإنه سأل نفسه رحمه الله تعالى و قال كيف يجوز أن يسموا بأسماء الذم و عندكم أن الملائكة أفضل من الأنبياء .

[275]

و أجاب فقال إن التسمية إذا كانت لقبا لم يقع بها ذم لأن الذم إنما يقع لفائدة الاسم و الألقاب كالإشارات لا فائدة تحتها و لذا يلقب الرجل المسلم بظالم و كلب و نحو ذلك فيجوز أن يكون هذان الاسمان من باب الألقاب و يجوز أن يسميا بذلك من حيث يهجمان على الإنسان عند إكمال الله تعالى عقله على وجه ينكره و يرتاع منه فسميا منكرًا و نكيرًا . قال و قد روي في المسألة في القبر أخبار كثيرة و كل ذلك مما لا قبح فيه بل يجوز أن يكون من مصلح المكلفين فلا يصح المنع عنه . و جملة الأمر أن كل ما ثبت من ذلك بالتواتر و الإجماع و ليس بمستحيل في القدرة و لا قبح في الحكمة يجب القول به و ما عداه مما وردت به آثار و أخبار أحاد يجب أن يجوز و يقال إنه مظنون ليس بمعلوم إذا لم يمنع منه الدليل : عِبَادَ اللَّهِ أَيَّنَ الَّذِينَ عَمَرُوا فَعَمُوا وَ عُلِمُوا فَفَهَمُوا وَ أَنْظَرُوا فَلَهُوَا وَ سَلِمُوا فَسَمُوا أَهْلُوا طَوِيلًا وَ مَنَحُوا جَمِيلًا وَ حَذَرُوا أَلِيمًا وَ عَدُوا جَسِيمًا إِحْذَرُوا الذُّنُوبَ الْمُؤَرِّطَةَ وَ الْعُيُوبَ الْمُسْخِطَةَ أُولِي الْأَبْصَارِ وَ الْأَسْمَاعِ وَ الْعَافِيَةِ وَ الْأَمْتَاعِ هَلْ مِنْ مَنَاصِ أَوْ

خَلَّاصٍ أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَلَاذٍ أَوْ فِرَارٍ أَوْ مَحَارٍ فَأَتَى تُوفُّكُونَ أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ أَمْ بِمَا دَا تَعْتَرُونَ وَ إِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ذَاتِ
الطُّولِ وَ الْعَرْضِ قَيْدُ قَدِهِ مُنْعَفِرًا مُتَعَفِّرًا عَلَى خَدِّهِ الْأَنْ عِبَادَ اللَّهِ وَ الْخِنَاقُ مُهْمَلٌ وَ الرُّوحُ مُرْسَلٌ فِي فَيْئَةِ الْإِنْشَادِ وَ رَاحَةَ

[276]

الْأَجْسَادِ وَ بَاحَةَ الْإِحْتِشَادِ وَ مَهْلَ الْبُقْيَةِ وَ أَنْفِ الْمَشْيَةِ وَ إِنْظَارَ التَّوْبَةِ وَ إِنْفَسَاحَ الْحَوْبَةِ قَبْلَ الصَّنَكِ وَ الْمَضِيقِ وَ الرُّوْعِ وَ
الرُّهُوقِ وَ قَبْلَ قُدُومِ الْغَائِبِ الْمُنْتَظَرِ وَ أَخْذَةَ الْعَزِيزِ الْمُقْتَدِرِ قَالَ الرُّضِي رَحِمَهُ اللَّهُ وَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ عَ لَمَّا خَطَبَ بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ
اقشعرت لها الجلود و بكت العيون و رجفت القلوب و من الناس من يسمي هذه الخطبة الغراء نعم الرجل ينعم ضد قولك
بنس و جاء شاذًا نعم ينعم بالكسر و أنظروا أمهلوا و الذنوب المورطة التي تلقي أصحابها في الورطة و هي الهلاك قال
روبة

فأصبحوا في ورطة الأوراط

و أصله أرض مطمئنة لا طريق فيها و قد أورطت زيدا و ورطته توريطا فتورط ثم قال ع أولي الأبصار و الأسماع ناداهم
نداء ثانيا بعد النداء الذي في أول الفصل و هو قوله عباد الله فقال يا من منحهم الله أبصارا و أسماعا و أعطاهم عافية و
متعهم متاعا هل من مناص و هو الملجأ و المفرد يقال ناص عن قرنه مناصا أي فر و راوغ قال سبحانه **وَ لَا تَجِئَنَّ مَنَاصٍ**

[277]

و المحار المرجع من حار يحور أي رجع قال تعالى **إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ** . و يوفكون يقلبون أفكه يافكه عن كذا قلبه عنه
إلى غيره و مثله يصرفون . و قيد قده مقدار قده يقال قرب منه قيد رمح و قاد رمح و المراد هاهنا هو القبر لأنه بمقدار
قامة الإنسان . و المنعفر الذي قد لامس العفر و هو التراب . ثم قال ع الآن و الخناق مهمل تقديره اعملوا الآن و أنتم
مخلون متمكنون لم يعقد الحبل في أعناقكم و لم تقبض أرواحكم . و الروح يذكر و يؤنث و الفينة الوقت و يروى و فينة
الارتياح و هو الطلب . و أنف المشية أول أوقات الإرادة و الاختيار . قوله و انفساح الحوبة أي سعة وقت الحاجة و الحوبة
الحاجة و الأرب قال الفرزدق

فهب لي خنيسا و اتخذ فيه منة

لحوبة أم ما يسوغ شرابها

و الغائب المنتظر هو الموت . قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى حدثني ثمامة قال سمعت جعفر بن يحيى و كان من
أبلغ الناس و أفصحهم يقول الكتابة ضم اللفظة إلى أختها أ لم تسمعوا قول شاعر لشاعر و قد تفاخرا أنا أشعر منك لأبي
أقول البيت و أخاه و أنت تقول البيت و ابن عمه ثم قال و ناهيك حسنا بقول علي بن أبي طالب ع هل من مناص أو خلاص
أو معاذ أو ملاذ أو فرار أو محار .

[278]

قال أبو عثمان و كان جعفر يعجب أيضا بقول علي ع أين من جد و اجتهد و جمع و احتشد و بنى فشيده و فرش فمهده و زخرف فنجد قال أ لا ترى أن كل لفظة منها آخذة بعنق قرينتها جاذبة إياها إلى نفسها دالة عليها بذاتها قال أبو عثمان فكان جعفر يسميه فصيح قريش . و اعلم أننا لا يتخالجنا الشك في أنه ع أفصح من كل ناطق بلغة العرب من الأولين و الآخرين إلا من كلام الله سبحانه و كلام رسول الله ص و ذلك لأن فضيلة الخطيب و الكاتب في خطابته و كتابته تعتمد على أمرين هما مفردات الألفاظ و مركباتها . أما المفردات فإن تكون سهلة سلسلة غير وحشية و لا معقدة و ألفاظه ع كلها كذلك فأما المركبات فحسن المعنى و سرعة وصوله إلى الأفهام و اشتماله على الصفات التي باعتبارها فضل بعض الكلام على بعض و تلك الصفات هي الصناعة التي سماها المتأخرون البديع من المقابلة و المطابقة و حسن التقسيم و رد آخر الكلام على صدره و الترصيع و التسهيم و التوشيح و المماثلة و الاستعارة و لطافة استعمال المجاز و الموازنة و التكافؤ و التسميط و المشاكلة . و لا شبهة أن هذه الصفات كلها موجودة في خطبه و كتبه مبنوثة متفرقة في فرش كلامه ع و ليس يوجد هذان الأمران في كلام أحد غيره فإن كان قد تعلمها و أفكر فيها و أعمل رويته في رصفها و نثرها فلقد أتى بالعجب العجاب و وجب

[279]

أن يكون إمام الناس كلهم في ذلك لأنه ابتكره و لم يعرف من قبله و إن كان اقتضبها ابتداء و فاضت على لسانه مرتجلة و جاش بها طبعه بديهية من غير روية و لا اعتماد فأعجب و أعجب . و على كلا الأمرين فلقد جاء مجليا و الفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره و بحق ما قال معاوية لمحقق الضبي لما قال له جنتك من عند أعيان الناس يا ابن اللخناء أ لعلني تقول هذا و هل سن الفصاحة لقريش غيره . و اعلم أن تكلف الاستدلال على أن الشمس مضيئة يتعب و صاحبه منسوب إلى السفه و ليس جاحد الأمور المعلومة علما ضروريا بأشد سفها ممن رام الاستدلال بالأدلة النظرية عليها

[280]

83 - و من كلام له ع في ذكر عمرو بن العاص

عَجِباً لِابْنِ النَّابِغَةِ يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً وَ أَنِّي امْرُؤٌ تَلْعَابَةٌ أَعَافِسُ وَ أُمَارِسُ لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً وَ نَطَقَ أَثِمًا أَمَا وَ شَرُّ
الْقَوْلِ الْكَذِبُ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ وَ يَعِدُ فَيُخْلِفُ وَ يُسْأَلُ فَيُبْخَلُ وَ يُسْأَلُ فَيُلْحِفُ وَ يَخُونُ الْعَهْدَ وَ يَقَطْعُ الْإِلَّالَ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ
فَأَيُّ رَاجِرٍ وَ أَمْرٍ هُوَ مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفَ مَأْخِذَهَا فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرَ [أَكْبَرَ] مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ الْفَرْمَ [الْقَوْمَ]
سَبَبْتُهُ أَمَا وَ اللَّهُ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ وَ إِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نِسْيَانُ الْأَخْرَةِ وَ إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى
شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أُتَيْتَهُ وَ يَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً الدُّعَابَةَ الْمَزَاحَ دَعَبَ الرَّجُلِ بِالْفَتْحِ وَ رَجُلٌ تَلْعَابَةٌ بِكَسْرِ التَّاءِ
كثِيرُ اللَّعِبِ وَ التَّلْعَابُ بِالْفَتْحِ مَصْدَرٌ لِعَبَ . وَ الْمَعَافَسَةُ الْمَعَالِجَةُ وَ الْمَصَارَعَةُ وَ مِنْهُ الْحَدِيثُ عَافَسْنَا النِّسَاءَ وَ الْمَمَارَسَةُ
نَحْوَهُ . يَقُولُ عَ إِذَا عَمِرَا يَقْدَحُ فِي عِنْدَ أَهْلِ الشَّامِ بِالدُّعَابَةِ وَ اللَّعِبِ وَ أَنِّي كَثِيرٌ

[281]

الممازحة حتى أني ألاعب النساء و أغازلهن فعل المترف الفارع القلب الذي تتقضى أوقاته بملاذ نفسه . و يلحف يلح في
السؤال قال تعالى لا يَسْتَأْذِنُونَ النَّاسَ إِحْافاً وَ مِنْهُ الْمَثَلُ لَيْسَ لِلْمَلْحَفِ مِثْلُ الرَّدِّ . وَ الْإِلَّالُ الْعَهْدُ وَ لَمَّا اخْتَلَفَ اللَّفْظَانِ حَسَنُ
التقسيم بهما و إن كان المعنى واحدا . و معنى قوله ما لم تأخذ السيوف مأخذها أي ما لم تبلغ الحرب إلى أن تخالط
الرعوس أي هو مليء بالتحريض و الإغراء قبل أن تلتحم الحرب فإذا التحمت و اشتدت فلا يمكث و فعل فعلته التي فعل .
و السبة الاست و سبه يسبه طعنه في السبة . و يجوز رفع أكبر و نصبه فإن رفعت فهو الاسم و إن نصبت فهو الخبر . و
الأتية العطية و الإيتاء الإعطاء و رضخ له رضخاً أعطاه عطاء بالكثير و هي الرضيخة لما يعطى

نسب عمرو بن العاص و طرف من أخباره

و نحن نذكر طرفا من نسب عمرو بن العاص و أخباره إلى حين وفاته إن شاء الله . هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكنى أبا عبد الله و يقال أبو محمد .

[282]

أبوه العاص بن وائل أحد المستهزئين برسول الله ص و المكاشفين له بالعداوة و الأذى و فيه و في أصحابه أنزل قوله تعالى **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** . و يلقب العاص بن وائل في الإسلام بالأبتر لأنه قال لقريش سيموت هذا الأبتر غدا فينقطع ذكره يعني رسول الله ص لأنه لم يكن له ص ولد ذكر يعقب منه فأنزل الله سبحانه **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** . و كان عمرو أحد من يؤذي رسول الله ص بمكة و يشتمه و يضع في طريقه الحجارة لأنه كان ص يخرج من منزله ليلا فيطوف بالكعبة و كان عمرو يجعل له الحجارة في مسلكه ليعثر بها و هو أحد القوم الذين خرجوا إلى زينب ابنة رسول الله ص لما خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة فروعوها و قرعوا هودجها بكعوب الرماح حتى أجهضت جنينا ميتا من أبي العاص بن الربيع بعلمها فلما بلغ ذلك رسول الله ص نال منه و شق عليه مشقة شديدة و لعنهم روى ذلك الواقدي . و روى الواقدي أيضا و غيره من أهل الحديث أن عمرو بن العاص هجا رسول الله ص هجاء كثيرا كان يعلمه صبيان مكة فينشدونه و يصيحون برسول الله إذا مر بهم رافعين أصواتهم بذلك الهجاء

فقال رسول الله ص و هو يصلي بالحجر اللهم إن عمرو بن العاص هجاني و لست بشاعر فالعنه بعدد ما هجاني . و روى أهل الحديث أن النضر بن الحارث و عقبة بن أبي معيط و عمرو بن العاص عهدوا إلى سلي جمل فرفعوه بينهم و وضعوه على رأس رسول الله ص و هو ساجد بفناء الكعبة فسأل عليه فصبر و لم يرفع رأسه و بكى في سجوده و دعا عليهم

[283]

فجاءت ابنته فاطمة ع و هي باكية فاحتضنت ذلك السلا فرفعته عنه فألقته و قامت على رأسه تبكي فرفع رأسه ص و قال اللهم عليك بقريش قالها ثلاثا ثم قال رافعا صوته إني مظلوم فانتصر قالها ثلاثا ثم قام فدخل منزله و ذلك بعد وفاة عمه أبي طالب بشهرين . و لشدة عداوة عمرو بن العاص لرسول الله ص أرسله أهل مكة إلى النجاشي ليزهده في الدين و ليطرد عن بلاده مهاجرة الحبشة و ليقتل جعفر بن أبي طالب عنده إن أمكنه قتله فكان منه في أمر جعفر هناك ما هو مذكور مشهور في السير و سنذكر بعضه . فأما النابغة فقد ذكر الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار قال كانت النابغة أم عمرو بن العاص أمة لرجل من عنزة فسببت فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي بمكة فكانت بغيا ثم أعتقها فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب و أمية بن خلف الجمحي و هشام بن المغيرة المخزومي و أبو سفيان بن حرب و العاص بن وائل السهمي في طهر واحد فولدت عمرا فادعاه كلهم فحكمت أمه فيه فقالت هو من العاص بن وائل و ذلك لأن العاص بن وائل كان ينفق عليها كثيرا قالوا و كان أشبه بأبي سفيان و في ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب في عمرو بن

العاص

أبوك أبو سفيان لا شك قد بدت

لنا فيك منه بينات الشمانل

و قال أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب الإستيعاب كان اسمها سلمى و تلقبت بالنابغة بنت حرملة من بني جلان بن عنزة
بن أسد بن ربيعة بن نزار

[284]

أصابها سبب فصارت إلى العاص بن وائل بعد جماعة من قريش فأولدها عمرا . قال أبو عمر يقال إنه جعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرا و هو على المنبر من أمه فسأله فقال أُمي سلمى بنت حرملة تلقب بالنابغة من بني عنزة ثم أحد بني جلان و أصابتها راح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت فأنجبت فإن كان جعل لك شيء فخذ . و قال المبرد في كتاب الكامل اسمها ليلى و ذكر هذا الخبر و قال إنها لم تكن في موضع مرضي قال المبرد و قال المنذر بن الجارود مرة لعمرو بن العاص أي رجل أنت لو لا أن أمك أمك فقال إني أحمد الله إليك لقد فكرت البارحة فيها فأقبلت أنقلها في قبائل العرب ممن أحب أن تكون منها فما خطرت لي عبد القيس على بال . و قال المبرد و دخل عمرو بن العاص مكة فرأى قوما من قريش قد جلسوا حلقة فلما رأوه رمقوه بأبصارهم فعدل إليهم فقال أحسبكم كنتم في شيء من ذكري قالوا أجل كنا نمثل بينك و بين أخيك هشام بن العاص أيما أفضل فقال عمرو إن لهشام علي أربعة أمه بنت هشام بن المغيرة و أمي من قد عرفتم و كان أحب إلى أبيه مني و قد علمتم معرفة الوالد بولده و أسلم قبلي و استشهد و بقيت . و روى أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب الأنساب أن عمرا اختصم فيه يوم

[285]

ولادته رجلان أبو سفيان بن حرب و العاص بن وائل فليل لتحكم أمه فقالت أمه إنه من العاص بن وائل فقال أبو سفيان أما إني لا أشك أني وضعته في رحم أمه فأبى إلا العاص . فقيل لها أبو سفيان أشرف نسبا فقالت إن العاص بن وائل كثير النفقة علي و أبو سفيان شحيح . ففي ذلك يقول حسان بن ثابت لعمرو بن العاص حيث هجاه مكافنا له عن هجاء رسول الله ص

أبوك أبو سفيان لا شك قد بدت

لنا فيك منه بينات الدلائل

ففاخر به إما فخرت و لا تكن

تفاخر بالعاص الهجين بن وائل

و إن التي في ذاك يا عمرو حكمت

فقال رجاء عند ذاك لنائل

من العاص عمرو تخبر الناس كلما

تجمعت الأقوام عند المحافل

مفاخرة بين الحسن بن علي و رجالات من قريش

و روى الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات قال اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص و الوليد بن عقبة بن أبي معيط و عتبة بن أبي سفيان بن حرب و المغيرة بن شعبة و قد كان بلغهم عن الحسن بن علي ع قوارص و بلغه عنهم مثل ذلك فقالوا يا أمير المؤمنين إن الحسن قد أحيا أباه و ذكره و قال فصدق و أمر فأطيع و خفقت له النعال و إن ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه و لا يزال يبلغنا عنه ما يسوعنا . قال معاوية فما تريدون قالوا ابعث عليه فليحضر لنسبه و نسب أباه و نعيه و نوبخه و نخبره أن أباه قتل عثمان و نقرره بذلك و لا يستطيع أن يغير علينا شيئا من ذلك .

[286]

قال معاوية إني لا أرى ذلك و لا أفعله قالوا عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلن فقال ويحكم لا تفعلوا فو الله ما رأيته قط جالسا عندي إلا خفت مقامه و عيبه لي قالوا ابعث إليه على كل حال قال إن بعثت إليه لأنصفه منكم . فقال عمرو بن العاص أ تخشى أن يأتي باطله على حقنا أو يربي قوله على قولنا قال معاوية أما إني إن بعثت إليه لأمرنه أن يتكلم بلسانه كله قالوا مره بذلك . قال أما إذ عصيتموني و بعثتم إليه و أبيتم إلا ذلك فلا ترضوا له في القول و اعلموا أنهم أهل بيت لا يعيبهم العائب و لا يلصق بهم العار و لكن اذقوه بحجره تقولون له إن أباك قتل عثمان و كره خلافة الخلفاء من قبله . فبعث إليه معاوية فجاءه رسوله فقال إن أمير المؤمنين يدعوك . قال من عنده فسماهم له فقال الحسن ع ما لهم خر عليهم السقف من فوقهم و أتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم قال يا جارية ابغيني ثيابي اللهم إني أعوذ بك من شرورهم و أدرا بك في نحورهم و أستعين بك عليهم فاكفنيهم كيف شئت و أنى شئت بحول منك و قوة يا أرحم الراحمين ثم قام فلما دخل على معاوية أعظمه و أكرمه و أجلسه إلى جانبه و قد ارتاد القوم و خطرنا الفحول بغيا في أنفسهم و علوا ثم قال يا أبا محمد إن هؤلاء بعثوا إليك و عصوني .

فقال الحسن ع سبحان الله الدار دارك و الإذن فيها إليك و الله إن كنت أحببتهم إلى ما أرادوا و ما في أنفسهم إني لأستحيي لك من الفحش و إن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحيي لك من الضعف فأيهما تقرر و أيهما تنكر أما إني

[287]

لو علمت بمكانهم جنت معي بمثلهم من بني عبد المطلب و مالي أن أكون مستوحشا منك و لا منهم إن وليي الله و هو يتولى الصالحين . فقال معاوية يا هذا إني كرهت أن أدعوك و لكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له و إن لك منهم النصف و مني و إنما دعونك لنفرك أن عثمان قتل مظلوما و أن أباك قتله فاستمع منهم ثم أجبهم و لا تمنعك وحدتك و اجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك . فتكلم عمرو بن العاص فحمد الله و صلى على رسوله ثم ذكر عليا ع فلم يترك شيئا يعيبه به إلا قاله و قال إنه شتم أبا بكر و كره خلافته و امتنع من بيعته ثم بايعه مكرها و شرك في دم عمر و قتل عثمان ظلما و ادعى من الخلافة ما ليس له . ثم ذكر الفتنة يعيره بها و أضاف إليه مساوئ و قال إنكم يا بني عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك على قتلكم الخلفاء و استحلالكم ما حرم الله من الدماء و حرصكم على الملك و إتيانكم ما لا يحل ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك و ليس عندك عقل ذلك و لا ليه كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك و تركك

أحمق قريش يسخر منك و يهزأ بك و ذلك لسوء عمل أبيك و إنما دعوناك لنسبك و أباك فأما أبوك فقد تفرد الله به و كفانا أمره و أما أنت فإت في أيدينا نختار فيك الخصال و لو قتلناك ما كان علينا إثم من الله و لا عيب من الناس فهل تستطيع أن ترد علينا و تكذبنا فإن كنت ترى أنا كذبنا في شيء فاردده علينا فيما قلنا و إلا فاعلم أنك و أباك ظالمان ثم تكلم الوليد بن عتبة بن أبي معيط فقال يا بني هاشم إنكم كنتم أحوال عثمان فنعم الولد كان لكن فعرف حقكم و كنتم أصهاره فنعم الصهر كان لكم يكرمكم فكنتم

[288]

أول من حسده فقتله أبوك ظلما لا عذر له و لا حجة فكيف ترون الله طلب بدمه و أنزلكم منزلتكم و الله إن بني أمية خير لبني هاشم من بني هاشم لبني أمية و إن معاوية خير لك من نفسك . ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان فقال يا حسن كان أبوك شر قريش لقريش أسفكها لدمانها و أقطعها لأرحامها طويل السيف و اللسان يقتل الحي و يعيب الميت و إنك ممن قتل عثمان و نحن قاتلوك به و أما رجائك الخلافة فلست في زندها قادحا و لا في ميزانها راجحا و إنكم يا بني هاشم قتلتم عثمان و إن في الحق أن نقتلك و أخاك به فأما أبوك فقد كفانا الله أمره و أقاد منه و أما أنت فو الله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم و لا عدوان . ثم تكلم المغيرة بن شعبة فشتم عليا و قال و الله ما أعيبه في قضية يخون و لا في حكم يميل و لكنه قتل عثمان ثم سكتوا .

فتكلم الحسن بن علي ع فحمد الله و أثنى عليه و صلى على رسوله ص ثم قال أما بعد يا معاوية فما هؤلاء شتموني و لكنك شتمتني فحشا ألفتة و سوء رأي عرفت به و خلفا سينا ثبت عليه و بغيا علينا عداوة منك لمحمد و أهله و لكن اسمع يا معاوية و اسمعوا فلاقولن فيك و فيهم ما هو دون ما فيكم أنشدكم الله أيها الرهط أ تعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كليهما و أنت يا معاوية بهما كافر تراها ضلالة و تعبد اللات و العزى غواية و أنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما ببيعة الفتح و بيعة الرضوان و أنت يا معاوية بإحداهما كافر و بالأخرى ناكث و أنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيمانا و أنك يا معاوية و أباك

[289]

من المولفة قلوبهم تسرون الكفر و تظهرون الإسلام و تستمالون بالأموال و أنشدكم الله أ لستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله ص يوم بدر و أن راية المشركين كانت مع معاوية و مع أبيه ثم لقيكم يوم أحد و يوم الأحزاب و معه راية رسول الله ص و معك و مع أبيك راية الشرك و في كل ذلك يفتح الله له و يفلج حجته و ينصر دعوته و يصدق حديثه و رسول الله ص في تلك المواطن كلها عنه راض و عليك و على أبيك ساخط و أنشدك الله يا معاوية أ تذكر يوما جاء أبوك على جمل أحمر و أنت تسوقه و أخوك عتبة هذا يقوده فأركم رسول الله ص فقال اللهم العن الراكب و القائد و السائق أ تنسى يا معاوية الشعر الذي كتبته إلى أبيك لما هم أن يسلم تنهاه عن ذلك

يا صخر لا تسلمن يوما فتفضحنا

بعد الذين ببدر أصبحوا فرقا

خالي و عمي و عم الأم ثالثهم

و حنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا

لا تركنن إلى أمر تكلفنا

و الراقصات به في مكة الخرقا

فالموت أهون من قول العداة لقد

حاد ابن حرب عن العزى إذا فرقا

و الله لما أخفيت من أمرك أكبر مما أبديت و أنشدكم الله أيها الرهط أ تعلمون أن عليا حرم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله ص فأنزل فيه **يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ** و أن رسول الله ص بعث أكابر أصحابه إلى بني قريظة فنزلوا من حصنهم فهزموا فبعث عليا بالراية فاستنزلهم على حكم الله و حكم رسوله و فعل في خيبر مثلها

[290]

ثم قال يا معاوية أظنك لا تعلم أي أعلم ما دعا به عليك رسول الله ص لما أراد أن يكتب كتابا إلى بني خزيمة فبعث إليك ابن عباس فوجدك تأكل ثم بعثه إليك مرة أخرى فوجدك تأكل فدعا عليك الرسول بجوعك و نهمك إلى أن تموت و أنتم أيها الرهط نشدتم الله أ لا تعلمون أن رسول الله ص لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون ردها أولها يوم لقي رسول الله ص خارجا من مكة إلى الطائف يدعو ثقيفا إلى الدين فوقع به و سبه و سفهه و شتمه و كذبه و توعدده و هم أن يببطش به فلغنه الله و رسوله و صرف عنه و الثانية يوم العير إذ عرض لها رسول الله ص و هي جانية من الشام فطردها أبو سفيان و ساحل بها فلم يظفر المسلمون بها و لعنه رسول الله ص و دعا عليه فكانت وقعة بدر لأجلها و الثالثة يوم أحد حيث وقف تحت الجبل و رسول الله ص في أعلاه و هو ينادي أعل هبل مرارا فلغنه رسول الله ص عشر مرات و لعنه المسلمون و الرابعة يوم جاء بالأحزاب و غطفان و اليهود فلغنه رسول الله و ابتهل و الخامسة يوم جاء أبو سفيان في قريش فصدوا رسول الله ص عن المسجد الحرام و الهدى معكوبا أن يبلغ محله ذلك يوم الحديدية فلعن رسول الله ص أبو سفيان و لعن القادة و الأتباع و قال ملعونون كلهم و ليس فيهم من يؤمن فقيل يا رسول الله أ فما يرجى الإسلام لأحد منهم فكيف باللغنة فقال لا تصيب اللعنة أحدا من الأتباع و أما القادة فلا يفلح منهم أحد

[291]

و السادسة يوم الجمل الأحمر و السابعة يوم وقفوا لرسول الله ص في العقبة ليستنفروا ناقته و كانوا اثني عشر رجلا منهم أبو سفيان فهذا لك يا معاوية و أما أنت يا ابن العاص فإن أمرك مشترك وضعتك أمك مجهولا من عهر و سفاح فيك أربعة من قريش فغلب عليك جزاها الأهم حسبا و أحببهم منصبا ثم قام أبوك فقال أنا شأنى محمد الأبتى فأنزل الله فيه ما أنزل و قاتلت رسول الله ص في جميع المشاهد و هجوته و أذيته بمكة و كدته كيدك كله و كنت من أشد الناس له تكذيبا و عداوة ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة لتأتي بجعفر و أصحابه إلى أهل مكة فلما أخطأك ما رجوت و رجعتك الله خانبا و أكذبك و اشيا جعلت حدك على صاحبك عمارة بن الوليد فوشيت به إلى النجاشي حسدا لما ارتكب مع حليتك ففضحك الله و فضح صاحبك فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية و الإسلام ثم إنك تعلم و كل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله ص بسبعين بيتا من الشعر فقال رسول الله ص اللهم إنني لا أقول الشعر و لا ينبغي لي اللهم العنه بكل

حرف ألف لعنة فعليك إذا من الله ما لا يحصى من اللعن و أما ذكرت من أمر عثمان فأنت سعرت عليه الدنيا نارا ثم حلقت
بفلسطين فلما أتاك قتله قلت أنا أبو عبد الله إذا نكأت قرحة أدميتها ثم حبست نفسك إلى معاوية و بعث دينك بدنياه فلسنا
نلومك على بغض و لا نعاتبك على ود و بالله

[292]

ما نصرت عثمان حيا و لا غضبت له مقتولا ويحك يا ابن العاص أ لست القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة إلى
النجاشي

تقول ابنتي أين هذا الرحيل
و ما السير مني بمستنكر
فقلت ذريني فإني امرؤ
أريد النجاشي في جعفر
لأكويه عنده كية
أقيم بها نخوة الأصعر
و شائى أحمد من بينهم
و أقولهم فيه بالمنكر
و أجري إلى عتبة جاهدا
و لو كان كالذهب الأحمر
و لا أنتني عن بني هاشم
و ما اسطعت في الغيب و المحضر
فإن قبل العتب مني له
و إلا لويت له مشفري

فهذا جوابك هل سمعته و أما أنت يا وليد فو الله ما ألومك على بغض علي و قد جلدك ثمانين في الخمر و قتل أباك بين يدي
رسول الله صبيرا و أنت الذي سماه الله الفاسق و سمى عليا المؤمن حيث تفاخرتما فقلت له اسكت يا علي فأنا أشجع منك
جنانا و أطول منك لسانا فقال لك علي اسكت يا وليد فأنا مؤمن و أنت فاسق فأنزل الله تعالى في موافقة قوله **أَفَمَنْ كَانَ**
مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضا **إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا** ويحك يا وليد مهما
نسيت فلا تنس قول الشاعر فيك و فيه

أنزل الله و الكتاب عزيز

في علي و في الوليد قرآنا

[293]

فتبوا الوليد إذ ذاك فسقا

و علي مبيوا إيمانا

ليس من كان مؤمنا عمرك الله

كمن كان فاسقا خوانا

سوف يدعى الوليد بعد قليل

و علي إلى الحساب عيانا

فعلي يجزى بذاك جنانا

و وليد يجزى بذاك هوانا

رب جد لعقبة بن أبان

لايس في بلادنا تبانا

و ما أنت و قریش إنما أنت علج من أهل صفورية و أقسم بالله لأنت أكبر في الميلاد و أسن ممن تدعى إليه و أما أنت يا عتبة فو الله ما أنت بحصيف فأجيبك و لا عاقل فأحاورك و أعاتبك و ما عندك خير يرجى و لا شر يتقى و ما عقلك و عقل أمتك إلا سواء و ما يضر عليا لو سببته علي رعوس الأشهاد و أما وعيدك إياي بالقتل فهلا قتلت اللحياني إذا وجدته على فراشك أما تستحيي من قول نصر بن حجاج فيك

يا للرجال و حادث الأزمان

و لسبة تخزي أبا سفيان

نبنت عتبة خاتنه في عرسه

جبس لنيم الأصل من لحيان

و بعد هذا ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه فكيف يخاف أحد سيفك و لم تقتل فاضحك و كيف ألومك على بغض علي و قد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر و شرك حمزة في قتل جدك عتبة و أوحدهك من أخيك حنظلة في مقام واحد و أما أنت يا مغيرة فلم تكن بخليق أن تقع في هذا و شبهه و إنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة استمسكي فإني طائرة عنك فقالت النخلة و هل علمت بك واقعة علي فأعلم بك طائرة عني

[294]

و الله ما نشعر بعداوتك إيانا و لا اغتمنا إذ علمنا بها و لا يشق علينا كلامك و إن حد الله في الزنا لثابت عليك و لقد درأ عمر عنك حقا الله سائلة عنه و لقد سألت رسول الله ص هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها فقال لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا لعلمه بأنك زان و أما فخركم علينا بالإمارة فإن الله تعالى يقول **وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** . ثم قام الحسن فنفض ثوبه و انصرف فتعلق عمرو بن العاص بثوبه و قال يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله في و قذفه أمي بالزنا و أنا مطالب له بحد القذف فقال معاوية خل عنه لا جزاك الله خيرا فتركه فقال معاوية قد أنباتكم أنه ممن لا تطاق عارضته و نهيتكم أن تسبوه فعصيتموني و الله ما قام حتى أظلم على البيت قوموا عني فلقد فضحككم الله و أخزاكم بترككم الحزم و عدولكم عن رأي الناصح المشفق و الله المستعان

عمرو بن العاص و معاوية

و روى الشعبي قال دخل عمرو بن العاص على معاوية يسأله حاجة و قد كان بلغ معاوية عنه ما كرهه فكره قضاءها و تشاغل فقال عمرو يا معاوية إن السخاء فطنة و اللؤم تغافل و الجفاء ليس من أخلاق المؤمنين فقال معاوية يا عمرو بما ذا تستحق منا قضاء الحوائج العظام فغضب عمرو و قال بأعظم حق و أوجب إذ كنت في بحر عجاج فلو لا عمرو لغرقت في أقل مائه و أرقه و لكني دفعتك فيه دفعة فصرت في وسطه ثم دفعتك فيه أخرى فصرت في أعلى المواضع منه فمضى حكمك و نفذ أمرك و انطلق

[295]

لسانك بعد تلجلجه و أضاء وجهك بعد ظلمته و طمست لك الشمس بالعهن المنفوش و أظلمت لك القمر بالليله المدلهمة . فتناوم معاوية و أطبق جفنيه مليا فخرج عمرو فاستوى معاوية جالسا و قال لجلسائه أ رأيتم ما خرج من فم ذلك الرجل ما عليه لو عرض ففي التعريض ما يكفي و لكنه جبهني بكلامه و رماني بسموم سهامه . فقال بعض جلسائه يا أمير المؤمنين إن الحوائج لتقضى على ثلاث خصال إما أن يكون السائل لقضاء الحاجة مستحقا فتقضى له بحقه و إما أن يكون السائل لنيما فيصون الشريف نفسه عن لسانه فيقضى حاجته و إما أن يكون المسئول كريما فيقضيها لكرمه صغرت أو كبرت . فقال معاوية لله أبوك ما أحسن ما نطقت و بعث إلى عمرو فأخبره و قضى حاجته و وصله بصلة جليلة فلما أخذها ولى منصرفا فقال معاوية **فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ** فسمعها عمرو فالتفت إليه مغضبا و قال و الله يا معاوية لا أزال أخذ منك قهرا و لا أطيع لك أمرا و أحفر لك بئرا عميقا إذا وقعت فيه لم تدرك إلا رميما فضحك معاوية فقال ما أريدك يا أبا عبد الله بالكلمة و إنما كانت آية تلوتها من كتاب الله عرضت بقلبي فاصنع ما شئت

عبد الله بن جعفر و عمرو بن العاص في مجلس معاوية

و روى المدائني قال بينا معاوية يوما جالسا عنده عمرو بن العاص إذ قال الآذن قد جاء عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقال عمرو و الله لأسوءنه اليوم فقال معاوية لا تفعل يا أبا عبد الله فإنك لا تنصف منه و لعلك أن تظهر لنا من منقبتة ما هو خفي عنا و ما لا نحب أن نعلمه منه .

[296]

و غشيهم عبد الله بن جعفر فأدناه معاوية و قربه فمال عمرو إلى بعض جلساء معاوية فنال من علي ع جهارا غير ساتر له و ثلثه ثلثا قبيحا . فالتمع لون عبد الله بن جعفر و اعتراه أفكل حتى أرعدت خصائله ثم نزل عن السرير كالفنيق فقال عمرو مه يا أبا جعفر فقال له عبد الله مه لا أم لك ثم قال

أظن الحلم دل علي قومي

و قد يستجهل الرجل الحليم

ثم حسر عن ذراعيه و قال يا معاوية حتام نتجرع غيظك و إلى كم الصبر على مكروه قولك و سيئ أدبك و ذميم أخلاقك هبلك الهبول أ ما يزرعك ذمام المجالسة عن القذع لجليسك إذا لم تكن لك حرمة من دينك تنهاك عما لا يجوز لك أما و الله لو عطفك أو اصر الأرحام أو حاميت على سهمك من الإسلام ما أرعيت بني الإمام المتك و العبيد الصك أعراض قومك . و ما يجهل موضع الصفوة إلا أهل الجفوة و إنك لتعرف و شانظ قريش و صبوة غرائزها فلا يدعونك تصويب ما فرط من خطئك في سفك دماء المسلمين و محاربة أمير المؤمنين إلى التماذي فيما قد وضح لك الصواب في خلافه فاقصد لمنهج الحق فقد طال عمهك عن سبيل الرشد و خبطك في بحور ظلمة الغي .

[297]

فإن أبيت إلا تتابعنا في قبح اختيارك لنفسك فأعفنا من سوء القالة فينا إذا ضمنا و إياك الندي و شأنك و ما تريد إذا خلوت و الله حسيبك فو الله لو لا ما جعل الله لنا في يديك لما أتيناك . ثم قال إنك إن كلفنتي ما لم أطق ساءك ما سرك مني من خلق . فقال معاوية يا أبا جعفر أقسمت عليك لتجلسن لعن الله من أخرج ضب صدرك من وجاره محمول لك ما قلت و لك عندنا ما أملت فلو لم يكن محمدك و منصبك لكان خلقك و خلقك شافعين لك إلينا و أنت ابن ذي الجناحين و سيد بني هاشم . فقال عبد الله كلا بل سيد بني هاشم حسن و حسين لا يمتازهما في ذلك أحد . فقال أبا جعفر أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كأنه ما كانت و لو ذهبت بجميع ما أملك فقال أما في هذا المجلس فلا ثم انصرف . فأتبعه معاوية بصره و قال و الله لكانه رسول الله ص مشيه و خلقه و خلقه و إنه لمن مشكاته و لوددت أنه أخي بنفيس ما أملك . ثم التفت إلى عمرو فقال أبا عبد الله ما تراه منعه من الكلام معك قال ما لا خفاء به عنك قال أظنك تقول إنه هاب جوابك لا و الله و لكنه ازدراك و استحقرك و لم يرك للكلام أهلا أ ما رأيت إقباله علي دونك ذاهبا بنفسه عنك . فقال عمرو فهل لك أن تسمع ما أعدته لجوابه قال معاوية اذهب إليك أبا عبد الله فلاة حين جواب سائر اليوم . و نهض معاوية و تفرق الناس



عبد الله بن العباس و رجالات قريش في مجلس معاوية

و روى المدائني أيضا قال وفد عبد الله بن عباس على معاوية مرة فقال معاوية لابنه يزيد و لزيد ابن سمية و عتبة بن أبي سفيان و مروان بن الحكم و عمرو بن العاص و المغيرة بن شعبة و سعيد بن العاص و عبد الرحمن ابن أم الحكم إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس و ما كان شجر بيننا و بينه و بين ابن عمه و لقد كان نصبه للتحكيم فدفع عنه فحركوه على الكلام لنبلغ حقيقة صفته و نقف على كنه معرفته و نعرف ما صرف عنا من شبا حده و زوي عنا من دهاء رأيه فربما وصف المرء بغير ما هو فيه و أعطي من النعت و الاسم ما لا يستحقه . ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس فلما دخل و استقر به المجلس ابتداءه ابن أبي سفيان فقال يا ابن عباس ما منع عليا أن يوجه بك حكما فقال أما و الله لو فعل لقرن عمرا بصعبة من الإبل يوجع كفه مراسها و لأذهلت عقله و أجرضته بريقه و قدحت في سويداء قلبه فلم يبرم أمرا و لم ينفذ ترابا إلا كنت منه بمرأى و مسمع فإن أنكأه أدميت قواه و إن أدمه فصمت عراه بغرب مقول لا يقل حده و أصالة رأي كمتاح الأجل لا وزر منه أصدع به أديمه و أقل به شبا حده و أشحذ به عزائم المتقين و أزيح به شبه الشاكين . فقال عمرو بن العاص هذا و الله يا أمير المؤمنين نجوم أول الشر و أفول آخر الخير و في حسمه قطع مادته فبادره بالحملة و انتهز منه الفرصة و اردع بالتنكيل به غيره و شرد به من خلفه . فقال ابن عباس يا ابن النابغة ضل و الله عقلك و سفه حلمك و نطق الشيطان على لسانك هلا توليت ذلك بنفسك يوم صفين حين دعيت نزال و تكافح الأبطال

[299]

و كثرت الجراح و تقصفت الرماح و برزت إلى أمير المؤمنين مصلولا فانكفاً نحوك بالسيف حاملا فلما رأيت الكواشر من الموت أعددت حيلة السلامة قبل لقائه و الانكفاء عنه بعد إجابة دعائه فمحنته رجاء النجاة عورتك و كشفت له خوف بأسه سواتك حذرا أن يصطلمك بسطوته و يلتهمك بحملته ثم أشرت على معاوية كالناصح له بمبارزته و حسنت له التعرض لمكافحته رجاء أن تكتفي منونته و تعدم صورته فعلم غل صدرك و ما انحنت عليه من النفاق أضلحك و عرف مقر سهمك في غرضك . فاكفف غرب لسانك و اقمع عوراء لفظك فإنك لمن أسد خادر و بحر زاخر إن تبرزت للأسد افترسك و إن عمت في البحر قمسك . فقال مروان بن الحكم يا ابن عباس إنك لتصرف أنيابك و توري نارك كأنك ترجو الغلبة و تؤمل العافية و لو لا حلم أمير المؤمنين عنكم لتناولكم بأقصر أنامله فأوردكم منهلا بعيدا صدره و لعمري لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم و لئن عفا عن جرائمكم فقيما ما نسب إلى ذلك . فقال ابن عباس و إنك لتقول ذلك يا عدو الله و طريد رسول الله و المباح دمه و الداخل بين عثمان و رعيته بما حملهم على قطع أوداجه و ركوب أثباجه أما و الله لو طلب معاوية ثاره لأخذك به و لو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله و آخره . و أما قولك لي إنك لتصرف أنيابك و توري نارك فسل معاوية و عمرا يخبراك ليلة الهرير كيف ثبتنا للمثلات و استخفافنا بالمعضلات و صدق جلاذنا عند المصاولة و صبرنا

[300]

على اللأواء و المطاولة و مصافحتنا بجباهنا السيوف المرهفة و مباشرتنا بنحورنا حد الأسنة هل خمننا عن كرائم تلك المواقف أم لم نبذل مهجنا للمتالف و ليس لك إذ ذاك فيها مقام محمود و لا يوم مشهود و لا أثر معدود و إنهما شهدا ما لو

شهدت لأقلتك فأربع على ظلك و لا تتعرض لما ليس لك فاتك كالمغروز في صغد لا يهبط برجل و لا يرقى بيد . فقال زياد يا ابن عباس إني لأعلم ما منع حسنا و حسينا من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ما سولت لهما أنفسهما و غرهما به من هو عند البأساء سلمهما و ايم الله لو وليتهما لأدأبا في الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما و نقل بمكانهما لبثهما . فقال ابن عباس إذن و الله يقصر دونهما باعك و يضيق بهما ذراعك و لو رمت ذلك لوجدت من دونهما فنة صدقا صبورا على البلاء لا يخيمون عن اللقاء فلعركوك بكلاكهم و وطنوك بمناسمهم و أوجروك مشق رماحهم و سفار سيوفهم و و خز أسنتهم حتى تشهد بسوء ما أتيت و تتبين ضياع الحزم فيما جنيت فحذار حذار من سوء النية فتكافأ برد الأمنية و تكون سببا لفساد هذين الحيين بعد صلاحهما و سعيا في اختلافهما بعد اتلافهما حيث لا يضرهما إبناسك و لا يغني عنهما إبناسك . فقال عبد الرحمن ابن أم الحكم لله در ابن ملجم فقد بلغ الأمل و أمن الوجل و أحد الشفرة و الآن المهرة و أدرك الثأر و نفى العار و فاز بالمنزلة العليا و رقي الدرجة القصوى . فقال ابن عباس أما و الله لقد كرع كأس حنفة بيده و عجل الله إلى النار بروحه

[301]

و لو أبدى لأمير المؤمنين صفحته لخالطه الفحل القطم و السيف الخدم و لألقه صابا و سقاه سما و أحقه بالوليد و عتبه و حنظلة فكلهم كان أشد منه شكيمة و أمضى عزيمة ففرى بالسيف هامهم و رملهم بدمانهم و قرى الذناب أشلاءهم و فرق بينهم و بين أحبانهم أولئك حصب جهنم هم لها و اردون و هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا و لا غرو إن ختل و لا وصمة إن قتل فإننا لكما قال دريد بن الصمة

فإننا للحم السيف غير مكره

و نلحمه طورا و ليس بذى نكر

يغار علينا و اترين فيشتفى

بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

فقال المغيرة بن شعبة أما و الله لقد أشرت على علي بالنصيحة فآثر رأيه و مضى على غلوانه فكانت العاقبة عليه لا له و إني لأحسب أن خلقه يقتدون بمنهجه . فقال ابن عباس كان و الله أمير المؤمنين ع أعلم بوجوه الرأي و معاهد الحزم و تصريف الأمور من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه و عنف عليه قال سبحانه **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَقَدْ وَفَّفَكَ عَلَى ذِكْرِ مَبِينٍ وَ آيَةً مَثَلُوهُ قَوْلَهُ تَعَالَى وَ مَا كُنْتُمْ مَتَّخِذِي الْمُضِلِّينَ**

[302]

عَضُدًا و هل كان يسوغ له أن يحكم في دماء المسلمين و فيء المؤمنين من ليس بمأمون عنده و لا موثوق به في نفسه هيئات هيئات هو أعلم بفرض الله و سنة رسوله أن يبطن خلاف ما يظهر إلا للتقية و لات حين تقية مع وضوح الحق و ثبوت الجنان و كثرة الأنصار يمضي كالسيف المصلت في أمر الله مؤثرا لطاعة ربه و التقوى على آراء أهل الدنيا . فقال يزيد بن معاوية يا ابن عباس إنك لتتطق بلسان طلق ينبئ عن مكنون قلب حرق فاطو ما أنت عليه كشحا فقد محاضوء حقنا ظلما باطلكم . فقال ابن عباس مهلا يزيد فو الله ما صفت القلوب لكم منذ تكدرت بالعداوة عليكم و لا دنت بالمحبة

إليكم مذ نأت بالبغضاء عنكم لا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم و إن تدل الأيام نستقض ما سد عنا و نسترجع ما ابتز منا كيلا بكيلا و وزنا بوزن و إن تكن الأخرى فكفى بالله وليا لنا و وكيلا على المعتدين علينا . فقال معاوية إن في نفسي منكم لحزازات يا بني هاشم و إني لخليق أن أدرك فيكم الثأر و أنفي العار فإن دماءنا قبلكم و ظلامتنا فيكم . فقال ابن عباس و الله إن رمت ذلك يا معاوية لتتيرن عليك أسدا مخدرة و أفاعي مطرقة لا يفتؤها كثرة السلاح و لا يعضها نكاية الجراح يضعون أسيافهم على عواتقهم يضربون قدما قدما من ناوأهم يهون عليهم نباح الكلاب و عواء الذئاب

[303]

لا يقاتون بوتر و لا يسبقون إلى كريم ذكر قد وطنوا على الموت أنفسهم و سمت بهم إلى العلياء همهم كما قالت الأزدية

قوم إذا شهدوا الهياج فلا
ضرب ينهههم و لا زجر
و كأنهم آساد غينة قد
غرثت و بل متونها القطر

فلتكونن منهم بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب فرسك و كان أكبر همك سلامة حشاشة نفسك و لو لا طعام من أهل الشام وقوك بأنفسهم و بذلوا دونك مهجهم حتى إذا ذاقوا وخز الشفار و أيقنوا بطلول الدمار رفعوا المصاحف مستجيرين بها و عاندين بعصمتها لكنت شلوا مطروحا بالعراء تسفي عليك رياحها و يعتورك ذبابها . و ما أقول هذا أريد صرفك عن عزيمتك و لا إزالتك عن معقود نيتك لكن الرحم التي تعطف عليك و الأوامر التي توجب صرف النصيحة إليك . فقال معاوية لله درك يا ابن عباس ما تكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيل و رأي أصيل و بالله لو لم يلد هاشم غيرك لما نقص عددهم و لو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثرهم . ثم نهض فقام ابن عباس و انصرف . و روى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب في أماليه أن عمرو بن العاص قال لعتبة بن أبي سفيان يوم الحكمين أ ما ترى ابن عباس قد فتح عينيه و نشر أذنيه و لو قدر أن يتكلم بهما فعل و إن غفلة أصحابه لمجبورة بفطنته و هي ساعتنا الطولى فاكفنيه . قال عتبة بجهدى .

[304]

قال فقلت ففعدت إلى جانبه فلما أخذ القوم في الكلام أقبلت عليه بالحديث ففرع يدي و قال ليست ساعة حديث قال فأظهرت غضبا و قلت يا ابن عباس إن تثتك بأحلامنا أسرعت بك إلى أعراضنا و قد و الله تقدم من قبل العذر و كثر منا الصبر ثم أقدعته فجاش لي مرجه و ارتفعت أصواتنا فجاء القوم فأخذوا بأيدينا فنحوه عني و نحوني عنه فجننت فقربت من عمرو بن العاص فرماني بمؤخر عينيه و قال ما صنعت فقلت كفيتهك التقوالة فحمم كما يحمم الفرس للشعير قال و فات ابن عباس أول الكلام فكره أن يتكلم في آخره . و قد ذكرنا نحن هذا الخبر فيما تقدم في أخبار صفين على وجه آخر غير هذا الوجه

عمارة بن الوليد و عمرو بن العاص في الحبشة

فأما خبر عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي أخي خالد بن الوليد مع عمرو بن العاص فقد ذكره ابن إسحاق في كتاب المغازي قال كان عمارة بن الوليد بن المغيرة و عمرو بن العاص بن وائل بعد مبعث رسول الله ص خرجا إلى أرض الحبشة على شركهما و كلاهما كان شاعرا عارما فاتكا . و كان عمارة بن الوليد رجلا جميلا وسيما تهواه النساء صاحب محادثة لهن فركبا البحر و مع عمرو بن العاص امرأته حتى إذا صاروا في البحر ليالي أصابا من خمر معهما فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص قبليني فقال لها عمرو قبلي ابن عمك فقبلته فهوئها عمارة و جعل يراودها عن نفسها فامتنعت منه ثم إن عمرا جلس على منجاف

[305]

السفينة يبول فدفعه عمارة في البحر فلما وقع عمرو سبح حتى أخذ بمنجاف السفينة فقال له عمارة أما و الله لو علمت أنك سابع ما طرحتك و لكنني كنت أظن أنك لا تحسن السباحة فضغن عمرو عليه في نفسه و علم أنه كان أراد قتله و مضيا على وجههما ذلك حتى قدما أرض الحبشة فلما نزلاها كتب عمرو إلى أبيه العاص بن وائل أن اخلعني و تبرأ من جريرتي إلى بني المغيرة و سائر بني مخزوم و خشي على أبيه أن يتبع بجريرته فلما قدم الكتاب على العاص بن وائل مشى إلى رجال بني المغيرة و بني مخزوم فقال إن هذين الرجلين قد خرجا حيث علمتم و كلاهما فاتك صاحب شر غير مأمونين على أنفسهما و لا أدري ما يكون منهما و إني أبرأ إليكم من عمرو و جريرته فقد خلعتهم فقال عند ذلك بنو المغيرة و بنو مخزوم و أنت تخاف عمرا على عمارة و نحن فقد خلعنا عمارة و تبرأنا إليك من جريرته فحل بين الرجلين قال قد فعلت فخلعوها و برئ كل قوم من صاحبهم و ما يجري منه . قال فلما اطمأنا بأرض الحبشة لم يلبث عمارة بن الوليد أن دب لامرأة النجاشي و كان جميلا صبيحا وسيما فأدخلته فاختلف إليها و جعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبر عمرا بما كان من أمره فيقول عمرو لا أصدقك أنك قدرت على هذا إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك فلما أكثر عليه عمارة بما كان يخبره و كان عمرو قد علم صدقه و عرف أنه دخل عليها و رأى من حاله و هيئته و ما تصنع المرأة به إذا كان معها و بيتوته عندها حتى يأتي إليه مع السحر ما عرف به ذلك و كانا في منزل واحد و لكنه كان يريد أن يأتيه بشيء لا يستطيع دفعه إن هو رفع شأنه إلى النجاشي فقال له في بعض

[306]

ما يتذاكران من أمرها إن كنت صادقا فقل لها فلتدهنك بدهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره فإني أعرفه و انتني بشيء منه حتى أصدقك قال أفعل . فجاء في بعض ما يدخل إليها فسالها ذلك فدهنته منه و أعطته شيئا في قارورة فلما شمه عمرو عرفه فقال أشهد أنك قد صدقت لقد أصبت شيئا ما أصاب أحد من العرب مثله قط و نلت من امرأة الملك شيئا ما سمعنا بمثل هذا و كانوا أهل جاهلية و شبانا و ذلك في أنفسهم فضل لمن أصابه و قدر عليه . ثم سكت عنه حتى اطمأن و دخل على النجاشي فقال أيها الملك إن معي سفيها من سفهاء قريش و قد خشيت أن يعرني عندك أمره و أردت أن أعلمك بشأنه و ألا أرفع ذلك إليك حتى استثبت أنه قد دخل على بعض نسانك فأكثر و هذا دهنك قد أعطته و ادهن به . فلما شم النجاشي الدهن قال صدقت هذا دهنني الذي لا يكون إلا عند نسائي فلما أثبت أمره دعا بعمارة و دعا نسوة آخر فجردوه من

ثيابه ثم أمرهن أن ينفخن في إحليله ثم خلى سبيله . فخرج هاربا في الوحش فلم يزل في أرض الحبشة حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب فخرج إليه رجال من بني المغيرة منهم عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة و كان اسم عبد الله قبل أن يسلم بجيرا فلما أسلم سماه رسول الله ص عبد الله فرصدوه على ماء بأرض الحبشة كان يرده مع الوحش فزعموا أنه أقبل في حمر من حمر الوحش ليرد معها فلما وجد ريح الإنس هرب منه حتى إذا أجهده العطش ورد فشرب حتى تملأ و خرجوا في طلبه .

[307]

قال عبد الله بن أبي ربيعة فسبقت إليه فالتزمته فجعل يقول أرسلني أني أموت إن أمسكتني قال عبد الله فضبطته فمات في يدي مكانه فواروه ثم انصرفوا . و كان شعره فيما يزعمون قد غطي كل شيء منه فقال عمرو بن العاص يذكر ما كان صنع به و ما أراد من امرأته

تعلم عمار أن من شر سنة
على المرء أن يدعى ابن عم له ابنا
أ أن كنت ذا بردين أحوى مرجلا
فلست براع لابن عمك محرما
إذا المرء لم يترك طعاما يحبه
و لم ينه قلبا غاويا حيث يمما
قضى وطرا منه يسيرا و أصبحت
إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

أمر عمرو بن العاص في صفين

و أما خبر عمرو في صفين و اتقائه حملة علي ع بطرحه نفسه على الأرض و إبداء سواته فقد ذكره كل من صنف في السير كتابا و خصوصا الكتب الموضوعه لصفين .

[313]

قال نصر بن مزاحم في كتاب صفين قال حدثنا محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي عمرو و عن عبد الرحمن بن حاطب قال كان عمرو بن العاص عدوا للحارث بن نصر الخثعمي و كان من أصحاب علي ع و كان علي ع قد تهيئته فرسان الشام و ملأ قلوبهم بشجاعته و امتنع كل منهم من الإقدام عليه و كان عمرو قلما جلس مجلسا إلا ذكر فيه الحارث بن نصر الخثعمي و عابه فقال الحارث

ليس عمرو ببارك ذكره الحارث
بالسوء أو يلاقي عليا
واضع السيف فوق منكبه الأيمن
لا يحسب الفوارس شيا
ليت عمرا يلقاه في حومة النقع
و قد أمست السيوف عصيا
حيث يدعو للحرب حامية القوم
إذا كان بالبراز مليا
فالقه إن أردت مكرمة الدهر
أو الموت كل ذاك عليا

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمرا فأقسم بالله ليليقن عليا و لو مات ألف مائة فلما اختلطت الصفوف لقيه فحمل عليه برمحه فتقدم علي ع و هو مختلط سيفا

[314]

معتقل رمحا فلما رهقه همز فرسه ليعلو عليه فألقى عمرو نفسه عن فرسه إلى الأرض شاغرا برجليه كاشفا عورته فانصرف عنه لافتا وجهه مستديرا له فعد الناس ذلك من مكارمه و سؤده و ضرب بها المثل . قال نصر و حدثني محمد بن إسحاق قال اجتمع عند معاوية في بعض ليالي صفين عمرو بن العاص و عتبة بن أبي سفيان و الوليد بن عقبة و مروان بن الحكم و عبد الله بن عامر و ابن طلحة الطلحات الخزاعي فقال عتبة إن أمرنا و أمر علي بن أبي طالب لعجب ما فينا إلا موتور مجتاح . أما أنا فقتل جدي عتبة بن ربيعة و أخي حنظلة و شرك في دم عمي شيبه يوم بدر . و أما أنت يا وليد فقتل أباك صبيرا و أما أنت يا ابن عامر فصرع أباك و سلب عمك . و أما أنت يا ابن طلحة فقتل أباك يوم الجمل و أيتم إخوتك و أما أنت يا مروان فكما قال الشاعر

و أفلتهن علباء جريضا
و لو أدركنه صفر الوطاب

فقال معاوية هذا الإقرار فأين الغير قال مروان و أي غير تريد قال أريد أن تشجروه بالرماح قال و الله يا معاوية ما أراك إلا
هاذيا أو هازنا و ما أرانا إلا ثقلنا عليك فقال ابن عقبة

يقول لنا معاوية بن حرب
أ ما فيكم لو اترككم طلبوب
يشد على أبي حسن علي
بأسمر لا تهجنه الكعوب

[315]

فيهتك مجمع اللبات منه
و نقع الحرب مطرد ينوب
فقلت له أ تلعب يا ابن هند
كأنك بيننا رجل غريب
أ تغرينا بحية بطن واد
إذا نهشت فليس لها طبيب
و ما ضبع يدب ببطن واد
أتيح له به أسد مهيب
بأضعف حيلة منا إذا ما
لقيناه و لقياه عجيب
سوى عمرو و قته خصيتاه
و كان لقلبه منه وجيب
كان القوم لما عاينوه
خلال النقع ليس لهم قلوب
لعمر أبي معاوية بن حرب
و ما ظني ستلحقه العيوب
لقد ناداه في الهيجا علي
فأسمعه و لكن لا يجيب

فغضب عمرو و قال إن كان الوليد صادقا فليلق عليا أو فليقف حيث يسمع صوته . و قال عمرو

يذكرني الوليد دعا علي
و نطق المرء يملؤه الوعيد
متى تذكر مشاهده قريش
يطر من خوفه القلب الشديد
فأما في اللقاء فأين منه
معاوية بن حرب و الوليد
و غيرني الوليد لقاء ليث
إذا ما شد هابته الأسود
لقيت و لست أجهله عليا
و قد بلت من العلق اللبود
فأطعنه و يطعني خلاسا
و ما ذا بعد طعنته أريد
فرمها منه يا ابن أبي معيط
و أنت الفارس البطل النجيد
و أقسم لو سمعت ندا علي
لطار القلب و انتفخ الوريد

[316]

و لو لاقيته شقت جيوب
عليك و لطمت فيك الخدود

و ذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب الإستيعاب في باب بسر بن أرطاة قال كان بسر من الأبطال الطغاة و كان مع معاوية بصفين فأمره أن يلقي عليا ع في القتال و قال له إنني سمعتك تتمنى لقاءه فلو أظفرك الله به و صرعته حصلت علي الدنيا و الآخرة و لم يزل يشجعه و يمني حتى رأى عليا في الحرب فقصدته و التقيا فصرعه علي ع و عرض له معه مثل ما عرض له مع عمرو بن العاص في كشف السوأة . قال أبو عمر و ذكر ابن الكلبي في كتابه في أخبار صفين أن بسر بن أرطاة بارز عليا يوم صفين فطعنه علي ع فصرعه فانكشف له فكف عنه كما عرض له مثل ذلك مع عمرو بن العاص . قال و للشعراء فيهما أشعار مذكورة في موضعها من ذلك الكتاب منها فيما ذكر ابن الكلبي و المدانني قول الحارث بن نصر الخثعمي و كان عدوا لعمرو بن العاص و بسر بن أرطاة

أ في كل يوم فارس لك ينتهي
و عورته وسط العجاجة باديه
يكف لها عنه علي سنانه
و يضحك منها في الخلاء معاوية

بدت أمس من عمرو ففتع رأسه
و عورة بسر مثلها حذو حاذيه
فقولاً لعمرو ثم بسر ألا انظرا
لنفسكما لا تلقيا الليث ثانيه
و لا تحمدا إلا الحيا و خصاكما
هما كانتا و الله للنفس واقيه
و لولاهما لم تنجوا من سنانه
و تلك بما فيها إلى العود ناهيه
متى تلقيا الخيل المغيرة صبحه
و فيها علي فاتركا الخيل ناحيه
و كونا بعيدا حيث لا يبلغ القنا
نحوركما إن التجارب كافيه

و روى الواقدي قال قال معاوية يوما بعد استقرار الخلافة له لعمرو بن العاص يا أبا عبد الله لا أراك إلا و يغلبني الضحك
قال بما ذا قال أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفين فأزريت نفسك فرقا من شبا سنانه و كشفت سواتك له فقال عمرو
أنا منك أشد ضحكا إني لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحرك و ربا لسانك في فمك و غصصت بريقك و ارتعدت
فرائصك و بدا منك ما أكره ذكره لك فقال معاوية لم يكن هذا كله و كيف يكون و دوني عك و الأشعريون قال إنك لتعلم أن
الذي وصفت دون ما أصابك و قد نزل ذلك بك و دونك عك و الأشعريون فكيف كانت حالك لو جمعكما مآقط الحرب فقال يا
أبا عبد الله خض بنا الهزل إلى الجد إن الجبن و الفرار من علي لا عار على أحد فيهما

خبر إسلام عمرو بن العاص

فأما القول في إسلام عمرو بن العاص فقد ذكره محمد بن إسحاق في كتاب المغازي قال حدثني زيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي عن حبيب بن أبي أوس قال حدثني عمرو بن العاص من فيه قال لما انصرفنا مع الأحزاب من الخندق جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيي و يسمعون مني فقلت لهم و الله إنني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا و إنني قد رأيت رأيا فما ترون فيه فقالوا ما رأيت فقلت أرى أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده فإن ظهر محمد على قومه أقمنا عند النجاشي فإن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد فإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتنا منهم إلا خير قالوا إن هذا الرأي فقلت فاجمعوا ما نهدي له و كان أحب ما يأتيه من أرضنا الأدم فجمعنا له أدما كثيرا ثم خرجنا حتى قدمنا عليه فو الله إنا لعنده إذ قدم عمرو بن أمية الضمري و كان رسول الله ص بعثه إليه في شأن جعفر بن أبي طالب و أصحابه . قال فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابي هذا عمرو بن أمية لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه فإذا فعلت ذلك رأيت قريش أنني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد قال فدخلت عليه فسجدت له فقال مرحبا بصديقي

[319]

أهديت إلي من بلادك شيئا قلت نعم أيها الملك قد أهديت لك أدما كثيرا ثم قربته إليه فأعجبه و اشتهاه ثم قلت له أيها الملك إنني قد رأيت رجلا خرج من عندك و هو رسول رجل عدو لنا فأعطينيه لأقتله فإنه قد أصاب من أشرافنا و خيارنا . فغضب الملك ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقا منه ثم قلت أيها الملك و الله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك فقال أ تسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله فقلت أيها الملك أ كذلك هو فقال إي و الله أطعني ويحك و اتبعه فإنه و الله لعلى حق و ليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون و جنوده قلت فبايعني له على الإسلام فبسط يده فبايعته على الإسلام و خرجت عامدا لرسول الله ص فلما قدمت المدينة جئت إلى رسول الله ص و قد أسلم خالد بن الوليد و قد كان صحبني في الطريق إليه فقلت يا رسول الله أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي و لم أذكر ما تأخر

فقال يا عمرو فإن الإسلام يجب ما قبله و إن الهجرة تجب ما قبلها فبايعته و أسلمت . و ذكر أبو عمر في الإستيعاب أن إسلامه كان سنة ثمان و أنه قدم و خالد بن الوليد و عثمان بن طلحة المدينة فلما رأهم رسول الله قال رمتكم مكة بأفلاذ كبدها . قال و قد قيل إنه أسلم بين الحديبية و خيبر و القول الأول أصح

بعث رسول الله عمرا إلى ذات السلاسل

قال أبو عمر و بعث رسول الله عمرا إلى ذات السلاسل من بلاد قضاة في ثلاثمائة و كانت أم العاص بن وائل من بلي فبعث رسول الله ص عمرا إلى أرض بلي

[320]

و عذرة يتألفهم بذلك و يدعوهم إلى الإسلام فسار حتى إذا كان على ماء أرض جذام يقال له السلاسل و قد سميت تلك الغزاة ذات السلاسل خاف فكتب إلى رسول الله ص يستجد فأمده بجيش فيه مائتا فارس فيه أهل الشرف و السوابق من المهاجرين و الأنصار فيهم أبو بكر و عمر و أمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح فلما قدموا على عمرو قال عمرو أنا أميركم و إنما أنتم مددي فقال أبو عبيدة بل أنا أمير من معي و أنت أمير من معك فأبى عمرو ذلك فقال أبو عبيدة إن رسول الله ص عهد إلي فقال إذا قدمت إلى عمرو فتطاوعا و لا تختلفا فإن خالفتني أطعتك قال عمرو فإني أخالفك فسلم إليه أبو عبيدة و صلى خلفه في الجيش كله و كان أميرا عليهم و كانوا خمسمائة

ولايات عمرو في عهد الرسول و الخلفاء

قال أبو عمر ثم ولاه رسول الله ص عمان فلم يزل عليها حتى قبض رسول الله ص و عمل لعمر و عثمان و معاوية و كان عمر بن الخطاب ولاه بعد موت يزيد بن أبي سفيان فلسطين و الأردن و ولى معاوية دمشق و بعلبك و البلقاء و ولى سعيد بن عامر بن خديم حمص ثم جمع الشام كلها لمعاوية و كتب إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى مصر فصار إليها فافتتحها فلم يزل عليها واليا حتى مات عمر فأمره عثمان عليها أربع سنين و نحوها ثم عزله عنها و وراها عبد الله بن سعد العامري . قال أبو عمر ثم إن عمرو بن العاص ادعى على أهل الإسكندرية أنهم قد نقضوا العهد الذي كان عاهدهم فعمد إليها فحارب أهلها و افتتحها و قتل المقاتلة و سبى الذرية فنقم ذلك عليه عثمان و لم يصح عنده نقضهم العهد فأمر برد السبي الذي سبوا من القرى إلى مواضعهم و عزل عمرا عن مصر و ولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري

[321]

مصر بدله فكان ذلك بدو الشر بين عمرو بن العاص و عثمان بن عفان فلما بدا بينهما من الشر ما بدا اعتزل عمرو في ناحية فلسطين بأهله و كان يأتي المدينة أحيانا فلما استقر الأمر لمعاوية بالشام بعثه إلى مصر بعد تحكيم الحكيم فافتتحها فلم يزل بها إلى أن مات أميرا عليها في سنة ثلاث و أربعين و قيل سنة اثنتين و أربعين و قيل سنة ثمان و أربعين و قيل سنة إحدى و خمسين . قال أبو عمر و الصحيح أنه مات في سنة ثلاث و أربعين و مات يوم عيد الفطر من هذه السنة و عمره تسعون سنة و دفن بالمقطم من ناحية السفح و صلى عليه ابنه عبد الله ثم رجع فصلى بالناس صلاة العيد فولاه معاوية مكانه ثم عزله و ولى مكانه أخاه عتبة بن أبي سفيان . قال أبو عمر و كان عمرو بن العاص من فرسان قريش و أبطالهم في الجاهلية مذكورا فيهم بذلك و كان شاعرا حسن الشعر و أحد الدهاة المتقدمين في الرأي و الذكاء و كان عمر بن الخطاب إذا استضعف رجلا في رأيه و عقله قال أشهد أن خالقك و خالق عمرو واحد يريد خالق الأضداد

نبذ من كلام عمرو بن العاص

و نقلت أنا من كتب متفرقة كلمات حكيمية تنسب إلى عمرو بن العاص استحسنتها و أوردتها لأني لا أجد لفاضل فضله و إن كان دينه عندي غير مرضي . فمن كلامه ثلاث لا أملهن جليسي ما فهم عني و ثوبي ما سترني و دابتي ما حملت رحلي .

[322]

و قال لعبد الله بن عباس بصفين إن هذا الأمر الذي نحن و أنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء و قد بلغ الأمر منا و منكم ما ترى و ما أبقت لنا هذه الحرب حياة و لا صبيرا و لسنا نقول لبيت الحرب عادت و لكننا نقول لبيتها لم تكن كانت فافعل فيما بقي بغير ما مضى فإنك رأس هذا الأمر بعد علي و إنما هو أمر مطاع و مأمور مطيع و مبارز مأمون و أنت هو . و لما نصب معاوية قميص عثمان على المنبر و بكى أهل الشام حوله قال قد هممت أن أدعه على المنبر فقال له عمرو إنه ليس بقميص يوسف أنه إن طال نظرهم إليه و بحثوا عن السبب وقفوا على ما لا تحب أن يقفوا عليه و لكن لذعهم بالنظر إليه في الأوقات . و قال ما وضعت سري عند أحد فأفشاه فلمته لأني أحق باللوم منه إذ كنت أضيق به صدرا منه . و قال ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر لكن العاقل من يعرف خير الشرين . و قال عمر بن الخطاب لجلسائه يوما و عمرو فيهم ما أحسن الأشياء فقال كل منهم ما عنده فقال ما تقول أنت يا عمرو فقال

الغمرات ثم ينجلينا

و قال لعائشة لوددت أنك قتلت يوم الجمل قالت و لم لا أبا لك قال كنت تموتين بأجلك و تدخلين الجنة و نجعلك أكبر التشيع على علي بن أبي طالب ع . و قال لبنيه يا بني اطلبوا العلم فإن استغيتم كان جمالا و إن افتقرتم كان مالا . و من كلامه أمير عادل خير من مطر و ابل و أسد حظوم خير من سلطان ظلوم و سلطان ظلوم خير من فتنة تدوم و زلة الرجل عظم يجبر و زلة اللسان لا تبقى و لا تذر و استراح من لا عقل له .

[323]

و كتب إليه عمر يسأله عن البحر فكتب إليه خلق عظيم يركبه خلق ضعيف . دود على عود بين غرق و نرق . و قال لعثمان و هو يخطب على المنبر يا عثمان إنك قد ركبت بهذه الأمة نهاية من الأمر و زغت فزاعوا فاعتدل أو اعتزل . و من كلامه استوحش من الكريم الجائع و من اللئيم الشبعان فإن الكريم يصول إذا جاع و اللئيم يصول إذا شبع . و قال جمع العجز إلى التواني فنتج بينهما الندامة و جمع الجبن إلى الكسل فنتج بينهما الحرمان . و روى عبد الله بن عباس قال دخلت على عمرو بن العاص و قد احتضر فقلت يا أبا عبد الله كنت تقول أشتهي أني أرى عاقلا يموت حتى أسأله كيف تجد فما ذا تجد قال أجد السماء كأنها مطبقة على الأرض و أنا بينهما و أراني كأنما أتنفس من خرق إبرة ثم قال اللهم خذ مني حتى ترضى ثم رفع يده فقال اللهم أمرت فعصينا و نهيت فركبنا فلا برئ فأعتذر و لا قوي فأنتصر و لكن لا إله إلا الله فجعل يرددها حتى فاض . و قد روى أبو عمر بن عبد البر هذا الخبر في كتاب الاستيعاب قال لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة قال اللهم أمرتني فلم أتمر و زجرتني فلم أنزجر و وضع يده في موضع الغل ثم قال اللهم لا قوي فأنتصر و لا برئ فأعتذر

و لا مستكبر بل مستغفر لا إله إلا أنت فلم يزل يرددتها حتى مات . قال أبو عمر و حدثني خلف بن قاسم قال حدثني الحسن بن رشيق قال حدثنا الطحاوي قال حدثنا المزني قال سمعت الشافعي يقول دخل ابن عباس على عمرو بن العاص في مرضه فسلم عليه فقال كيف أصبحت يا أبا عبد الله قال أصبحت و قد أصلحت من دنياي قليلا و أفسدت من ديني كثيرا فلو كان الذي أصلحت هو الذي

[324]

أفسدت و الذي أفسدت هو الذي أصلحت لفرزت و لو كان ينفعني أن أطلب طلبت و لو كان ينجيني أن أهرب هربت فقد صرت كالمنخفق بين السماء و الأرض لا أرقى بيدين و لا أهبط برجلين فعظني بعظة أنتفع بها يا ابن أخي فقال ابن عباس هيهات أبا عبد الله صار ابن أخيك أخاك و لا تشاء أن تبلى إلا بليت كيف يؤمر برحيل من هو مقيم فقال عمرو على حينها من حين ابن بضع و ثمانين تقتطني من رحمة ربي اللهم إن ابن عباس يقتطني من رحمتك فخذ مني حتى ترضى فقال ابن عباس هيهات أبا عبد الله أخذت جديدا و تعطي خلقا قال عمرو ما لي و لك يا ابن عباس ما أرسل كلمة إلا أرسلت نقيضها . و روى أبو عمر في كتاب الإستيعاب أيضا عن رجال قد ذكروهم و عددهم أن عمرا لما حضرته الوفاة قال له ابنه عبد الله و قد رآه يبكي لم تبكي أجزعا من الموت قال لا و الله و لكن لما بعده فقال له لقد كنت على خير فجعل يذكره صحبة رسول الله ص و فتوحه بالشام فقال له عمرو تركت أفضل من ذلك شهادة أن لا إله إلا الله إني كنت على ثلاثة أطباق ليس منها طبق إلا عرفت نفسي فيه كنت أول أمري كافرا فكنت أشد الناس على رسول الله ص فلو مت حينئذ و جبت لي النار فلما بايعت رسول الله ص كنت أشد الناس حياء منه فما ملأت منه عيني قط فلو مت يومئذ قال الناس هنيئا لعمرو أسلم و كان على خير و مات على خير أحواله فسرحوا له بالجنة ثم تلبثت بعد ذلك بالسلطان و بأشياء فلا أدري

[325]

أ علي أم لي فإذا مت فلا تبكين علي باكية و لا يتبعني نائح و لا تقربوا من قبري نارا و شدوا علي إزارني فإني مخاصم و شنوا علي التراب شنا فإن جنبي الأيمن ليس بأحق من جنبي الأيسر و لا تجعلوا في قبري خشبة و لا حجرا و إذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نحر جزور و تقطيعها أستأنس بكم . فإن قلت فما الذي يقوله أصحابك المعتزلة في عمرو بن العاص قلت إنهم يحكمون على كل من شهد صفيين بما يحكم به على الباغي الخارج على الإمام العادل و مذهبهم في صاحب الكبيرة إذا لم يتب معلوم . فإن قلت أليس في هذه الأخبار ما يدل على توبته نحو قوله و لا مستكبر بل مستغفر و قوله اللهم خذ مني حتى ترضى و قوله أمرت فعصيت و نهيت فركبت . و هذا اعتراف و ندم و هو معنى التوبة قلت إن قوله تعالى **و لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ** يمنع من كون هذا توبة و شروط التوبة و أركانها معلومة و ليس هذا الاعتراف و التأسف منها في شيء . و قال شيخنا أبو عبد الله أول من قال بالإرجاء المحض معاوية و عمرو بن العاص كانا يزعمان أنه لا يضر مع الإيمان معصية و لذلك قال معاوية لمن قال له حاربت من تعلم و ارتكبت ما تعلم فقال و ثق بقوله تعالى **إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**

[326]

و إلى هذا المعنى أشار عمرو بقوله لابنه تركت أفضل من ذلك شهادة أن لا إله إلا الله

فصل في شرح ما نسب إلى علي من الدعابة

فأما ما كان يقوله عمرو بن العاص في علي ع لأهل الشام إن فيه دعابة يروم أن يعيبه بذلك عندهم فأصل ذلك كلمة قالها عمر فتلقفها حتى جعلها أعداؤه عيبا له و طعنا عليه . قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب في كتاب الأمالي كان عبد الله بن عباس عند عمر فتنفس عمر نفسا عاليا قال ابن عباس حتى ظننت أن أضلاعه قد انفرجت فقلت له ما أخرج هذا النفس منك يا أمير المؤمنين إلا هم شديد . قال إي و الله يا ابن عباس إنني فكرت فلم أدر فيمن أجعل هذا الأمر بعدي ثم قال لعلك ترى صاحبك لها أهلا قلت و ما يمنع من ذلك مع جهاده و سابقته و قرابته و علمه قال صدقت و لكنه امرؤ فيه دعابة قلت فأين أنت من طلحة قال هو ذو البأ و بإصبعه المقطوعة قلت فعبد الرحمن قال رجل ضعيف لو صار الأمر إليه لوضع خاتمه في يد امرأته قلت فالزبير قال شكس لقس يلاطم في البقيع في صاع من بر قلت فسعد بن أبي وقاص قال صاحب مقتب و سلاح قلت فعثمان قال أوه أوه مرارا ثم قال و الله لئن وليها ليحملن بني أبي معيط على رقاب الناس ثم لنتهنضن إليه العرب فقتلته ثم قال يا ابن عباس إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا حصيف العقدة قليل الغرة لا تأخذه في الله لومة لائم يكون شديدا من غير عنف لينا من

[327]

غير ضعف جوادا من غير سرف ممسكا من غير وكف قال ابن عباس و كانت هذه صفات عمر ثم أقبل علي فقال إن أحرهم أن يحملهم على كتاب ربهم و سنة نبيهم لصاحبك و الله لئن وليها ليحملنهم على المحجة البيضاء و الصراط المستقيم . و اعلم أن الرجل ذا الخلق المخصوص لا يرى الفضيلة إلا في ذلك الخلق أ لا ترى أن الرجل يبخل فيعتقد أن الفضيلة في الإمساك و البخيل يعيب أهل السماح و الجود و ينسبهم إلى التبذير و إضاعة الحزم و كذلك الرجل الجواد يعيب البخلاء و ينسبهم إلى ضيق النفس و سوء الظن و حب المال و الجبان يعتقد أن الفضيلة في الجبن و يعيب الشجاعة و يعتقد كونها خرقا و تغريرا بالنفس كما قال المتنبي

يرى الجبناء أن الجبن حزم

و الشجاع يعيب الجبان و ينسبه إلى الضعف و يعتقد أن الجبن ذل و مهانة و هكذا القول في جميع الأخلاق و السجايا المقتسمة بين نوع الإنسان و لما كان عمر شديد الغلظة و عر الجانب خشن الملمس دائم العبوس كان يعتقد أن ذلك هو الفضيلة و أن خلافه نقص و لو كان سهلا طلقا مطبوعا على البشاشة و سماحة الخلق لكان يعتقد أن ذاك هو الفضيلة و أن خلافه نقص حتى لو قدرنا أن خلقه حاصل لعلي ع و خلق علي حاصل له لقال في علي لو لا شراسة فيه . فهو غير ملوم عندي فيما قاله و لا منسوب إلى أنه أراد الغض من علي و القذح

[328]

فيه و لكنه أخبر عن خلقه ظانا أن الخلافة لا تصلح إلا لشديد الشكيمة العظيم الوعورة و بمقتضى ما كان يظنه من هذا المعنى تتم خلافة أبي بكر بمشاركته إياه في جميع تدابيراته و سياسته و سائر أحواله لرفق و سهولة كانت في أخلاق أبي بكر و بمقتضى هذا الخلق المتمكن عنده كان يشير على رسول الله ص في مقامات كثيرة و خطوب متعددة بقتل قوم كان

يرى قتلهم و كان النبي ص يرى استبقاءهم و استصلاحهم فلم يقبل ع مشورته على هذا الخلق . و أما إشارته عليه يوم بدر بقتل الأسرى حيث أشار أبو بكر بالفداء فكان الصواب مع عمر و نزل القرآن بموافقته فلما كان في اليوم الثاني و هو يوم الحديبية أشار بالحرب و كره الصلح فنزل القرآن بصد ذلك فليس كل وقت يصلح تجريد السيف و لا كل وقت يصلح إغماده و السياسة لا تجري على منهاج واحد و لا تلزم نظاما واحدا . و جملة الأمر أنه رضي الله عنه لم يقصد عيب علي ع و لا كان عنده معيبا و لا منقوصا أ لا ترى أنه قال في آخر الخبر أن أحرهم أن وليها أن يحملهم على كتاب الله و سنة رسوله لصاحبك ثم أكد ذلك بأن قال إن وليهم ليحملنهم على المحجة البيضاء و الصراط المستقيم فلو كان أطلق تلك اللفظة و عنى بها ما حملها عليه الخصوم لم يقل في خاتمة كلامه ما قاله . و أنت إذا تأملت حال علي ع في أيام رسول الله ص و جدته بعيدا عن أن ينسب إلى الدعابة و المزاح لأنه لم ينقل عنه شيء من ذلك أصلا لا في كتب الشيعة و لا في كتب المحدثين و كذلك إذا تأملت حاله في أيام الخليفين أبي بكر و عمر لم تجد في كتب السيرة حديثا واحدا يمكن أن يتعلق به متعلق في دعابته و مزاحه فكيف يظن

[329]

بعمر أنه نسبه إلى أمر لم ينقله عنه ناقل و لا ندد به صديق و عدو و إنما أراد سهولة خلقه لا غير و ظن أن ذلك مما يفضي به إلى ضعف إن ولي أمر الأمة لاعتقاده أن قوام هذا الأمر إنما هو بالوعورة بناء على ما قد ألفته نفسه و طبعت عليه سجيته و الحال في أيام عثمان و أيام ولايته ع الأمر كالحال فيما تقدم في أنه لم يظهر منه دعابة و لا مزاح يسمى الإنسان لأجله ذا دعابة و لعب و من تأمل كتب السير عرف صدق هذا القول و عرف أن عمرو بن العاص أخذ كلمة عمر إذ لم يقصد بها العيب فجعلها عيبا و زاد عليها أنه كثير اللعب يعافس النساء و يمارسهن و أنه صاحب هزل . و لعمر الله لقد كان أبعد الناس من ذلك و أي وقت كان يتسع لعلي ع حتى يكون فيه على هذه الصفات فإن أزمانه كلها في العبادة و الصلاة و الذكر و الفتاوي و العلم و اختلاف الناس إليه في الأحكام و تفسير القرآن و نهاره كله أو معظمه مشغول بالصوم و ليله كله أو معظمه مشغول بالصلاة هذا في أيام سلمه فأما أيام حربه فبالسيف الشهير و السنان الطرير و ركوب الخيل و قود الجيش و مباشرة الحروب . و لقد صدق ع في قوله

إنني ليمنعني من اللعب ذكر الموت و لكن الرجل الشريف النبيل الذي لا يستطيع أعداؤه أن يذكروا له عيبا أو يعدوا عليه وصمة لا بد أن يحتالوا و يبذلوا جهدهم في تحصيل أمر ما و إن ضعف يجعلونه عذرا لأنفسهم في ذمه و يتوسلون به إلى أتباعهم في تحسينهم لهم مفارقتة و الاتحراف عنه و ما زال المشركون و المنافقون يصنعون لرسول الله ص الموضوعات ينسبون إليه ما قد برأه الله عنه من العيوب و المطاعن في حياته و بعد وفاته إلى زماننا هذا و ما يزيد الله سبحانه إلا رفعة و علوا فغير منكر أن يعيب عليا ع عمرو بن العاص و أمثاله من أعدائه بما إذا تأمله المتأمل علم أنهم باعتمادهم عليه و تعلقهم به قد اجتهدوا

[330]

في مدحه و الثناء عليه لأنهم لو وجدوا عيبا غير ذلك لذكروه و لو بالغ أمير المؤمنين و بذل جهده في أن ينثي أعداؤه و شانوه عليه من حيث لا يعلمون لم يستطع إلى أن يجد إلى ذلك طريقا أطف من هذه الطريق التي أسلكهم الله تعالى فيها و هداهم إلى منهاجها فظنوا أنهم يغضون منه و إنما أعلوا شأنه و يضعون من قدره و إنما رفعوا منزلته و مكانه

أقوال و حكايات في المزاح

و نحن نذكر من بعد ما جاء في الأحاديث الصحاح و الآثار المستفيضة المتفق على نقلها مزاح رسول الله ص و مزاح الأشراف و الأفاضل و الأكابر من أصحابه و التابعين له ليعلم أن المزاح إذا لم يخرج عن القاعدة الشرعية لم يكن قبيحا .

فأول ذلك ما رواه الناس قاطبة أن رسول الله ص قال إني أمزح و لا أقول إلا حقا . و قيل لسفيان الثوري المزاح هجنة فقال بل هو سنة

لقول رسول الله ص إني أمزح و لا أقول إلا الحق

و جاء في الخبر أن رسول الله ص قال لامرأة من الأنصار الحقي زوجك فإن في عينه بياضا فسعت نحوه مرعوبة فقال لها ما دهاك فأخبرته فقال نعم إن في عيني بياضا لا لسوء فخفصي عليك فهذا من مزاح رسول الله ص

و أتت عجوز من الأنصار إليه ع فسألته أن يدعو الله تعالى لها بالجنة فقال إن الجنة لا تدخلها العجز فصاحت فتبسم ع فقال إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبقارا

[331]

و في الخبر أيضا أن امرأة استحملت فقال إنا حاملوك إن شاء الله تعالى على ولد الناقة فجعلت تقول يا رسول الله و ما أصنع بولد الناقة و هل يستطيع أن يحملني و هو يبتسم و يقول لا أحملك إلا عليه حتى قال لها أخيرا و هل يلد الإبل إلا النوق

و في الخبر أنه ع مر ببلال و هو نائم فضربه برجله و قال أ نائمة أم عمرو فقال بلال مرعوبا فضرب بيده إلى مذاكيره فقال له ما بالك قال ظننت أنني تحولت امرأة قيل فلم يمزح رسول الله بعد هذه

و في الخبر أيضا أن نعرا كان لصبي من صبيان الأنصار فطار من يده فبكى الغلام فكان رسول الله ص يمر به فيقول يا أبا عمير ما فعل النغير و الغلام يبكي و كان يمازح ابني بنته مزاحا مشهورا و كان يأخذ الحسين ع فيجعله على بطنه و هو ع نائم على ظهره

و يقول له حزقة حزقة ترق عين بقعة

و في الحديث الصحيح المتفق عليه أنه مر على أصحاب الدركلة و هم يلعبون و يرقصون فقال جدوا يا بني أرفده حتى يعلم اليهود و النصارى أن في ديننا فسحة . قال أهل اللغة الدركلة بكسر الدال و الكاف لعبة للحبش فيها ترقص و بنو أرفدة جنس من الحبش يرقصون .

و جاء في الخبر أنه سابق عائشة فسبقته ثم سابقها فسبقها فقال هذه بتلك

و في الخبر أيضا أن أصحاب الزفافة و هم الراقصون كانوا يقمعون باب حجرة عائشة فتخرج إليهم مستمعة و مبصرة فيخرج هو ع من ورائها مستترا بها

و كان نعيمان و هو من أهل بدر أولع الناس بالمزاح عند رسول الله ص

[332]

و كان يكثر الضحك فقال رسول الله ص يدخل الجنة و هو يضحك . و خرج نعيمان هو و سويبط بن عبد العزى و أبو بكر الصديق في تجارة قبل وفاة رسول الله ص بعامين و كان سويبط على الزاد فكان نعيمان يستطعمه فيقول حتى يجيء أبو بكر فمر بركب من نجران فباعه نعيمان منهم على أنه عبد له بعشر قلائص و قال لهم إنه ذو لسان و لهجة و عساه يقول لكم أنا حر فقالوا لا عليك . و جاءوا إليه فوضعوا عمامته في عنقه و ذهبوا به فلما جاء أبو بكر أخبر بذلك فرده و أعاد القلائص إليهم فضحك رسول الله ص و أصحابه من ذلك سنة . و روي أن أعرابيا باع نعيمان عكة غسل فاشتراها منه فجاء بها إلى بيت عائشة في يومها و قال خذوها فظن رسول الله ص أنه أهداها إليه و مضى نعيمان فنزل الأعرابي على الباب فلما طال قعوده نادى يا هؤلاء إما أن تعطونا ثمن العسل أو تردوه علينا فعلم رسول الله ص بالقصة و أعطى الأعرابي الثمن و قال لنعيمان ما حملك على ما فعلت قال رأيتك يا رسول الله تحب العسل و رأيت العكة مع الأعرابي فضحك رسول الله ص و لم ينكر عليه . و سنل النخعي هل كان أصحاب رسول الله يضحكون و يمزحون فقال نعم و الإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي .

و جاء في الخبر أن يحيى ع لقي عيسى ع و عيسى متبسم فقال يحيى ع ما لي أراك لا هيا كأنك آمن فقال ع ما لي أراك عابسا

[333]

كأنك آيس فقالا لا نبرح حتى ينزل علينا الوحي فأوحى الله إليهما أحبكما إلي الطلق البسام أحسنكما ظنا بي . و روي عن كبراء الصحابة رضي الله تعالى عنهم أنهم كانوا يمتازحون و يتناشدون الأشعار فإذا خاضوا في الدين انقلبت حماليقهم و صاروا في صور أخرى . و روي أن عبد الله بن عمر قال لجاريته خلقتي خالق الخير و خلقتك خالق الشر فبكت فقال لا عليك فإن الله تعالى هو خالق الخير و هو خالق الشر . قلت يعني بالشر المرض و الغلاء و نحوهما . و كان ابن سيرين ينشد

نبت أن فتاة كنت أخطبها

عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

ثم يضحك حتى يسيل لعابه . و جاء عبد الرحمن بن عوف إلى باب عمر بن الخطاب فوجده مستلقيا على مرفقة له رافعا إحدى رجليه على الأخرى منشدا بصوت عال

و كيف ثواني بالمدينة بعد ما

قضى وطرا منها جميل بن معمر

فلما دخل عبد الرحمن و جلس قال يا أبا محمد إنا إذا خلونا قلنا كما يقول الناس . و كان سعيد بن المسيب ينشد

لقد أصبحت عرس الفرزدق جامحا

و لو رضيت رمح استه لاستقرت

و يضحك حتى يستغرق . و كان يقال لا بأس بقليل المزاح يخرج منه الرجل عن حد العبوس .

[334]

و من كلام بعض الأدباء و نحن نحمد الله إليك فإن عقدة الإسلام في قلوبنا صحيحة و أواخيه عندنا ثابتة و قد اجتهد قوم أن يدخلوا قلوبنا من مرض قلوبهم و أن يشوبوا يقيننا بشكهم فعصم الله منهم و حال توفيقه دونهم و لنا بعد مذهب في الدعابة جميل لا يشوبه أذى و لا قذى يخرج بنا إلى الأتس من العبوس و إلى الاسترسال من القطوب و يلحقتنا بأحرار الناس الذين ارتفعوا عن لبسة الرياء و أنفوا من التشوف بالتصنع . و قال ابن جريج سألت عطاء عن القراءة على ألحان الغناء و الحداء فقال لي لا بأس بذلك حدثني عبيد الله بن عمر الليثي أنه كان لداود النبي ع معزفة قد يضرب بها إذا قرأ الزبور فتجمع إليه الطير و الوحش فيبكي و يبكي من حوله . و قال جابر بن عبد الله الجعفي رأيت الشعبي يقول لخياط يمازحه عندنا حب مكسور و أحب أن تخطيه فقال الخياط أحضر لي خيوطا من ريش لأخطيه لك . و سئل الشعبي هل يجوز أن يؤكل الجني لو ظفر به فقال ليتنا نخرج منه كفافا لا لنا و لا علينا . و سأل إنسان محمد بن سيرين عن هشام بن حسان فقال توفي البارحة أما شعرت فخرج يسترجع فلما رأى ابن سيرين جزعه قرأ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** . و كان زيد بن ثابت من أفكه الناس في بيته و أرفثهم و قد أباح الله تعالى الرث إلى النساء فقال **أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ**

[335]

وَ أَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ و قال أهل اللغة الرث القول الفاحش تخاطب به المرأة حال الجماع . و مر بالشعبي حمال على ظهره دن خل فوضع الدن و قال له ما كان اسم امرأة إبليس فقال الشعبي ذلك نكاح ما شهدناه . و قال عكرمة ختن ابن عباس بنيه فأرسلني فدعوت للعبابن فلعبوا فأعطاهم أربعة دراهم . و تقدم رجلان إلى شريح في خصومة فأقر أحدهما بما ادعي عليه و هو لا يدري فقضى شريح عليه فقال أصلحك الله أ تقضي علي بغير بينة قال بلى شهد عندي ثقة قال و من هو قال ابن أخت خالتك .

و جاء في الخبر أن النبي ص مر بصهيب و هو أرمد يأكل تمرا فنهاه فقال إنما آكله عن جانب العين الصحيحة يا رسول الله فضحك منه و لم ينكر عليه

و في الخبر أنه ص مر بحسان بن ثابت و قد رش أطماره و عنده جارية تغنيه

هل على ويحكما

إن لغوت من حرج

فقال ص لا حرج إن شاء الله . و قيل إن عبد الله بن جعفر قال لحسان بن ثابت في أيام معاوية لو غنتك فلانة جاريتي صوت كذا لم تدرك ركابك فقال يا أبا جعفر فكلوا منها و أطعموا البائس الفقير .

[336]

و قال أسلم مولى عمر بن الخطاب مر بي عمر و أنا و عاصم نغني غناء النصب فوقف و قال أعيدا علي فأعدنا عليه و قلنا أينما أحسن صنعة يا أمير المؤمنين فقال مثلكما كحماري العبادي قيل له أي حماريك شر فقال هذا ثم هذا فقلت يا أمير المؤمنين أنا الأول من الحمارين فقال أنت الثاني منهما . و مر نعيمان و هو بدري بمخرمة بن نوفل في خلافة عثمان و قد كف بصره فقال أ لا يقودني رجل حتى أبول فأخذ نعيمان بيده حتى صار به إلى مؤخر المسجد و قال ها هنا فبل فبال فصاح به الناس فقال من قادني قيل نعيمان قال لله علي أن أضربه بعصاي هذه فبلغ نعيمان فاتاه فقال بلغني أنك أقسمت لتضربن نعيمان فهل لك فيه قال نعم قال قم فقام معه حتى وافى به عثمان بن عفان و هو يصلي فقال دونك الرجل فجمع محرمة يديه في العصا و ضربه بها فصاح الناس ويلك أمير المؤمنين قال من قادني قالوا نعيمان قال و ما لي و لنعيمان لا أعرض له أبدا . و كان طويس يتغنى في عرس فدخل النعمان بن بشير الأنصاري العرس و طويس يغنيهم

أجد بعمره هجرانها

و تسخط أم شاننا شانها

فأشاروا إليه بالسكوت فقال النعمان دعوه إنه لم يقل بأسا إنما قال

و عمرة من سروات النساء

تنفح بالمسك أردانها

و عمرة هذه أم النعمان و فيها قيل هذا النسب . و قد روي عن جماعة من الصحابة و التابعين اللعب بالنرد و الشطرنج و منهم من روي عنهم شرب النبيذ و سماع الغناء المطرب .

[337]

فأما أمير المؤمنين علي ع فإذا نظرت إلى كتب الحديث و السير لم تجد أحدا من خلق الله عدوا و لا صديقا روى عنه شيئا من هذا الفن لا قولاً و لا فعلاً و لم يكن جد أعظم من جده و لا وقار أتم من وقاره و ما هزل قط و لا لعب و لا فارق الحق و الناموس الديني سرا و لا جهرا و كيف يكون هازلا

و من كلامه المشهور عنه ما مزح امرؤ مزحة إلا و مج معها من عقله مجة و لكنه خلق على سجية لطيفة و أخلاق سهلة و وجه طلق و قول حسن و بشر ظاهر و ذلك من فضائله ع و خصائصه التي منحها الله بشرفها و اختصه بمزيتها و إنما كانت غلظته و فظاظته فعلا لا قولاً و ضربا بالسيف لا جيبها بالقول و طعنا باللسان لا عضها باللسان كما قال الشاعر

و تسفه أيدينا و يحلم رأينا

و نشتم بالأفعال لا بالتكلم

نبذ و أقول في حسن الخلق و مدحه

فأما سوء الخلق فلم يكن من سجاياه

فقد قال النبي ص خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل و سوء الخلق و قال الله تعالى لنبيه ص **وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** و قال أيضا **وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ** .

و قيل لرسول الله ص ما الشؤم فقال سوء الخلق . و صحب جابر رجلا في طريق مكة فأذاه سوء خلقه فقال جابر إني لأرحمه نحن نفارقه و يبقى معه سوء خلقه .

[338]

و قيل لعبد الله بن جعفر كيف تجاور بني زهرة و في أخلاقهم زعارة قال لا يكون لي قبلهم شيء إلا تركته و لا يطلبون مني شيئا إلا أعطيتهم .

و في الحديث المرفوع أنه ص قال أ لا أنبئكم بشر الناس قالوا بلى يا رسول الله قال من نزل وحده و منع رفده و ضرب عبده ثم قال أ لا أنبئكم بشر من ذلك قالوا بلى قال من لم يقل عثرة و لا يقبل معذرة . و قال إبراهيم بن عباس الصولي لو وزنت كلمة رسول الله ص بمحاسن الخلق كلها لرجحت

قوله إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم

و في الخبر المرفوع حسن الخلق زمام من رحمة الله في أنف صاحبه و الزمام بيد الملك و الملك يجره إلى الخير و الخير يجره إلى الجنة و سوء الخلق زمام من عذاب الله في أنف صاحبه و الزمام بيد الشيطان و الشيطان يجره إلى الشر و الشر يجره إلى النار

و روى الحسن بن علي ع عن النبي ص أن الرجل يدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم و إنه ليكتب جبارا و لا يملك إلا أهله

و روى أبو موسى الأشعري قال بينا رسول الله ص يمشي و امرأة بين يديه فقلت الطريق لرسول الله ص فقالت الطريق معرض إن شاء أخذ يمينا و إن شاء أخذ شمالا فقال ص دعوها فإنها جبارة . و قال بعض السلف الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب و السيئ الخلق أجنبي عند أهله . و من كلام الأحنف أ لا أخبركم بالمحمدة بلا مذمة الخلق السجيح و الكف عن القبيح أ لا أخبركم بأدواء الداء الخلق الدنيء و اللسان البذيء .

[339]

و في الحديث المرفوع أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن

و جاء مرفوعا أيضا المؤمن هين لين كالجمال الأنف إن قيد انقاد و إن أنيخ على صخرة استناخ

و جاء مرفوعا أيضا أ لا أخبركم بأحبكم إلي و أقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا المواطنون أكنافا الذين يألّفون و يؤلّفون أ لا أخبركم بأبغضكم إلي و أبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون . أبو رجاء العطاردي من سره أن يكون مؤمنا حقا فليكن أذل من قعود كل من مر به ادعاه . فضيل بن عياض لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبني عابد سيئ الخلق لأن الفاسق إذا حسن خلقه خف على الناس و أحبوه و العابد إذا ساء خلقه ثقل على الناس و مقتوه .

دخل فرقد و محمد بن واسع على رجل يعودانه فجرى ذكر العنف و الرفق فروى فرقد عن رسول الله ص أنه قيل له على من حرمت النار يا رسول الله قال على الهين اللين السهل القريب فلم يجد محمد بن واسع بيضا يكتب ذلك فيه فكتبه على ساقه . عبد الله بن الداراني ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب .

عائشة قال رسول الله ص إذا أراد الله بأهل بيت خيرا أدخل عليهم باب رفق

و عنها عنه ص من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من خير الدنيا و الآخرة

[340]

جرير بن عبد الله البجلي رفعه أن الله ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق فإذا أحب الله عبدا أعطاه الرفق و كان يقال ما دخل الرفق في شيء إلا زانه . أبو عون الأنصاري ما تكلم الإنسان بكلمة عنيفة إلا و إلى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها .

سئلت عائشة عن خلق رسول الله ص فقالت كان خلقه القرآن **خُذِ الْعَفْوَ و أْمُرْ بِالْعُرْفِ و أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** . و سئل ابن المبارك عن حسن الخلق فقال بسط الوجه و كف الأذى و بذل الندى .

ابن عباس أن الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد و أن الخلق السيئ يفسد العمل كما يفسد الخل العسل

علي ع ما من شيء في الميزان أثقل من خلق حسن

و عنه ع عنوان صحيفة المؤمن حسن خلقه

و عنه ع مرفوعا عليكم بحسن الخلق فإنه في الجنة و إياكم و سوء الخلق فإنه في النار . قال المنصور لأخيه أبي العباس في بني حسن لما أزمعوا الخروج عليه أنسهم يا أمير المؤمنين بالإحسان فإن استوحشوا فالشر يصلح ما يعجز عنه الخير و لا تدع محمدا يمرح في أعنة العقوق فقال أبو العباس يا أبا جعفر إنه من شدد نفر و من لان ألف و التغافل من سجايا الكرام

فصل في ذكر أسباب الغلظة و الفظاظة

و نحن نذكر بعد كلاما كلياً في سبب الغلظة و الفظاظة و هو الخلق المنافي للخلق الذي كان عليه أمير المؤمنين فنقول

[341]

إنه قد يكون لأمر عاند إلى المزاج الجسماني و قد يكون لأمر راجع إلى النفس فأما الأول فإنما يكون من غلبة الأخلاط السوداوية و ترمدها و عدم صفاء الدم و كثرة كدرته و عكره فإذا غلظ الدم و ثخن غلظ الروح النفساني و ثخن أيضاً لأنه متولد من الدم فيحدث منه نوع مما يحدث لأصحاب الفطرة من الاستيحاش و النبوة عن الناس و عدم الاستئناس و البشاشة و صار صاحبه ذا جفاء و أخلاق غليظة و يشبهه أن يكون هذا سبباً مادياً فإن الذي يقوى في نفسي أن النفوس إن صحت و ثبتت مختلفة بالذات . و أما الراجع إلى النفس فإن يجتمع عندها أسقاط و أنصباء من قوى مختلفة مذمومة نحو أن تكون القوة الغضبية عندها متوافرة و ينضاف إليها تصور الكمال في ذاتها و توهم النقصان في غيرها فيعتقد أن حركات غيره واقعة على غير الصواب و أن الصواب ما توهمه . و ينضاف إلى ذلك قلة أدب النفس و عدم الضبط لها و استحقاقها للغير و يقل التوقير له و ينضاف إلى ذلك لجاج و ضيق في النفس و حدة و استشاطة و قلة صبر عليه فيتولد من مجموع هذه الأمور خلق دني و هو الغلظة و الفظاظة و الوعورة و البادرة المكروهة و عدم حبه الناس و لقاؤهم بالأذى و قلة المراقبة لهم و استعمال القهر في جميع الأمور و تناول الأمر من السماء و هو قادر على أن يتناوله من الأرض . و هذا الخلق خارج عن الاعتدال و داخل في حيز الجور و لا ينبغي أن يسمى بأسماء المدح و أعني بذلك أن قوما يسمون هذا النوع من العنف و الخلق الوعر رجولية و شدة و شكيمة و يذهبون به مذهب قوة النفس و شجاعته الذي هو بالحقيقة مدح و شتان بين الخلقين فإن صاحب هذا الخلق الذي ذمناه تصدر عنه أفعال كثيرة يجور فيها على نفسه ثم على إخوانه على الأقرب فالأقرب من معاملته حتى ينتهي إلى عبده و حرمة فيكون عليهم سوط عذاب لا يقلهم عثرة و لا يرحم لهم عبرة و إن كانوا برآء الذنوب غير مجرمين و لا مكتسبي سوء بل يتجرم عليهم و يهيج من أدنى سبب يجد به طريقاً إليهم

[342]

حتى يبسط يده و لسانه و هم لا يمتنعون منه و لا يتجاسرون على رده عن أنفسهم بل يذعنون له و يقرون بذنوب لم يقترفوها استكفافاً لعاديته و تسكيناً لغضبه و هو في ذلك يستمر على طريقته لا يكف يداً و لساناً . و أصل هذا الخلق الذي ذكرناه أنه مركب من قوى مختلفة من شدة القوة الغضبية فهي الحاملة لصاحب هذا الخلق على ما يصدر عنه من البادرة المكروهة و الجبة و القحة و قد رأينا و شاهدنا من تشدد القوة الغضبية فيه فيتجاوز الغضب على نوع الإنسان إلى البهائم التي لا تعقل و إلى الأواني التي لا تحس و ربما قام إلى الحمار و إلى البرذون فضر بهما و لكهما و ربما كسر الأنية لشدة غضبه و ربما عض القفل إذا تعسر عليه و ربما كسر القلم إذا تعلق به شعره من الدواة و اجتهد في إزالتها فلم تزل . و يحكى عن بعض ملوك اليونان المتقدمين أنه كان يغضب على البحر إذا هاج و اضطرب و تأخرت سفنه عن النفوذ فيه فيقسم بمعبوده ليطمئه و ليطرحن الجبال فيه حتى يصير أرضاً و يقف بنفسه على البحر و يهدده بذلك و يزجره زجراً عنيفاً حتى تدر أوداجه و يشتد احمرار وجهه و منهم من لا يسكن غضبه حتى يصب عليه ماء بارد أو حتى يبول و

لهذا ورد في الشريعة الأمر لمن اشتد غضبه أن يتوضأ للصلاة و يصلي . و كان عمر بن الخطاب إذا غضب على واحد من أهله لا يسكن غضبه حتى يعض يده عضا شديدا حتى يدميها . و ذكر الزبير بن بكار في الموفقيات أن سرية جاءت لعبد الرحمن أو لعبيد الله

[343]

بن عمر بن الخطاب إليه تشكوه فقالت يا أمير المؤمنين أ لا تعذرني من أبي عيسى قال و من أبو عيسى قالت ابنتك عبيد الله قال ويحك و قد تكني بأبي عيسى ثم دعاه فقال أيها اكتنيت بأبي عيسى فحذر و فزع و أخذ يده فعضها ثم ضربه و قال ويحك و هل لعيسى أب أ تدري ما كنى العرب أبو سلمة أبو حنظلة أبو عرفطة أبو مرة . قال الزبير و كان عمر إذا غضب على بعض أهله لم يسكن غضبه حتى يعض يده عضا شديدا و كان عبد الله بن الزبير كذلك و لقوة هذا الخلق عنده أضرع عبد الله بن عباس في خلافته إبطال القول بالعدل و أظهره بعده فقيل له هلا قلت هذا في أيام عمر فقال هبته و كان أميراً مهيباً . و لذلك قال أيضا أبو سفيان في استلحاق زياد أخاف من هذا العير الجالس أن يخرق علي إهابي فإذا هابه أبو سفيان و هو من بني عبد مناف في المنزلة التي تعلم و حوله بنو عبد شمس و هم جمرة قريش فما ظنك بمن هو دونه . و قد علمت حال جبلة بن الأيهم و ارتداده عن الإسلام لتهده له و وعيده إياه أن يضربه بالدرة و فساد الحال بينه و بين خالد بن الوليد بعد أن كان وليا مصافيا و منحرفا عن غيره قاليا و الشأن الذي كان بينه و بين طلحة حتى هم أن يوقع به و حتى هم طلحة أن يجاهره و طلحة هو الذي قال لأبي بكر عند موته ما ذا تقول لربك و قد وليت فينا فظا غليظا و هو القائل له يا خليفة رسول الله إنا كنا لا نحتمل شراسته و أنت حي تأخذ على يديه فكيف يكون حالنا معه و أنت ميت و هو الخليفة . و اعلم أنا لا نريد بهذا القول ذمه رضي الله عنه و كيف نذمه و هو أولى الناس بالمدح

[344]

و التعظيم ليمين نقيبته و بركة خلافته و كثرة الفتوح في أيامه و انتظام أمور الإسلام على يده و لكننا أردنا أن نشرح حال العنف و الرفق و حال سعة الخلق و ضيقه و حال البشاشة و العبوس و حال الطلاقة و الوعورة فنذكر كل واحد منها ذكرنا كليا لا نخص به إنسانا بعينه فأما عمر فإنه و إن كان وعرا شديدا خشنا فقد رزق من التوفيق و العناية الإلهية و نجح المساعي و طاعة الرعية و نفوذ الحكم و قوة الدين و حسن النية و صحة الرأي ما يربي محاسنه و محامده على ما في ذلك الخلق من نقص و ليس الكامل المطلق إلا الله تعالى وحده . فأما حديث الرضيخة و ما جعل معاوية لعمر و بن العاص من جعالة على مبايعته و نصرته فقد تقدم ذكره في أخبار صفين المشروحة في هذا الكتاب من قبل

[345]

84 - و من خطبة له ع

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ وَالْآخِرُ لَا غَايَةَ لَهُ لَا تَقَعُ الْأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفَةٍ وَلَا تَعْقُدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ وَلَا تَتَأَلَّهُ التَّجَرُّنَةُ وَالتَّبَعِيضُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَبْصَارُ وَالْقُلُوبُ فِي هَذَا الْفَصْلِ عَلَى قِصَرِهِ ثَمَانِي مَسَائِلَ مِنْ مَسَائِلِ التَّوْحِيدِ . الْأُولَى أَنَّهُ لَا ثَانِي لَهُ سُبْحَانَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ . وَالثَّانِيَّةُ أَنَّهُ قَدِيمٌ لَا أَوَّلَ لَهُ فَإِنْ قُلْتَ لَيْسَ يَدُلُّ كَلَامَهُ عَلَى الْقَدَمِ لِأَنَّهُ قَالَ الْأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ فَيُوهَمُ كَوْنُهُ غَيْرَ قَدِيمٍ بِأَنَّهُ يَكُونُ مُحَدَّثًا وَلَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ لِأَنَّهُ مُحَدَّثٌ عَنْ عَدَمٍ وَ الْعَدَمُ لَيْسَ بِشَيْءٍ قُلْتَ إِذَا كَانَ مُحَدَّثًا كَانَ لَهُ مُحَدَّثٌ فَكَانَ ذَلِكَ الْمَحْدَثُ قَبْلَهُ فَتُبِتَ أَنَّهُ مَتَى صَدَقَ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ قَبْلَهُ صَدَقَ كَوْنُهُ قَدِيمًا . وَالثَّلَاثَةُ أَنَّهُ أَبَدِيٌّ لَا انْتِهَاءَ وَ لَا انْقِضَاءَ لِدَاتِهِ . وَالرَّابِعَةُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ أَعْنَى الْمَعْنَى . وَ الْخَامِسَةُ نَفْيُ كَوْنِهِ مَكِيفًا لِأَنَّ كَيْفًا إِنَّمَا يَسْأَلُ بِهَا عَنْ ذَوِي الْهَيْئَاتِ وَالْأَشْكَالِ وَ هُوَ مُنْزَعٌ عَنْهَا . وَ السَّادِسَةُ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَبَعِضٍ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِجَسْمٍ وَ لَا عَرْضٍ .

[346]

و السابعة أنه لا يرى ولا يدرك . و الثامنة أن ماهيته غير معلومة و هو مذهب الحكماء و كثير من المتكلمين من أصحابنا و غيرهم . و أدلة هذه المسائل مشروحة في كتبنا الكلامية . و اعلم أن التوحيد و العدل و المباحث الشريفة الإلهية ما عرفت إلا من كلام هذا الرجل و أن كلام غيره من أكابر الصحابة لم يتضمن شيئا من ذلك أصلا و لا كانوا يتصورونه و لو تصوروه لذكروه و هذه الفضيلة عندي أعظم فضائله ع : وَ مِنْهَا فَاتَّعَظُوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْعَبْرِ النَّوَافِعِ وَ اعْتَبِرُوا بِالْأَيِّ السَّوَاطِعِ وَ ارْذَجِرُوا بِالنَّذْرِ الْبِوَالِغِ وَ انْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَ الْمَوَاعِظِ فَكَأَنَّ قَدْ عَلِقْتُمْ مَخَالِبَ الْأُمْنِيَّةِ وَ انْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عِلَاقَةُ الْأُمْنِيَّةِ وَ دَهَمَتْكُمْ مَفْطَعَاتُ الْأُمُورِ وَ السِّيَاقَةُ إِلَى الْوَرْدِ الْمُرُودِ فَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَانِقٌ وَ شَهِيدٌ سَانِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا وَ شَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا الْعِبْرَ جَمْعُ عِبْرَةٍ وَ هِيَ مَا يَعْتَبَرُ بِهِ أَي يَتَعَذَّرُ وَ الْآيُ جَمْعُ آيَةٍ وَ يَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ

[347]

بها آي القرآن و يجوز أن يريد بها آيات الله في خلقه و في غرائب الحوادث في العالم . و السواطع المشرقة المنيرة . و النذر جمع نذير و هو المخوف و الأحسن أن يكون النذر هاهنا هي الإنذارات نفسها لأنه قد وصف ذلك بالبوالغ و فواعل لا تكون في الأكثر إلا صفة المونث . و مفضعات الأمور شداندها الشنيعة أفضع الأمر فهو مفضع و يجوز فظع الأمر بالضم فظاعة فهو فظيع و أفضع الرجل على ما لم يسم فاعله أي نزل به ذلك . و قوله و السياقة إلى الورد المورود يعني الموت و قوله سائق و شهيد و قد فسر ع ذلك و قال سائق يسوقها إلى محشرها و شاهد يشهد عليها بعملها و قد قال بعض المفسرين إن الآية لا تقتضي كونها اثنتين بل من الجائز أن يكون ملكا واحدا جامعا بين الأمرين كأنه قال و جاءت كل نفس معها ملك يسوقها و يشهد عليها و كلام أمير المؤمنين يحتمل ذلك أيضا لأنه لم يقل أحدهما لكن الأظهر في الأخبار و الآثار أنهما ملكان . فإن قلت إذا كان تعالى عالما بكل شيء فأي حاجة إلى الملائكة التي تكتب الأعمال كما قال سبحانه **بلى وَ رُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يُكْتَبُونَ** و إذا كان تعالى أعدل العادلين فأي حاجة إلى ملك يشهد على المكلف يوم القيامة و إذا كان قادرا لذاته فأي حاجة إلى ملك يسوق المكلف إلى المحشر قلت يجوز أن يكون في تقرير مثل ذلك في أنفس المكلفين في الدنيا أطراف و مصالح لهم في أديانهم فيخاطبهم الله تعالى به

لوجوب اللطف في حكمته و إذا خاطبهم به وجب فعله في الآخرة لأن خبره سبحانه لا يجوز الخلف عليه : وَ مِنْهَا فِي صِفَةِ
 الْجَنَّةِ دَرَجَاتٌ مُتَفَاوِئَاتٌ وَ مَنَازِلٌ مُتَفَاوِئَاتٌ لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا وَ لَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا وَ لَا يَهْرَمُ خَالِدُهَا وَ لَا يَبْأَسُ [يَبْأَسُ]
 سَاكِنُهَا الدرجات جمع درجة و هي الطبقات و المراتب و يقال لها درجات في الجنة و دركات في النار و إنما تفاضلت و
 تفاوتت بحسب الأعمال و لا يجوز أن يقع ذلك تفضلا لأن التفضل بالثواب قبيح . فَإِنْ قَلتَ فَمَا قَوْلُكَ فِي الْحُورِ وَ الْوَلَدَانِ وَ
 الْأَطْفَالِ وَ الْمَجَانِينَ قَلتَ يَكُونُ الْوَاصِلُ إِلَيْهِمْ نَعِيمًا وَ لَذَّةً لَا شَبَهَةَ فِي ذَلِكَ وَ لَكِنْ لَا ثَوَابَ لَهُمْ وَ لَا يَنَالُونَهُ وَ الثَّوَابُ أَمْرٌ
 أَخْصَ مِنَ الْمَنَافِعِ وَ النِّعَمِ لِأَنَّهُ مَنَافِعٌ يَقْتَرِنُ بِهَا التَّعْظِيمُ وَ التَّجْبِيلُ وَ هَذَا الْأَمْرُ الْأَخْصَ لَا يَحْسَنُ إِصْصَالَهُ إِلَّا إِلَى أَرْبَابِ
 الْعَمَلِ . وَ قَوْلُهُ لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا وَ لَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا قَوْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَّةِ إِلَّا مَا يَحْكِي عَنْ أَبِي الْهَذِيلِ أَنَّ حَرَكَاتِ
 أَهْلِ الْجَنَّةِ تَنْتَهِي إِلَى سَكُونٍ دَائِمٍ وَ قَدْ نَزَّهَهُ قَوْمٌ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ هَذَا الْقَوْلِ وَ أَكْذَبُوا رِوَايَتَهُ وَ مَنْ أَثْبَتَهُ مِنْهُمْ عَنْهُ زَعَمَ أَنَّهُ
 لَمْ يَقُلْ بِانْقِطَاعِ النِّعَمِ لَكِنْ بِانْقِطَاعِ الْحَرَكَاتِ مَعَ دَوَامِ النِّعَمِ وَ إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَدَلَّ عَلَى أَنَّ

الحركة الماضية يستحيل ألا يكون لها أول عورض بالحركات المستقبلية لأهل الجنة و النار فالتزم أنها متناهية و إنما
 استبعد هذا عنه لأنه كان أجل قدرا من أن يذهب عليه الفرق بين الصورتين . و يبأس مضارع بنس و جاء فيه يبنس
 بالكسر و هو شاذ كشذوذ يحسب و ينعم و معنى يبأس يصيبه البؤس و هو الشقاء

85 - و من خطبة له ع

قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ وَ خَبَرَ الضَّمَائِرَ لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَ الْعَلْبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَ الْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ وَ فِي فَرَاعِهِ قَبْلَ أَوَانِ شُغْلِهِ وَ فِي مُتَنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظْمِهِ وَ لِيَمْهَدَ لِنَفْسِهِ وَ قَدَمِهِ وَ لِيَتَزَوَّدَ مِنْ دَارِ طُغْيَانِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ فَاللَّهُ اللَّهُ أَيُّهَا النَّاسُ فِيمَا اسْتَحْفَظْتُمْ [أَحْفَظْكُمْ] مِنْ كِتَابِهِ وَ اسْتَوَدَعْتُمْ مِنْ حُفُوقِهِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا وَ لَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى وَ لَمْ يَدْعُكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَ لَا عَمَى قَدْ سَمَى أَنْتَارَكُمْ وَ عِلْمَ أَعْمَالِكُمْ وَ كَتَبَ آجَالَكُمْ وَ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ نَبِيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ عَمَرَ فِيكُمْ نَبِيَّهِ أَرْمَانًا حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَ لَكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ وَ أَنْهَى إِلَيْكُمْ عَلَى لِسَانِهِ مَحَابَّةً مِنَ الْأَعْمَالِ وَ مَكَارِهَهُ وَ نَوَاهِيَهُ وَ أَمْرَهُ وَ أَلْفَى إِلَيْكُمْ الْمَعْدِرَةَ وَ اتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ وَ قَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ وَ أَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ السَّرَائِرَ جَمْعَ سَرِيرَةٍ وَ هُوَ مَا يَكْتُمُ مِنَ السِّرِّ . وَ خَبَرَ الضَّمَائِرَ بَفَتْحِ الْبَاءِ امْتَحْنَهَا وَ ابْتَلَاهَا وَ مِنْ رَوَاهُ بِكَسْرِ الْبَاءِ أَرَادَ عِلْمَ وَ الْاسْمَ

[351]

الخبر بضم الخاء و هو العلم و الضمان جمع ضمير و هو ما تضمنه و تكنه في نفسك . و في قوله له الإحاطة بكل شيء و قد بينها ثلاث مسائل في التوحيد إحداهن أنه تعالى عالم بكل المعلومات . و الثانية أنه لا شريك له و إذا ثبت كونه عالما بكل شيء كان في ضمن ذلك نفي الشريك لأن الشريك لا يكون مغلوبا . و الثالثة أنه قادر على كل ما يصح تعلق قادريته تعالى به . و أدلة هذه المسائل مذكورة في الكتب الكلامية . و قوله فليعمل العامل منكم إلى قوله و ليتزود من دار طغنه لدار إقامته مأخوذ من قول رسول الله ص في خطبته المشهورة

و هي أيها الناس إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم و إن لكم غاية فانتبهوا إلى غايتكم إن المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به و أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فليأخذ العبد من نفسه لنفسه و من دنياه لأخرته و من الشببية قبل الهرم و من الحياة قبل الموت فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعجب و ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار . و المهمل المهلة و التؤدة و الإرهاق مصدر أرهاق تقول أرهاقه قرنه في الحرب إرهاقا إذا غشيه ليقنته و زيد مرهق قال الشاعر

تندى أكفهم و في أبياتهم

ثقة المجاور و المضاف المرهق

و في متنفسه أي في سعة وقته يقال أنت في نفس من أمرك أي في سعة .

[352]

و الكظم بفتحهما مخرج النفس و الجمع أكتظام و يجوز طغنه و طغنه بتحريك العين و تسكينها و قرئ بهما **يَوْمَ طَغْنَكُمْ** و طغنكم و نصب الله الله على الإغراء و هو أن تقدر فعلا ينصب المفعول به أي اتقوا الله و جعل تكرير اللفظ نائبا عن الفعل المقدر و دليلا عليه . استحفظكم من كتابه جعلكم حفظة له جمع حافظ . السدى المهمل و يجوز سدى بالفتح أسديت الإبل

أهملتها و قوله قد سمي آثاركم بفسير بتفسيرين أحدهما قد بين لكم أعمالكم خيرها و شرها كقوله تعالى **و هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** و الثاني قد أعلى مآثركم أي رفع منازلكم إن أطعتم و يكون سمي بمعنى أسمي كما كان في الوجه الأول بمعنى أبان و أوضح . و التبيان بكسر التاء مصدر و هو شاذ لأن المصادر إنما تجيء على التفعال بفتحها مثل التذكار و التكرار و لم يأت بالكسر إلا حرفان و هما التبيان و التلقاء . و قوله حتى أكمل له و لكم دينه من قوله تعالى **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** . و قوله الذي رضي لنفسه من قوله تعالى **وَ لِيُمْكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ** لأنه إذا ارتضى لهم فقد ارتضاه لنفسه أي ارتضى أن ينسب إليه فيقال هذا دين الحق و أنهى إليكم عرفكم و أعلمكم . و محابه جمع محبة و مكارهه جمع مكرهه و هي ما تكره و في هذا دلالة أن الله تعالى يحب الطاعة و يكره المعصية و هو خلاف قول المجبرة .

[353]

و الأوامر جمع أمر و أنكره قوم و قالوا هاهنا جمع أمر كالأحوص جمع أحوص و الأحامر جمع أحمر يعني الكلام الأمر لهم بالطاعات و هو القرآن . و النواهي جمع ناهية كالسوارى جمع سارية و الغواذي جمع غادية يعني الآيات الناهية لهم عن المعاصي و يضعف أن يكون الأوامر و النواهي جمع أمر و نهى لأن فعلا لا يجمع على أفاعل و فواعل و إن كان قال ذلك بعض الشواذ من أهل الأدب . و قوله و ألقى إليكم المعذرة كلام فصيح و هو من قوله تعالى **أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ** . و قدم إليكم بالوعيد و أنذركم بين يدي عذاب شديد أي أمامه و قبله مأخوذ أيضا من القرآن و معنى قوله بين يدي عذاب شديد أي أمامه و قبله لأن ما بين يديك متقدم لك : **فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ وَ اصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْغَفْلَةُ وَ التَّشَاغُلُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ وَ لَا تَرْحَسُوا لِأَنْفُسِكُمْ فَتَذْهَبَ بِكُمْ الرَّحْصُ مَذَاهِبَ الظُّلْمَةِ وَ لَا تَدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمْ الْإِدْهَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ وَ إِنَّ أَعَشَنَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ وَ الْمَغْبُوتُ مَنْ عَبَنَ نَفْسَهُ وَ الْمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ وَ السَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بغيره وَ الشَّقِيُّ مَنْ انْخَدَعَ لَهُوَاهُ وَ غُرُورِهِ**

[354]

وَ اعْلَمُوا أَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ وَ مُجَالَسَةُ أَهْلِ الْهُوَى مَنْسَأَةٌ لِلْإِيمَانِ وَ مُحَضَّرَةٌ لِلشَّيْطَانِ جَانِبُوا الْكُذْبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ الصَّادِقُ عَلَى شَفَا مَنْجَاةٍ وَ كَرَامَةٍ وَ الْكَادِبُ عَلَى شَرَفٍ مَهْوَاةٍ وَ مَهَانَةٍ وَ لَا تَحَاسَدُوا فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ وَ لَا تَبَاعَظُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَلَ يُسْهِى الْعَقْلَ وَ يَنْسِي الذِّكْرَ فَأَكْذِبُوا الْأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ وَ صَاحِبُهُ مَغْرُورٌ قوله فاستدركوا بقية أيامكم يقال استدركت ما فات و تداركت ما فات بمعنى و اصبروا لها أنفسكم مأخوذ من قوله تعالى **وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعِشِيِّ** يقال صبر فلان نفسه على كذا أي حبسها عليه يتعدى فينصب قال عنتره

فصبرت عارفة لذلك حرة

ترسو إذا نفس الجبان تطلع

أي حبست نفسها عارفة

و في الحديث النبوي في رجل أمسك رجلا و قتله الآخر فقال ع اقتلوا القاتل و اصبروا الصابر أي احبسوا الذي أمسكه حتى يموت . و الضمير في فإنها قليل عائد إلى الأيام التي أمرهم باستدراكها يقول إن هذه الأيام التي قد بقيت من أعماركم

قليلة بالنسبة و الإضافة إلى الأيام التي تغفلون فيها عن الموعظة .

[355]

و قوله فإنها قليل فأخبر عن الموث بصيغة المذكر إنما معناه فإنها شيء قليل بحذف الموصوف كقوله **وَ حَسَنٌ أَوْلَانِكَ** **رَفِيقًا** أي قبيلا رفيقا . ثم قال و لا ترخصوا نهى عن الأخذ برخص المذاهب و ذلك لأنه لا يجوز للواحد من العامة أن يقلد كلا من أئمة الاجتهاد فيما خف و سهل من الأحكام الشرعية أو لا تساهلوا أنفسكم في ترك تشديد المعصية و لا تسامحوها و ترخصوا إليها في ارتكاب الصغائر و المحقرات من الذنوب فتهجم بكم على الكبار لأن من مرن على أمر تدرج من صغيره إلى كبيره . و المداهنة النفاق و المصانعة و الادهان مثله قال تعالى **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** . قوله إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه لأنه قد صانها عن العقاب و أوجب لها الثواب و ذلك غاية ما يمكن من نصيحتها و نفعها . قوله و إن أغش الناس لنفسه أعصاهم لربه لأنه ألقاها في الهلاك الدائم و ذلك أقصى ما يمكن من غشها و الإضرار بها . ثم قال و المغبون من غبن نفسه أي أحق الناس أن يسمى مغبونا من غبن نفسه يقال غبنته في البيع غبنا بالتسكين أي خدعته و قد غبن فهو مغبون و غبن الرجل رأيه بالكسر غبنا بالتحريك فهو غبين أي ضعيف الرأي و فيه غبانة و لفظ الغبن يدل على أنه من باب غبن البيع و الشراء لأنه قال و المغبون و لم يقل و الغيبين . و المغبوط الذي يتمنى مثل حاله و الذي يتمنى زوال حاله و انتقالها هو الحاسد

[356]

و الحسد مذموم و الغبطة غير مذمومة يقال غبطته بما نال أعبطه غبطا و غبطة فاغتبط هو كقولك منعته فامتنع و حبسته فاحتبس قال الشاعر

و بينما المرء في الأحياء معتبط
إذ صار في الرمس تعفوه الأعاصير

هكذا أنشدوه بكسر الباء و قالوا فيه معتبط أي مغبوط . قوله و السعيد من وعظ بغيره مثل من الأمثال النبوية . و قد ذكرنا فيما تقدم ما جاء في ذم الرياء و تفسير كونه شركا . و قوله ع منسأة للإيمان أي داعية إلى نسيان الإيمان و إهماله و الإيمان الاعتقاد و العمل . و محضرة للشيطان موضع حضوره كقولك مسبعة أي موضع السباع و مفعة أي موضع الأفاعي . ثم نهى عن الكذب و قال إنه مجانب للإيمان و كذا ورد في الخبر المرفوع . و شفا منجاة أي حرف نجاة و خلاص و شفا الشيء حرفه قال تعالى **وَ كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ** و أشفى على الشيء و أشرف عليه بمعنى و أكثر ما يقال ذلك في المكروه يقال أشفى المريض على الموت و قد استعمله هاهنا في غير المكروه . و الشرف المكان العالي بفتح الشين و أشرفت عليه أي اطلعت من فوق . و المهواة موضع السقوط و المهانة الحقارة . ثم نهى عن الحسد و قال إنه يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب و قد ورد هذا الكلام في الأخبار المرفوعة و قد تقدم منا كلام في الحسد و ذكرنا كثيرا مما جاء فيه .

[357]

ثم نهى عن المباغضة و قال إنها الحالقة أي المستأصلة التي تأتي على القوم كالحلق للشعر . ثم نهى عن الأمل و طوله و قال إنه يورث العقل سهوا و ينسي الذكر ثم أمر بإكذاب الأمل و نهى عن الاعتماد عليه و السكون إليه فإنه من باب الغرور . و قد ذكرنا في الأمل و طوله نكتا نافعة فيما تقدم و يجب أن نذكر ما جاء في النهي عن الكذب

فصل في ذم الكذب وحقارة الكذابين

جاء في الخبر عن رسول الله ص إذا كذب العبد كذبة تباعد الملك منه مسيرة ميل من نتن ما جاء به

و عنه ع إياكم و الكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور و الفجور يهدي إلى النار و إن الرجل ليكذب و يتحرى الكذب فيكتب عند الله كاذبا و عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر و إن البر ليهدي إلى الجنة و إن الرجل ليصدق و يتحرى الصدق فيكتب عند الله صادقا

و روي أن رجلا قال للنبي ص أنا يا رسول الله أستسر بخلال أربع الزنا و شرب الخمر و السرقة و الكذب فأيتهن شنت تركتها لك قال دع الكذب فلما ولى هم بالزنا فقال يسألني فإن جحدت نقضت ما جعلت له و إن أقررت حددت ثم هم بالسرقة ثم بشرب الخمر ففكر في مثل ذلك فرجع إليه فقال قد أخذت على السبيل كله فقد تركتهن أجمع قال العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله يا بني أنت أفقه مني و أنا أعقل منك

[358]

و إن هذا الرجل يدنيك يعني عمر بن الخطاب فاحفظ عني ثلاثا لا تفشين له سرا و لا تغتابن عنده أحدا و لا يطلعن منك على كذبة قال عبد الله فكانت هذه الثلاث أحب إلي من ثلاث بدرات ياقوتا قال الواثق لأحمد بن أبي داود رحمه الله تعالى كان ابن الزيات عندي فذكرك بكل قبيح قال الحمد لله الذي أحوجه إلى الكذب علي و نزهني عن الصدق في أمره . و كان يقال أمران لا يكاد أحدهما ينفك من الكذب كثرة المواعيد و شدة الاعتذار . و من الحكم القديمة إنما فضل الناطق على الأخرس بالنطق و زين المنطق الصدق فالكاذب شر من الأخرس . قال الرشيد للفضل بن الربيع في كلام جرى بينهما كذبت فقال يا أمير المؤمنين وجه الكذوب لا يقابلك و لسانه لا يحاورك . قيل في تفسير قوله تعالى **وَ نَكُمُ أُولَئِكَ مِمَّا تَصِفُونَ** هي في الكذابين فالويل لكل كاذب إلى يوم القيامة . و من كلام بعض الصالحين لو لم أترك الكذب تأثما لتركته تكرا . أبو حيان الكذب شعار خلق و مورد رنق و أدب سيئ و عادة فاحشة و قل من استرسل معه إلا ألفه و قل من ألفه إلا أتلفه و الصدق ملبس بهي و منهل غذي و شعاع منبث و قل من اعتاده و مرن عليه إلا صحبته السكينة و أيده التوفيق و خدمته القلوب بالمحبة و لحظته العيون بالمهابة .

[359]

ابن السماك لا أدري أوجر على ترك الكذب أم لا لأنني أتركه أنفة . يحيى بن خالد رأيت شريب خمر نزع و لصا أقلع و صاحب فواحش ارتدع و لم أر كاذبا رجع . قالوا في تفسير هذا إن المولع بالكذب لا يكاد يصبر عنه فقد عوتب إنسان عليه فقال لمعاتبه يا ابن أخي لو تغرغرت به لما صبرت عنه . و قيل لكاذب معروف بالكذب أ صدقت قط قال لو لا أنني أخاف أن أصدق لقلت لا .

و جاء في بعض الأخبار المرفوعة قيل له يا رسول الله أ يكون المؤمن جبانا قال نعم قيل أ فيكون بخيلا قال نعم قيل أ

فيكون كاذبا قال لا

و قال ابن عباس الحدث حدثان حدث من فيك و حدث من فرجك . و قال بعضهم من أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون أخذه شاعر فقال

و من دعا الناس إلى ذمه
ذموه بالحق و بالباطل

و كان يقال خذوا عن أهل الشرف فإنهم قلما يكذبون . و قال بعض الصالحين لو صحبتني رجل فقال لي اشترط علي خصلة واحدة لا تزيد عليها لقلت لا تكذب . و كان يقال خصلتان لا يجتمعان الكذب و المروءة . كان يقال من شرف الصدق أن صاحبه يصدق على عدوه و من دناءة الكذب أن صاحبه يكذب و إن كان صادقا .

[360]

و مثل هذا قولهم من عرف بالصدق جاز كذبه و من عرف بالكذب لم يجز صدقه .

و جاء في الخبر المرفوع أن في المعارض لمدوحة عن الكذب . و قال ابن سيرين الكلام أوسع من أن يكذب ظريف . و قالوا في قوله تعالى لا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ لم ينس و لكنه من معارض الكلام و كذلك قالوا في قول إبراهيم **إِنِّي سَقِيمٌ** . و قال العتبي إنني لأصدق في صغار ما يضرني فكيف لا أصدق في كبار ما ينفعني و قال بعض الشعراء

لا يكذب المرء إلا من مهنته
أو عادة السوء أو من قلة الأدب
لعض جيفة كلب خير رائحة
من كذبة المرء في جد و في لعب

شهد أعرابي عند معاوية بشهادة فقال له كذبت فقال الكاذب و الله المتزمل في ثيابك فقال معاوية هذا جزاء من عجل . و قال معاوية يوما للأحنف و حدثه حديثا أ تكذب فقال له الأحنف و الله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين أهله . و دخل عبد الله بن الزبير يوما على معاوية فقال له اسمع أبياتا قلتها و كان واجدا على معاوية فقال هات فأنشده

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته
على طرف الهجران إن كان يعقل
و يركب حد السيف من أن تضيمه
إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

فقال معاوية لقد شعرت بعدنا يا أبا بكر ثم لم يلبث معاوية أن دخل عليه معن

[361]

بن أوس المزني فقال أ قلت بعدنا شيئا قال نعم و أنشده

لعمرك لا أدري و إني لأوجل

على أينا تعدو المنية أول

حتى صار إلى الأبيات التي أنشدها ابن الزبير فقال معاوية يا أبا بكر أ ما ذكرت أنفا أن هذا الشعر لك فقال أنا أصلحت المعاني و هو ألف الشعر و بعد فهو ظنري و ما قال من شيء فهو لي . و كان عبد الله بن الزبير مسترضعا في مزينة . و روى أبو العباس المبرد في الكامل أن عمر بن عبد العزيز كتب في إشخاص إياس بن معاوية المزني و عدي بن أرطاة الفزاري أمير البصرة و قاضيتها إليه فصار عدي إلى إياس و قدر أنه يمزنه عند عمر بن عبد العزيز و يثني عليه فقال له يا أبا وائلة إن لنا حقا و رحما فقال إياس أ على الكذب تريدني و الله ما يسرني أن كذبت كذبة يغفرها الله لي و لا يطلع عليها هذا و أوما إلى ابنه و لي ما طلعت عليه الشمس . و روى أبو العباس أيضا أن عمرو بن معديكرب الزبيدي كان معروفا بالكذب . و قيل لخلف الأحمر و كان مولى لهم و شديد التعصب لليمن أ كان عمرو بن معديكرب يكذب قال يكذب في المقال و يصدق في الفعال .

[362]

قال أبو العباس فروي لنا أن أهل الكوفة الأشراف كانوا يظهرن بالكناسة فيركبون على دوابهم حتى تطردهم الشمس فوقف عمرو بن معديكرب الزبيدي و خالد بن الصقعب النهدي و عمرو لا يعرفه إنما يسمع باسمه فأقبل عمرو يحدثه فقال أغرنا مرة على بني نهد فخرجوا مسترعفين بخالد بن الصقعب فحملت عليه فطعنته فأذريته ثم ملت عليه بالصمصامة فأخذت رأسه فقال خالد بن الصقعب حلا أبا ثور إن قتيلك هو المحدث فقال عمرو يا هذا إذا حدثت فاستمع فإنما نتحدث بمثل ما تستمع لنرهب به هذه المعديية . قوله مسترعفين أي مقدمين له و قوله حلا أبا ثور أي استثنى يقال حلف و لم يتحلل أي لم يستثنى و المعديية مضر و ربيعة و أياد بنو معد بن عدنان و هم أعداء اليمن في المفاخرة و التكاثر

[363]

86 - و من خطبة له ع

عِبَادَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَبْدًا أَعَاتَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ فَاسْتَشَعَرَ الْحُزْنَ وَ تَجَلَّبَبَ الْخَوْفَ فَرَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ وَ أَعَدَّ الْفَرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ وَ هَوَّنَ الشَّدِيدَ نَظَرَ فَأَبْصَرَ [فَأَقْصَرَ] وَ ذَكَرَ فَاسْتَكْتَرَّ وَ ارْتَوَى مِنْ عَذَابِ فُرَاتٍ سَهَلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ فَشَرِبَ نَهْلًا وَ سَلَكَ سَبِيلًا جَدًّا قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ وَ تَخَلَّى عَنِ الْهُمُومِ إِلَّا هَمًّا وَاحِدًا انْفَرَدَ بِهِ فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى وَ مُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى وَ صَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى وَ مَعَالِيْقِ أَبْوَابِ الرَّدَى قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ وَ سَلَكَ سَبِيلَهُ وَ عَرَفَ مَنَارَهُ وَ قَطَعَ غِمَارَهُ وَ اسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثَقِهَا وَ مِنَ الْحَبَالِ بِأَمْتِهَا فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ الْأُمُورِ مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ وَ تَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ مِصْبَاحِ ظُلُمَاتٍ كَشَافٍ عَشَوَاتٍ [عَشَوَاتٍ] مِفْتَاحِ مُبْهَمَاتٍ دَفَاعِ مُعْضَلَاتٍ دَلِيلِ فُلُواتٍ يَقُولُ فَيُفْهِمُ وَ يَسْكُتُ فَيَسْلُمُ قَدْ أَخْلَصَ لِلَّهِ فَاسْتَخْلَصَهُ فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ وَ أَوْتَادِ أَرْضِهِ قَدْ أَلْزَمَ

[364]

نَفْسَهُ الْعَدْلَ فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ يَصِفُ الْحَقَّ وَ يَعْمَلُ بِهِ لَا يَدْعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أَمَّهَا وَ لَا مَظِنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا قَدْ أَمَّكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زَمَامِهِ فَهُوَ قَائِدُهُ وَ إِمَامُهُ يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ نَفْلُهُ وَ يَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ اسْتَشَعَرَ الْحُزْنَ جَعَلَهُ كَالشَّعَارِ وَ هُوَ مَا يَلِي الْجَسَدَ مِنَ الثِّيَابِ وَ تَجَلَّبَبَ الْخَوْفَ جَعَلَهُ جَلْبَابًا أَيِ ثَوْبًا . زَهْرُ مِصْبَاحِ الْهُدَى أَضَاءُ وَ أَعَدَّ الْقُرَى لِيَوْمِهِ أَيِ أَعَدَّ مَا قَدِمَهُ مِنَ الطَّاعَاتِ قَرَى لَضَيْفِ الْمَوْتِ النَّازِلِ بِهِ وَ الْفُرَاتِ الْعَذْبِ . وَ قَوْلُهُ فَشَرِبَ نَهْلًا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِقَوْلِهِ نَهْلًا الْمَصْدَرُ مِنْ نَهَلَ يَنْهَلُ نَهْلًا أَيِ شَرِبَ حَتَّى رَوَى وَ يَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ بِالنَّهْلِ الشَّرْبَ الْأَوَّلَ خَاصَّةً وَ يَرِيدُ أَنْ يَكْتَفَى بِمَا شَرِبَهُ أَوَّلًا فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى الْعَلَلِ . وَ طَرِيقُ جَدِّ لَا عِثَارَ فِيهِ لِقُوَّةِ أَرْضِهِ وَ قَطَعَ غِمَارَهُ يَقَالُ بَحْرُ غَمْرٍ أَيِ كَثِيرِ الْمَاءِ وَ بَحَارُ غِمَارٍ وَ اسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثَقِهَا أَيِ مِنَ الْعُقُودِ الْوَثِيقَةِ قَالَ تَعَالَى **فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْأَوْثَقِ** . وَ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلَّهِ أَيِ أَقَامَهَا . كَشَافٍ عَشَوَاتٍ جَمْعُ عَشْوَةٍ وَ عَشْوَةٌ وَ عَشْوَةٌ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ وَ هِيَ الْأَمْرُ الْمَلْتَبِسُ يَقَالُ أَوْطَانِي عَشْوَةٌ .

[365]

وَ الْمَعْضَلَاتُ جَمْعُ مَعْضَلَةٍ وَ هِيَ الشَّدَائِدُ وَ الْأُمُورُ الَّتِي لَا يَهْتَدِي لَوَجْهِهَا . دَلِيلِ فُلُواتٍ أَيِ يَهْتَدِي بِهِ كَمَا يَهْتَدِي الرِّكْبُ فِي الْفَلَاةِ بِدَلِيلِهِمْ . أَمَّهَا قَصَدَهَا وَ مَظِنَّةُ الشَّيْءِ حَيْثُ يَظُنُّ وَجُودَهُ وَ النُّقْلُ مَتَاعُ الْمَسَافِرِ وَ حِشْمُهُ

فصل في العباد و الزهاد و العارفين و أحوالهم

و اعلم أن هذا الكلام منه أخذ أصحاب علم الطريقة و الحقيقة علمهم و هو تصريح بحال العارف و مكانته من الله تعالى . و العرفان درجة حال رفيعة شريفة جدا مناسبة للنبوّة و يختص الله تعالى بها من يقربه إليه من خلقه . و الأولياء على طبقات ثلاث الطبقة الأولى حال العابد و هو صاحب الصلاة الكثيرة و الصوم الدائم و الحج و الصدقة . و الطبقة الثانية حال الزاهد و هو المعرض عن ملاذ الدنيا و طبيباتها تقتعه الكسرة و تستره الخرقه لا مال و لا زوجة و لا ولد . و الطبقة الثالثة حال العارف و هو الواصل إلى الله سبحانه بنفسه لا ببدنه و البارئ سبحانه متمثل في نفسه تمثل المعشوق في ذات العاشق و هو أرفع الطبقات و بعده الزاهد . و أما العابد فهو أدونها و ذلك لأن العابد معامل كالتاجر يعبد ليثاب و يتعب نفسه ليرتاح فهو يعطي من نفسه شيئا و يطلب ثمنه و عوضه و قد يكون العابد غنيا موسرا كثير المال و الولد فليست حاله من أحوال الكمال . و أما الزاهد فإنه احتقر الدنيا و عروضها و قيناتها فخلصت نفسه من دناءة المطاعم

[366]

و صار عزيزا ملكا لا سلطان عليه لنفسه و لا لغيره فاستراح من الذل و الهوان و لم يبق لنفسه شيء تشناق إليه بعد الموت فكان أقرب إلى السلامة و النجاة من العابد الغني الموسر . و أما العارف فإنه بالحال التي وصفناها و يستلزم مع وجودها أن يكون زاهدا لأنه لا يتصور العرفان مع تعلق النفس بملاذ الدنيا و شهواتها نعم قد يحصل بعض العرفان لبعض العلماء الفضلاء مع تعلقهم بشهوات الدنيا و لكنهم لا يكونون كاملين في أحوالهم و إنما تحصل الحالة الكاملة لمن رفض الدنيا و تخلص عنها و تستلزم الحالة المذكورة أيضا أن يكون عابدا عبادة ما و ليس يشترط في حصول حال العرفان أن يكون على قدم عظيمة من العبادة بل الإكثار من العبادة حجاب كما قيل و لكن لا بد من القيام بالفرائض و شيء يسير من النوافل . و اعلم أن العارف هو العارف بالله تعالى و صفاته و ملائحته و رسله و كتبه و بالحكمة المودعة في نظام العالم لا سيما الأفلاك و الكواكب و تركيب طبقات العناصر و الأحكام و في تركيب الأبدان الإنسانية . فمن حصل له ذلك فهو العارف و إن لم يحصل له ذلك فهو ناقص العرفان و إن انضم إلى ذلك استشعاره جلال الله تعالى و عظيمته و رياضة النفس و المجاهدة و الصبر و الرضا و التوكل فقد ارتفع طبقة أخرى فإن حصل له بعد ذلك الحب و الوجد فقد ارتفع طبقة أخرى فإن حصل له بعد ذلك الإعراض عن كل شيء سوى الله و أن يصير مسلوبا عن الموجودات كلها فلا يشعر إلا بنفسه و بالله تعالى فقد ارتفع طبقة أخرى و هي أرفع طبقات .

[367]

و هناك طبقة أخرى يذكرونها و هي أن يسلب عن نفسه أيضا فلا يكون له شعور بها أصلا و إنما يكون شاعرا بالقيام الأول سبحانه لا غير و هذه درجة الاتحاد بأن تصوير الذاتان ذاتا واحدة . و هذا قول قوم من الأوائل و من المتأخرين أيضا و هو مقام صعب لا تثبت العقول لتصوره و اكتناحه . و اعلم أن هذه الصفات و الشروط و النعوت التي ذكرها في شرح حال العارف إنما يعني بها نفسه ع و هو من الكلام الذي له ظاهر و باطن فظاهره أن يشرح حال العارف المطلق و باطنه أن يشرح حال عارف معين و هو نفسه ع و سيأتي في آخر الخطبة ما يدل على ذلك . و نحن نذكر الصفات التي أشار ع إليها واحدة واحدة فأولها أن يكون عبدا أعانه الله على نفسه و معنى ذلك أن يخصه بألطاف يختار عندها الحسن و يتجنب

القبیح فكأنه أقام النفس في مقام العدو و أقام الألفاف مقام المعونة التي يمدّه الله سبحانه بها فيكسر عادية العدو المذكور و بهذا الاعتبار سمي قوم من المتكلمين اللطف عوناً . و ثانيها أن يستشعر الحزن أي يحزن على الأيام الماضية إن لم يكن اكتسب فيها من موجبات الاختصاص أضعاف ما اكتسبه . و ثالثها أن يتجلبب الخوف أي يخاف من الإعراض عنه بأن يصدر عنه ما يحوّه من جريده المخلصين . و رابعها أن يعد القرى لضعيف المنية و ذلك بإقامة وظائف العبادة .

[368]

و خامسها أن يقرب على نفسه البعيد و ذلك بأن يمثل الموت بين عينيه صباحاً و مساءً و ألا يطيل الأمل . و سادسها أن يهون عليه الشدائد و ذلك باحتمال كلف المجاهدة و رياضة النفس على عمل المشاق . و سابعها أن يكون قد نظر فأبصر و ذلك بترتيب المقدمات المطابقة لمتعلقاتها ترتيباً صحيحاً تنتج العلم اليقيني . و ثامنها أن يذكر الله تعالى فيستكثر من ذكره لأن ذكره سبحانه و الإكثار منه يقتضي سكون النفس و طمأنينتها كما قال تعالى **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** . و تاسعها أن يرتوي من حب الله تعالى و هو العذب الفرات الذي سهل موارده على من انتخبه الله و جعله أهلاً للوصول إليه فشرّب منه و نهل و سلك طريقاً لا عثار فيه و لا و عث . و عاشرها أن يخلع سراويل الشهوات لأن الشهوات تصدئ مرآة العقل فلا تنطبع المعقولات فيها كما ينبغي و كذلك الغضب . و حادي عشرها أن يتخلى من الهموم كلها لأنها تزيدات و قواطع عن المطلوب إلا هما واحداً و هو همه بمولاه الذي لذته و سروره الاهتمام به و التفرد بمناجاته و مطالعة أنوار عزته فحينئذ يخرج عن صفة أهل العمى و من مشاركة أهل الهوى لأنه قد امتاز عنهم بهذه المرتبة و الخاصية التي حصلت له فصار مفتاحاً لباب الهدى و مغلاقاً لباب الضلال و الردى قد أبصر طريق الهدى و سلك سبيله و عرف مناره و قطع غماره .

[369]

و ثاني عشرها أن ينصب نفسه لله في أرفع الأمور و هو الخلوة به و مقابلة أنوار جلاله بمرآة فكره حتى تتكيف نفسه بتلك الكيفية العظيمة الإشراق فهذا أرفع الأمور و أجلها و أعظمها و قد رمز في هذا الفصل و مزجه بكلام خرج به إلى أمر آخر و هو فقه النفس في الدين و الأمور الشرعية النافعة للناس في دنياهم و آخراهم أما في دنياهم فلردع المفسد و كف الظالم و أما في آخراهم فللغفوز بالسعادة باعتبار امتثال الأوامر الإلهية فقال في إصدار كل وارد عليه أي في فتيا كل مستفت له و هداية كل مسترشد له في الدين ثم قال و تصيير كل فرع إلى أصله و يمكن أن يحتج بهذا من قال بالقياس و يمكن أن يقال إنه لم يرد ذلك بل أراد تخريج الفروع العقلية و ردها إلى أصولها كما يتكلف أصحابنا القول في بيان حكمة القديم تعالى في الآلام و ذبح الحيوانات رداً له إلى أصل العدل و هو كونه تعالى لا يفعل القبیح . و ثالث عشرها أن يكون مصباحاً لظلمات الضلال كشفاً لعشوات الشبه مفتاحاً لمبهمات الشكوك المستغلقة دفاعاً لمعضلات الاحتجاجات العقلية الدقيقة الغامضة دليلاً في فوات الأنظار الصعبة المشتبهة و لم يكن في أصحاب محمد ص أحد بهذه الصفة إلا هو . و رابع عشرها أن يقول مخاطباً لغيره فيفهمه ما خاطبه به و أن يسكت فيسلم و ذلك لأنه ليس كل قائل مفهماً و لا كل ساكت سالماً . و خامس عشرها أن يكون قد أخلص لله فاستخلصه الله و الإخلاص لله مقام عظيم جداً و هو ينزه الأفعال عن الرياء و الأيمازج العبادة أمر لا يكون لله سبحانه و لهذا كان بعض الصالحين يصبح من طول العبادة نصيباً قشفاً فيكتحل و يدهن ليذهب بذلك أثر العبادة عنه .

و قوله فهو من معادن دينه و أوتاد أرضه معادن دينه الذين يقتبس الدين منهم كمعادن الذهب و الفضة و هي الأرضون التي يلتقط ذلك منها و أوتاد أرضه هم الذين لولاهم لمادت الأرض و ارتجت بأهلها و هذا من باب الاستعارة الفصيحة و أهل هذا العلم يقولون أوتاد الأرض جماعة من الصالحين و لهم في الأوتاد و الأبدال و الأقطاب كلام مشهور في كتبهم . و سادس عشرها أن يكون قد ألزم نفسه العدل و العدالة ملكه تصدر بها عن النفس الأفعال الفاضلة خلقا لا تخلقا . و أقسام العدالة ثلاثة هي الأصول و ما عداها من الفضائل فروع عليها الأولى الشجاعة و يدخل فيها السخاء لأنه شجاعة و تهوين للمال كما أن الشجاعة الأصلية تهوين للنفس فالشجاع في الحرب جواد بنفسه و الجواد بالمال شجاع في إنفاقه و لهذا قال الطائي

أيقنت أن من السماح شجاعة

تدمي و أن من الشجاعة جودا

و الثانية الفقه و يدخل فيها القناعة و الزهد و العزلة . و الثالثة الحكمة و هي أشرفها . و لم تحصل العدالة الكاملة لأحد من البشر بعد رسول الله ص إلا لهذا الرجل و من أنصف علم صحة ذلك فإن شجاعته و جوده و عفته و قناعته و زهده يضرب بها الأمثال . و أما الحكمة و البحث في الأمور الإلهية فلم يكن من فن أحد من العرب و لا نقل في جهاد أكابرهم و أصاغرهم شيء من ذلك أصلا و هذا فن كانت اليونان و أوائل الحكماء و أساطين الحكمة ينفردون به و أول من خاض فيه من العرب علي ع و لهذا

تجد المباحث الدقيقة في التوحيد و العدل مبنوثة عنه في فرش كلامه و خطبه و لا تجد في كلام أحد من الصحابة و التابعين كلمة واحدة من ذلك و لا يتصورونه و لو فهموه لم يفهموه و أنى للعرب ذلك . و لهذا انتسب المتكلمون الذين لججوا في بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره و سموه أستاذهم و رئيسهم و اجتذبتهم كل فرقة من الفرق إلى نفسها أ لا ترى أن أصحابنا ينتمون إلى واصل بن عطاء و واصل تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية و أبو هاشم تلميذ أبيه محمد و محمد تلميذ أبيه علي ع . فأما الشيعة من الإمامية و الزيدية و الكيسانية فانتماؤهم إليه ظاهر . و أما الأشعرية فإنهم بأخرة ينتمون إليه أيضا لأن أبا الحسن الأشعري تلميذ شيخنا أبي علي رحمه الله تعالى و أبو علي تلميذ أبي يعقوب الشحام و أبو يعقوب تلميذ أبي الهذيل و أبو الهذيل تلميذ أبي عثمان الطويل و أبو عثمان الطويل تلميذ واصل بن عطاء فعاد الأمر إلى انتهاء الأشعرية إلى علي ع . و أما الكرامية فإن ابن الهيثم ذكر في كتاب المقالات أن أصل مقلتهم و عقيدتهم تنتهي إلى علي ع من طريقين أحدهما بأنهم يسندون اعتقادهم عن شيخ بعد شيخ إلى أن ينتهي إلى سفيان الثوري ثم قال و سفيان الثوري من الزيدية ثم سأل نفسه فقال إذا كان شيخكم الأكبر الذي تنتمون إليه كان زيدا فما بالكم لا تكونون زيدية و أجاب بأن سفيان الثوري رحمه الله تعالى و أن أشهر عنه الزيدية إلا أن تزيده إنما كان عبارة عن موالة أهل البيت و إنكار ما كان بنو أمية عليه من الظلم و إجلال زيد بن علي و تعظيمه و تصوينه في أحكامه و أحواله و لم ينقل عن سفيان الثوري أنه طعن في أحد من الصحابة .

الطريق الثاني أنه عد مشايخهم واحدا فواحدا حتى انتهى إلى علماء الكوفة من أصحاب علي كسلمة بن كهيل و حبة العرني و سالم بن الجعد و الفضل بن دكين و شعبة و الأعمش و علقمة و هبيرة ابن مريم و أبي إسحاق الشعبي و غيرهم ثم قال و هؤلاء أخذوا العلم من علي بن أبي طالب ع فهو رئيس الجماعة يعني أصحابه و أقوالهم منقولة عنه و مأخوذة منه . و أما الخوارج فانتماؤهم إليه ظاهر أيضا مع طعنهم فيه لأنهم كانوا أصحابه و عنه مرقوا بعد أن تعلموا عنه و اقتبسوا منه و هم شيعته و أنصاره بالجمل و صفيين و لكن الشيطان ران على قلوبهم و أعمى بصائرهم . ثم إنه ع ذكر حال هذا العارف العادل فقال أول عدله نفي الهوى عن نفسه و ذلك لأن من يأمر و لا ياتمر و ينهى و لا ينتهي لا تؤثر عظته و لا ينفع إرشاده ثم شرح ذلك فقال يصف الحق و يعمل به ثم قال لا يدع للخير غاية إلا أمها و لا مظنة إلا قصدتها و ذلك لأن الخير لذته و سروره و راحته فمتى وجد إليه طريقا سلكها ثم قال قد أمكن الكتاب يعني القرآن من زمامه أي قد أطاع الأوامر الإلهية فالقرآن قانده و إمامه يحل حيث حل و ينزل حيث نزل : وَ آخِرُ قَدْ تَسَمَى عَالِمًا وَ لَيْسَ بِهِ فَافْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَالٍ وَ أَضَالِيلَ مِنْ ضَلَالٍ وَ نَصَبَ لِلنَّاسِ أَسْرَاكَ مِنْ حَبَائِلِ [جَبَالٍ] غُرُورٍ وَ قَوْلٍ زُورٍ قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ [رَأْيِهِ] وَ عَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَانِهِ يُؤَمِّنُ النَّاسَ مِنَ الْعِظَائِمِ وَ يَهْوُونَ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ يَقُولُ أَقْفَ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ وَ فِيهَا وَقَعَ وَ يَقُولُ أَعْتَرَلِ الْبِدْعَ وَ بَيَّنَّهَا اضْطَجَعَ فَالْصُّورَةَ

صُورَةَ إِنْسَانٍ وَ أَقْلُبَ قَلْبٍ حَيَوَانٍ لَا يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعُهُ وَ لَا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدُّ عَنْهُ وَ ذَلِكَ مَيْتَ الْأَحْيَاءِ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ وَ أَنَّى تُؤْفَكُونَ وَ الْأَعْلَامَ قَانِمَةً وَ الْآيَاتِ وَاضِحَةً وَ الْمَنَارَ مَنْصُوبَةً فَأَيْنَ يَتَاهُ بِكُمْ وَ كَيْفَ تَعْمَهُونَ وَ بَيْنَكُمْ عَتْرَةٌ نَبِيكُمْ وَ هُمْ أَرْمَةُ الْحَقِّ وَ أَعْلَامُ الدِّينِ وَ أَلْسِنَةُ الصِّدْقِ فَانزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ وَ رُدُّوهُمْ وَرُودَ الْهَيْمِ الْعِطَاشِ أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ص إِنَّهُ يَمُوتُ مِنْ مَاتَ مِنَّا وَ لَيْسَ بِمَيِّتٍ وَ يَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَ لَيْسَ بِبَالٍ فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ وَ أَعْذَرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَ هُوَ أَنَا أَلَمْ أَعْمَلْ فِيمَكُمْ بِالنَّقْلِ الْأَكْبَرِ وَ أَتْرَكُ فِيمَكُمْ النَّقْلَ الْأَصْغَرَ قَدْ رَكَّزْتُ فِيمَكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ وَ وَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلَالِ وَ الْحَرَامِ وَ أَلْبَسْتُكُمْ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي وَ فَرَشْتُكُمْ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَ فِعْلِي وَ أَرَيْتُكُمْ كِرَانِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي فَلَا تَسْتَعْمَلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ وَ لَا تَتَغَلَّغُلْ إِلَيْهِ الْفِكْرُ الْجَهَائِلِ جَمْعَ جِهَالَةٍ كَمَا قَالُوا عِلَاقَةَ وَ عَلَانِقَ وَ الْأَضَالِيلِ الضَّلَالِ جَمْعَ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ . و قوله و قد حمل الكتاب على آرائه يعني قد فسر الكتاب و تأوله على مقتضى هواه و قد أوضح ذلك بقوله و عطف الحق على أهوانه .

و قوله يؤمن الناس من العظائم فيه تأكيد لمذهب أصحابنا في الوعيد و تضعيف لمذهب المرجئة الذين يؤمنون الناس من عظام الذنوب و يمتنونهم العفو مع الإصرار و ترك التوبة

و جاء في الخبر المرفوع المشهور الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت و الأحمق من أتبع نفسه هواها و تمنى على الله . و قوله يقول أقف عند الشبهات يعني أن هذا المدعي للعلم يقول لنفسه و للناس أنا واقف عند أدنى شبهة تحرجا و تورعا

كما قال ص دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . ثم قال و في الشبهات وقع أي بجهله لأن من لا يعلم الشبهة ما هي كيف يقف عندها و يتخرج من الورطة فيها و هو لا يأمن من كونها غير شبهة على الحقيقة . و قوله أعتزل البدع و بينها اضطجع إشارة إلى تضعيف مذاهب العامة و الحشوية الذين رفضوا النظر العقلي و قالوا نعتزل البدع . و قوله فالصورة صورة إنسان و ما بعده فمراده بالحيوان هاهنا الحيوان الأخرس كالحمار و الثور و ليس يريد العموم لأن الإنسان داخل في الحيوان و هذا مثل قوله تعالى **إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** . و قال الشاعر

و كائن ترى من صامت لك معجب

زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف و نصف فؤاده

فلم يبق إلا صورة اللحم و الدم

[375]

قوله و ذلك ميت الأحياء كلمة فصيحة و قد أخذها شاعر فقال

ليس من مات فاستراح بميت

إنما الميت ميت الأحياء

إلا أن أمير المؤمنين ع أراد لجهله و الشاعر أراد لبؤسه . و توفكون تقلبون و تصرفون . و الأعلام المعجزات هاهنا جمع علم و أصله الجبل أو الراية و المنارة تنصب في الفلاة ليتهدى بها . و قوله فأين يتاه بكم أي أين يذهب بكم في التيه و يقال أرض تيهاء يتحير سالكها و تعمهون تتحIRON و تضلون . و عترة رسول الله ص أهله الأذنون و نسله و ليس بصحيح قول من قال إنهم رهطه و إن بعدوا و إنما قال أبو بكر يوم السقيفة أو بعده نحن عترة رسول الله ص و بيضته التي فقتت عنه على طريق المجاز لأنهم بالنسبة إلى الأمصار عترة له لا في الحقيقة أ لا ترى أن العدناني يفاخر القحطاني فيقول له أنا ابن عم رسول الله ص ليس يعني أنه ابن عمه على الحقيقة بل هو بالإضافة إلى القحطاني كأنه ابن عمه و إنما استعمل ذلك و نطق به مجازاً فإن قدر مقدر أنه على طريق حذف المضافات أي ابن ابن عم أب الأب إلى عدد كثير في البنين و الآباء فكذاك أراد أبو بكر أنهم عترة أجداده على طريق حذف المضاف و قد بين رسول الله ص عترته من هي

لما قال إنني تارك فيكم الثقلين

فقال عترتي أهل بيتي و بين في مقام آخر من أهل بيته حيث طرح عليهم كساء و قال حين نزلت **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ**

[376]

لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ أَهْلَ الْبَيْتِ

اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب الرجس عنهم . فإن قلت فمن هي العترة التي عناها أمير المؤمنين ع بهذا الكلام . قلت نفسه و ولداه و الأصل في الحقيقة نفسه لأن ولديه تابعان له و نسبتهما إليه مع وجوده كنسبة الكواكب المضيئة مع طلوع

بقوله و أبوكما خير منكما . و قوله و هم أزمة الحق جمع زمام كأنه جعل الحق دائرا معهم حيثما داروا و ذاهبا معهم حيثما ذهبوا كما أن الناقة طوع زمامها و قد نبه الرسول ص على صدق هذه القضية

بقوله و أدر الحق معه حيث دار . و قوله و السنة الصدق من الألفاظ الشريفة القرآنية قال الله تعالى **وَ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** لما كان يصدر عنهم حكم و لا قول إلا و هو موافق للحق و الصواب جعلهم كأنهم لسنة صدق لا يصدر عنها قول كاذب أصلا بل هي كالمطبوعة على الصدق . و قوله فأنزلوهم منازل القرآن تحته سر عظيم و ذلك أنه أمر المكلفين بأن يجروا العترة في إجلالها و إعظامها و الاتقياد لها و الطاعة لأوامرها مجرى القرآن . فإن قلت فهذا القول منه يشعر بأن العترة معصومة فما قول أصحابكم في ذلك . قلت نص أبو محمد بن متويه رحمه الله تعالى في كتاب الكفاية على أن عليا ع معصوم و إن لم يكن واجب العصمة و لا العصمة شرط في الإمامة لكن أدلة النصوص قد دلت على عصمته و القطع على باطنه و مغيبه و أن ذلك أمر اختص

[377]

هو به دون غيره من الصحابة و الفرق ظاهر بين قولنا زيد معصوم و بين قولنا زيد واجب العصمة لأنه إمام و من شرط الإمام أن يكون معصوما فالاعتبار الأول مذهبا و الاعتبار الثاني مذهب الإمامية . ثم قال وردوهم ورود الهيم العطاش أي كونوا ذوي حرص و انكماش على أخذ العلم و الدين منهم كحرص الهيم الظماء على ورود الماء . ثم قال أيها الناس خذوها عن خاتم النبيين إلى قوله و ليس ببال هذا الموضوع يحتاج إلى تطف في الشرح لأن لقائل أن يقول ظاهر هذا الكلام متناقض لأنه قال يموت من مات منا و ليس بميت و هذا كما تقول يتحرك المتحرك و ليس بمتحرك و كذلك قوله و يبلى من بلي منا و ليس ببال أ لا ترى أنه سلب و إيجاب لشيء واحد فإن قلت أريد بقاء النفس بعد موت الجسد كما قاله الأوائل و قوم من المتكلمين قيل لكم فلا اختصاص للنبي و لا لعلي بذلك بل هذه قضية عامة في جميع البشر و الكلام خرج مخرج التمدح و الفخر . فنقول في الجواب إن هذا يمكن أن يحمل على وجهين أحدهما أن يكون النبي ص و علي و من يتلوهما من أطانب العترة أحياء بأبدانهم التي كانت في الدنيا بأعيانها قد رفعهم الله تعالى إلى ملكوت سماواته و علي هذا لو قدرنا أن محتفرا احتفر تلك الأجداث الطاهرة عقب دفنهم لم يجد الأبدان في الأرض

و قد روي في الخبر النبوي ص مثل ذلك و هو قوله إن الأرض لم تسلط علي و إنها لا تأكل لي لحما و لا تشرب لي دما نعم يبقى الأشكال في قوله و يبلى من بلي منا و ليس ببال فإنه إن صح هذا التفسير في الكلام الأول و هو قوله يموت

[378]

من مات منا و ليس بميت فليس يصح في القضية الثانية و هي حديث البلاء لأنها تقتضي أن الأبدان تبلى و ذلك الإنسان لم يبلى فأحوج هذا الأشكال إلى تقدير فاعل محذوف فيكون تقدير الكلام يموت من مات حال موته و ليس بميت فيما بعد ذلك من الأحوال و الأوقات و يبلى كفن من بلي منا و ليس هو ببال فحذف المضاف كقوله **وَ إِلَى مَدْيَنَ أَي** و إلى أهل مدين و لما كان الكفن كالجاء من الميت لاشتماله عليه عبر بأحدهما عن الآخر للمجاورة و الاشتغال كما عبروا عن المطر بالسماء و عن الخارج المخصوص بالغانط و عن الخمر بالكأس و يجوز أن يحذف الفاعل كقوله تعالى **حَتَّى تَوَارَتْ**

بِالْحِجَابِ وَ قَلُوا لَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُوفَ و قول حاتم إذا حشرجت و حذف الفاعل كثير . و الوجه الثاني أن أكثر المتكلمين ذهبوا إلى أن للإنسان الحي الفعال أجزاء أصلية في هذه البنية المشاهدة و هي أقل ما يمكن أن تأتلف منه البنية التي معها يصح كون الحي حيا و جعلوا الخطاب متوجها نحوها و التكليف واردا عليها و ما عداها من الأجزاء فهي فاضلة ليست داخلية في حقيقة الإنسان و إذا صح ذلك جاز أن ينتزع الله تلك الأجزاء الأصلية من أبدان الأنبياء و الأوصياء فيرفعها إليه بعد أن يخلق لها من الأجزاء الفاضلة عنها نظير ما كان لها في الدار الأولى كما قاله من ذهب إلى قيامة الأنفس و الأبدان معا فتتم عنده و تلتذ بضروب اللذات الجسمانية و يكون هذا مخصوصا بهذه الشجرة

[379]

المباركة دون غيرها و لا عجب فقد ورد في حق الشهداء نحو ذلك في قوله تعالى **وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** . و على الوجه الأول لو أن محتفرا احتفرو أجداتهم لوجد الأبدان فيها و إن لم يعلم أن أصول تلك البنى قد انتزعت منها و نقلت إلى الرفيق الأعلى و هذا الوجه لا يحتاج إلى تقدير ما قدرناه أولا من الحذف لأن الجسد يبلى في القبر إلا قدر ما انتزع منه و نقل إلى محل القدس و كذلك أيضا يصدق على الجسد أنه ميت و إن كان أصل بنيته لم يمت

و قد ورد في الخبر الصحيح أن أرواح الشهداء من المؤمنين في حواصل طيور خضر تدور في أفناء الجنان و تأكل من ثمارها و تأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش فإذا جاء هذا في الشهداء فما ظنك بموالي الشهداء و ساداتهم . فإن قلت فهل يجوز أن يتأول كلامه فيقال لعله أراد بقاء الذكر و الصيت . قلت إنه لبعيد لأن غيرهم يشركهم في ذلك و لأنه أخرج الكلام مخرج المستغرب المستعظم له . فإن قلت فهل يمكن أن يقال إن الضمير يعود إلى النبي ص لأنه قد ذكره في قوله خاتم النبيين فيكون التقدير أنه يموت من مات منا و النبي ص ليس بميت و يبلى من بلي منا و النبي ليس ببالي . قلت هذا أبعد من الأول لأنه لو أراد ذلك لقال إن رسول الله ص لا تبليه الأرض و أنه الآن حي و لم يأت بهذا الكلام الموهوم و لأنه في سياق تعظيم العترة و تبجيل أمرها و فخره بنفسه و تمدحه بخصائصه و مزاياه فلا يجوز أن يدخل في غضون ذلك ما ليس منه .

[380]

فإن قلت فهل هذا الكلام منه أم قاله مرفوعا قلت بل ذكره مرفوعا أ لا تراه قال خذوها عن خاتم النبيين ثم نعود إلى التفسير فنقول إنه لما قال لهم ذلك علم أنه قال قولاً عجيباً و ذكر أمراً غريباً و علم أنهم ينكرون ذلك و يعجبون منه فقال لهم فلا تقولوا ما لا تعرفون أي لا تكذبوا إخباري و لا تكذبوا إخبار رسول الله لكم بهذا فتقولون ما لا تعلمون صحته ثم قال فإن أكثر الحق في الأمور العجيبة التي تنكرونها كإحياء الموتى في القيامة و كالمصراط و الميزان و النار و الجنة و سائر أحوال الآخرة هذا إن كان خاطب من لا يعتقد الإسلام فإن كان الخطاب لمن يعتقد الإسلام فإنه يعني بذلك أن أكثرهم كانوا مرجنة و مشبهة و مجبرة و من يعتقد أفضلية غيره عليه و من يعتقد أنه شرك في دم عثمان و من يعتقد أن معاوية صاحب حجة في حربه أو شبهة يمكن أن يتعلق بها متعلق و من يعتقد أنه أخطأ في التحكيم إلى غير ذلك من ضروب الخطأ التي كان أكثرهم عليها . ثم قال و أعذروا من لا حجة لكم عليه و هو أنا يقول قد عدلت فيكم و أحسنت السيرة و أقمتم على المحجة البيضاء حتى لم يبق لأحد منكم حجة يحتج بها علي ثم شرح ذلك فقال عملت فيكم بالثقل الأكبر يعني

الكتاب و خلفت فيكم الأصغر يعني ولديه لأنهما بقية الثقل الأصغر فجاز أن يطلق عليهما بعد ذهاب من ذهب منه أنهما الثقل الأصغر و إنما سمي النبي ص الكتاب و العترة الثقلين لأن الثقل في اللغة متاع المسافر و حشمه فكأنه ص لما شارف الانتقال إلى جوار ربه تعالى جعل نفسه كالمسافر الذي ينتقل من منزل إلى منزل و جعل الكتاب و العترة كمتاعه و حشمه لأنهما أخص الأشياء به . قوله و ركزت فيكم راية الإيمان أي غررتها و أثبتها و هذا من باب الاستعارة .

[381]

و كذلك قوله و وقفتكم على حدود الحلال و الحرام من باب الاستعارة أيضا مأخوذ من حدود الدار و هي الجهات الفاصلة بينها و بين غيرها . قوله و ألبستكم العافية من عدلي استعارة فصيحة و أفصح منها قوله و فرشتكم المعروف من قولي و فعلي أي جعلته لكم فراشا و فرش هاهنا متعد إلى مفعولين يقال فرشته كذا أي أوسعته إياه . ثم نهاهم أن يستعملوا الرأي فيما ذكره لهم من خصائص العترة و عجائب ما منحها الله تعالى

فقال إن أمرنا أمر صعب لا تهتدي إليه العقول و لا تدرك الأبصار قعره و لا تتغلغل الأفكار إليه و التغلغل الدخول من تغلغل الماء بين الشجر إذا تخللها و دخل بين أصولها : وَ مِنْهَا حَتَّى يَظَنَّ الظَّنُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمِّيَّةٍ تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا وَ تُورِدُهُمْ صَفْوَهَا وَ لَا يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَ لَا سَيْفُهَا وَ كَذَبَ الظَّنُّ لِذَلِكَ بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَنْطَعَمُونَهَا بُرْهَةً ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً مَعْقُولَةً مَحْبُوسَةً بِعَقَالِ كَمَا تَعْقِلُ النَّاقَةُ وَ تَمْنَحُهُمْ تَعْطِيهِمْ وَ الْمَنْحُ الْعَطَاءُ مَنْحٌ يَمْنَحُ بِالْفَتْحِ وَ الْأَسْمُ الْمَنْحَةُ بِالْكَسْرِ وَ اسْتَمْنَحْتُ زَيْدًا طَلَبْتُ مَنَحَتَهُ . وَ الدَّرُ فِي الْأَصْلِ اللَّبْنُ جَعَلَ الدُّنْيَا كَنَّاقَةَ مَعْقُولَةً عَلَيْهِمْ تَمْنَحُهُمْ لِبَنِيهَا ثُمَّ اسْتَعْمَلَ

[382]

الدر في كل خير و نفع فقيل لا در درة أي لا أكثر خيره و يقال في المدح لله درة أي عمله . و مجة من لذيذ العيش مصدر مَجَّ الشَّرَابُ مِنْ فِيهِ أَي رَمَى بِهِ وَ قَذَفَهُ وَ يُقَالُ انْمَجَّتْ نَقْطَةٌ مِنَ الْقَلَمِ أَي تَرَشَّشَتْ وَ شَيْخٌ مَاجٌ أَي كَبِيرٌ يَمِجُ الرِّيقَ وَ لَا يَسْتَطِيعُ حَبْسَهُ لِكِبَرِهِ . وَ يَنْطَعَمُونَهَا أَي يَذُوقُونَهَا وَ بَرَهَةٌ أَي مَدَّةٌ مِنَ الزَّمَانِ فِيهَا طَوْلٌ وَ لَفْظَتِ الشَّيْءَ مِنْ فَمِي أَلْفَظَهُ لَفْظًا رَمِيئَةً وَ ذَلِكَ الشَّيْءُ اللَّفَاطَةُ وَ اللَّفَاطُ أَي يَلْفِظُونَهَا كُلِّهَا لَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ مَعَهُمْ . وَ هَذِهِ الْخُطْبَةُ طَوِيلَةٌ وَ قَدْ حَذَفَ الرُّضِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا كَثِيرًا وَ مِنْ جَمَلَتِهَا

أما و الذي فلق الحبة و برأ النسمة لا يرون الذي ينتظرون حتى يهلك المتمنون و يضمحل المحلون و يتثبت المؤمنون و قليل ما يكون و الله لا ترون الذي تنتظرون حتى لا تدعون الله إلا إشارة بأيديكم و إيماضا بحواجيبكم و حتى لا تملكون من الأرض إلا مواضع أقدامكم و حتى يكون موضع سلاحكم على ظهوركم فيومئذ لا ينصرنى إلا الله بملانكته و من كتب على قلبه الإيمان و الذي نفس علي بيده لا تقوم عصابة تطلب لي أو لغيري حقا أو تدفع عنا ضيما إلا صرعتهم البلية حتى تقوم عصابة شهدت مع محمد ص بدرا لا يودى قتيلاهم و لا يداوى جريحهم و لا ينعش صريعهم قال المفسرون هم الملائكة .

و منها لقد دعوتكم إلى الحق و توليتم و ضربتكم بالدرة فما استقمتم و ستليكم

بعدي ولاة يعذبونكم بالسياط و الحديد و سيأتىكم غلاما ثقيف أخفش و جعبوب يقتلان و يظلمان و قليل ما يمكنان . قلت
الأخفش الضعيف البصر خلقة و الجعبوب القصير الذميم و هما الحجاج و يوسف بن عمر و في كتاب عبد الملك إلى
الحجاج قاتلك الله أخيفش العينين أصك الجاعرين . و من كلام الحسن البصري رحمه الله تعالى يذكر فيه الحجاج أتانا
أعيمش أعيمش يمد بيد قصيرة البنان ما عرق فيها عنان في سبيل الله . و كان المثل يضرب بقصر يوسف بن عمر و كان
يغضب إذا قيل له قصير فصل له الخياط ثوبا فأبقى منه فضلة كثيرة فقال له ما هذه قال فضلت من قميص الأمير فضربه
مائة سوط فكان الخياطون بعد ذلك يفصلون له اليسير من الثوب و يأخذون الباقي لأنفسهم

87 - و من خطبة له ع

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُفْصِمِ [يَفْصِمُ] جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلَّا بَعْدَ تَمْهِيلٍ وَ رَخَاءٍ وَ لَمْ يَجْبِرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ أَزْلِ وَ بَلَاءٍ وَ فِي دُونِ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتَبٍ وَ مَا اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خُطْبٍ مُعْتَبَرٍ وَ مَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بَلِيْبٍ وَ لَا كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ وَ لَا كُلُّ ذِي نَاطِرٍ بِبَصِيرٍ فَيَا عَجَبًا وَ مَا لِي لَا أَعْجَبُ مِنْ خَطَا هَذِهِ الْفُرْقِ عَلَى اخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا لَا يَفْتَتُونَ أَثَرَ نَبِيِّ وَ لَا يَفْتَدُونَ بِعَمَلٍ وَصِيٍّ وَ لَا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ وَ لَا يَعْفُونَ عَنْ عَيْبٍ يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ وَ يَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ الْمَعْرُوفِ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا وَ الْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا مَفْرُغُهُمْ فِي الْمَعْضَلَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَ تَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُهْمَاتِ [الْمُهَيَّمَاتِ] عَلَى آرَائِهِمْ كَأَنَّ كُلَّ امْرَأٍ مِنْهُمْ إِمَامٌ نَفْسِهِ قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرَى ثِقَاتٍ [وَثِيقَاتٍ وَ مُوثِقَاتٍ] وَ أَسْبَابِ مُحْكَمَاتِ الْقَصْمِ بِالْقَافِ وَ الصَادِ الْمَهْمَلَةِ الْكَسْرِ قَصْمَتَهُ فَانْقَصَمَ وَ قَصْمَتَهُ فَتَقَصَّمَ وَ رَجُلٌ أَقْصَمَ الثَّنِيَّةَ أَي مَكْسُورَهَا بَيْنَ الْقَصْمِ بِفَتْحِ الصَادِ . وَ التَّمْهِيلُ التَّأخِيرُ وَ يَرُودُ رَجَاءٌ وَ هُوَ التَّأخِيرُ أَيْضًا وَ الرِّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ وَ رَخَاءٌ أَي بَعْدَ إِعْطَائِهِمْ مِنْ سَعَةِ الْعَيْشِ وَ خُصْبِ الْحَالِ مَا اقْتَضَتْهُ الْمَصْلُحَةُ .

[385]

وَ الْأَزْلُ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ الضِّيقُ وَ يَقْتَصُونَ يَتَّبِعُونَ قَالَ سَبْحَانَهُ وَ تَعَالَى وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِيْهِ . وَ يَعْفُونَ بِكَسْرِ الْعَيْنِ عَفَفَتْ عَنْ كَذَا أَعْفَ عَفَا وَ عَفَا وَ عَفَاةً أَي كَفَفَتْ فَأَنَا عَفٌ وَ عَفِيفٌ وَ امْرَأَةٌ عَفَةٌ وَ عَفِيفَةٌ وَ قَدْ أَعْفَهُ اللَّهُ وَ اسْتَعْفَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ أَي عَفَ . وَ تَعَفَّفَ الرَّجُلُ أَي تَكَلَّفَ الْعَفَّةَ وَ يَرُودُ وَ لَا يَعْفُونَ عَنْ عَيْبٍ أَي لَا يَصْفَحُونَ . وَ مَفْرُغُهُمْ مَلْجُؤُهُمْ وَ فِيمَا يَرَى أَي فِيمَا يَظُنُّ وَ يَرَى بِفَتْحِ الْيَاءِ أَي فِيمَا يَرَاهُ هُوَ وَ رُوي بَعْرًا وَثِيقَاتٍ . يَقُولُ إِنْ عَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَلَا يَقْصِمُ الْجَبَابِرَةَ إِلَّا بَعْدَ الْإِمْهَالِ وَ الْاسْتِدْرَاجِ بِإِضَافَةِ النِّعَمِ عَلَيْهِمْ وَ أَلَا يَجْبِرُ أَوْلِيَآءَهُ وَ يَنْصِرُهُمْ إِلَّا بَعْدَ بُؤْسٍ وَ بَلَاءٍ يَمْتَحِنُهُمْ بِهِ ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ إِنْ فِي دُونِ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتَبٍ لِمُعْتَبِرٍ أَي مِنْ مَشَقَّةٍ يَعْنِي بِمَا اسْتَقْبَلُوهُ مَا لَاقَوْهُ فِي مَسْتَقْبَلِ زَمَانِهِمْ مِنَ الشَّيْبِ وَ وِلَاةِ السُّوءِ وَ تَنْكُرُ الْوَقْتُ وَ سُمِّيَ الْمَشَقَّةُ عَتَبًا لِأَنَّ الْعَتَبَ مَصْدَرٌ عَلَيْهِ أَي وَجَدَ عَلَيْهِ فَجَعَلَ الزَّمَانَ كَالوَاجِدِ عَلَيْهِمُ الْقَائِمِ فِي إِنْزَالِ مَشَاقِقِهِمْ مَقَامَ الْإِنْسَانِ ذِي الْمَوْجُودَةِ يَعْتَبُ عَلَى صَاحِبِهِ وَ رُوي مِنْ عَتَبٍ بِفَتْحِ التَّاءِ جَمْعُ عَتْبَةٍ يَقَالُ لَقَدْ حَمَلَ فُلَانٌ عَلَى عَتْبَةٍ أَي أَمْرٍ كَرِيهٍ مِنَ الْبَلَاءِ وَ فِي الْمَثَلِ مَا فِي هَذَا الْأَمْرِ رَتَبَ وَ لَا عَتَبَ أَي شَدَّةً وَ رُوي أَيْضًا مِنْ عَنْتٍ وَ هُوَ الْأَمْرُ الشَّاقُّ وَ مَا اسْتَدْبَرُوهُ مِنْ خُطْبٍ يَعْنِي بِهِ مَا تَصْرَمُ عَنْهُمْ مِنَ الْحُرُوبِ وَ الْوَقَائِعِ الَّتِي قَضَوْهَا وَ نَضَوْهَا وَ اسْتَدْبَرُوهَا وَ يَرُودُ وَ اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خُصْبٍ وَ هُوَ رَخَاءُ الْعَيْشِ وَ هَذَا يَقْتَضِي الْمَعْنَى الْأَوَّلَ أَي وَ مَا خَلَفْتُمْ وَرَاءَكُمْ مِنَ الشَّبَابِ وَ الصَّحَّةِ وَ صَفْوِ الْعَيْشَةِ . ثُمَّ قَالَ مَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بَلِيْبٍ الْكَلَامُ إِلَى آخِرِهِ وَ هُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ

[386]

تَعَالَى لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا . ثُمَّ تَعَجَّبَ مِنْ اخْتِلَافِ حُجَجِ الْفُرْقِ فِي الدِّينِ وَ خَطْنِهِمْ وَ كَوْنِهِمْ لَا يَتَّبِعُونَ أَقْوَالَ الْأَنْبِيَاءِ وَ لَا أَقْوَالَ الْأَوْصِيَاءِ ثُمَّ نَعَى عَلَيْهِمْ أَحْوَالَهُمُ الْقَبِيْحَةَ فَقَالَ إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ أَي لَا يَصْدَقُونَ بِمَا لَمْ يَشَاهِدُوهُ وَ لَا يَكْفُونَ عَنِ الْأُمُورِ الْقَبِيْحَةِ لَكِنِّهِمْ يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ أَي يَعْمَلُونَ أَعْمَالًا دَاخِلَةً فِي الشُّبُهَاتِ مَتَوَسِّطَةً لَهَا وَ يَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ جَعَلَ الشَّهَوَاتِ كَالطَّرِيقِ الَّتِي يَسِيرُ فِيهَا الْإِنْسَانُ . ثُمَّ قَالَ الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوهُ أَي لَيْسَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ مَا دَلَّ الدَّلِيلَ عَلَى كَوْنِهِ مَعْرُوفًا وَ صَوَابًا وَ حَقًّا بَلِ الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ مَا

ذهبوا إلى أنه حق سواء كان حقا في نفس الأمر أو لم يكن و المنكر عندهم ما أنكروه كما شرحناه في المعروف . ثم قال إنهم لا يستشيرون بعالم و لا يستفتون فقيها فاضلا بل مفزعهم في الأمور المشكلة إلى أنفسهم و آرائهم و لقد صدق ع فإن هذه صفات من يدعي العلم و الفضل في زماننا و قبله بدهر طويل و ذلك أنهم يأنفون من التعلم و الاسترشاد فالبدائ منهم يعتقد في نفسه أنه أفضل من البارع المنتهي و متى ظفر الواحد منهم بمبادئ علم و حمله شرع في التدريس و التصنيف فمنعه التزامه بذلك من التردد إلى أبواب العلماء و أنف من سؤالهم عن الأمور المشكلة فدام جهله إلى أن يموت . ثم قال كان كل واحد منهم إمام نفسه و يروى بحذف كان و إسقاطها و هو أحسن

88 - و من خطبة له ع

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَ طُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ وَ اعْتِزَامِ مِنَ الْفِتَنِ وَ انْتِشَارِ مِنَ الْأُمُورِ وَ تَلَطُّ مِنَ الْحُرُوبِ وَ الدُّنْيَا كَاسِفَةَ النُّورِ ظَاهِرَةَ الْغُرُورِ عَلَى حِينِ اصْفَرَارِ مِنْ وَرَقِهَا وَ إِيَّاسِ مِنْ ثَمَرِهَا وَ إِغْوَارِ إِغْوَارٍ مِنْ مَائِهَا قَدْ دَرَسَتْ مَنَارَ الْهُدَى وَ ظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا تَمْرُهَا الْفِتْنَةُ وَ طَعَامُهَا الْحَيْفَةُ وَ شِعَارُهَا الْخُوفُ وَ دِثَارُهَا السَّيْفُ . فَأَعْتَبِرُوا عِبَادَ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا تِيكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ وَ إِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ وَ عَلَيْهَا مُحَاسِبُونَ وَ لَعْمَرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَ لَا بِهَمِّ الْعُهُودِ وَ لَا خَلْتِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمُ الْأَحْقَابُ وَ الْفُرُونَ وَ مَا أَنْتُمْ الْيَوْمَ مِنْ يَوْمٍ كُنْتُمْ فِي أَصْلَابِهِمْ بِبَعِيدٍ . وَ اللَّهُ مَا أَسْمَعُكُمْ الرَّسُولَ شَيْئًا إِلَّا وَ هَا أَنَا ذَا الْيَوْمِ مُسْمِعُكُمْوهُ وَ مَا أَسْمَعُكُمْ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِالْأَمْسِ وَ لَا شَفَّتْ لَهُمُ الْأَبْصَارُ وَ لَا جَعَلَتْ لَهُمُ الْأَفْئِدَةُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَّا وَ قَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ وَ اللَّهُ مَا بَصُرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئًا جَهْلُوهُ وَ لَا أَصْفَيْتُمْ بِهِ وَ حُرْمُوهُ وَ لَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمْ الْبَلِيَّةُ جَانِلًا خَطَامِهَا رِخْوًا بِطَانِهَا فَلَا يَغْرَتُكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الْغُرُورِ فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ

[388]

الفترة بين الرسل انقطاع الرسالة والوحي وكذلك كان إرسال محمد ص لأن بين محمد وبين عهد المسيح ع عهدا طويلا أكثر الناس على أنه ستمائة سنة ولم يرسل في تلك المدة رسول اللهم إلا ما يقال عن خالد بن سنان العبسي ولم يكن نبيا ولا مشهورا . و الهجعة النومة ليلا والهجوم مثله وكذلك التهجاج بفتح التاء فأما الهجعة بكسر الهاء فهي الهيئة كالجلسة من الجلوس . قوله واعتزام من الفتن كأنه جعل الفتن معتزمة أي مريدة مصممة للشغب والهرج ويروى واعتراض ويروى واعتزام بالراء المهملة من العرام وهي الشرة والتلطي التلطي . وكاسفة النور قد ذهب ضوءها كما تكسف الشمس ثم وصفها بالتغير وذبول الحال فجعلها كالشجرة التي اصفر ورقها ويبس ثمرها وأعور ماؤها والإعوار ذهاب الماء فلاة عوراء لا ماء بها ومن رواه وإعوار من مائها بالغين المعجمة جعله من غار الماء أي ذهب ومنه قوله تعالى **أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا** . و متجهمة لأهلها كالحة في وجوههم . ثم قال ثمرها الفتنة أي نتيجتها وما يتولد عنها وطعامها الخيفة يعني أكل الجاهلية الميتة أو يكون على وجه الاستعارة أي أكلها خبيث ويروى الخيفة أي الخوف ثم جعل الخوف والسيف شعارها و دثارها فالشعار ما يلي الجسد و الدثار فوق

[389]

الشعار وهذا من بديع الكلام ومن جيد الصناعة لأنه لما كان الخوف يتقدم السيف والسيف يتلوه جعل الخوف شعارا لأنه الأقرب إلى الجسد وجعل الدثار تاليا له . ثم قال و اذكروا تيك كلمة إشارة إلى المونثة الغالبة فيمكن أن يعنى بها الدنيا التي تقدم ذكرها وقد جعل آباءهم وإخوانهم مرتهين بها ومحاسبين عليها والارتهان الاحتباس ويمكن أن يعنى بها الأمانة التي عرضت على الإنسان فحملها والمراد بالأمانة الطاعة والعبادة وفعل الواجب وتجنب القبيح وقال تيك ولم يجر ذكرها كما قال تعالى **الْمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ** ولم يجر ذكره لأن الإشارة إلى مثل هذا أعظم وأهيب وأشد روعة في صدر المخاطب من التصريح . قوله ولا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب أي لم يطل العهد والأحقاب المدد المتطاولة والقرون الأمم من الناس . وقوله من يوم كنتم يروى بفتح الميم من يوم على أنه مبني إذ هو مضاف إليه الفعل المبني ويروى

بجرها بالإضافة على اختلاف القولين في علم العربية . ثم اختلفت الرواية في قوله و الله ما أسمعكم فروي بالكاف و روي أسمعهم و كذلك اختلفت الرواية في قوله و ما أسمعكم اليوم بدون أسمعكم بالأمس فروي هكذا و روي بدون أسمعهم فمن رواه بهاء الغيبة في الموضوعين فالكلام منظم لا يحتاج إلى تأويل و من رواه بكاف الخطاب قال إنه خاطب به من صحب النبي ص و شاهده و سمع خطابه لأن أصحاب علي ع كانوا فريقين صحابة و تابعين و يعضد الرواية الأولى سياق الكلام . و قوله و لا شقت لهم الأبصار إلا و قد أعطيتم مثلها .

[390]

و أصفيتم به منحتومه من الصفا و هو ما يصطفيه الرئيس من المغنم لنفسه قبل القسمة يقال صفي و صفية . و خلاصة هذا الكلام أن جميع ما كان رسول الله ص قاله لأصحابه قد قلت مثله لكم فأطاع أولئك و عصيتم أنتم و حالكم مساوية لحالهم . قلت لو أن مجيباً منهم يجيبه لأمكن أن يقول له المخاطبون و إن كانوا نوعاً واحداً متساوياً إلا أن المخاطب مختلف الحال و ذلك لأنك و إن كنت ابن عمه في النسب و أخاه و لحمه و دمه و فضائلك مشتقة من فضائله و أنت قبس من نوره و ثانيه على الحقيقة و لا ثالث لكما إلا أنك لم ترزق القبول الذي رزقه و لا انفعلت نفوس الناس لك حسب انفعالها له و تلك خاصية النبوة التي امتاز بها عنك فإنه كان لا يسمع أحد كلامه إلا أحبه و مال إليه و لذلك كانت قريش تسمى المسلمين قبل الهجرة الصباة و يقولون نخاف أن يصبو الوليد بن المغيرة إلى دين محمد ص و لنن صبا الوليد و هو ريحانة قريش لتصبون قريش بأجمعها و قالوا فيه ما كلامه إلا السحر و إنه ليفعل بالألباب فوق ما تفعل الخمر و نهوا صبيانهم عن الجلوس إليه لنلا يستميلهم بكلامه و شمانله و كان إذا صلى في الحجر و جهر يجعلون أصابعهم في آذانهم خوفاً أن يسحرهم و يستميلهم بقراءته و بوعظه و تذكيره هذا هو معنى قوله تعالى **جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَ اسْتَعْشَرُوا ثِيَابَهُمْ** . و معنى قوله **وَ إِذَا ذُكِرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدُّهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَىٰ أُنْبِيَائِهِمْ نُفُورًا لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَهْرَبُونَ** إذا سمعوه يتلو القرآن خوفاً أن يغير عقاندهم في أصنامهم و لهذا

[391]

أسلم أكثر الناس بمجرد سماع كلامه و رؤيته و مشاهدة روايته و منظره و ما ذاقوه من حلاوة لفظه و سري كلامه في آذانهم و ملك قلوبهم و عقولهم حتى بذلوا المهج في نصرته و هذا من أعظم معجزاته ع و هو القبول الذي منحه الله تعالى و الطاعة التي جعلها في قلوب الناس له و ذلك على الحقيقة سر النبوة الذي تفرد به ص فكيف يروم أمير المؤمنين من الناس أن يكونوا معه كما كان أبائهم و إخوانهم مع النبي ص مع اختلاف حال الرئيسين و تساوي الأثرين كما يعتبر في تحققه تساوي حال المحليين يعتبر في حقيقته أيضاً تساوي حال العلتين . ثم نعود إلى التفسير قال و لقد نزلت بكم البلية أي المحنة العظيمة يعني فتنة معاوية و بني أمية . و قال جانلاً خطامها لأن الناقة إذا اضطرب زمامها استصعبت على راكبها و يسمى الزمام خطاماً لكونه في مقدم الأنف و الخطم من كل دابة مقدم أنفها و فمها و إنما جعلها رخوا بطانها لتكون أصعب على راكبها لأنه إذا استرخى البطان كان الراكب في معرض السقوط عنها و بطن القتب هو الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير . ثم نهاهم عن الاعتزاز بالدنيا و متاعها و قال إنها ظل ممدود إلى أجل معدود و إنما جعلها كالظل لأنه ساكن في رأي العين و هو متحرك في الحقيقة لا يزال يتقلص كما قال تعالى **ثُمَّ قَبْضُنَا إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا** و هو أشبه شيء بأحوال الدنيا . و قال بعض الحكماء أهل الدنيا كركب سير بهم و هم نيام

89 - و من خطبة له ع

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ وَ الْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِمًا دَائِمًا إِذْ لَا سَمَاءَ ذَاتُ أَبْرَاجٍ وَ لَا حُجُبَ ذَاتُ
إِرْتَاجٍ وَ لَا لَيْلَ دَاجٍ وَ لَا بَحْرٍ سَاجٍ وَ لَا جَبَلٍ ذُو فِجَاجٍ وَ لَا فِجَّ ذُو إِعْوَجَاجٍ وَ لَا أَرْضَ ذَاتُ مِهَادٍ وَ لَا خُلُقَ ذُو إِعْتِمَادٍ وَ ذَلِكَ
مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ وَ وَارِثُهُ وَ إِلَهُ الْخَلْقِ وَ رَازِقُهُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ دَانِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ وَ يُقَرَّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ الرُّوِيَّةُ
الفكرة و أصلها الهمز روات في الأمر و قد جاء مثلها كلمات يسيرة شاذة نحو البرية من برأ أي خلق و الذرية من ذرأ أي
خلق أيضا و الذرية و هي ما يستتر به الصائد أصله من درأت أي دفعت و فلان بري أصله بريء وصف الله تعالى بأنه
يعرف من غير أن تتعلق الأبصار بذاته و يخلق من غير تفكر و ترو فيما يخلقه . لم يزل قائما القائم و القيوم بمعنى و هو
الثابت الذي لا يزول و يعبر عنه في الاصطلاح النظري بالواجب الوجود و قد يفسر القائم على معنى قولهم فلان قائم بأمر
كذا أي وال و ممسك له أن يضطرب . ثم قال هو موصوف بأنه قائم دائم من قبل أن يخلق العالم و هذا يؤكد التفسير

[393]

الأول لأنه إذا لم يكن العالم مخلوقا بعد لم يصدق عليه أنه قائم بأمره إلا بالقوة لا بالفعل كما يصدق عليه أنه سميع بصير
في الأزل أي إذا وجدت المسموعات و المبصرات سمعها و أبصرها و لو سمي قبل خلق الكلام متكلما على هذا التفسير لم
استبعده و إن كان أصحابنا يأبونه . و الأبراج الأركان في اللغة العربية . فإن قلت فهل يطابق هذا التفسير ما يعتقد
أصحاب الهيئة و كثير من الحكماء و المتكلمين أن السماء كرة لا زاوية فيها و لا ضلع . قلت نعم لا منافاة بين القولين لأن
الفلك و إن كان كرة لكن فيه من المتممات ما يجري مجرى أركان الحصن أو السور فصح إطلاق لفظه الأبراج عليه و
التمتمات أجسام في حشو الفلك تخف في موضع و الناس كلهم أثبتوها . فإن قلت فهل يجوز أن يحمل لفظ الأبراج على ما
يعتقده المنجمون و أهل الهيئة و كثير من الحكماء و المتكلمين من كون الفلك مقسوما باثني عشر قسما كل قسم منها
يسمى برجاً . قلت لا مانع من ذلك لأن هذا المسمى كان معلوما متصورا قبل نزول القرآن و كان أهل الاصطلاح قد وضعوا
هذا اللفظ بإزانه فجاز أن ينزل القرآن بموجبه قال تعالى **وَ أَسْمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ** و أخذها علي ع منه فقال إذ لا سماء ذات
أبراج و ارتفع سماء لأنه مبتدأ و خبره محذوف و تقديره في الوجود . ثم قال و لا حجب ذات إرتاج و الإرتاج مصدر أرتج
أي أغلق أي ذات إغلاق و من رواه ذات رتاج على فعال فالرتاج الباب المغلق و يبعد رواية من رواه

[394]

ذات أرتاج لأن فعلا قل أن يجمع على أفعال و يعني بالحجب ذات الإرتاج حجب النور المضروبة بين عرشه العظيم و بين
ملائكته و يجوز أن يريد بالحجب السموات أنفسها لأنها حجبت الشياطين عن أن تعلم ما الملائكة فيه . و الليل الداجي
المظلم و البحر الساجي الساكن و الفجاج جمع فج و هو الطريق الواسع بين جبلين و المهاد الفراش . قوله و لا خلق ذو
اعتماد أي و لا مخلوق يسعى برجلين فيعتمد عليهما أو يطير بجناحيه فيعتمد عليهما و يجوز أن يريد بالاعتماد هنا
البطش و التصرف مبتدع الخلق مخرجه من العدم المحض كقوله تعالى **بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ** و دانبان تثنية دانب و
هو الجاد المجتهد المتعب دأب في عمله أي جد و تعب دأبا و دعوبا فهو دعيب و دأبته أنا و سمي الشمس و القمر دانبين
لتعاقبهما على حال واحدة دائما لا يفتران و لا يسكنان و روي دانبين بالنصب على الحال و يكون خبر المبتدأ يبليان و هذه

من الألفاظ القرآنية : قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ وَ أَحْصَى آثَارَهُمْ وَ أَعْمَلَهُمْ وَ عَدَدَ أَنْفُسِهِمْ وَ خَانِنَةً أَعْيُنُهُمْ وَ مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنْ
الضَّمِيرِ وَ مُسْتَقَرَّهُمْ وَ مُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ وَ الظُّهُورِ إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الْغَايَاتُ آثَارَهُمْ يُمْكِنُ أَنْ يَعْنَى بِهِ آثَارَ وَطَنِهِمْ
فِي الْأَرْضِ إِبْدَانًا بِأَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِكُلِّ مَعْلُومٍ

[395]

كما أذن قوله سبحانه **وَ مَا تَسْفُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا** بذلك و يمكن أن يعنى به حركاتهم و تصرفاتهم . و روي و عدد
أنفاسهم على الإضافة . و خاننة الأعين ما يوميى به مسارقة و خفية و مستقرهم أي في الأرحام و مستودعهم أي في
الأصلاب و قد فسر ذلك فتكون من متعلقة بمستودعهم و مستقرهم على إرادة تكررها و يمكن أن يقال أراد مستقرهم و
مأواهم على ظهر الأرض و مستودعهم في بطنها بعد الموت و تكون من هاهنا بمعنى مذ أي مذ زمان كونهم في الأرحام و
الظهور إلى أن تتناهى بهم الغايات أي إلى أن يحشروا في القيامة و على التأويل الأول يكون تناهي الغايات بهم عبارة عن
كونهم أحياء في الدنيا : **هُوَ الَّذِي إِشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ وَ اتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ فَاهِرٌ
مَنْ عَازَهُ وَ مُدْمِرٌ مَنْ شَاقَّهُ وَ مُذِلٌّ مَنْ نَاوَاهُ وَ غَالِبٌ مَنْ عَادَاهُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ وَ مَنْ سَأَلَهُ أُعْطَاهُ وَ مَنْ أَفْرَضَهُ قَضَاهُ وَ
مَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ عِبَادَ اللَّهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا وَ حَاسِبُوا مَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا وَ تَنَفَّسُوا قَبْلَ ضَيْقِ الْخَنَاقِ وَ
إِنْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ وَ اعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعْنِ عَلَىٰ نَفْسِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَ رَاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَا
رَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ**

[396]

يجوز نقمة و نقمة مثل كلمة و كلمة و لبنة و لبنة و معنى الكلام أنه مع كونه واسع الرحمة في نفس الأمر و أنه أرحم
الراحمين فإنه شديد النقمة على أعدائه و مع كونه عظيم النقمة في نفس الأمر و كونه شديد العقاب فإنه واسع الرحمة
لأوليائه و عازه أي غالبه و عزه أي غلبه و منه **وَ عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ** و في المثل من عز بز أي من غلب سلب و المدمر
المهلك دمره و دمر عليه بمعنى أي أهلكه و شاقه عاده قيل إن أصله من الشق و هو النصف لأن المعادي يأخذ في شق و
المعادي في شق يقابله و ناواه أي عاداه و اللفظة مهموزة و إنما لينها لأجل القرينة السجعية و أصلها ناوات الرجل
مناواة و نواء و يقال في المثل إذا ناوات الرجل فاصبر . قوله زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا من الكلام الفصيح النادر اللطيف
يقول اعتبروا أعمالكم و أنتم مختارون قادرون على استدراك الفارط قبل أن يكون هذا الاعتبار فعل غيركم و أنتم لا
تقتدرون على استدراك الفارط و مثله قوله و حاسبوها من قبل أن تحاسبوا . ثم قال و تنفسوا قبل ضيق الخناق أي
انتهزوا الفرصة و اعملوا قبل أن يفوتكم الأمر و يجد بكم الرحيل و يقع الندم قال الشاعر

اختم و طينك رطب إن قدرت فكم

قد أمكن الختم أقواما فما ختموا

ثم قال و انقادوا قبل عنف السياق هو العنف بالضم و هو ضد الرفق يقال عنف عليه و عنف به أيضا و العنيف الذي لا
رفق له بركوب الخيل و الجمع عنف و اعتنفت الأمر أي أخذته بعنف يقول انقادوا أنتم من أنفسكم قبل أن تقادوا و تساقوا

[397]

بغير اختياركم سوقا عنيفا ثم قال من لم يعنه الله على نفسه حتى يجعل له منها واعظا و زاجرا لم ينفعه الزجر و الوعظ
من غيرها أخذ هذا المعنى شاعر فقال

و أقصرت عما تعهدين و زاجر
من النفس خير من عتاب العوائل

فإن قلت أ ليس في هذا الكلام إشعار ما بالجبر . قلت إنه لا خلاف بين أصحابنا في أن الله تعالى أظافا يفعلها بعباده فيقربهم
من الواجب و يبعدهم من القبيح و من يعلم الله تعالى من حاله أنه لا لطف له لأن كل ما يعرض لظفا له فإنه لا يؤثر في
حاله و لا يزداد به إلا إصرارا على القبيح و الباطل فهو الذي عناه أمير المؤمنين ع بقوله من لم يعن على نفسه لأنه ما
قبل المعونة و لا انقاد إلى مقتضاها و قد روي و اعلموا أنه من لم يعن على نفسه بكسر العين أي من لم يعن الواعظين له
و المنذرين على نفسه و لم يكن معهم إلبا عليها و قاهرا لها لم ينتفع بالوعظ و الزجر لأن هوى نفسه يغلب و عظ كل
واعظ و زجر كل زاجر

90 - و من خطبة له ع تعرف بخطبة الأشباح و هي من جلائل خطبة ع

رَوَى مَسْعَدَةُ بْنُ صَدَقَةَ عَنِ الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ ع أَنَّهُ قَالَ : خَطَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِذِهِ الْخُطْبَةِ عَلَى مَنبَرِ الْكُوفَةِ وَ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صِفْ لَنَا رَبَّنَا مِثْلَ مَا نَرَاهُ عَيْنَانَا لِنَزِدَادَ لَهُ حُبًّا وَ بِهِ مَعْرِفَةً فَغَضِبَ وَ نَادَى الصَّلَاةَ جَامِعَةً فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ حَتَّى غَصَّ الْمَسْجِدُ بِأَهْلِهِ فَصَعِدَ الْمُنْبَرُ وَ هُوَ مُغْضَبٌ مُتَعَيِّرٌ اللَّوْنُ فَحَمِدَ اللَّهَ وَ أَنْشَى عَلَيْهِ وَ صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ص ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَفْرُهُ الْمَنْعُ وَ الْجُمُودُ وَ لَا يُكْذِبُهُ الْإِعْطَاءُ وَ الْجُودُ إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ وَ كُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلَاهُ وَ هُوَ الْمَنَّانُ بِقَوَائِدِ النِّعَمِ وَ عَوَائِدِ الْمَزِيدِ وَ الْقِسْمِ عَيْنَانَهُ الْخَلَائِقُ ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ وَ قَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ وَ نَهَجَ سَبِيلَ الرَّاعِيَيْنِ إِلَيْهِ وَ الطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ وَ لَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجُودَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلِ الْأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلُ فَيَكُونُ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَ الْأَخْرُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ بَعْدُ فَيَكُونُ شَيْءٌ بَعْدَهُ وَ الرَّادِعُ أَتَاسِيَّ الْأَبْصَارِ عَنِ أَنْ تَنَالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ مَا اِخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيُخْتَلَفُ مِنْهُ الْحَالُ وَ لَا كَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِنْتِقَالُ الْأَشْبَاحِ الْأَشْخَاصِ وَ الْمَرَادُ بِهِمْ هَاهُنَا الْمَلَائِكَةُ لِأَنَّ الْخُطْبَةَ تَتَضَمَّنُ ذِكْرَ الْمَلَائِكَةِ .

[399]

و قوله الصلاة جامعة منصوب بفعل مقدر أي احضروا الصلاة و أقيموا الصلاة و جامعة منصوب على الحال من الصلاة . و غص المسجد بفتح الغين أي امتلأ و المسجد غاص بأهله و يقال رجل مغضب بفتح الضاد أي قد أغضب أي فعل به ما يوجب غضبه . و يفره المنع يزيد في ماله و الموفور التام و فرت الشيء و فرا و وفر الشيء نفسه و فورا يتعدى و لا يتعدى و في أمثالهم يوفروا و يحمدهم هو من قولك و فرته عرضه و و فرته ماله . و قوله و لا يكديه الإعطاء أي لا يفرقه و لا ينفذ خزانته يقال كدت الأرض تكد و فهي كادية إذا أبطأ نباتها و قل خيرها فهذا لازم فإذا عديته أتيت بالهمزة فقلت أكديت الأرض أي جعلتها كادية و تقول أكدي الرجل إذا قل خيريه و قوله تعالى **وَ أَعْطَى قَلِيلًا وَ أَكْدَى** أي قطع القليل يقول إنه سبحانه قادر على المقدورات و ليس كالمملوك من البشر الذين إذا أعطوا نقصت خزانهم و إن منعوا زادت و قد شرح ذلك و قال إذ كل معط منتقص أي منقوص و يجيء انتقص لازما و متعديا تقول انتقص الشيء نفسه و انتقصت الشيء أي نقصته و كذلك نقص يجيء لازما و متعديا . ثم قال و كل مانع مذموم غيره و ذلك لأنه تعالى إنما يمنع من تقتضي الحكمة و المصلحة منعه و ليس كما يمنع البشر و سأل رجل علي بن موسى الرضا عن الجواد فقال إن لكلامك وجهين فإن كنت تسأل عن المخلوق فإن الجواد هو الذي يؤدي ما افترض الله عليه و البخيل هو الذي يبخل بما افترض الله عليه و إن كنت تعني الخالق

[400]

فهو الجواد إن أعطى و هو الجواد إن منع لأنه إن أعطى عبدا أعطاه ما ليس له و إن منعه منعه ما ليس له . قوله و ليس بما سنل بأجود منه بما لم يسأل فيه معنى لطيف و ذاك لأن هذا المعنى مما يختص بالبشر لأنهم يتحركون بالسؤال و تهزهم الطلبات فيكونون بما سألهم السائل أجود منهم بما لم يسألهم إياه و أما البارئ سبحانه فإن جوده ليس على هذا المنهاج لأن جوده عام في جميع الأحوال . ثم ذكر أن وجوده تعالى ليس بزمني فلا يطلق عليه البعدية و القبلية كما يطلق على الزمانيات و إنما لم يكن وجوده زمانيا لأنه لا يقبل الحركة و الزمان من لواحق الحركة و إنما لم تطلق عليه البعدية و

القبلية إذ لم يكن زمانيا لأن قولنا في الشيء إنه بعد الشيء الفلاني أي الموجود في زمان حضر بعد تقضي زمان ذلك الشيء الفلاني و قولنا في الشيء إنه قبل الشيء الفلاني أي إنه موجود في زمان حضر و لم يحضر زمان ذلك الشيء الفلاني بعد فما ليس في الزمان ليس يصدق عليه القبل و البعد الزمانيان فيكون تقدير الكلام على هذا الأول الذي لا يصدق عليه القبلية الزمانية ليمكن أن يكون شيء ما قبله و الآخر الذي لا يصدق عليه البعدية الزمانية ليمكن أن يكون شيء ما بعده . و قد يحمل الكلام على وجه آخر أقرب متناولا من هذا الوجه و هو أن يكون أراد الذي لم يكن محدثا أي موجودا قد سبقه عدم فيقال إنه مسبوق بشيء من الأشياء إما المؤثر فيه أو الزمان المقدم عليه و أنه ليس بذات يمكن فناؤها و عدمها فيما لا يزال فيقال إنه ينقضي و ينصرم و يكون بعده شيء من الأشياء إما الزمان أو غيره و الوجه الأول أدق و لطف و يؤكد كونه مرادا قوله عقيب ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال و ذلك لأن واجب الوجود أعلى من الدهر و الزمان فنسبة ذاته إلى الدهر و الزمان بجملته و تفصيل أجزائه نسبة متحدة .

[401]

فإن قلت إذا لم يكن قبل الأشياء بالزمان و لا بعدها بالزمان فهو معها بالزمان لأنه لا يبقى بعد نفي القبلية و البعدية إلا المعية . قلت إنما يلزم ذلك فيما وجوده زمني و أما ما ليس زمانيا لا يلزم من نفي القبلية و البعدية إثبات المعية كما أنه ما لم يكن وجوده مكانيا لم يلزم من نفي كونه فوق العالم أو تحت العالم بالمكان أن يكون مع العالم بالمكان . ثم قال الرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه الأناسي جمع إنسان و هو المثال الذي يرى في السواد و هذا اللفظ بظاهره يشعر بمذهب الأشعرية و هو قولهم إن الله تعالى خلق في الأبصار مانعا عن إدراكه إلا أن الأدلة العقلية من جانبنا اقتضت تأويل هذا اللفظ كما تأول شيوخنا قوله تعالى **وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ** فقالوا إلى جنة ربها فنقول تقديره الرادع أناسي الأبصار أن تنال أنوار جلالته . فإن قلت أ تثبتون له تعالى أنوارا يمكن أن تدركها الأبصار و هل هذا إلا قول بالتجسيم . قلت كلا لا تجسيم في ذلك فكما أن له عرشا و كرسي و ليس بجسم فكذا أنوار عظيمة فوق العرش و ليس بجسم فكيف تنكر الأنوار و قد نطق الكتاب العزيز بها في غير موضع كقوله **وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا** و كقوله **مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**

[402]

و لَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِينُ الْجِبَالِ وَ ضَحِكْتَ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ مِنْ فِزْرِ اللَّجَيْنِ وَ الْعُقَيَّانِ وَ نُثَارَةَ الدَّرِّ وَ حَصِيدَ الْمَرْجَانِ مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ وَ لَا أَنْفَدَ سَعَةً مَا عِنْدَهُ وَ لَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ دَخَائِرِ الْأَنْعَامِ مَا لَا تُنْفِذُهُ مَطَالِبُ الْأَنْعَامِ لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَغِيضُهُ سُؤَالَ السَّائِلِينَ وَ لَا يَبْخُلُهُ يُبْخَلُهُ الْإِحَاحُ الْمُلْحِينَ هذا الكلام من تنمة الكلام الأول و هو قوله لا يفره المنع و لا يكديه الإعطاء و الجود و تنفست عنه المعادن استعارة كأنها لما أخرجته و ولدته كانت كالحیوان يتنفس فيخرج من صدره و رنته الهواء . و ضحكت عنه الأصداف أي تفتحت عنه و انشقت يقال للطلع حين ينشق الضحك بفتح الضاد و إنما سمي الضاحك ضاحكا لأنه يفتح فاه و الفلز اسم الأجسام الذائبة كالذهب و الفضة و الرصاص و نحوها و اللجين اسم الفضة جاء مصغرا كالكميت و الثريا و العقيان الذهب الخالص و يقال هو ما ينبت نباتا و ليس مما يحصل من الحجارة و نثارة الدر ما تناثر منه كالسقاطة و النخالة و تأتي فعالة تارة للجدد المختار و تارة للساقط المتروك فالأول نحو الخلاصة و الثاني نحو القلامة . و حصيد المرجان كأنه أراد المتبدد منه كما يتبدد الحب المحصود و يجوز أن يعنى به الصلب المحكم

من قولهم شيء مستحصد أي مستحصف مستحکم یعنی أنه ليس برخو و لا هس و يروي و حصباء المرجان و الحصباء
الحصى و أرض حصبة و محصبة

[403]

بافتح ذات حصباء و المرجان صغار اللؤلؤ و قد قيل إنه هذا الحجر و استعمله بعض المتأخرين فقال

أدمى لها المرجان صفحة خده

و بكى عليها اللؤلؤ المكنون

و تنفذه تفنيه نفذ الشيء أي فني و أنفدته أنا و مطالب الأنام جمع مطلب و هو المصدر من طلبت الشيء طلبا و مطلبا . و
يغيضه بفتح حرف المضارعة ينقصه و يقال غاض الماء فهذا لازم و غاض الله الماء فهذا متعد و جاء أغاض الله الماء .
و الإلاحاح مصدر ألح على الأمر أي أقام عليه دائما من ألح السحاب إذا دام مطره و ألح البعير حرن كما تقول خلأت الناقة
و روي و لا يبخله بالتخفيف تقول أبخلت زيدا أي صادفته بخيلا و أجبنته وجدته جبانا . و في هذا الفصل من حسن
الاستعارة و بديع الصنعة ما لا خفاء به : فأنظر أيها السائل فما ذلك القرآن عليه من صفته فأنتم به و استصضى بنور
هدايته و ما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه و لا في سنة النبي ص و أئمة الهدى أثره فكل علمه إلى
الله سبحانه فإن ذلك منتهى حق الله عليك و أعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أعناهم عن إفتحام السدد المضروبة دون
الغيوب الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله

[404]

إعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما و سمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا فأفتصر
على ذلك و لا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين تقول انتم فلان بفلان أي جعله إماما و اقتدى به
فكل علمه من وكله إلى كذا وكلا و وكولا و هذا الأمر موكل إلى رأيك و الاقتحام الهجوم و الدخول مغالبة و السدد
المضروبة جمع سدة و هي الرجاج . و اعلم أن هذا الفصل يمكن أن تتعلق به الحشوية المانعون من تأويل الآيات الواردة
في الصفات القائلين بالجمود على الظواهر و يمكن أيضا أن يتعلق به من نفى النظر و حرمة أصلا و نحن قبل أن نحققه و
نتكلم فيه نبدأ بتفسير قوله تعالى **و ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم** فنقول إن من الناس من وقف على قوله **إلا**
الله و منهم من لم يقف على ذلك و هذا القول أقوى من الأول لأنه إذا كان لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله لم يكن في إنزاله و
مخاطبة المكلفين به فائدة بل يكون كخطاب العربي بالزنجية و معلوم أن ذلك عيب قبيح . فإن قلت فما الذي يكون موضع
يقولون من الإعراب . قلت يمكن أن يكون نصبا على أنه حال من الراسخين و يمكن أن يكون كلاما مستأنفا أي هؤلاء
العالمون بالتأويل يقولون آمنا به .

[405]

و قد روي عن ابن عباس أنه تأول آية فقال قائل من الصحابة **و ما يعلم تأويله إلا الله** فقال ابن عباس **و الراسخون في**
العلم و أنا من جملة الراسخين . ثم نعود إلى تفسير كلام أمير المؤمنين ع فنقول إنه غضب و تغير وجهه لقول السائل

صف لنا ربنا مثل ما نراه عيانا و إذا هذا المعنى ينصرف وصية له بما أوصاه به من اتباع ما جاء في القرآن و السنة و ذلك لأن العلم الحاصل من رؤية الشيء عيانا علم لا يمكن أن يتعلق مثله بالله سبحانه لأن ذاته تعالى لا يمكن أن تعلم من حيث هي هي كما تعلم المحسوسات أ لا ترى أنا إذا علمنا أنه صانع العالم و أنه قادر عالم حي سميع بصير مرید و أنه ليس بجسم و لا جوهر و لا عرض و علمنا جميع الأمور السلبية و الإيجابية المتعلقة به فإنما علمنا سلوبا و إضافات و لا شك أن ماهية الموصوف مغايرة لماهية الصفات و الذوات المحسوسة بخلاف ذلك لأننا إذا رأينا السواد فقد علمنا نفس حقيقة السواد لا صفة من صفات السواد و أيضا فإننا لو قدرنا أن العلم بوجوده و صفاته السلبية و الإيجابية يستلزم العلم بذاته من حيث هي هي لم يكن عالما بذاته علما جزئيا لأنه يمكن أن يصدق هذا العلم على كثيرين على سبيل البذل و إذا ثبت أنه يستحيل أن يصدق على كثيرين على سبيل البذل ثبت أنه يستحيل أن يصدق على كثيرين على سبيل الجمع و العلم بالمحسوس يستحيل أن يصدق على كثيرين لا على سبيل الجمع و لا على سبيل البذل فقد بان أنه يستحيل أن يعلم الله تعالى كما يعلم الشيء المرني عيانا فأمر المؤمنين ع أنكر هذا السؤال كما أنكره الله تعالى على بني إسرائيل لما طلبوا الرؤية قال تعالى **وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ .**

[406]

ثم قال للسان بعد غضبه و استحالة لونه و ظهور أثر الإنكار عليه ما ذلك القرآن عليه من صفته فخذ به فإن لم تجده في الكتاب فأطلبه من السنة و من مذاهب أئمة الحق فإن لم تجد ذلك فاعلم أن الشيطان حينئذ قد كلفك علم ما لم يكلفك الله علمه و هذا حق لأن الكتاب و السنة قد نطقا بصفات الله من كونه عالما قادرا حيا مريدا سميعا بصيرا و نطقا أيضا بتزييه عن سمات الحدوث كالجسمية و الحلول و الجهة و ما استلزم الجهة كالرؤية فلا إنكار على من طلب في مدارك العقول وجوها تعضد ما جاء به القرآن و السنة و توفق بين بعض الآيات و بعض و تحمل أحد اللفظين على الآخر إذا تناقضا في الظاهر صيانة لكلام الحكيم عن التهافت و التعارض و أما ما لم يأت الكتاب و السنة فيه بشيء فهو الذي حرم و حظر على المكلفين الفكر فيه كالكلام في الماهية التي يذهب ضرار المتكلم إليها و كإثبات صفات زائدة على الصفات المعقولة لذات الباري سبحانه و هي على قسمين أحدهما ما لم يرد فيه نص كإثبات طائفة تعرف بالماترية صفة سموها التكوين زائدة على القدرة و الإرادة . و الثاني ما ورد فيه لفظ فأخطأ بعض أهل النظر فأتيت لأجل ذلك اللفظة صفة غير معقولة للباري سبحانه نحو قول الأشعريين إن اليمين صفة من صفات الله و الاستواء على العرش صفة من صفات الله و إن وجه الله صفة من صفاته أيضا ثم قال إن الراسخين في العلم الذين غنوا بالإقرار بما عرفوه عن الولوج و التقمق فيما لم يعرفوه و هؤلاء هم أصحابنا المعتزلة لا شبهة في ذلك أ لا ترى أنهم يعللون أفعال الله تعالى بالحكم و المصالح فإذا ضاق عليهم الأمر في تفصيل بعض المصالح في بعض المواضع قالوا نعلم على الجملة أن لهذا وجه حكمة و مصلحة و إن كنا لا نعرف تفصيل تلك المصلحة كما يقولون في تكليف من يعلم الله تعالى منه أنه يكفر و كما يقولون في اختصاص الحال التي حدث فيها العالم بحدوثه دون ما قبلها و ما بعدها .

[407]

و قد تأول القطب الراوندي كلام أمير المؤمنين في هذا الفصل فقال إنما أنكر على من يقول لم تعبد الله المكلفين بإقامة خمس صلوات و هلا كانت سنا أو أربعا و لم جعل الظهر أربع ركعات و الصبح ركعتين و هلا عكس الحال و هذا التأويل

غير صحيح لأنه ع إنما أخرج هذا الكلام مخرج المنكر على من سأله أن يصف له البارئ سبحانه و لم يكن السائل قد سأل عن العلة في أعداد الصلاة و كمية أجزاء العبادات . ثم إنه ع قد صرح في غضون الكلام بذلك فقال فانظر أيها السائل فما ذلك القرآن عليه من صفته فانتم به و ما لم يدلك عليه فليس عليك أن تخوض فيه و هذا الكلام تصريح بأن البحث إنما هو في النظر العقلي في فن الكلام فلا يجوز أن يحمل على ما هو بمعزل عنه . و اعلم أننا نتساهل في ألفاظ المتكلمين فنوردها بعباراتهم كقولهم في المحسوسات و الصواب المحسات لأنه لفظ المفعول من أحس الرباعي لكننا لما رأينا العدول عن ألفاظهم إذا خضنا في مباحثهم مستهجننا عبرنا بعبارتهم على علم منا أن العربية لا تسوغها : هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتْ الْأَوْهَامُ لِتُنْدِرِكَ مُنْقَطِعَ قُدْرَتِهِ وَ حَاوَلَ الْفِكْرَ الْمُبْرَأَ مِنْ خَطَرِ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ وَ تَوَلَّهَتْ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ وَ عَمَضَتْ مَدَاخِلَ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لَا تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَتَاوَلَ عِلْمُ دَاتِهِ رَدْعَهَا وَ هِيَ تَجُوبُ مَهَاوِي سُدْفِ الْغُيُوبِ مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ مُعْرِفَةً بِأَنَّهُ لَا يَنَالُ بِجُورِ الْإِعْسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ وَ لَا تَخْطُرُ بِبَالِ أَوْلِي الرُّوِّيَّاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلَالِ عِزَّتِهِ

[408]

ارتمت الأوهام أي ترامت يقال ارتمى القوم بالنبل أي تراموا فشبه جولان الأوهام و الأفكار و تعارضها بالترامي . و خطر الوسواس بتسكين الطاء مصدر خطر له خاطر أي عرض في قلبه و روي من خطرات الوسواس . و تولهت القلوب إليه اشتد عشقها حتى أصابها الوله و هو الحيرة . و قوله لتجري في كيفية صفاته أي لتصادف مجرى و مسلكا في ذلك و عمضت مداخل العقول أي عمض دخولها و دق في الأنتظار العميقة التي لا تبلغ الصفات كنهها لدقتها و عموضها طالبة أن تنال معرفته تعالى . و لفظة ذات لفظة قد طال فيها كلام كثير من أهل العربية فأنكر قوم إطلاقها على الله تعالى و إضافتها إليه أما إطلاقها فلأنها لفظة تأتي و البارئ سبحانه منزه عن الأسماء و الصفات المؤنثة و أما إضافتها فلأنها عين الشيء و الشيء لا يضاف إلى نفسه و أجاز آخرون إطلاقها في البارئ تعالى و إضافتها إليه أما استعمالها فلوجهين أحدهما أنها قد جاءت في الشعر القديم قال خبيب الصحابي عند صلبه

و ذلك في ذات الإله و إن يشأ

يبارك على أوصال شلو موزع

و يروى ممزع و قال النابغة

محلثهم ذات الإله و دينهم

قديم فما يخشون غير العواقب

و الوجه الثاني أنها لفظة اصطلاحية فجاز استعمالها لا على أنها مؤنث ذو بل تستعمل

[409]

ارتجالا في مسماها الذي عبر عنه بها أرباب النظر الإلهي كما استعملوا لفظ الجوهر و العرض و غيرهما في غير ما كان أهل العربية و اللغة يستعملونها فيه . و أما منعهم إضافتها إليه تعالى و أنه لا يقال ذاته لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه

فباطل بقولهم أخذته نفسه وأخذته عينه فإنه بالاتفاق جائز وفيه إضافة الشيء إلى نفسه . ثم نعود إلى التفسير قوله ع ردعها أي كفها وتجوب أي تقطع والمهاوي المهالك الواحدة مهواه بالفتح وهي ما بين جبلين أو حائطين ونحو ذلك السد فجمع سدفة وهي القطعة من الليل المظلم وجبته أي ردت وأصله من جبهته أي صككت جبهته والجور العدول عن الطريق والاعتساف قطع المسافة على غير جادة معلومة . و خلاصة هذا الفصل أن العقول إذا حاولت أن تدرك متى ينقطع اقتداره على المقدرات نكصت عن ذلك لأنه قادر أبدا دائما على ما لا يتناهى وإذا حاول الفكر الذي قد صفا وخلا عن الوسواس والعوائق أن يدرك مغيبات علمه تعالى كل وحسر ورجع ناقصا أيضا وإذا اشتد عشق النفوس له وتولبت نحوه لتسلك مسلكا تقف منه على كيفية صفاته عجزت عن ذلك وإذا تغلغت العقول وغمضت مداخلها في دقائق العلوم النظرية الإلهية التي لا توصف لدفقتها طالبة أن تعلم حقيقة ذاته تعالى انقطعت وأعييت ورضا سبحانه وتعالى هي تجول وتقطع ظلمات الغيب لتخلص إليه فارتدت حيث جبهها و ردعها مقرة معترفة بأن إدراكه ومعرفته لا تنال باعتساف المسافات التي بينها وبينه وإن أرباب الأفكار والرويات يتعذر عليهم أن يخطر لهم خاطر يطابق ما في الخارج من تقدير جلال عزته ولا بد من أخذ هذا القيد في الكلام لأن أرباب الأنظار

[410]

لا بد أن تخطر لهم الخواطر في تقدير جلال عزته ولكن تلك الخواطر لا تكون مطابقة لها في الخارج لأنها خواطر مستندها الوهم لا العقل الصريح وذلك لأن الوهم قد ألف الحسيات والمحسوسات فهو يعقل خواطر بحسب ما ألفه من ذلك و جلال واجب الوجود أعلى وأعظم من أن يتطرق الوهم نحوه لأنه بريء من المحسوسات سبحانه وأما العقل الصريح فلا يدرك خصوصية ذاته لما تقدم . و اعلم أن قوله تعالى **فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ** فيه إشارة إلى هذا المعنى وكذلك قوله **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ** : الَّذِي ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ امْتَثَلَهُ وَلَا مَقْدَارٍ اخْتَدَى عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ وَ أَرَانَا مِنْ مَلَكُوتٍ قُدْرَتِهِ وَ عَجَائِبِ مَا نَطَقْتَ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ وَ اعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِهِ مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارٍ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ فَظَهَرَتْ فِي الْبَدَائِعِ النَّبِيَّ أَحَدْتُهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ وَ أَعْلَامُ حِكْمَتِهِ فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَ دَلِيلًا عَلَيْهِ وَ إِنْ كَانَ خَلْقًا صَامِتًا فَحُجَّتُهُ بِالتَّنْبِيرِ نَاطِقَةً وَ دَلَّالَتُهُ عَلَى الْمُبْدِعِ قَائِمَةً

[411]

المسالك بكسر الميم ما يمسك ويعصم به . و قوله ابتدع الخلق على غير مثال امتثله يحتمل وجهين أحدهما أن يريد بامتثله مثله كما تقول صنعت واصطنعت بمعنى فيكون التقدير أنه لم يمثل لنفسه مثالا قبل شروعه في خلق العالم ثم احتذى ذلك المثال و ركب العالم على حسب ترتيبه كالصانع الذي يصوغ حلقة من رصاص مثالا ثم يصوغ حلقة من ذهب عليها كالبناء يقدر ويفرض رسوما و تقديرات في الأرض و خطوطا ثم يبني بحسبها . و الوجه الثاني أنه يريد بامتثله احتذاه و تقبله و اتبعه و الأصل فيه امتثال الأمر في القول فنقل إلى احتذاء الترتيب العقلي فيكون التقدير أنه لم يمثل له فاعل آخر قبله مثالا اتبعه و احتذاه و فعل نظيره كما يفعل التلميذ في الصباغة و النجارة شيئا قد مثل له أستاذه صورته و هيئته . و اعلم أن هذا أحد الأسئلة التي يذكرها أصحابنا في باب كونه عالما لأنهم لما استدلوا على كونه تعالى عالما بطريق إحكام العلم و إتقانه سألوا أنفسهم فقالوا لم لا يجوز أن يكون القديم سبحانه أحدث العالم محتذيا لمثال مثله و هيئة

اقتضاها و المحتذي لا يجب كونه عالما بما يفعله أ لا ترى أن من لا يحسن الكتابة قد يحتذي خطأ مخصوصا فيكتب قريبا منه و كذلك من يطبع الشمع بالخاتم ثم يطبع فيه مثال الخاتم فهو فعل الطابع و لا يجب كونه عالما . و أجاب أصحابنا عن ذلك فقالوا إن أول فعل محكم وقع منه ثم احتذى عليه يكفي في ثبوت كونه عالما و أيضا فإن المحتذي ليست العالمية بمسلوبة عنه بل موصوف بها

[412]

أ لا ترى أنه متصور صورة ما يحتذيه ثم يوقع الفعل مشابهها له فالمحتذي عالم في الجملة و لكن علمه يحدث شيئا فشيئا . فأما معنى الفصل فظاهر يقول ع إنه ابتدع الخلق على غير مثال قدمه لنفسه و لا قدم له غيره ليحتذى عليه و أرانا من عجائب صنعته و من اعتراف الموجودات كلها بأنها فقيرة محتاجة إلى أن يمسخها بقوته ما دلنا على معرفته ضرورة و في هذا إشارة إلى أن كل ممكن مفتقر إلى المؤثر و لما كانت الموجودات كلها غيره سبحانه ممكنة لم تكن غنية عنه سبحانه بل كانت فقيرة إليه لأنها لولاه ما بقيت فهو سبحانه غني عن كل شيء و لا شيء من الأشياء مطلقا بغني عنه سبحانه و هذه من خصوصية الإلهية و أجل ما تدركه العقول من الأنظار المتعلقة بها . فإن قلت في هذا الكلام إشعار بمذهب شيخكم أبي عثمان في أن معرفته تعالى ضرورية . قلت يكاد أن يكون الكلام مشعرا بذلك إلا أنه غير دال عليه لأنه لم يقل ما دلنا على معرفته باضطرار و لكن قال ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته فالاضطرار راجع إلى قيام الحجة لا إلى المعرفة . ثم قال ع و ظهرت آثار صنعته و دلائل حكمته في مخلوقاته فكانت و هي صامتة في الصورة ناطقة في المعنى بوجوده و ربوبيته سبحانه و إلى هذا المعنى نظر الشاعر فقال

فو عجا كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
و في كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

[413]

و قال في تفسير قوله تعالى **وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** إنه عبارة عن هذا المعنى : فأشهدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ وَ تَلَاحُمِ حَقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُخْتَلِجَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ وَ لَمْ يُبَاشِرْ قَلْبُهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَا نِدَّ لَكَ وَ كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ عَنِ الْمُتَبَوِّعِينَ إِذْ يَقُولُونَ **تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ كَذَّبَ الْعَادِلُونَ بِكَ إِذْ شَبَّهوكَ بِأَصْنََامِهِمْ وَ نَحَلوكَ حَلِيَّةَ الْمُخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ وَ جَزَّءوكَ تَجْزِئَةَ الْمَجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ وَ قَدَّروكَ عَلَى الْخَلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى بِقَرَاحِ عُقُولِهِمْ وَ أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَأَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ وَ الْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلْتَ بِهِ مُحْكَمَاتِ آيَاتِكَ وَ نَطَقْتَ عَنْهُ شَوَاهِدَ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ وَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ فَتَكُونَ فِي مَهَبٍ فِكْرَهَا مَكِيفًا وَ لَا فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا مَحْدُودًا مُصَرِّفًا حَقَاقِ الْمَفَاصِلِ جَمْعَ حَقَّةٍ وَ جَاءَ فِي جَمْعِهَا حَقَاقٍ وَ حَقٌّ وَ حَقٌّ وَ لَمَّا قَالَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ وَ تَلَاحُمِ حَقَاقِ مَفَاصِلِهِمْ فَأَوْقَعَ التَّلَاحُمَ فِي مَقَابِلَةِ التَّبَايُنِ صِنَاعَةً وَ بَدِيعًا وَ رَوِيَّاتِ**

[414]

المحتجة فمن قال المحتجة أراد أنها بما فيها من لطيف الصنعة كالمحتجة المستدلة على التدبير الحكمي من لدنه سبحانه ومن قال المحتجة أراد المستترة لأن تركيبها الباطن خفي محجوب . و الند المثل و العادلون بك الذين جعلوا لك عديلا و نظيرا و نحلوك أعطوك و هي النحلة و روي لم يعقد على ما لم يسم فاعله . و غيب ضميره بالرفع و القرائح جمع قريحة و هي القوة التي تستنبط بها المعقولات و أصله من قريحة البئر و هو أول مانها . و معنى هذا الفصل أنه ع شهد بأن المجسم كافر و أنه لا يعرف الله و أن من شبه الله بالمخلوقين ذوي الأعضاء المتباينة و المفاصل المتلاحمة لم يعرفه و لم يباشر قلبه اليقين فإنه لا ند له و لا مثل ثم أكد ذلك بآيات من كتاب الله تعالى و هي قوله تعالى **فَكَبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَ الْغَاوُونَ وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَ هُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّبُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ** حكي سبحانه حكاية قول الكفار في النار و هم التابعون للذين أغوهم من الشياطين و هم المتبوعون لقد كنا ضالين إذ سويناكم بالله تعالى و جعلناكم مثله و وجه الحجة أنه تعالى حكي ذلك حكاية منكر على من زعم أن شيئا من الأشياء يجوز تسويته بالباري سبحانه فلو كان الباري سبحانه جسما مصورا لكان مشابها لساير الأجسام المصورة فلم يكن لإنكاره على من سواه بالمخلوقات معنى . ثم زاد ع في تأكيد هذا المعنى فقال كذب العادلون بك المثبتون لك نظيرا و شبيها يعني المشبهة و المجسمة إذ قالوا إنك على صورة آدم فشبهوك بالأصنام التي

[415]

كانت الجاهلية تعبدها و أعطوك حلية المخلوقين لما اقتضت أو هامهم ذلك من حيث لم يألفوا أن يكون القادر الفاعل العالم إلا جسما و جعلوك مركبا و متجزئا كما تتجزأ الأجسام و قدروك على هذه الخلقة يعني خلقة البشر المختلفة القوى لأنها مركبة من عناصر مختلفة الطباع ثم كرر الشهادة فقال أشهد أن من ساواك بغيرك و أثبت أنك جوهر أو جسم فهو عادل بك كافر و قالت تلك الخارجية للحجاج أشهد أنك قاسط عادل فلم يفهم أهل الشام حوله ما قالت حتى فسره لهم قال ع فمن يذهب إلى هذا المذهب فهو كافر بالكتاب و بما دلت عليه حجج العقول ثم قال و إنك أنت الله أي و أشهد أنك أنت الله الذي لم تحط العقول بك كإحاطتها بالأشياء المتناهية فتكون ذا كيفية . و قوله في مهبط فكرها استعارة حسنة ثم قال و لا في روايات خواطرها أي في أفكارها محدودا ذا حد مصرفا أي قابلا للحركة و التغير . و قد استدلت بعض المتكلمين على نفي كون الباري سبحانه جسما بما هو مأخوذ من هذا الكلام فقال لو جاز أن يكون الباري جسما لجاز أن يكون القمر هو إله للعالم لكن لا يجوز أن يكون القمر إله العالم فلا يجوز أن يكون الباري جسما ببيان الملازمة أنه لو جاز أن يكون الباري سبحانه جسما لما كان بين الإلهية و بين الجسمية منافاة عقلية و إذا لم يكن بينهما منافاة عقلية أمكن اجتماعهما و إذا أمكن اجتماعهما جاز أن يكون القمر هو إله العالم لأنه لا مانع من كونه إله العالم إلا كونه جسما يجوز عليه الحركة و الأفول و نقصان ضوئه تارة و امتلاؤه أخرى فإذا لم يكن ذلك منافيا للإلهية جاز أن يكون القمر إله العالم و بيان الثاني إجماع المسلمين على كفر من أجاز كون القمر إله العالم و إذا ثبتت الملازمة و ثبتت المقدمة الثانية فقد تمت الدلالة

[416]

وَ مِنْهَا قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ وَ دَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ وَ وَجَّهَهُ لِرُؤُوسِهِ فَلَمْ يَتَّعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ وَ لَمْ يَقْصُرْ دُونَ الْإِنْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ وَ لَمْ يَسْتَنْصِبْ إِذْ أَمَرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ فَكَيْفَ وَ إِنَّمَا صَدَرَتْ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ الْمُنْشِئِ أَصْنَافَ الْأَشْيَاءِ بِإِلَهِ رُؤْيَا فِكْرٍ آلَ إِلَيْهَا وَ لَا قَرِيحَةَ غَرِيظَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا وَ لَا تَجْرِبَةَ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ وَ لَا شَرِيكَ أَعَانَهُ عَلَى إِبْتِدَاعِ

عَجَائِبِ الْأُمُورِ فَتَمَّ خَلْقَهُ بِأَمْرِهِ وَ أَدْعَنَ لِبَطَاعَتِهِ وَ أَجَابَ إِلَى دَعْوَتِهِ لَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ الْمُبْطِطِيِّ وَ لَا أَنَاةُ الْمَتَلَكِّيِّ فَأَقَامَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوْدَهَا وَ نَهَجَ حُدُودَهَا وَ لَاعَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا وَ وَصَلَ أَسْبَابَ قَرَانِنِهَا وَ فَرَّقَهَا أَجْنَاساً مُخْتَلِفَاتٍ فِي الْحُدُودِ وَ الْأَقْدَارِ وَ الْغَرَائِزِ وَ الْهَيْئَاتِ بِدَايَا خَلْقِهَا أَحْكَمَ صُنْعَهَا وَ فَطَّرَهَا عَلَى مَا أَرَادَ وَ ابْتَدَعَهَا الْوَجْهَةَ بِالْكَسْرِ الْجِهَةَ الَّتِي يَتَوَجَّهُ نَحْوَهَا قَالَ تَعَالَى وَ لِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا . وَ الرَيْثُ الْبَطْءُ وَ الْمَتَلَكِيُّ الْمَتَأَخَّرُ وَ الْأُودُ الْإِعْوَجَاجُ وَ لَاعَمَ بَيْنَ كَذَا وَ كَذَا أَي جَمَعَ وَ الْقَرَانِنُ هُنَا الْأَنْفُسُ وَاحِدَتُهَا قَرُونَةٌ وَ قَرِينَةٌ يُقَالُ سَمَحَتْ قَرِينَتُهُ وَ قَرُونَتُهُ أَي أَطَاعَتُهُ نَفْسُهُ وَ ذَلَّتْ وَ تَابَعَتُهُ عَلَى الْأَمْرِ وَ بِدَايَا هَاهُنَا جَمَعَ بَدِيَّةُ

[417]

وَ هِيَ الْحَالَةُ الْعَجِيبَةُ أَيْ الرَّجُلُ إِذَا جَاءَ بِالْأَمْرِ الْبَدِيءِ أَي الْمَعْجَبِ وَ الْبَدِيَّةُ أَيْضاً الْحَالَةُ الْمُبْتَدَأَةُ الْمُبْتَكِرَةُ وَ مِنْهُ قَوْلُهُمْ فَعَلَهُ بَادِيٌّ ذِي بَدِيءٍ عَلَى وَزْنِ فَعِيلٍ أَي أَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ وَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْمَلَ كَلَامَهُ أَيْضاً عَلَى هَذَا الْوَجْهِ . وَ أَمَا خَلْقُهَا فِيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَضَافٌ بِدَايَا إِلَيْهَا وَ يَجُوزُ إِلا يَكُونَ أَضَافَةٌ إِلَيْهَا بَلْ جَعَلَهَا بَدَلًا مِنْ أَجْنَاسَا وَ يَرُودُ بِرَايَا جَمَعَ بَرِيَّةٌ يَقُولُ عَ إِنَّهُ تَعَالَى قَدَرَ الْأَشْيَاءَ الَّتِي خَلَقَهَا فَخَلَقَهَا مُحْكَمَةً عَلَى حَسَبِ مَا قَدَرَ وَ أَلْطَفَ تَدْبِيرَهَا أَي جَعَلَهَا لَطِيفًا وَ أَمْضَى الْأُمُورَ إِلَى غَايَاتِهَا وَ حُدُودَهَا الْمَقْدَرَةَ لَهَا فَهِيَ الصَّقْرَةُ لِلْأَصْطِيَادِ وَ الْخَيْلُ لِلرُّكُوبِ وَ الطَّرَادُ وَ السَيْفُ لِلْقَطْعِ وَ الْقَلَمُ لِلْكِتَابَةِ وَ الْفَلَكُ لِلدُّورَانِ وَ نَحْوُ ذَلِكَ وَ فِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى

قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا خَلَقَ لَهُ فَلَمْ تَتَّعِدْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ حُدُودَ مَنْزِلَتِهَا الَّتِي جَعَلْتَ غَايَتَهَا وَ لَا قَصْرَتْ دُونَ الْإِنْتِهَاءِ إِلَيْهَا يَقُولُ لَمْ تَقْفَ عَلَى الْغَايَةِ وَ لَا تَجَاوَزْتَهَا ثُمَّ قَالَ وَ لَا اسْتَصْعَبْتَ وَ امْتَنَعْتَ إِذَا أَمَرَهَا بِالْمُضِيِّ إِلَى تِلْكَ الْغَايَةِ بِمُقْتَضَى الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَ هَذَا كَلِمَةٌ مِنْ بَابِ الْمَجَازِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى **فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ إِنْتِ يَا طُوعًا أَوْ كَرْهًا قَالْنَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .** وَ خِلَافَةُ ذَلِكَ الْإِبَانَةُ عَنْ نَفُوزِ إِرَادَتِهِ وَ مَشِيئَتِهِ . ثُمَّ عُلِّلَ نَفْيُ الْإِسْتِصْعَابِ فَقَالَ وَ كَيْفَ يَسْتَصْعَبُ وَ إِنَّمَا صَدَرَتْ عَنْ مَشِيئَتِهِ يَقُولُ إِذَا كَانَتْ مَشِيئَتُهُ هِيَ الْمَقْتَضِيَّةُ لَوْجُودِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ فَكَيْفَ يَسْتَصْعَبُ عَلَيْهِ بَلُوغُهَا إِلَى غَايَاتِهَا الَّتِي جَعَلَتْ لِأَجْلِهَا وَ أَسْلَ وَجُودَهَا إِنَّمَا هُوَ مَشِيئَتُهُ فَإِذَا كَانَ أَسْلَ وَجُودَهَا بِمَشِيئَتِهِ فَكَيْفَ يَسْتَصْعَبُ عَلَيْهِ تَوْجِيهِهَا لِوَجْهَتِهَا وَ هُوَ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ وَجُودِهَا وَ تَابِعٌ لَهُ .

[418]

ثُمَّ أَعَادَ مَعَانِي الْقَوْلِ الْأَوَّلِ فَقَالَ إِنَّهُ أَنْشَأَ الْأَشْيَاءَ بَغَيْرِ رُويَةٍ وَ لَا فِكْرَةٍ وَ لَا غَرِيْزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا خَلْقَ مَا خَلَقَ عَلَيْهَا وَ لَا تَجْرِبَةَ أَفَادَهَا أَي اسْتَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ كَمَا تَكْسِبُ التَّجَارِبُ عُلُومًا لَمْ تَكُنْ وَ لَا بِمُسَاعَدَةِ شَرِيكَ أَعَانَهُ عَلَيْهَا فَتَمَّ خَلْقَهُ بِأَمْرِهِ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ وَ لَمْ يَسْتَصْعَبْ إِذْ أَمَرَ بِالْمُضِيِّ فَلَمَّا أُثْبِتَ هُنَاكَ كَوْنُهَا أَمَرَتْ أَعَادَ لَفْظَ الْأَمْرِ هَاهُنَا وَ الْكُلُّ مَجَازٌ وَ مَعْنَاهُ نَفُوزُ إِرَادَتِهِ وَ أَنَّهُ إِذَا شَاءَ أَمَرَ اسْتِحَالَ أَلَا يَقَعُ وَ هَذَا الْمَجَازُ هُوَ الْمَجَازُ الْمُسْتَعْمَلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** تَعْبِيرًا بِهَذَا اللَّفْظِ عَنْ سُرْعَةِ مَوَاتَاةِ الْأُمُورِ لَهُ وَ انْقِيَادِهَا تَحْتَ قُدْرَتِهِ . ثُمَّ قَالَ لَيْسَ كَالوَاحِدِ مَنَّا يَعْتَرِضُ دُونَ مَرَادِهِ رَيْثٌ وَ بَطْءٌ وَ تَأْخِيرٌ وَ التَّوَاءُ ثُمَّ قَالَ وَ أَقَامَ الْعُوجُ وَ أَوْضَحَ الطَّرِيقَ وَ جَمَعَ بَيْنَ الْأُمُورِ الْمُتَضَادَّةِ أَلَا تَرَى أَنَّهُ جَمَعَ فِي بَدَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَ النَّبَاتِ بَيْنَ الْكَيْفِيَّاتِ الْمُتَبَايِنَةِ الْمُتَنَافِرَةِ مِنَ الْحَرَارَةِ وَ الْبُرُودَةِ وَ الرُّطُوبَةِ وَ الْبَيُوسَةِ وَ وَصَلَ أَسْبَابَ أَنْفُسِهَا بِتَعْدِيلِ أَمْزَجَتِهَا لِأَنَّ اعْتِدَالَ الْمَزَاجِ أَوْ الْقُرْبَ مِنَ الْإِعْتِدَالِ سَبَبٌ بَقَاءِ الرُّوحِ وَ فَرَقَهَا أَجْنَاسًا مُخْتَلِفَاتٍ الْحُدُودِ وَ الْأَقْدَارِ وَ الْخَلْقِ وَ الْأَخْلَاقِ وَ الْأَشْكَالِ أُمُورٍ عَجِيبَةٍ بَدِيعَةٍ مَبْتَكِرَةٍ الصَّنْعَةِ غَيْرِ مُحْتَذٍ بِهَا حَذُو

صانع سابق بل مخلوقة على غير مثال قد أحكم سبحانه صنعها و خلقها على موجب ما أراد و أخرجها من العدم المحض إلى الوجود و هو معنى الابتداء فإن الخلق في الاصطلاح النظري على قسمين أحدهما صورة تخلق في مادة و الثاني ما لا مادة له بل يكون وجود الثاني من الأول فقط من غير توسط المادة فالأول يسمى التكوين و الثاني يسمى الإبداع و مرتبة الإبداع أعلى من مرتبة التكوين

[419]

وَ مِنْهَا فِي صِفَةِ السَّمَاءِ وَ نَظْمٍ بِلَا تَعْلِيْقٍ رَهَوَاتٍ فُرْجَهَا وَ لَاحِمٍ صُدُوعٍ انْفِرَاجِهَا وَ وَشَجٍ بَيْنَيْهَا وَ بَيْنَ أَزْوَاجِهَا وَ دَلَّلٍ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ وَ الصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خُلُقِهِ حُزُونَةَ مِعْرَاجِهَا وَ نَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ فَالْتَحَمَتْ عُرَى أَشْرَاجِهَا وَ فَتَقَ بَعْدَ الْإِرْتِنَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا وَ أَقَامَ رَصْدًا مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَابِقِ عَلَى نِقَابِهَا وَ أَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تُمَوَّرَ فِي خَرْقِ الْهَوَاءِ بِأَيْدِهِ وَ أَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ وَ جَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا وَ قَمَرَهَا آيَةً مَمْحُوءَةً مِنْ لَيْلِهَا وَ أَجْرَاهُمَا فِي مَنَاقِلٍ مَجْرَاهُمَا وَ قَدَّرَ سَيْرَهُمَا فِي مَدَارِجِ دَرَجَتَيْهِمَا لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ بِهِمَا وَ لِيَعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ وَ الْحِسَابُ بِمَقَادِيرِهِمَا تَمَّ عَلَقَ فِي جَوْهَا فَلَكَّهَا وَ نَاطَ بِهَا زِينَتَهَا مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيِّهَا وَ مَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا وَ رَمَى مُسْتَرْقِي السَّمْعِ بِثَوَابِقِ شُهُبِهَا وَ أَجْرَاهَا عَلَى أَذْلَالٍ تَسْخِيرِهَا مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا وَ مَسِيرِ سَائِرِهَا وَ هُبُوطِهَا وَ صُغُودِهَا وَ نُحُوسِهَا وَ سُغُودِهَا الرَّهَوَاتِ جَمَعَ رَهْوَةٌ وَ هِيَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ وَ الْمُنْخَفِضُ أَيْضًا يَجْتَمِعُ فِيهِ مَاءُ الْمَطَرِ وَ هُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ وَ الْفَرْجُ جَمْعُ فَرْجَةٍ وَ هِيَ الْمَكَانُ الْخَالِي وَ لَاحِمٌ الْصِقُّ وَ الصَّدْعُ الشَّقُّ وَ وَشَجٌ بِالتَّشْدِيدِ أَي شَبَكَ وَ وَشَجَتِ الْعُرُوقُ وَ الْأَغْصَانُ بِالتَّخْفِيفِ اشْتَبَكَتْ وَ بَيْنَنَا رَحِمٌ وَاشْجَةٌ أَي مُشْتَبِكَةٌ . وَ أَزْوَاجُهَا أَقْرَانُهَا وَ أَشْبَاهُهَا قَالَ تَعَالَى وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً أَي أَصْنَافًا ثَلَاثَةً .

[420]

وَ الْحُزُونَةُ ضِدُّ السُّهُولَةِ وَ أَشْرَاجُهَا جَمْعُ شَرَجٍ وَ هُوَ عِرَا الْعَيْبَةِ وَ أَشْرَجَتِ الْعَيْبَةُ أَي أَقْفَلَتِ أَشْرَاجُهَا وَ تَسْمَى مَجْرَةَ السَّمَاءِ شَرْجًا تَشْبِيهُهَا بِشَرَجِ الْعَيْبَةِ وَ أَشْرَاجُ الْوَادِي مَا انْفَسَحَ مِنْهُ وَ اتَّسَعَ . وَ الْإِرْتِنَاقُ الْإِرْتِنَاجُ وَ النِّقَابُ جَمْعُ نِقَبٍ وَ هُوَ الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ وَ تَمَوَّرَ تَتَحَرَّكَ وَ تَذَهَبُ وَ تَجِيءُ قَالَ تَعَالَى يَوْمَ تَمَوَّرُ السَّمَاءُ مَوَّرًا وَ الْأَيْدِ الْقُوَّةُ وَ نَاطَ بِهَا عَلَقَ وَ الدَّرَارِي الْكَوَاكِبُ الْمُضِيئَةُ نَسَبَتْ إِلَى الدَّرِ لِبَيَاضِهَا وَاحِدًا دَرِي وَ يَجُوزُ كَسْرُ الدَّالِ مِثْلَ بَحْرِ لَجِي وَ لَجِي . وَ الثَّوَابِقُ الْمُضِيئَاتُ وَ تَقُولُ أَفْعَلُ مَا أَمَرْتُكَ عَلَى أَذْلَالِهِ أَي عَلَى وَجْهِهِ وَ دَعَا فِي أَذْلَالِهِ أَي عَلَى حَالِهِ وَ أُمُورُ اللَّهِ جَارِيَةٌ عَلَى أَذْلَالِهَا أَي عَلَى مَجَارِيهَا وَ طَرَقَهَا . يَقُولُ عَ كَانَتْ السَّمَاءُ أَوَّلَ مَا خَلَقْتَ غَيْرَ مُنْتَظِمَةِ الْأَجْزَاءِ بَلْ بَعْضُهَا أَرْفَعُ وَ بَعْضُهَا أَخْفَضُ فَنَظَّمَهَا سُبْحَانَهُ فَجَعَلَهَا بَسِيطًا وَاحِدًا نَظْمًا اقْتَضَتْهُ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيْقٍ أَي لَا كَمَا يَنْظُمُ الْإِنْسَانُ ثَوْبًا مَعَ ثَوْبٍ أَوْ عَقْدًا مَعَ عَقْدٍ بِالتَّعْلِيْقِ وَ الْخِيَاطَةِ وَ الْصِقُّ تِلْكَ الْفُرُوجُ وَ الشَّقُوقُ فَجَعَلَهَا جِسْمًا مُتَصِلًا وَ سَطْحًا أَمْلَسَ لَا نَتَوَاتُ فِيهِ وَ لَا فَرْجٌ وَ لَا صُدُوعٌ بَلْ جَعَلَ كُلَّ جُزْءٍ مِنْهَا مُلْتَصِقًا بِمِثْلِهِ وَ ذَلَّلَ لِلْمَلَانِكَةِ الْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ وَ الصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خُلُقِهِ لِأَنَّهُمْ الْكُتُبَةُ الْحَافِظُونَ لَهَا حُزُونَةَ الْعُرُوجِ إِلَيْهَا وَ هُوَ الصُّعُودُ . ثُمَّ قَالَ وَ نَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ رَوِي بِإِضَافَةٍ بَعْدَ إِذْ وَ رَوِي بِضَمٍّ بَعْدَ أَي وَ نَادَاهَا بَعْدَ ذَلِكَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ وَ الْأَوَّلُ أَحْسَنُ وَ أَصُوبٌ لِأَنَّهَا عَلَى الضَّمِّ تَكُونُ دُخَانًا بَعْدَ نَظْمِ رَهَوَاتِ فُرُوجِهَا وَ مَلَا حَمَةَ صُدُوعِهَا وَ الْحَالُ تَقْتَضِي أَنْ دُخَانَهَا قَبْلَ ذَلِكَ لَا بَعْدَهُ .

[421]

فإن قلت ما هذا النداء قلت هو قوله **إِنِّيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً** فهو أمر في اللفظ و نداء في المعنى و هو على الحقيقة كناية عن سرعة الإبداع ثم قال و فتق بعد الارتفاق صوامت أبوابها هذا صريح في أن للسماء أبوابا و كذلك قوله على نقابها و هو مطابق لقوله سبحانه و تعالى **لا تَفْتَحُ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ** و القرآن العظيم و كلام هذا الإمام المعظم أولى بالاتباع من كلام الفلاسفة الذين أحالوا الخرق على الفلك و أما إقامة الرصد من الشهب الثواقب فهو نص القرآن العزيز **وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَخَشَا شَدِيداً وَ شُهْباً وَ أَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً** و القول بإحراق الشهب للشياطين اتباعا لنص الكتاب أولى من قول الفلاسفة الذين أحالوا الانقراض على الكواكب . ثم قال و أمسكها على الحركة بقوته و أمرها بالوقوف فاستمسكت و وقفت ثم ذكره الشمس و القمر تذكرة مأخوذ من قول الله تعالى **وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً** . ثم ذكر الحكم في جريان الشمس و القمر في مجرهما تذكرة مأخوذ من قوله تعالى **وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا وَ الْقَمَرُ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ** و قوله **وَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَ الْحَسَابِ** .

[422]

ثم قال ثم علق في جوها فلكها و هذا يقتضي أن الفلك غير السماء و هو خلاف قول الجمهور و قد قال به قائلون و يمكن أن نفسر ذلك إذا أردنا موافقة قول الجمهور بأنه أراد بالفلك دائرة معدل النهار فإنها الدائرة العظمى في الفلك الأعظم و هي في الاصطلاح النظري تسمى فلكا . ثم ذكر أنه زين السماء الدنيا بالكواكب و أنها رجوم لمسترقي السمع و هو مأخوذ من قوله تعالى **إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوكَبِ وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَ يُفْذَقُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُخُوراً وَ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ** . ثم شرح حال الدنيا فقال من ثبات ثابتها يعني الكواكب التي في كرة البروج و مسير سائرهما يعني الخمسة و النيرين لأنها سائرة دائما . ثم قال و صعودها و هبوطها و ذلك أن للكواكب السيارة صعودا في الأوج و هبوطا في الحضيض فالأول هو البعد الأبعد عن المركز و الثاني البعد الأقرب . فإن قلت ما باله ع قال و نحوسها و صعودها و هو القائل لمن أشار عليه ألا يحارب في يوم مخصوص المنجم كالكاهن و الكاهن كالمساحر و الساحر كالكاثر و الكافر في النار . قلت إنه ع إنما أنكر في ذلك القول على من يزعم أن النجوم مؤثرة في الأمور الجزئية كالذين يحكمون لأرباب الموالي و عليهم و كمن يحكم في حرب أو سلم أو سفر أو مقام بأنه للسعد أو النحس و أنه لم ينكر على من قال إن النجوم تؤثر صعودا و نحوسا في الأمور الكلية نحو أن تقتضي حرا أو بردا أو تدل على مرض عام

[423]

أو قحط عام أو مطر دائم و نحو ذلك من الأمور التي لا تخص إنسانا بعينه و قد قدمنا في ذلك الفصل ما يدل على تصويب هذا الرأي و إفساد ما عداه : **وَ مِنْهَا فِي صِفَةِ الْمَلَائِكَةِ ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمَواتِهِ وَ عِمَارَةِ الصَّفِيحِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلَائِكَتِهِ وَ مَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا وَ حَشَى بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوانِهَا وَ بَيْنَ فُجُواتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ رَجُلٌ الْمُسْتَبِحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ الْفُؤَادِ وَ سُنُرَاتِ الْحُجُبِ وَ سُرَادِقَاتِ الْمَجْدِ وَ وَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيحِ الَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ الْأَسْمَاعُ سُبُحاتِ نُورٍ تَرْدَعُ الْأَبْصارَ عَن بُلُوغِهَا فَتَقِفُ حَاسِنَةً عَلَى حُدُودِهَا . وَ أَنشَأَهُمْ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَاتٍ وَ أَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ أُولِي أَجْنَحَةٍ تُسَبِّحُ جَلالَ عِزَّتِهِ لا يَنْتَحِلُونَ ما ظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ وَ لا يَدْعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّا انفردَ بِهِ بِلِ عِبَادٍ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ جَعَلَهُمُ اللهُ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ وَ حَمَلَهُمُ إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَ دَانَعَ**

أَمْرِهِ وَ نَهْيِهِ وَ عَصَمَهُمْ مِنْ رَبِّبِ الشُّبُهَاتِ فَمَا مِنْهُمْ رَانِعٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ وَ أَمَدَّهُمْ بِقَوَائِدِ الْمُعَوْنَةِ وَ أَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضِعَ إِخْبَاتِ السَّكِينَةِ وَ فَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً دُلَّالاً إِلَى تَمَاجِيدِهِ وَ نَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً وَاضِحَةً عَلَى أَعْلَامِ تَوْحِيدِهِ لَمْ تُثَقِّلْهُمْ مُؤَصِّرَاتِ الْأَثَامِ وَ لَمْ تَزْتَحِلْهُمْ عَقَبُ اللَّيَالِي وَ الْأَيَّامِ وَ لَمْ تَزِمِ الشُّكُوكَ بِنَوَازِعِهَا عَزِيمَةَ إِيْمَانِهِمْ وَ لَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَى مَعَاقِدِ بَيِّنِهِمْ وَ لَا قَدَحَتْ قَائِحَةَ الْإِحْنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَ لَا سَلَبَتْهُمْ الْحَيْرَةَ مَا لَاقَى مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَانِهِمْ وَ مَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ

[424]

وَ هَبِيَّةِ جَلَالِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ وَ لَمْ تَطْمَعْ فِيهِمْ أَلُوسَاوِسٌ فَتَفْتَرَعَ بِرَبِّيْنَهَا عَلَى فِكْرِهِمْ وَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ الْعَمَامِ الدَّلْحِ وَ فِي عِظَمِ الْجِبَالِ الشَّمْخِ وَ فِي قَتْرَةِ الظَّلَامِ الْأَيِّمِ وَ مِنْهُمْ مَنْ قَدْ حَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تُخُومَ الْأَرْضِ السُّفْلَى فِيهِ كَرَايَاتِ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ الْهَوَاءِ وَ تَحْتَهَا رِيحٌ هَفَافَةٌ تَحْسِبُهَا عَلَى حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الخُدُودِ الْمُتَنَاهِيَةِ قَدْ اسْتَفْرَعَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ وَ وَصَلَتْ وَصَلَتْ حَقَائِقُ الْإِيْمَانِ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَعْرِفَتِهِ وَ قَطَعَهُمُ الْإِيْقَانُ بِهِ إِلَى الْوَلَةِ إِلَيْهِ وَ لَمْ تُجَاوِزْ رَعْبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ قَدْ ذَاقُوا حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ وَ شَرَبُوا بِأَلْكَاسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَ تَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاوَاتِ سُوَيْدَائِهِ قُلُوبُهُمْ وَ شَيْبَجَةُ خَيْفَتِهِ فَحَنُوا بِطُولِ الطَّاعَةِ إِعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ وَ لَمْ يَنْفِذْ طَوْلُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ وَ لَا أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ رِبْقَ خُشُوعِهِمْ وَ لَمْ يَتَوَلَّهُمُ الْإِعْجَابُ فَيَسْتَكْبِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ وَ لَا تَرَكَتْ لَهُمْ اسْتِكَاتَةُ الْإِجْلَالِ نَصِيْباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ وَ لَمْ تَجِرِ الْفَتْرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طَوْلِ دُءُوبِهِمْ وَ لَمْ تَعْضُ رَعْبَاتُهُمْ فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ وَ لَمْ تَجَفَّ لَطُولُ الْمُنَاجَاةِ أَسْلَاتِ السُّبْنِيَّةِمْ وَ لَا مَلَكْتُهُمْ الْأَشْغَالَ فَتَنْقَطِعَ بِهِمْسِ الْجُورِ إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ وَ لَمْ تَخْتَلَفْ فِي مَقَاوِمِ الطَّاعَةِ مَنَاكِبُهُمْ وَ لَمْ يَبْتَنُوا إِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابَهُمْ . وَ لَا تَعْدُو عَلَى عَزِيمَةِ جِدِّهِمْ بِلَادَةَ الْعَفْلَاتِ وَ لَا تَتَنَضَّلُ فِي هِمَمِهِمْ خَدَانِعُ الشَّهَوَاتِ قَدْ اتَّخَذُوا ذَا الْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقْتِهِمْ وَ يَمَمُوهُ عِنْدَ انْقِطَاعِ الْخَلْقِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِرَعْبَتِهِمْ لَا يَفْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ وَ لَا يَرْجِعُ بِهِمُ الْإِسْتِهَارُ

[425]

بَلْزُومِ طَاعَتِهِ إِلَّا إِلَى مَوَادِّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَانِهِ وَ مَخَافَتِهِ لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ فَيُنُوا فِي جِدِّهِمْ وَ لَمْ تَأْسِرْهُمْ الْأَطْمَاعُ فَيُوتِرُوا وَ شَيْبِكِ السَّعْيِ عَلَى إِجْتِهَادِهِمْ لَمْ يَسْتَعْظَمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَ لَوْ اسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ وَجَلِّهِمْ وَ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ وَ لَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ النَّقَاطِعِ وَ لَا تَوَلَّاهُمْ غُلُّ التَّحَاسُدِ وَ لَا تَشَعْبَتْهُمْ مَصَارِفُ الرَّيْبِ الرَّيْبِ وَ لَا إِفْتَسَمَتْهُمْ أُخْيَافُ الْهَمَمِ فَهُمْ أَسْرَاءُ إِيْمَانٍ لَمْ يَفْكَهُمْ مِنْ رَبْقَتِهِ زَيْغٌ وَ لَا عُدُولٌ وَ لَا وَايٌ وَ لَا فُتُورٌ وَ لَيْسَ فِي أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعٌ إِهَابٍ إِلَّا وَ عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ يَزْدَادُونَ عَلَى طَوْلِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْمًا وَ تَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَمًا هَذَا مَوْضِعُ الْمَثَلِ إِذَا جَاءَ نَهْرُ اللَّهِ بَطَلَ نَهْرُ مَعْقَلٍ إِذَا جَاءَ هَذَا الْكَلَامُ الرَّبَّانِي وَ اللَّفْظُ الْقُدْسِي بَطَلَتْ فَصَاحَةُ الْعَرَبِ وَ كَانَتْ نِسْبَةُ الْفَصِيحِ مِنْ كَلَامِهَا إِلَيْهِ نِسْبَةُ التَّرَابِ إِلَى النَّضَارِ الْخَالِصِ وَ لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ الْعَرَبَ تَقْدِرُ عَلَى الْأَلْفَاظِ الْفَصِيحَةِ الْمُنَاسِبَةِ أَوْ الْمَقَارِبَةِ لِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ مِنْ أَيْنَ لَهُمُ الْمَادَّةُ الَّتِي عَبَّرَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ عَنْهَا وَ مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ الْجَاهِلِيَّةُ بِلِ الصَّحَابَةِ الْمَعَاوِرُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ص هَذِهِ الْمَعَانِي الْغَامِضَةُ السَّمَانِيَّةُ لِيَتَهَيَّأَ لَهَا التَّعْبِيرُ عَنْهَا أَمَا الْجَاهِلِيَّةُ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا كَانَتْ تَطْهَرُ فَصَاحَتِهِمْ فِي صِفَةِ بَعِيرٍ أَوْ فَرَسٍ أَوْ حِمَارٍ وَحِشٍ أَوْ ثُورٍ فَلَإِ أَوْ صِفَةِ جِبَالٍ أَوْ فِلَوَاتٍ وَ نَحْوِ ذَلِكَ وَ أَمَا الصَّحَابَةُ

[426]

فالمذكورون منهم بفصاحة إنما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة أما في موعظة تتضمن ذكر الموت أو ذم الدنيا أو يتعلق بحرب و قتال من ترغيب أو ترهيب فأما الكلام في الملائكة وصفاتها و صورها و عباداتها و تسبيحها و معرفتها بخالقها و حبها له و ولها إليه و ما جرى مجرى ذلك مما تضمنه هذا الفصل على طوله فإنه لم يكن معروفا عندهم على هذا التفصيل نعم ربما علموه جملة غير مقسمة هذا التقسيم و لا مرتبة هذا الترتيب بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم و أما من عنده علم من هذه المادة كعبد الله بن سلام و أمية بن أبي الصلت و غيرهم فلم تكن لهم هذه العبارة و لا قدروا على هذه الفصاحة فثبت أن هذه الأمور الدقيقة في مثل هذه العبارة الفصيحة لم تحصل إلا لعلي وحده و أقسم أن هذا الكلام إذا تأمله اللبيب اقشعر جلده و رجع قلبه و استشعر عظمة الله العظيم في روعه و خلدته و هام نحوه و غلب الوجد عليه و كاد أن يخرج من مسكه شوقا و أن يفارق هيكله صبابة و وجدا . ثم نعود إلى التفسير فنقول الصفيح الأعلى سطح الفلك الأعظم و يقال لوجه كل شيء عريض صفيح و صفحة . و الفروج الأماكن الخالية و الفجاج جمع فج و الفج الطريق الواسع بين جبلين أو حانطين و أجوانها جمع جو و هو ما اتسع من الأودية و يقال لما بين السماء و الأرض جو و يروى أجوابها جمع جوبة و هي الفرجة في السحاب و غيره و يروى أجواها جمع جوز و هو وسط الشيء و الفجوات جمع فجوة و هي الفرجة بين الشينين تقول منه تفاجى الشيء إذا صار له فجوة و منه الفجاء و هو تباعد ما بين عرقوبي البعير . و الزجل الصوت و حظائر القدس لفظة وردت في كلام رسول الله ص و أصل الحظيرة ما يعمل شبه البيت للإبل من الشجر ليقبها البرد فسمى

[427]

ع تلك المواطن الشريفة المقدسة العالية التي فوق الفلك حظائر القدس و القدس بتسكين الدال و ضمها الطهر و التقديس التطهير و تقدس تطهر و الأرض المقدسة المطهرة و بيت المقدس أيضا و النسبة إليه قدسي و مقدسي و السترات جمع ستر و الرجيج الزلزلة و الاضطراب و منه ارتج البحر و تستك الأسماع تنسد قال النابغة

و نبنت خير الناس أنك لمتني

و تلك التي تستك منها المسامع

سبحات النور بضم السين و الباء عبارة عن جلالة الله تعالى و عظمته و تردع الأبصار تكفيها و خاسنة أي سادرة و منه **يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِنًا وَ هُوَ حَسِيرٌ** و خسا بصره خسا و خسوعا أي سدر . و قوله على حدودها أي تقف حيث تنتهي قوتها لأن قوتها متناهية فإذا بلغت حدها وقفت و قوله أولي أجنحة من الألفاظ القرآنية . و قوله لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه أي لا يدعون الإلهية لأنفسهم و إن كان قوم من البشر يدعونها لهم و قوله لا يدعون أنهم يخلقون شيئا معه مما انفرد به فيه إشارة إلى مذهب أصحابنا في أن أفعال العباد مخلوقة لهم لأن فائدة هذا القيد و هو قوله انفرد به إنما تظهر بذلك . و أما الآيات المقدسة فالرواية المشهورة **مُكْرَمُونَ** و قرئ مكرمون بالتشديد و قرئ لا يسبقونه بالضم و المشهور القراءة بالكسر و المعنى أنهم يتبعون قوله و لا يقولون شيئا حتى يقوله فلا يسبق قولهم قوله و أراد أن يقول لا يسبقونه بقولهم فحذف الضمير المضاف إليه و أناب اللام منابه .

[428]

ثم قال و هم بأمره يعملون أي كما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضا كذلك فرع على أمره لا يعملون عملا ما لم يؤمروا به و جاء في الخبر المرفوع عن رسول الله ص أنه رأى جبرائيل ليلة المعراج ساقطا كالحلس من خشية الله و الحلس الكساء الخفيف . و الزانغ العادل عن الطريق و الإخبات التذلل و الاستكانة و أبوابا ذللا أي سهلة وطينة و منه دابة ذلول و تماجيده الثناء عليه بالمجد و المؤصرات المثقلات و الإصر الثقل . و تقول ارتحلت البعير أي ركبته و العقبة النوبة و الجمع عقب و معنى قوله و لم ترتحلهم عقب الليالي و الأيام أي لم تؤثر فيهم نوبات الليالي و الأيام و كرورها كما يؤثر ارتحال الإنسان البعير في ظهره و نوازعها شهواتها النازعة المحركة و روي نوازعها بالغين المعجمة من نزع بينهم أي أفسد . و لم تعترك الظنون أي لم تزدحم الظنون على يقينهم الذي عقوده . و الإحن جمع إحنة و هي الحقد يقول لم تقدح قوادح الحقد في ضمانهم . و ما لاق أي ما التصق و أثناء صدورهم جمع ثني و هي التضاعيف و الرين الدنس و الغلبة قال تعالى **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ** . و تقترع من الاقتراع بالسهم بأن يتناب كل من الوسوس عليها و يروى فيفترع بالفاء أي تعلق برينها فرعه أي علاه . و الغمام جمع غمامة و هي السحابة و الدلح النقال جاء يدلح بجملة أي جاء متقلا به و الجبال الشمخ العالية الشاهقة . و قوله في فترة الظلام أي سواده و الأيهم لا يهتدى فيه و منه

[429]

فلاة يهماء و التخوم بضم التاء جمع تخم و هو منتهى الأرض أو القرية مثل فلس و فلوس و يروى تخوم بفتح التاء على أنها واحد و الجمع تخم مثل صبور و صبر . و ريح هفافة أي ساكنة طيبة يقول كان أقدامهم التي خرقت الهواء إلى حضيض الأرض رايات بيض تحتها ريح ساكنة ليست مضطربة فتموج تلك الرايات بل هي ساكنة تحبسها حيث انتهت و جاء في الخبر أن لإسرافيل جناحين أحدهما في أقصى المشرق و الآخر في أقصى المغرب و أن العرش على كاهله و أنه ليتضاءل أحيانا لعظمة الله حتى يعود مثل الوضع و هو العصفور . ثم قال قد استفرغتهم أشغال عبادته تعالى أي جعلتهم فارغين إلا منها و يروى و وسلت حقائق الإيمان بالسين المشددة يقال وسل فلان إلى ربه وسيلة و الوسيلة ما يتقرب به و الجمع وسيل و وسائل و يقال وسلت إليه و توسلت إليه بمعنى . و سويداوات القلوب جمع سويداء و هي حبة القلب و الوشيجة في الأصل عرق الشجرة و هي هنا استعارة و حنيت ضلعي أي عوجتها و الربق جمع ربقة و هي الحبل . قوله و لم يتولهم الإعجاب أي لم يستول عليهم و الدعوب الجد و الاجتهاد و الأسلات جمع أسلة و هي طرف اللسان و مستدقه و الجوار الصوت المرتفع و الهمس الصوت الخفي يقول ليست لهم أشغال خارجة عن العبادة فيكون لأجلها أصواتهم المرتفعة خافية ساكنة لا تعدو من عدا عليه إذا قهره و ظلمه و هو هاهنا استعارة . و لا تنتضل الخدانع في همهم استعارة أيضا من النضال و هو المراماة بالسهم و ذو العرش هو الله تعالى و هذه لفظة قرآنية قال سبحانه **إِذَا لَابَتَّغُوا إِلَهِي ذِي الْعَرْشِ**

[430]

سَبِيلًا يعني لابتغوا إلى الله تعالى سبيلا و قال تعالى **ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَلَّ لِمَا يُرِيدُ** و الاستهتار مصدر استهتر فلان بكذا أي لازمه و أولع به . و قوله فينوا أي فيضعفوا وني بني و الجد الاجتهاد و الانكماش . ثم قال إنهم لا يستعظمون عبادتهم و لو أن أحدا منهم استعظم عبادته لأذهب خوفه رجاءه الذي يتولد من استعظام تلك العبادة يصفهم بعظم التقوى . و

الاستحواذ الغلبة و الغل الحقد و تشعبتهم تقسمتهم و فرقتهم و منه قيل للمنية شعوب أي مفرقة و أخياف الهمم أي الهمم المختلفة و أصله من الخيف و هو كحل إحدى العينين دون الأخرى و منه المثل الناس أخياف أي مختلفون و الإهاب الجلد و الحافد المسرع و منه الدعاء اللهم إليك نسعى و نحفد . و اعلم أنه ع إنما كرر و أكد صفاتهم بما وصفهم به ليكون ذلك مثالا يحتذى عليه أهل العرفان من البشر فإن أعلى درجات البشر أن يتشبه بالملك و خلاصة ذلك أمور . منها العبادة القائمة . و منها ألا يدعى أحد لنفسه الحول و القوة بل لا حول و لا قوة . و منها أن يكون متواضعا ذا سكينه و وقار . و منها أن يكون ذا يقين لا تقدح فيه الشكوك و الشبهات . و منها ألا يكون في صدره إحنة على أحد من الناس . و منها شدة التعظيم و الهيبة لخالق الخلق تبارك اسمه . و منها أن تستفرغه أشغال العبادة له عن غيرها من الأشغال .

[431]

و منها أنه لا تتجاوز رغباته مما عند الله تعالى إلى ما عند غيره سبحانه . و منها أن يعقد ضميره و قلبه على محبة الله تعالى و يشرب بالكأس الروية من حبه . و منها عظم التقوى بحيث يأمن كل شيء عدا الله و لا يهاب أحدا إلا الله . و منها الخشوع و الخضوع و الإخبت و الذل لجلال عزته سبحانه . و منها ألا يستكثر الطاعة و العمل و إن جل و عظم . و منها عظم الرجاء الواقع في مقابلة عظم الخوف فإن الله تعالى يحب أن يرجى كما يحب أن يخاف

أبحاث تتعلق بالملائكة

و اعلم أنه يجب أن تعلم أبحاث متعددة تتعلق بالملائكة و يقصد فيها قصد حكاية المذهب خاصة و نكل الاحتجاج و النظر إلى ما هو مذكور في كتبنا الكلامية . البحث الأول في وجود الملائكة قال قوم من الباطنية السبيل إلى إثبات الملائكة هو الحس و المشاهدة و ذلك أن الملائكة عندهم أهل الباطن . و قالت الفلاسفة هي العقول المفارقة و هي جواهر مجردة عن المادة لا تعلق لها بالأجسام تدبيراً و احترزوا بذلك عن النفوس لأنها جواهر مفارقة إلا أنها تدبر الأبدان و زعموا أنهم أثبتوها نظراً . و قال أصحابنا المتكلمون الطريق إلى إثبات الملائكة الخبر الصادق المدلول على صدقه و في المتكلمين من زعم أنه أثبت الملائكة بطريق نظري و هو أنه لما وجد خلقاً من طين و جب في العقل أن يكون في المخلوقات خلق من الهواء و خلق من النار فالمخلوق من الهواء هو الملك و المخلوق من النار الشيطان .

[432]

البحث الثاني في بنية الملائكة و هيئة تركيبهم قال أصحابنا المتكلمون أن الملائكة أجسام لطاف و ليسوا من لحم و دم و عظام كما خلق البشر من هذه الأشياء و قال أبو حفص المعود القرينسي من أصحابنا إن الملائكة من أجسام من لحم و عظم إنه لا فرق بينهم و بين البشر و إنما لم يروا لبعده المسافة بيننا و بينهم . و قد تبعه على هذا القول جماعة من معتزلة ما وراء النهر و هي مقالة ضعيفة لأن القرآن يشهد بخلافه في قوله **و رُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** و قوله **إِذْ يَتَلَفَّى الْمُتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ** فلو كانوا أجساماً كثيفة كأجسامنا لرأيناهم . البحث الثالث في تكليف الملائكة حكى عن قوم من الحشوية أنهم يقولون إن الملائكة مضطرون الله جميع أفعالهم و ليسوا مكلفين . و قال جمهور أهل النظر إنهم مكلفون . و حكى عن أبي إسحاق النظام إنه قال إن قوماً من المعتزلة قالوا إنهم جبلوا على الطاعة لمخالفة خلقهم خلقة المكلفين و أنهم قالوا لو كانوا مكلفين لم يؤمن أن يعصوا فيما أمروا به و قد قال تعالى **لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** . و قال قوم إن أكثر الملائكة مكلفون و إن فيهم من ليس بمكلف بل هو مسخر للملائكة المكلفين كما أن الحيوانات ما هو غير مكلف بل هو مسخر للبشر و مخلوق لمصالحهم . قالوا و لا ننكر أن يكون الملائكة الذين ذكر منهم أنهم غلط الأجسام و عظم الخلق و التركيب بحيث تبلغ أقدامهم إلى قرار الأرض قد جعلوا عمداً للسموات و الأرض فهم

[433]

يحملونها بمنزلة الأساطين التي تحمل السقوف العالية و لم يرشحوا لأمر من الأمور سوى ذلك . البحث الرابع فيما يجوز من الملائكة و ما لا يجوز قال شيخنا أبو القاسم حكى أبو الحسن الخياط عن قدماء المعتزلة أنه لا يجوز أن يعصي أحد من الملائكة و لم يذكر عنهم علة في ذلك . و قال قوم إنهم لا يعصون و لا يجوز أن يعصوا لأنهم غير مطيقين الشهوة و الغضب فلا داعي لهم إلى المعصية و الفاعل لا يفعل إلا بداع إلى الفعل . و قال قوم إنهم لا يعصون لأنهم يشاهدون من عجائب صنع الله و آثار هيئته ما يبهرهم عن فعل المعصية و القصد إليها و كذلك قال تعالى **وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** . و قال قوم إنما لم يجز أن يعصوا لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم لا يعصون و لا ينكر مع ذلك أن يكون منهم من يتغير حاله و يتبدل بها حالة أخرى و يعصي على ما ورد من خبر الملكين ببابل و خبر إبليس و إنما يسلب عنهم المعصية ما داموا على حالهم التي هي عليها . و قال شيخنا أصحاب أبي هاشم رحمه الله تعالى إن المعصية تجوز عليهم كما تجوز علينا إلا أن

الله تعالى علم أن لهم ألقافا يمتنعون معها من القبيح لفعالها فامتنعوا من فعل القبيح اختيارا فكانت حالهم كحال الأنبياء من البشر يقدرون على المعصية و لا يفعلونها

[434]

اختيارا من أنفسهم باعتبار الألقاف المفعولة لهم و لو كان لإبليس أو فرعون أو نمرود ألقاف يعلم الله تعالى إذا فعلها فعلوا الواجب و امتنعوا من فعل القبيح لفعالها بهم و لكنوا معصومين كالأنبياء و الملائكة لكنه تعالى علم أنهم لا يؤمنون و لو فعل مهما فعل فلا لطف في المعلوم و هذا عندهم حكم عام لجميع المكلفين من الإنس و الجن و الملائكة . البحث الخامس في أن أي القبيلين أفضل الملائكة أو الأنبياء قال أصحابنا نوع الملائكة أفضل من نوع البشر و الملائكة المقربون أفضل من نوع الأنبياء و ليس كل ملك عند الإطلاق أفضل من محمد ص بل بعض المقربين أفضل منه و هو ع أفضل من ملائكة أخرى غير الأولين و المراد بالأفضل الأكثر ثوابا و كذلك القول في موسى و عيسى و غيرهما من الأنبياء و الذي يحكيه قوم من أرباب المقالات أن المعتزلة قالوا إن أدنى ملك في السماء أفضل من محمد ص ليس بصحيح عنهم . و قال أهل الحديث و الأشعرية أن الأنبياء أفضل من الملائكة . و قال الشيعة الأنبياء أفضل من الملائكة و الأئمة أفضل من الملائكة . و قال قوم منهم و من الحشوية إن المؤمنين أفضل من الملائكة . البحث السادس في قدم الملائكة و حدوثهم أما الفلاسفة القائلون بأنهم العقول المفارقة فإنهم يذهبون إلى قدم الملائكة . و قال غيرهم من أهل الملل إنهم محدثون . و قال قوم من متأخري الحكماء إن نفوس البشر إذا فارقت الأبدان بالموت بقيت قائمة بأنفسها غير مديرة لشيء من الأبدان فإن كانت خيرة صالحة فهي الملائكة

[435]

و إن كانت شريرة رديئة الجوهر فهي الشياطين فالملائكة عند هؤلاء محدثون و عندهم أن هذه النفوس تساعد نفوسا أخرى متعلقة بتدبير الأبدان أما على الخير أو على الشر فما ينسب في الكتب الإلهية إلى إغواء الشياطين للناس و إضلالهم فالمراد به تلك النفوس الشريرة و ما ينسب فيها إلى إغائة الملائكة لهم على الخير و الصلاح فالمراد به تلك النفوس الخيرة . البحث السابع في إبليس أ هو من الملائكة أو ليس منها قال شيخنا أبو عثمان و جماعة من أصحابنا إنه من الملائكة و لذلك استثناه الله تعالى فقال **فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ** . و قال قوم إنه كان من الملائكة بدلالة هذه الآية لكن الله مسخه حيث خالف الأمر فهو بعد المسخ خارج عن الملائكة و قد كان قبل ذلك ملكا قالوا و معنى قوله **كَانَ مِنَ الْجِنِّ** أي من خزان الجنة و روي ذلك عن ابن عباس قالوا و يحمل على معناه أنه صار من الجن فيكون كان بمعنى صار كقوله تعالى **كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا** أي من صار لأنها لو كانت كان على حقيقتها لوجب إلا يكلم بعضهم بعضا لأنهم كانوا صبيانا في المهد . قالوا و معنى صيرورته من الجن صيرورته ضالا كما أن الجن ضالون لأن الكفار بعضهم من بعض كما قال تعالى **الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ** .

[436]

و قال معظم أصحابنا إن إبليس ليس من الملائكة و لا كان منها و إنما استثناه الله تعالى منهم لأنه كان مأمورا بالسجود معهم فهو مستثنى من عموم المأمورين بالسجود لا من خصوص الملائكة . البحث الثامن في هاروت و ماروت هل هما

من الملائكة أم لا قال جمهور أصحابنا إنهما من الملائكة وإن القرآن العظيم قد صرح بذلك في قوله **وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ** وإن الذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله تعالى للناس فمن تعلمه منهم و عمل به كان كافرا و من تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به و لكن ليتوقاه كان مؤمنا قالوا و ما كان هذان الملكان يعلمان أحدا حتى ينبهاه و ينهياه و ينصحاه و يقول له **إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ** أي ابتلاء و اختبار من الله **فَلَا تَكْفُرْ** و لا تتعلمه معتقدا أنه حق . و حكى عن الحسن البصري أن هاروت و ماروت علجان أقلفان من أهل بابل كانا يعلمان الناس السحر و قرأ الحسن على الملكين ببابل بكسر اللام . و قال قوم كانا من الملائكة فعصيا الله تعالى بالحييف في الحكومة و قد كان استقضاهما في الأرض و ركب فيهما الشهوة و الغضب على نحو ما ركب في البشر امتحانا لهما لأنهما قد كانا عيرا البشر بالمعصية فلما عصيا حبسهما الله تعالى و عاقبهما بعذاب معجل و ألهمهما كلاما إذا تكلما به سكن بعض ما بهما من الألم و إن السحرة يستمعون ذلك الكلام فيحفظونه و يفرقون به بين المرء و زوجه فإنهما يتقدمان إلى من يحضرهما عند ما يتكلمان بالزجر عن العمل بذلك الكلام و يقولان **إِنَّمَا نَحْنُ**

[437]

فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ و هما لم يكفرا و لا دعوا إلى السحر و إن عذابهما سيقطع و قد جاء في الأخبار ما يوافق هذا . و قال قوم من الحشوية إنهما شربا الخمر و قتلوا النفس و زنيا بامرأة اسمها باهيد فمسخت و هي الزهرة التي في السماء : و منها في صفة الأرض و دحوها على الماء كسب الأرض على مور أمواج مستفحلة و لجج بحر زاخرة تلتطم أوادي أمواجهها و تصطفق متقادات أثباجها و ترغو زبدا كالفحول عند هياجها فخصع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها و سكن هيج إزيمانه إذ وطنته بكلكلها و ذل مستخدنيا إذ تمعكت عليه بكواهلها فأصبح بعد اصطخاب أمواجه ساجيا مفهورا و في حكمة الذل منقادا أسيرا و سكنت الأرض مدحوة في لجة تياره و ردت من نخوة بأوه و اعتلانيه و شموخ أنفه و سمو غلوانه و كعمته على كظة جريته فهمد بعد نرقاته و لبث بعد ريقان وثباته فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها و حمل شواهق الجبال الشمخ البذخ على أكتافها فجر ينابيع العيون من عرائن أنوفها و فرقها في سهوب بيدها و أحاديدها و عدل حرركاتها بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب الشتم من صياخيدها فسكنت من الميدان لرسوب الجبال في قطع أديمها و تغلغلها متسرربة في جوبات خياشيمها و ركوبها أعناق سهول الأرضين و جراثيمها و فسح

[438]

بين الجب و بينها و أعد الهواء متنسما لساكنها و أخرج إليها أهلها على تمام مرافقها ثم لم يدع جزر الأرض التي تقصر مياه العيون عن روايبها و لا تجد جداول الأنهار ذريعة إلى بلوغها حتى أنشأ لها ناشئة سحاب تحيي مواتها و تستخرج نباتها ألف غمامها بعد إفتراق لمعه و تباين قرعه حتى إذا تمخضت لجة المزن فيه و التمع برقه في كفه و لم يتم وميضه في كنهور ربابه و متراكم سحابه أرسله سحا متداركا قد أسف هيدبه يمرى تمرية الجنوب درر أهاضبيه و دفع شأبيه . فلما ألفت السحاب برك بوائيه و بعاع ما استقلت به من العباء المأمول عليها أخرج به من هوامد الأرض النباتات و من زعر الجبال الأعشاب فهي تبهج بزينة رياضها و تزدهي بما ألسته من ريط أراهيرها و حلية ما سبطت به من ناضر أنوارها و جعل ذلك بلاغا للأنام و رزقا للأنعام و حرق الفجاج في آفاقها و أقام المنار للسالكين على جواد طرقها كسب الأرض أي أدخلها في الماء بقوة و اعتماد شديد و يقال لضرب من النمر الكبيس لأنه يكبس حتى يتراص و المور مصدر

مار أي ذهب و جاء و مستفحلة هانجة هيجان الفحول و استفحل الأمر تفاقم و اشتد و زاخرة زخر الماء أي امتد جدا و ارتفع . و الأواذي جمع آذي و هو الموج و تصطفق يضرب بعضها بعضا و الأتجاج هاهنا

[439]

أعالي الأمواج و أصل الشج ما بين الكاهل إلى الظهر فنقل إلى هذا الموضع استعارة . و ترغو تصوت صوت البعير و الرغاء صوت ذات الخف و في المثل كفى برغانها مناديا أي أن رغاء بعير المضيف يقوم مقام نداءه للضيافة و القرى و زبدا على هذا منصوب بفعل مقدر تقديره و ترغو قاذفة زبدا و الزبد ما يظهر فوق السيل يقال قد أزيد البحر و السيل و بحر مزبد أي مالح يقذف بالزبد و الفحول عند هياجها فحول الإبل إذا هاجت للضراب . و جماح الماء صعوده و غليانه و أصله من جماح الفرس و هو أن يعز فارسه و يغلبه و الجموح من الرجال الذي يركب هواه فلا يمكن رده و خضع نل و هيج الماء اضطرابه هاج هيجا و هياجا و هيجانا و اهتاج و تهيج كله بمعنى أي ثار و هاجه غيره يتعدى و لا يتعدى و هيج ارتمانه يعني تقاذفه و تلاطمه يقال ارتمى القوم بالسهم و بالحجارة ارتماء و كلكلها صدرها و جاء كلكل و كلكال و ربما جاء في ضرورة الشعر مشددا قال

كأن مهواها على الكلكل

موضع كفي راهب مصلى

و المستخذي الخاضع و قد يهمز و قيل لأعرابي في مجلس أبي زيد كيف تقول استخذأت ليعترف منه الهمة فقال العرب لا تستخذئ و همزه و أكثر ما يستعمل ملينا و أصله من خذا الشيء يخذو و خذوا أي استرخى و يجوز خذي بكسر الذال و أذن خذواء بينة الخذاء أي مسترخية . و تمعكت تمرغت مستعار من تمعك الدابة في الأرض و قالوا معكت الأديم أي دلكته و كواهلها جمع كاهل و هو ما بين الكتفين و يسمى الحارك .

[440]

و اصطخاب أمواجه افتعال من الصخب و هو الصياح و الجلبة يقال صخب الرجل فهو صخبان و اصطخب افتعل منه قال

إن الضفادع في الغدران تصطخب

و الساجي الساكن و الحكمة ما أحاط من اللجام بحنك الدابة و كانت العرب تتخذها من القد و الأبق لأن الزينة لم تكن قصدهم قال زهير

القائد الخيل منكوبا دوابرها

قد أحكمت حكمت القد و الأبقا

و استعار الحكمة هاهنا فجعل للذل حكمة ينقاد الماء بها و يذل إليها . و مدحوة مبسوطة قال تعالى **وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاهَا** و يجوز أن تكون مدحوة هاهنا بمعنى مقذوفة مرمية يقال دحوت الحصاة أي قذفتها و يقال للاعب الجوز ادح و أبعد المدى و التيار أعظم الموج و لجته أعمله و البأو الكبير و الفخر تقول بأوت على القوم أبأى بأوا قال حاتم

فما زادنا بأوا على ذي قرابة

غنانا و لا أزرى بأحسابنا الفقر

و هذا الكلام استعارة يقال كسرت الأرض سورة الماء الجامح كما تكسر سورة بأو الرجل المتكبر المفتخر و الاعتلاء التيه و التكبر و الشموخ العلو مصدر شمخ بأنفه أي تكبر و الجبال الشوامخ الشاهقة و السمو العلو و سمو علوانه أي غلوه و تجاوزه الحد .

[441]

و كعمته أي شددت فمه لما هاج من الكعام و هو شيء يجعل في فم البعير و بعير مكعوم . و الكظة الجهد و النقل الذي يعترى الإنسان عند الامتلاء من الطعام يقول كعمت الأرض الماء حال كونه مكظوظا لشدة امتلائه و كثرته و ازدحام أمواجه فهمد أي سكن همدت النار تهمد بالضم همودا أي طفتت و ذهبت البتة و الخمود دون الهمود و النزقات الخفة و الطيش نرق الرجل بالكسر ينزق نزقا و النزقات الدفعات من ذلك . و لبد الشيء بالأرض يلبد بالضم لبودا أي لصق بها ساكنا و الزيغان التبخر في المشي زاف البعير يزيغ و الزيافة من النوق المختالة و يروى و لبد بعد زفيان وثباته و الزفيان شدة هبوب الريح يقال زفته الريح زفيانا أي طردته و ناقة زفيان سريعة و قوس زفيان سريعة الإرسال للسهم و أكنافها جوانبها و كنفها الطائر جناحاه و يقال صلاء مكنف أي أحيط به من جوانبه و تكنفه القوم و اكتفوه أحاطوا به . و الجبال الشواهق العالية و مثله البذخ و العرنين أول الأنف تحت مجتمع الحاجبين و الينابيع جمع ينبوع و هو ما انفجر من الأرض عن الماء و السهوب جمع سهب و هو الفلاة و البيد جمع ببداء و هي الفلاة أيضا . و الأخاديد جمع أخدود و هو الشق في الأرض قال تعالى **فَتِلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ** و الراسيات النقال و الشناخيب رعوس الجبال و الشم العالية و الجلاميد الصخور واحدا جلمود و الصياخيد جمع صيخود و هي الصخرة الصلبة .

[442]

و الميدان التحرك و الاضطراب و ماد الرجل يمد أي تبخرت و رسوب الجبال نزولها رسب الشيء في الماء أي سفل فيه و سيف رسوب ينزل في العظام . و قوله في قطع أديمها جمع قطعة يريد في أجزائها و أبعاضها و يروى في قطع أديمها بضم القاف و فتح الطاء جمع قطعة و هي القطعة مفروزة من الأرض و حكي أن أعرابيا قال ورثت من أبي قطعة و يروى في قطع أديمها بسكون الطاء و القطع طنفسة الرحل فنقل ذلك إلى هذا الموضع استعارة كأنه جعل الأرض ناقلة و جعل لها قطعا و جعل الجبال ثابتة في ذلك القطع . و أديم الأرض وجهها و ظاهرها و تغلغل الماء في الشجر دخوله و تخلله في أصوله . و عروقه متسربة أي داخلة تسرب الثعلب أي دخل السرب و جوبات جمع جوبة و هي الفرجة في جبل أو غيره و خياشيمها جمع خيشوم و هو أقصى الأنف و تقول خشمت الرجل خشما أي كسرت خيشومه و جراثيمها جمع جرثومة و هي أصل الشجر . و فسح أوسع و متنسما يعني موضع النسيم و الأرض الجرذ التي لا نبات فيها لانقطاع المطر عنها و هذه من الألفاظ القرآنية و الروابي التلاع و ما علا من الأرض و الجداول الأنهار الصغار جمع جدول و الذريعة الوصلة . و ناشئة سحب ما يبتدئ ظهوره و الموات بفتح الميم القفر من الأرض و اللمع جمع لمعة و هي القطعة من السحاب أو غيره و تباين قزعه القزح قطع من السحاب رقيقة واحدا قزعة قال الشاعر

كان رعاله قرع الجهام

و في الحديث كأنهم قرع الخريف و تباينها افتراقها و تمخضت تحركت بقوة يقال تمخض اللبن إذا تحرك في الممخضة و تمخض الولد تحرك في بطن الحامل و الهاء في فيه ترجع إلى المزن أي تحركت لجة المزن في المزن نفسه أي تحرك من السحاب وسطه و ثبجه . و التمع البرق و لمع أي أضاء و كففه جمع كفة و الكفة كالدارة تكون في السحاب . و كان الأصمعي يقول كل ما استطال فهو كفة بالضم نحو كفة الثوب و هي حاشيته و كفة الرمل و الجمع كفاف و كل ما استدار فهو كفة بالكسر نحو كفة الميزان و كفة الصاند و هي حبالته و الجمع كفف و يقال أيضا كفة الميزان بالفتح و الوميض الضياء و اللمعان . و قوله لم ينم أي لم يفتقر و لم ينقطع فاستعار له لفظة النوم و الكنهور العظيم من السحاب و الرباب الغمام الأبيض و يقال إنه السحاب الذي تراه كأنه دون السحاب و قد يكون أبيض و قد يكون أسود و هو جمع و الواحدة ربابة و به سميت المرأة الرباب . و المتراكم الذي قد ركب بعضه بعضا و الميم بدل من الباء و سحا صبا و سحابة سحوح و تسحسح الماء سال و مطر سحساح أي يسح شديدا و متداركا يلحق بعضه بعضا من غير انقطاع و أسف دنا من الأرض و هيدبه ما تهدب منه أي تدلى كما يتدلى هذب العين على أشغارها و يمرى الجنوب و هو بمعنى يحلب و يستدر و يروى تمرية الجنوب . على أن يعدى الفعل إلى المفعولين كما تقول حلبت الناقة لبنا و يروى تمرى الجنوب و هو بمعنى تمرى من مريت الفرس و امتريته إذا استخرجت بالسوط ما عنده من الجري و إنما

خص الجنوب بذلك لأنها الريح التي يكون عليها المطر و الدرر جمع درة و هي كثرة اللبن و سيلانه و صبه و الأهاضيب جمع هضاب و الهضاب جمع هضب و هي حلبات القطر بعد القطر و الدفع جمع دفعة بالضم و هي كالدفقة من المطر بالضم أيضا و الشأبيب جمع شؤبوب و هي رشة قوية من المطر تنزل دفعة بشدة و البرك الصدر و بوانيهما تثنية بوان على فعال بكسر الفاء و هو عمود الخيمة و الجمع بون بالضم قال الشاعر

أصبر من ذي ضاغط عركرك

ألقى بواني زوره للمبرك

و من روى بوانيهما أراد لواصلها من قولك قوص بانية إذا التصقت بالوتر . و الرواية الأولى أصح و بعاع السحاب ثقله بالمطر قال إمرؤ القيس

و ألقى بصحراء الغبيط بعاعه

نزول اليماني بالعياب المثقل

و العباء الثقيل و استقلت ارتفعت و نهضت و هوامد الأرض هي الأرضون التي لا نبات بها و زعر الجبال جمع أزعر و المراد به قلة العشب و الخلى و أصله من الزعر و هو قلة الشعر في الرأس قال

من يك ذا لمة يرجلها
فإنني غير ضائري زعري

وقد زعر الرجل يزعر قل شعره و تبهج تسر و تفرح تقول بهجني أمر كذا بالفتح و أبهجني معا أي سرني و من رواه بضم الهاء أراد يحسن و يملح من البهجة و هي الحسن يقال بهج الرجل بالضم بهاجة فهو بهيج أي حسن قال الله تعالى **مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ** و تقول قد أبهجت الأرض بالهمزة أي بهج نباتها و حسن .

[445]

و تزدهي أي تتكبر و هي اللغة التي حكاها ابن دريد قال تقول زها الرجل يزهو زهوا أي تكبر و على هذه اللغة تقول ازدهي الرجل يزدهي كما تقول من علا اعتلى يعتلي و من رمى ارتمى يرتمي و أما من رواها و تزدهي بما ألبسته على ما لم يسم فاعله فهي اللغة المشهورة تقول زهي فلان علينا و للعرب أحرف تتكلم بها على سبيل المفعول به و إن كانت بمعنى الفاعل كقولهم عني بالأمر و نتجت الناقة فتقول على هذه اللغة فلان يزدهي بكذا . و الريط جمع ريطة و هي الملاعة غير ذات لفقين و الأزاهير النور ذو الألوان . و سمطت به علق عليها السموط جمع سمط و هو العقد و من رواه شمطت بالشين المعجمة أراد ما خالط سواد الرياض من النور الأبيض كالأقحوان و نحوه فصارت الرياض كالشعر الأشمط و الناضر ذو النضارة و هي الحسن و الطراوة . و بلاغا للأنام أي كفاية و الآفاق النواحي و المنار الأعلام

فصول متنوعة تتعلق بالخطبة

و ينبغي أن نتكلم في هذا الموضوع في فصول . الفصل الأول في كيفية ابتداء خلق الأرض . ظاهر كلام أمير المؤمنين ع أن الماء خلق قبل الأرض و قد ذكرنا فيما تقدم أنه قول لبعض الحكماء و أنه موافق لما في التوراة إلا أن في كلامه ع في هذا الموضوع إشكالا و ذلك أن لقائل أن يقول كلامه يشعر بأن هيجان الماء و غليانه و موجه

[446]

سكن بوضع الأرض عليه و هذا خلاف ما يشاهد و خلاف ما يقتضيه العقل لأن الماء الساكن إذا جعل فيه جسم ثقيل اضطرب و تموج و صعد علوا فكيف الماء المتموج يسكن بطرح الجسم الثقيل فيه . و الجواب أن الماء إذا كان تموجه من قبل ريح هانجة جاز أن يسكن هيجانه بجسم يحول بينه و بين تلك الرياح و لذلك إذا جعلنا في الإناء ماء و روحناه بمروحة تموجه فإنه يتحرك فإن جعلنا على سطح الماء جسما يملأ حافات الإناء و روحنا بالمروحة فإن الماء لا يتحرك لأن ذلك الجسم قد حال بين الهواء المجتلب بالمروحة و بين سطح الماء فمن الجائز أن يكون الماء الأول هانجا لأجل ريح محركة له فإذا وضعت الأرض عليه حال بين سطح الماء و بين تلك الرياح و قد مر في كلام أمير المؤمنين في الخطبة الأولى ذكر هذه الرياح فقال ريح اعتقم مهبها و أدام مربها و أعصف مجراها و أبعد منشأها فأمرها بتصفيق الماء الزخار و إثارة موج البحار فمخضت مخض السقاء و عصفت به عصفها بالفضاء . الفصل الثاني في بيان قوله ع فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها و حمل شواهد الجبال البذخ على أكتافها فجر ينابيع العيون فيها و عدل حركاتها بالراسيات من جلاييدها . و ذلك لأن العامل في لما يجب أن يكون أمرا مباينا لما أضيفت إليه مثاله لما قام زيد قام عمرو فقام الثانية هي العاملة في لما فيجوز أن تكون أمرا مباينا لما أضيف لما إليه و هو قيام زيد و هاهنا قد قال ع لما حمل الله تعالى شواهد الجبال على الأرض عدل حركات الأرض بالجبال و معلوم أن أحد الأمرين هو الآخر . و الجواب أنه ليس أحد الأمرين هو الآخر بعينه بل الثاني معلول الأول و موجب

[447]

عنه لأن الأول هو حمل الجبال عليها و الثاني تعديل حركاتها بالجبال المحمول عليها فكأنه قال حمل عليها الجبال فاقتضى ذلك الحمل تعديل حركاتها و معلوم أن هذا الكلام منتظم . الفصل الثالث في قوله إن الجبال هي المسكنة للأرض . فنقول إن هذا القول يخالف قول الحكماء لأن سكون الأرض عند الحكماء لم يكن لذلك بل لأنها تطلب المركز و هي حاصلة في حيزها الطبيعي لكننا و إن كان مخالفا لقول الحكماء فإننا نعتقده دينا و مذهبا و نعدل عن قول الحكماء لأن اتباع قوله ع أولى من اتباع أقوالهم . الفصل الرابع في ذكر نظائر لما وصف به المطر و السحاب . فمن ذلك ما رواه عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي عن عمه قال سئل أعرابي عن مطر فقال استقل سد مع انتشار الطفل فشصا و احزأل ثم اكفهرت أرجاؤه و احمومت ارجاؤه و انزعت فوارقه و تضاحكت بوارقه و استطار وادقه و أرسعت جوبه و ارتعن هيدبه و حسكت أخلافه و استقلت أردافه و انتشرت أكنافه فالرعد يرتجس و البرق يختلس و الماء ينبجس فأترع الغدر و أنبت الوجر و خلط الأوعال بالأجال و قرن الصيران بالرنال فلأودية هدير و للشراج خريز و للتلاع زفير و حط النبع و العنم من القتل الشم إلى القيعان الصحم فلم يبق في القتل إلا معصم

مجرثم أو داحض محرجم وذلك من فضل رب العالمين على عباده المذنبين . قلت السد السحاب الذي يسد الأفق و أصل الجبل و الطفل اختلاط الظلام و انتشاره حال غروب الشمس و شصا ارتفع و علا و احزأل انتصب و اكفهرت أرجاؤه غلظت نواحيه و جوانبه و تراكت و احمومت اسودت مع مخالطة حمرة و أرجاؤه أوساطه و انزعت تفرقت و الفوارق قطع من السحاب تتفرق عنه مثل فرق الإبل و هي النوق إذا أرادت الولادة فارقت الإبل و بعدت عنها حيث لا ترى و تضاحكت بوارقه لمعت و استطار انتشر و الوداق ذو الودق و هو مطر كبار و أسعت جوبه أي تلاعت فرجه و التحمت و ارتعن استرخى و هيدبه ما تدلى منه و حسكت أخلافه امتلأت ضروعه و أراففه مآخره و أكنافه نواحيه و يرتجس يصوت و الرجس الصوت و يختلس يستلب البصر و ينبجس ينصب فأترع الغدر ملاًها جمع غدير و أنبت الوجر حفها جمع و جار و هو بيت الضبع و الآجال جمع إجل و هو قطع البقر و الصيران مثله جمع صوار و الرنال جمع رأل و هو فرخ النعام و الهدير الصوت و الشراج جمع شرج و هو مسيل الماء إلى الحرة و خريير الماء صوته و زفير التلاع أن تزفر بالماء لفرط امتلائها و النبع شجر و العنم شجر آخر و كلاهما لا ينبت إلا في رءوس الجبال و الشم العالية و الصحم السود التي تضرب إلى الصفرة و المعصم المعتصم الملتجى و المجرثم المتقبض و الداحض الزالقي الواقع و المحرجم المصروع . و من ذلك ما رواه أبو حاتم عن الأصمعي قال سألت أعرابيا من بني عامر بن صعصعة عن مطر أصاب بلادهم فقال نشأ عارضا فطلع ناهضا ثم ابتسم و امضا فاعتن في الأقطار فأشجاها و امتد في

الآفاق فغطاها ثم ارتجس فهمهم ثم دوي فأظلم فأرك و دث و بعش و طش ثم قطقط فأفرط ثم ديم فأعطم ثم ركد فأنجم ثم وبل فسجم و جاد فأنعم فقمس الربا و أفرط الزبي سيعا تباعا يريد انقشاعا حتى إذا ارتوت الحزون و تضحضت المتون ساقه ربك إلى حيث يشاء كما جلبه من حيث شاء . قلت العارض سحاب يعترض في الأفق و اعتن اعترض و أشجاها ملاًها فكان كالشجى في حلقها و ارتجس صوت و الهمهمة صوت الرعد و دوي أحدث دويا فأظلم أعدم الضوء من الأرض بتكاتفه فأرك أي مطر ركا و الرك المطر الضعيف و كذلك الدث و البعش و الطش و فوق ذلك القطقط و ديم صار ديمة و هي المطر أياما لا يقلع و أعطم أي دام و أتجم أقام و وبل جاء بالوابل و هو المطر العظيم و سجم صب و أنعم بالغ و قمس غوص في الماء و أفرط الزبي ملاًها جمع زبية و هي حفيرة تحفر للوحوش في مكان مرتفع و الحزون جمع حزن و هو ما غلظ من الأرض و المتون جمع متن و هو الصلب من الأرض و تضحضت صار فوقها ضحضاح من الماء و هو الرقيق . و من ذلك ما رواه أبو حاتم أيضا عن الأصمعي قال سألت أعرابيا عن مطر أصابهم بعد جدب فقال ارتاح لنا ربك بعد ما استولى اليأس على الظنون و خامر القلوب القنوط فأنشأ بنوء الجبهة قرعة كالقرص من قبل العين فاحزألت عند ترجل النهار لأدهم السرار حتى إذا نهضت في الأفق طالعة أمر مسخرها الجنوب فتبسمت لها فانتشرت أحضانها و احمومت أركانها و بسق عنانها و اكفهرت رحاها و انبجعت كلاها و ذمرت

أخراها أولاهها ثم استطارت عقانقها و ارتعجت بوارقها و تعققت صواعقها ثم ارتعبت جوانبها و تداعت سواكبها و درت حوالبها فكانت للأرض طبقا شج فهضب و عم فأحسب فعل القيعان و ضحضح الغيطان و صوح الأضواج و أترع الشراج

فالحمد لله الذي جعل كفاء إساءتنا إحسانا و جزاء ظلمنا غفرانا . قلت نوع الجبهة محمود عندهم للمطر و القرعة القطعة الصغيرة من السحاب و القرص الترس و العين ما عن يمين قبلة العراق و ترجل النهار انبساط الشمس و الأدهم أحد ليالي السرار و الأحضان النواحي و احمومت اسودت و بسق علا و العنان ما يعترض من السحاب في الأفق و انبعجت انفتقت و ذمرت حضت و العقانق البروق و ارتعجت اهتزت و ارتعدت و طبقا أي غطت الأرض و هضب جاء بالمطر دفعة دفعة و أحسب كفى و عل القيعان سقاها مرة بعد أخرى و الغيطان جمع غائط و هو ما سفل من الأرض و صوح الأضواج هدم الأجواف و أترع الشراج ملاً المسيلات . و من ذلك ما رواه ابن دريد عن عبد الرحمن عن عمه الأصمعي قال سمعت أعرابيا من بني عامر يصف مطرا قال نشأ عند القصر بنوع الغفر حيا عارضا ضاحكا وامضا فكلا و لا ما كان حتى شجيت به أقطار الهواء و احتجبت به السماء ثم أطرق فاكفهر و تراكم فادلهم و بسق فازلأم ثم حدثت به الريح فخر و البرق مرتعج و الرعد مبتوج و الحدج مبتعج فأتجم ثلاثا متحيرا هتهاتا أخلافه حاشكة و دفعه متواشكة و سوامه متعاركة ثم ودع منجما و ألق متهما محمود البلاء مترع النهاء مشكور النعماء بطول ذي الكبرياء . قلت القصر العشي و الغفر من نجوم الأسد و الحيا الداني من الأرض . و قوله كلا و لا أي في زمان قصير جدا و شجيت به الأقطار صار كالتشجي لها

[451]

و ازلأم انتصب و المرتعج المتدارك و المبتوج العالي الصوت و الحدج السحاب أول ما ينشأ و يتبعج يشقق و أتجم دام متحيرا أي كأنه قد تحير لا وجه له يقصده و الهتهات المداخل و أخلافه حاشكة أي ضروعة ممتلئة و دفعه متواشكة أي مسرعة و سوامه متعاركة شبه قطع السحاب بسوام الإبل و منجما مقلعا و متهما يسير نحو تهامة

الفصل الخامس

في بيان أنه ع إمام أرباب صناعة البديع

و ذلك لأن هذا الفن لا يوجد منه في كلام غيره ممن تقدمه إلا ألفاظ يسيرة غير مقصودة و لكنها واقعة بالاتفاق كما وقع التجنيس في القرآن العزيز اتفاقا غير مقصود و ذلك نحو قوله **يا أسفى على يوسف** و كما وقعت المقابلة أيضا غير مقصودة في قوله **و السماء رفعتها و وضع الميزان** على أنها ليست مقابلة في المعنى بل من اللفظ خاصة و لما تأمل العلماء شعر امرئ القيس و وجدوا فيه من الاستعارة بيتا أو بيتين نحو قوله يصف الليل

فقلت له لما تمطى بصلبه

و أردف أعجازا و ناء بكلل

و قوله

و إن يك قد ساءتك مني خليفة

فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

و لم ينشدوا مثل ذلك في أشعار الجاهلية حكموا له بأنه إمام الشعراء و رئيسهم . و هذا الفصل من كلام أمير المؤمنين ع قد اشتمل من الاستعارة العجيبة و غيرها من أبواب البديع على ما لو كان موجودا في ديوان شاعر أكثر أو مترسل أكثر

[452]

لكان مستحق التقديم بذلك أ لا تراه كيف وصف الأمواج بأنها مستفحلة و أنها ترغو رغاء فحول الإبل ثم جعل الماء جماحا ثم وصفه بالخضوع و جعل للأرض كلكلا و جعلها واطنة للماء به و وصف الماء بالذل و الاستخذاء لما جعل الأرض متمعة عليه كما يتمك الحمار أو الفرس و جعل لها كواهل و جعل للذل حكمة و جعل الماء في حكمة الذل منقادا أسيرا و ساجيا مقهورا و جعل الماء قد كان ذا نخوة و بأو و اعتلاء فردته الأرض خاضعا مسكينا و طأطأت من شموخ أنفه و سمو غلوانه و جعلها كاعمة له و جعل الماء ذا كظلة بامتلائه كما تعتري الكظة المستكثر من الأكل ثم جعله هامدا بعد أن كانت له نزقات و لا بدا بعد أن كانت له وثبات ثم جعل للأرض أكتافا و عرائين و أنوفا و خياشيم ثم نفى النوم عن وميض البرق و جعل الجنوب مارية درر السحاب ثم جعل للسحاب صدرا و يوانا ثم جعل الأرض مبتهجة مسرورة مزدهاة و جعل لها ريطا من لباس الزهور و سموطا تحلى بها فيا لله و للعجب من قوم زعموا أن الكلام إنما يفضل بعضه بعضا لاشتماله على أمثال هذه الصنعة فإذا وجدوا في مانه ورقة كلمتين أو ثلاثا منها أقاموا القيامة و نفخوا في الصور و ملنوا الصحف بالاستحسان لذلك و الاستظراف ثم يمرون على هذا الكلام المشحون كله بهذه الصنعة على أطف وجه و أرصع وجه و أرشق عبارة و أدق معنى و أحسن مقصد ثم يحملهم الهوى و العصبية على السكوت عن تفضيله إذا أجملوا و أحسنوا و لم يتعصبوا لتفضيل غيره عليه على أنه لا عجب فإنه كلام علي ع و حظ الكلام حظ المتكلم و أشبه امرأ بعض بزه

